تهذيب
شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

العَلَّامة صَدْر الدِّين علي بن علي بن محمد بن أبي العِزِّ الحنفيِّ

المتوفي سَنَة ٧٩٢هـ

هذبه وحققه وخرج أحاديثه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

تهذيب
شرح العقيدة الطحاوية

١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٨/٧٦٥١

مكتبة

فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي ـ عزبة عقل

ت: ٢٢٦٧٣٩٨ / ٠٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أَمَّا بَعْدُ :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثةٍ بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١]

وبعد :

فهذا تهذيب واختصار لكتاب شرح العقيدة الطحاوية ، ذلكم الكتاب الذي صنفه الإمام ابن أبي العز الحنفي شارحًا فيه كتاب العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفرٍ الطحاوي ـ رحمه الله تعالى ـ ولما كان كتاب العقيدة الطحاوية كتابًا قد حظي بالقبول عند كثيرٍ من أهل العلم ، وذلك لكونه مصنفه أورد فيه ما يُحتاج إليه من أمور الاعتقاد وسار في ذلك على نهج أهل السنة والجماعة في جُلِّ أبوابه

مبينًا معتقدهم في التوحيد ومعتقدهم في الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر ، وتضمن أيضًا ردودًا على أهل البدع وطوائفهم فلذلك قمت بتخريج الأحاديث والآثار الواردة في هذا الكتاب والحكم عليها بما تستحقه صحة وضعفًا ونشر ذلك في طبعة أصدرتها دار ابن رجب للنشر والتوزيع ، ولم أكن هنالك تعقبت الأمور التي زلت فيها قدم الإمام الطحاوي ـ رحمه الله تعالى ـ ولا علَّقت بشيء .

فها هنا عمدت إلى اختصارٍ وتهذيبٍ لكتاب شرح العقيدة الطحاوية فحذفت بعض المسائل والردود والاسترسالات التي لا يحتاج إليها طلبة العلم المبتدئون ، والتي أُخذت من أقوال المتكلمين ومن الردود عليهم ، فثمَّ استرسالات وردودٌ لا فائدة منها ولا نفع من وراء الجهد المبذول في فهمها ، فضلًا عن إثارتها والانشغال بها .

ثم إنني أيضًا علقت هنا على المواطن التي تحتاج إلى تعليق وسواء كانت أقوالًا للإمام الطحاوي ـ رحمه الله تعالى ـ أو لشارح كتابه ابن أبي العز ـ رحمه الله تعالى .

أما عن التخريج فقد اقتصدت فيه بما يؤدي الغرض ، وكذا لم أتوسع في بيان سبب الحكم الذي حكمت به على الأحاديث أو الآثار ، فمن أراد توسعًا في التخريج فليرجع إلى طبعة دار ابن رجب التي قمت بتحقيقها .

هذا ، وما كان من صوابٍ في هذا العمل فمن الله وحده فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وما كان من خطأ وزلل فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله منه .

هذا ، وبين يدي العمل ترجمة موجزةٌ للإمامين الطحاوي ، وابن أبي العز ـ رحمها الله ـ وأكرم مثواهما ونفع بكتابهما .

وصل اللهم على نبينا محمد وسلم والحمد لله رب العالمين .

كتبه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

ترجمة الإمام الطحاوي

هو الإمام العلامة الحافظ الكبير ، محدث الديار المصرية وفقيهها ، أبو جعفر أحمد ابن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك ، الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي ، صاحب التصانيف من أهل قرية طحا من أعمال مصر ، مولده تسع وثلاثين ومئتين .

وسمع من : عبد الغني بن رفاعة ، وهارون بن سعيد الأيلي ، ويونس ابن عبد الأعلى ، وبحر بن نصر الخولاني ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وعيسى بن مثرود .

وبرز في علم الحديث وفي الفقه ، وتفقه بالقاضي أحمد بن أبي عمران الحنفي ، وجمع وصنف .

حدث عنه : يوسف بن القاسم الميانجي ، وأبو القاسم الطبراني ، ومحمد بن بكر بن مطروح ، وأحمد بن القاسم الخشاب ، وخلق سواهم من الدماشقة والمصريين والرحالين في الحديث .

وارتحل إلى الشام في سنة ثمان وستين ومئتين ، فلقي القاضي أبا خازم ، وتفقه أيضًا عليه ، وتوفي ـ رحمه الله ـ بمصر (٣٢١هـ) ودفن بالقرافة [١] .

الناشر

*****

(١) انظر : السير (١٥/ ٢٧) .

ترجمة ابن أبي العز

اسمه ونسبه :

هو العلامة صدر الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ولد سنة (٧٣١هـ).

طلبه العم :

اشتغل بالعلوم فترة طويلة ، وكان ماهرًا جدًّا ، حتى ولي قضاء مصر ثم استعفى من القضاء ورجع إلى دمشق ، ولقد انتهت رياسة المذهب الحنفي إليه .

ولقد ذكر العلامة الفوزان حفظه الله أن ابن أبي العز رحمه الله فيما يبدو من تلاميذ ابن كثير .

مصنفاته :

١ ـ التنبيه على مشكلات الهداية .

٢ ـ النور اللامع فيما يعمل به في الجوامع .

٣ ـ شرح العقيدة الطحاوية وهو كتابنا .

وفاته :

رحمه الله

الناشر

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

حسبي الله ونعم الوكيل

الْحَمْدُ لله ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ الله ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ ، فَلَا هَادِيَ لَهُ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وَأَشْهَدُ أن سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أمَا بعدُ :

فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ عِلْمُ أُصُولِ الدِّينِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ ، إِذْ شَرَفُ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ ، وَهُوَ الْفِقْهُ الْأَكْبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِقْهِ الْفُرُوعِ ، وَلِهَذَا سَمَّى الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ـ رَحْمَةُ الله عَلَيْهِ ـ مَا قَالَهُ وَجَمَعَهُ فِي أَوْرَاقٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ : « الْفِقْهَ الْأَكْبَرَ » وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ حَاجَةٍ ، وَضَرُورَتُهُمْ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ لِلْقُلُوبِ ، وَلَا نَعِيمَ وَلَا طُمَأْنِينَةَ ، إِلَّا بِأَنْ تَعْرِفَ رَبَّهَا وَمَعْبُودَهَا وَفَاطِرَهَا ، بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَيَكُون مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِمَّا سِوَاهُ ، وَيَكُون سَعْيُهَا فِيمَا يُقَرِّبُهَا إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ .

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ تَسْتَقِلَّ الْعُقُولُ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَإِدْرَاكِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ ، فَاقْتَضَتْ رَحْمَةُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أَنْ بَعَثَ الرُّسُلَ بِهِ مُعَرِّفِينَ ، وَإِلَيْهِ دَاعِينَ ، وَلِمَنْ أَجَابَهُمْ مُبَشِّرِينَ ، وَلِمَنْ خَالَفَهُمْ مُنْذِرِينَ ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَ دَعْوَتِهِمْ ، وَزُبْدَةَ رِسَالَتِهِمْ ، مَعْرِفَةَ الْمَعْبُودِ سُبْحَانَهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، إِذْ عَلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ تُبْنَى مَطَالِبُ الرِّسَالَةِ كُلِّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا .

ثُمَّ يَتْبَعُ ذَلِكَ أَصْلَانِ عَظِيمَانِ :

أَحَدُهُمَا : تَعْرِيفُ الطَّرِيقِ الْمُوصِّلِ إِلَيْهِ ، وَهِيَ شَرِيعَتُهُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

وَالثَّانِي : تَعْرِيفُ السَّالِكِينَ مَا لَهُمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

فَأَعْرَفُ النَّاسِ بِالله ﷻ أَتْبَعُهُمْ لِلطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ، وَأَعْرَفُهُمْ بِحَالِ السَّالِكِينَ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا سَمَّى الله مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ رُوحًا، لِتَوَقُّفِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَلَيْهِ، وَنُورًا لِتَوَقُّفِ الْهِدَايَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣]، فَلَا رُوحَ إِلَّا فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا نُورَ إِلَّا فِي الِاسْتِضَاءَةِ بِهِ.

وَهُوَ الشِّفَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ هُدًى وَشِفَاءً مُطْلَقًا لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمُنْتَفِعُ بِذَلِكَ هُمُ الْمُؤْمِنِينَ، خُصُّوا بِالذِّكْرِ.

وَاللهُ تَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَلَا هُدَى إِلَّا فِيمَا جَاءَ بِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ إِيمَانًا عَامًّا مُجْمَلًا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَى التَّفْصِيلِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي تَبْلِيغِ مَا بَعَثَ الله بِهِ رَسُولَهُ، وَدَاخِلٌ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَعَقْلِهِ وَفَهْمِهِ، وَعِلْمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَحِفْظِ الذِّكْرِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والدُّعَاءِ إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْمُجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ مِنْهُمْ.

وَأَمَّا مَا يَجِبُ عَلَى أَعْيَانِهِمْ، فَهَذَا يَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ قُدَرِهِمْ، وَحَاجَاتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ، وَمَا أُمِرَ بِهِ أَعْيَانُهُمْ، وَلَا يَجِبُ عَلَى الْعَاجِزِ عَنْ سَمَاعِ بَعْضِ الْعِلْمِ، أَوْ عَنْ فَهْمِ دَقِيقِهِ مَا يَجِبُ عَلَى الْقَادِرِ عَلَى ذَلِكَ.

وَيَجِبُ عَلَى مَنْ سَمِعَ النُّصُوصَ ، وَفَهِمَهَا مِنْ عِلْمِ التَّفْصِيلِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، وَيَجِبُ عَلَى الْمُفْتِي والْمُحَدِّثِ وَالْحَاكِمِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ عَامَّةَ مَنْ ضَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ ، أَوْ عَجَزَ فِيهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ ، فَإِنَّمَا هُوَ لِتَفْرِيطِهِ فِي اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَتَرْكِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ الْمُوَصِّلِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ ، ضَلُّوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣-١٢٦].

وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ دِينًا يَدِينُونَ به ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِدِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْعِبَادُ ، إِلَّا مَا وَصَفَهُ بِهِ الْمُرْسَلُونَ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصَّافَّاتِ: ١٨٠-١٨٢] ، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْكَافِرُونَ ، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، لِسَلَامَةِ مَا وَصَفُوهُ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ ، ثُمَّ حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالْأَوْصَافِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا كَمَالَ الْحَمْدِ .

وَمَضَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ خَيْرُ الْقُرُونِ ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، يُوصِي بِهِ الْأَوَّلُ الْآخِرَ وَيَقْتَدِي فِيهِ اللَّاحِقُ بِالسَّابِقِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ مُقْتَدُونَ ، وَعَلَى مِنْهَاجِهِ سَالِكُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وَقَدْ بَلَّغَ الرَّسُولُ ﷺ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ ، وَأَوْضَحَ الْحُجَّةَ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ ، ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَافْتَرَقُوا ، فَأَقَامَ اللهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْهَا أُصُولَ دِينِهَا ، كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ (١) : «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**» .

وَمِمَّنْ قَامَ بِهَذَا الْحَقِّ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ : الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامَةَ الْأَزْدِيُّ الطَّحَاوِيُّ ، تَغَمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ، بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ ، فَإِنَّ مَوْلِدَهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَوَفَاتَهُ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِ مِئَةٍ .

فَأَخْبَرَ رَحِمَهُ اللهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ ، وَنَقَلَ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الْكُوفِيِّ ، وَصَاحِبَيْهِ : أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحِمْيَرِيِّ الْأَنْصَارِيِّ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ رضي الله عنهم مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَه مِنْ أُصُولِ الدِّينِ ، وَيَدِينُونَ بِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

وَكُلَّمَا بَعُدَ الْعَهْدُ ، ظَهَرَتِ الْبِدَعُ ، وَكَثُرَ التَّحْرِيفُ الَّذِي سَمَّاهُ أَهْلُهُ « تَأْوِيلًا » لِيُقْبَلَ ، وَقَلَّ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ ، إِذْ قَدْ سُمِّيَ صَرْفُ الْكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى مَعْنًى آخَرَ يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ فِي الْجُمْلَةِ تَأْوِيلًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ قَرِينَةٌ تُوجِبُ ذَلِكَ ، وَمِنْ هُنَا حَصَلَ الْفَسَادُ ، فَإِذَا سَمَّوْهُ تَأْوِيلًا قُبِلَ وَرَاجَ عَلَى مَنْ لَا يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا .

فَاحْتَاجَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى إِيضَاحِ الْأَدِلَّةِ ، وَدَفْعِ الشُّبَهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهَا ، وَكَثُرَ الْكَلَامُ وَالشَّغَبُ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ إِصْغَاؤُهُمْ إِلَى شُبَهِ الْمُبْطِلِينَ ، وَخَوْضُهُمْ فِي الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ الَّذِي عَابَهُ السَّلَفُ ، وَنَهَوْا عَنِ النَّظَرِ فِيهِ ، وَالِاشْتِغَالِ بِهِ ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِمْ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ

---

(١) صحيح : وهو بهذا اللفظ عند مسلم في « صحيحه » (حديث ١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا ، وللحديث طرق عن عدة من أصحاب النبي ﷺ مرفوعًا بألفاظ متقاربة في « الصحيحين » وغيرهما .

انظر : البخاريّ (٣٦٤٠، ٧٣١١، ٧٣١٢) ، ومسلم (ص ١٥٢٣) .

ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فَإِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ يَشْمَلُهُمْ.

وَكُلٌّ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالِانْحِرَافِ عَلَى مَرَاتِبَ: فَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا، وَقَدْ يَكُونُ فِسْقًا، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً، وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً.

فَالْوَاجِبُ اتِّبَاعُ الْمُرْسَلِينَ، وَاتِّبَاعُ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ خَتَمَهُمُ اللهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَجَعَلَهُ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ، وَجَعَلَ كِتَابَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كُتُبِ السَّمَاءِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَجَعَلَ دَعْوَتَهُ عَامَّةً لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ - الْجِنِّ وَالْإِنْسِ - بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَانْقَطَعَتْ بِهِ حُجَّةُ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكْمَلَ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ الدِّينَ خَبَرًا وَأَمْرًا، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَةً لَهُ، وَمَعْصِيَتَهُ مَعْصِيَةً لَهُ، وَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوهُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ الدُّعَاءُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ صَدُّوا صُدُودًا، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا.

وكَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ: إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُحِسَّ الْأَشْيَاءَ بِحَقِيقَتِهَا، أَيْ: نُدْرِكَهَا وَنَعْرِفَهَا، وَنُرِيدُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الدَّلَائِلِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْعَقْلِيَّاتِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ: جَهْلِيَّاتٌ، وَبَيْنَ الدَّلَائِلِ النَّقْلِيَّةِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ الرَّسُولِ، أَوْ نُرِيدُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْفَلْسَفَةِ.

وَكَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ، مِنَ الْمُتَنَسِّكَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ: إِنَّمَا نُرِيدُ الْأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الْحَسَنِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَبَيْنَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ: حَقَائِقَ، وَهِيَ جَهْلٌ وَضَلَالٌ.

وَكَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَمَلِّكَةِ وَالْمُتَأَمِّرَةِ: إِنَّمَا نُرِيدُ الْإِحْسَانَ بِالسِّيَاسَةِ الْحَسَنَةِ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وكُلُّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يُحَكِّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ غَيْرَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ ، وَأَنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ مَا يُخَالِفُهُ ، فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَافٍ كَامِلٌ ، يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ حَقٍّ ، وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّقْصِيرُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَعْلَمُوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَلَامِيَّةِ الِاعْتِقَادِيَّةِ ، وَلَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْعِبَادِيَّةِ ، وَلَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْإِمَارَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، أَوْ نَسَبُوا إِلَى شَرِيعَةِ الرَّسُولِ بِظَنِّهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ مَا لَيْسَ مِنْهَا ، وَأَخْرَجُوا عَنْهَا كَثِيرًا مِمَّا هُوَ مِنْهَا .

فَبِسَبَبِ جَهْلِ هَؤُلَاءِ وَضَلَالِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ ، وبسبب عُدْوَانِ أُولَئِكَ وَجَهْلِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ ، كَثُرَ النِّفَاقُ ، وَدَرَسَ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الرِّسَالَةِ .

بَلِ الْبَحْثُ التَّامُّ ، وَالنَّظَرُ الْقَوِيُّ ، وَالِاجْتِهَادُ الْكَامِلُ ، فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، لِيُعْلَمَ وَيُعْتَقَدَ ، وَيُعْمَلَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَيَكُونَ قَدْ تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَأَنْ لَا يُهْمَلَ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ عَاجِزًا عَنْ مَعْرِفَةِ بَعْضِ ذَلِكَ ، أَوِ الْعَمَلِ بِهِ ، فَلَا يَنْهَى عَمَّا عَجَزَ عَنْهُ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، بَلْ حَسْبُهُ أَنْ يَسْقُطَ عَنْهُ اللَّوْمُ لِعَجْزِهِ ، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْرَحَ بِقِيَامِ غَيْرِهِ بِهِ ، وَيَرْضَى بِذَلِكَ ، وَيَوَدَّ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِهِ ، وَأَنْ لَا يُؤْمِنَ بِبَعْضِهِ وَيَتْرُكَ بَعْضَهُ ، بَلْ يُؤْمِنُ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَأَنْ يُصَانَ عَنْ أَنْ يُدْخِلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، مِنْ رِوَايَةٍ أَوْ رَأْيٍ ، أَوْ يَتَّبِعَ مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، اعْتِقَادًا أَوْ عَمَلًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢].

وَهَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَهِيَ طَرِيقَةُ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُهُمُ السَّلَفُ الْقَدِيمُ مِنَ التَّابِعِينَ الْأَوَّلِينَ ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الدِّينِ الْمَشْهُودُ لَهُمْ عِنْدَ الْأُمَّةِ الْوَسَطِ بِالْإِمَامَةِ .

فَعَنْ أَبِي يُوسُفَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ أَنَّهُ قَالَ لِبِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ: الْعِلْمُ بِالْكَلَامِ هُوَ الْجَهْلُ ،

وَالْجَهْلَ بِالْكَلَامِ هُوَ الْعِلْمُ ، وَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ رَأْسًا فِي الْكَلَامِ ، قِيلَ : زِنْدِيقٌ ، أَوْ رُمِيَ بِالزَّنْدَقَةِ .

أَرَادَ بِالْجَهْلِ بِهِ اعْتِقَادَ عَدَمِ صِحَّتِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ عِلْمٌ نَافِعٌ ، أَوْ أَرَادَ بِهِ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ ، وَتَرْكَ الِالْتِفَاتِ إِلَى اعْتِبَارِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَصُونُ عِلْمَ الرَّجُلِ وَعَقْلَهُ ، فَيَكُونُ عِلْمًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ ، وَيُقَالُ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ .

وَقَالَ أَيْضًا ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إِلَّا الْحَدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ

الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا ... وَمَا سِوَى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

فكيف يُرَامُ الوصولُ إلى علم الأُصول ، بغير اتباع ما جاء به الرسول ؟!

وَنَبِيُّنَا ﷺ أُوتِيَ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ ، فَبُعِثَ بِالْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ وَالْعُلُومِ الْأَوَّلِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ ، وَلَكِنْ كُلَّمَا ابْتَدَعَ شَخْصٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا ، فَلِذَلِكَ صَارَ كَلَامُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَثِيرًا ، قَلِيلَ الْبَرَكَةِ ، بِخِلَافِ كَلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَإِنَّهُ قَلِيلٌ كَثِيرُ الْبَرَكَةِ ، لَا كَمَا يَقُولُهُ ضُلَّالُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَجَهَلَتُهُمْ : إِنَّ طَرِيقَةَ الْقَوْمِ أَسْلَمُ ، وَإِنَّ طَرِيقَتَنَا أَحْكَمُ وَأَعْلَمُ . وَكَمَا يَقُولُهُ مَنْ لَمْ يُقَدِّرْهُمْ قَدْرَهُمْ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْفِقْهِ : إِنَّهُمْ لَمْ يَتَفَرَّغُوا لِاسْتِنْبَاطِهِ وَضَبْطِ قَوَاعِدِهِ وَأَحْكَامِهِ اشْتِغَالًا مِنْهُمْ بِغَيْرِهِ ! وَالْمُتَأَخِّرُونَ تَفَرَّغُوا لِذَلِكَ ، فَهُمْ أَفْقَهُ !!

فَكُلُّ هَؤُلَاءِ مَحْجُوبُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِ السَّلَفِ ، وَعُمْقِ عُلُومِهِمْ ، وَقِلَّةِ تَكَلُّفِهِمْ ، وَكَمَالِ بَصَائِرِهِمْ . وَتَاللهِ مَا امْتَازَ عَنْهُمُ الْمُتَأَخِّرُونَ إِلَّا بِالتَّكَلُّفِ وَالِاشْتِغَالِ بِالْأَطْرَافِ الَّتِي كَانَتْ هِمَّةُ الْقَوْمِ مُرَاعَاةَ أُصُولِهَا ، وَضَبْطَ قَوَاعِدِهَا ،

وَشَدَّ مَعَاقِدِهَا ، وَهِمَمُهُمْ مُشَمَّرَةٌ إِلَى المَطَالِبِ الْعَالِيَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَالْمُتَأَخِّرُونَ فِي شَأْنٍ ، وَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ آخَرَ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

وَقَدْ شَرَحَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعْضَ الشَّارِحِينَ قَدْ أَصْغَى إِلَى أَهْلِ الْكَلَامِ المَذْمُومِ ، وَاسْتَمَدَّ مِنْهُمْ ، وَتَكَلَّمَ بِعِبَارَاتِهِمْ .

وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْرَحَهَا سَالِكًا طَرِيقَ السَّلَفِ فِي عِبَارَاتِهِمْ ، وَأَنْسُجَ عَلَى مِنْوَالِهِمْ ، مُتَطَفِّلًا عَلَيْهِمْ ، لَعَلِّي أَنْ أُنْظَمَ فِي سِلْكِهِمْ ، وَأُدْخَلَ فِي عِدَادِهِمْ ، وَأُحْشَرَ فِي زُمْرَتِهِمْ : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النِّسَاءِ: ٦٩].

وَلَمَّا رَأَيْتُ النُّفُوسَ مَائِلَةً إِلَى الاخْتِصَارِ ، آثَرْتُهُ عَلَى التَّطْوِيلِ وَالإِسْهَابِ : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

*****

قَوْلُهُ : « نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ الله مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ الله : إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ » .

ش : اعْلَمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللهِ ﷻ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] . وَقَالَ هُودٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وَقَالَ صَالِحٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وَقَالَ شُعَيْبٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] . وَقَالَ ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ،

وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ »[(١)] .

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، لَا النَّظَرُ ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ ، وَلَا الشَّكُّ ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ ، بَلْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ الشَّهَادَتَانِ ، وَمُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ الْبُلُوغِ لَمْ يُؤْمَرْ بِتَجْدِيدِ ذَلِكَ عَقِيبَ بُلُوغِهِ .

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ مَا يُدْخَلُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَآخِرُ مَا يُخْرَجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ[(٢)] : « **مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ** » . وَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ وَآخِرُ وَاجِبٍ .

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ ، أَعْنِي : تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ :

أَحَدُهَا : الْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ .

وَالثَّانِي : **تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ** ، وَبَيَانُ : أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ .

وَالثَّالِثُ : تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ ، وَهُوَ اسْتِحْقَاقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

أَمَّا الْأَوَّلُ : فَإِنَّ نُفَاةَ الصِّفَاتِ أَدْخَلُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ ، كَالْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَمَنْ وَافَقَهُ ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ يَسْتَلْزِمُ تَعَدُّدَ

---

(١) صحيح : وقد أخرجه البخاري (حديث ٢٥) ، ومسلم (حديث ٢٢) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

(٢) صحيح لشواهده : وهو باللفظ المشار إليه عند أبي داود (٣١١٦) وغيره من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وفي بعض رجال إسناده كلام يسير ، لكن للحديث شواهد ، منها ما أخرجه مسلم في « صحيحه » (مع النووي ٢/ ٩٤) ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ** » ، وشواهد أُخر .

الْوَاجِبِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ لَا يُتَصَوَّرُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ ، وَإِنَّمَا الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ الْمُحَالَ وَيَتَخَيَّلُهُ ، وَهَذَا غَايَةُ التَّعْطِيلِ .

وَهَذَا الْقَوْلُ قَدْ أَفْضَى بِقَوْمٍ إِلَى الْقَوْلِ بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ ، وَهُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُفْرِ النَّصَارَى ، فَإِنَّ النَّصَارَى خَصُّوهُ بِالْمَسِيحِ ، وَهَؤُلَاءِ عَمُّوا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا التَّوْحِيدِ (١) : أَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ كَامِلُو الْإِيمَانِ ، عَارِفُونَ بِاللهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

وَمِنْ فُرُوعِهِ : أَنَّ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوا اللهَ لَا غَيْرَهُ .

وَمِنْ فُرُوعِهِ : أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ بَيْنَ الْأُمِّ وَالْأُخْتِ وَالْأَجْنَبِيَّةِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ وَالزِّنَى وَالنِّكَاحِ ، الْكُلُّ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ ، لَا بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ .

وَمِنْ فُرُوعِهِ : أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا عَلَى النَّاسِ ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَأَمَّا الثَّانِي : وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ ، كَالْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَهُوَ الْغَايَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ .

وَهَذَا التَّوْحِيدُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى نَقِيضِهِ طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ ، بَلِ الْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِهَا مَفْطُورَةً عَلَى الْإِقْرَارِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ، كَمَا قَالَتِ الرُّسُلُ عليهم السلام فِيمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم ١٠] .

---

(١) يعني : ومن لوازم هذا الاعتقاد الذي اعتقده الجهم بن صفوان ومن وافقه .

وَأَشْهَرُ مَنْ عُرِفَ تجاهُلُهُ وَتَظَاهُرُهُ بِإِنْكَارِ الصَّانِعِ (١) : فِرْعَوْنُ ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيْقِنًا بِهِ فِي الْبَاطِنِ ، كَمَا قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢] . وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ قَوْمِهِ : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]. وَلِهَذَا قَالَ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ لَهُ تجاهُلَ الْعَارِفِ ، قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٤-٢٨].

وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَمَاثِلَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ ، فَإِنَّ الثَّنَوِيَّةَ - مِنَ الْمَجُوسِ - وَالْمَانَوِيَّةَ الْقَائِلِينَ بِالْأَصْلَيْنِ : النُّورِ وَالظُّلْمَةِ ، وَأَنَّ الْعَالَمَ صَدَرَ عَنْهُمَا : مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ النُّورَ خَيْرٌ مِنَ الظُّلْمَةِ ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ ، وَأَنَّ الظُّلْمَةَ شِرِّيرَةٌ مَذْمُومَةٌ ، وَهُمْ مُتَنَازِعُونَ فِي الظُّلْمَةِ : هَلْ هِيَ قَدِيمَةٌ أَوْ مُحْدَثَةٌ ؟ فَلَمْ يُثْبِتُوا رَبَّيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ .

وَأَمَّا النَّصَارَى الْقَائِلُونَ بِالتَّثْلِيثِ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا لِلْعَالَمِ ثَلَاثَةَ أَرْبَابٍ يَنْفَصِلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، بَلْ هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ ، وَيَقُولُونَ : بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ .

وَقَوْلُهُمْ فِي التَّثْلِيثِ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ ، وَقَوْلُهُمْ فِي الْحُلُولِ أَفْسَدُ مِنْهُ ، وَلِهَذَا كَانُوا مُضْطَرِبِينَ فِي فَهْمِهِ ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ ، لَا يَكَادُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِمَعْنًى مَعْقُولٍ ، وَلَا يَكَادُ اثْنَانِ يَتَّفِقَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : هُوَ وَاحِدٌ بِالذَّاتِ ، ثَلَاثَةٌ بِالْأُقْنُومِ . وَالْأَقَانِيمُ يُفَسِّرُونَهَا تَارَةً بِالْخَوَاصِّ ، وَتَارَةً بِالصِّفَاتِ ، وَتَارَةً

(١) كلمة الصانع هذه تتكرر كثيرًا في حق الله ﷻ ولم أقف لها على دليل صحيح من الكتاب أو السنة ، إلا أن السنة فيها : «**إن الله خلق كل صانع وصنعته**» .

بِالْأَشْخَاصِ . وَقَدْ فَطَرَ الله الْعِبَادَ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ .

وَفِي الْجُمْلَةِ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّهُ لَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ مَنْ يُثْبِتُ لِلْعَالَمِ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

وَدَلِيلِ التَّمَانُعِ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ فَعِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا مِثْلَ : أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَالآخَرُ تَسْكِينَهُ ، أَوْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا إِحْيَاءَهُ ، وَالْآخَرُ : إِمَاتَتَهُ ، فَإِمَّا أَنْ يَحْصُلَ مُرَادُهُمَا ، أَوْ مُرَادُ أَحَدِهِمَا ، أَوْ لَا يَحْصُلُ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَالْأَوَّلُ : مُمْتَنِعٌ ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ ، وَالثَّالِثُ : مُمْتَنِعٌ ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ خُلُوُّ الْجِسْمِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ ، وَيَسْتَلْزِمُ أَيْضًا عَجْزَ كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا ، وَإِذَا حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ ، كَانَ هَذَا هُوَ الْإِلَهَ الْقَادِرَ ، وَالْآخَرُ عَاجِزًا لَا يَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ .

وَلَمْ يكن المشركون يَعْتَقِدُونَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُشَارِكَةٌ لله فِي خَلْقِ الْعَالَمِ ، بَلْ كَانَ حَالُهُمْ فِيهَا كَحَالِ أَمْثَالِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَمِ مِنَ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ وَغَيْرِهِمْ ، تَارَةً يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ تَمَاثِيلُ قَوْمٍ صَالِحِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَى الله ، وَهَذَا كَانَ أَصْلَ شِرْكِ الْعَرَبِ ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] . وَقَدْ ثَبَتَ فِي « **صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ** » ، وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ ، وَقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهَا ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ : أَنَّ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا مَاتُوا ، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَعَبَدُوهُمْ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِعَيْنِهَا صَارَتْ إِلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، ذَكَرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما (١) قَبِيلَةً قَبِيلَةً .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي « **صَحِيحِ مُسْلِمٍ** » عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ ، قَالَ : قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٠) وهو من المنتقد على البخاري ، انظر : مقدمة الفتح (ص ٣٧٤) .

أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! «**أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ**»(١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا(٢).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَذُكِرَ لَهُ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»(٤).

وَمِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ: عِبَادَةُ الْكَوَاكِبِ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ بِحَسَبِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِلْكَوَاكِبِ مِنْ طِبَاعِهَا، وَشِرْكُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ كَانَ فِيمَا يُقَالُ مِنْ هَذَا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٩٦٩) وفي رواية أخرى لمسلم أيضًا: «ولا صورة إلا طمستها».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ١٣٣٠)، ومسلم (حديث ٥٢٩) من حديث عائشة ﷺ عن النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (حديث ٥٣٢) من حديث جُنْدَبٌ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

الْبَابِ . وَكَذَلِكَ الشِّرْكُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ لَهُمْ .

وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ (١) ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ ، وَلَكِنِ اتَّخَذُوا هَذِهِ الْوَسَائِطَ شُفَعَاءَ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

وَكَذَلِكَ كَانَ حَالُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ، كَمَا حَكَى الله تَعَالَى فِي قِصَّةِ صَالِحٍ ﷺ عَنِ التِّسْعَةِ رهْطِ الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِالله ، أَيْ : تَحَالَفُوا بِالله ، لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ . فَهَؤُلَاءِ الْمُفْسِدُونَ الْمُشْرِكُونَ تَحَالَفُوا بِالله على قَتْلِ نَبِيِّهِمْ وَأَهْلِهِ ، وَهَذَا بَيِّن أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِالله إِيمَانَ الْمُشْرِكِينَ .

فَعُلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الْمَطْلُوبَ : هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] .

وَقَالَ ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » (٢) وَلَا يُقَالُ : إِنَّ مَعْنَاهُ يُولَدُ سَاذِجًا لَا يَعْرِفُ تَوْحِيدًا وَلَا شِرْكًا ، كَمَا قَالَه بَعْضُهُمْ لما تلونا . وَلِقَوْلِهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ : «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ،

---

(١) الأولى : اتقاء هذا اللفظ فيما يُعبر به عن الله ﷻ .

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٥٩) وفي عدة مواضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٦٥٨).

فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ »(١) الْحَدِيثَ .

وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، حَيْثُ قَالَ : « **يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ** » وَلَمْ يَقُلْ : وَيُسْلِمَانِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « **يُولَدُ عَلَى الْمِلَّةِ** » وَفِي أُخْرَى : « **عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ** »(٢) .

وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ ﷺ هُوَ الَّذِي تَشْهَدُ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ بِصِدْقِهِ :

فَلَوْ أَقَرَّ رَجُلٌ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، الَّذِي يُقِرُّ بِهِ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ ، وَيَفْنَى فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ ، وَيَجْعَلُونَهُ غَايَةَ السَّالِكِينَ ، كَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ « مَنَازِلِ السَّائِرِينَ » وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ وَحْدَهُ ، وَيَتَبَرَّأْ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، كَانَ مُشْرِكًا مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التَّوْحِيدِ ، وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ : أَنَّهُ يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ ، فَيَجْعَلُ الْأَوَّلَ دَلِيلًا عَلَى الثَّانِي ، إِذْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ [فِي] الْأَوَّلِ ، وَيُنَازِعُونَ فِي الثَّانِي ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ [وحده] ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ، وَتَجْعَلُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ الآيات [النمل: ٥٩، ٦٠].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٨٦٥) من حديث عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ مرفوعًا.

(٢) في لفظ لمسلم (ص٢٠٤٨) : « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ** » ، وفي آخر عند مسلم أيضًا (٢٠٤٨): « **إِلاَّ عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ** ».

يَقُولُ الله تَعَالَى فِي آخِرِ كُلِّ آيَةٍ : ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَإِلَهٌ مَعَ الله فَعَلَ هَذَا ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ ، يَتَضَمَّنُ نَفْيَ ذَلِكَ ، وَهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ غَيْرُ الله ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، وَلَيْسَ المَعْنَى اسْتِفْهَامٌ : هَلْ مَعَ الله إِلَهٌ ؟ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُهُمْ ؛ لِأَنَّ هَذَا المَعْنَى لَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ الْكَلَامِ ، وَالْقَوْمُ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ [النمل: ١٩] . وَكَانُوا يَقُولُونَ : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] . لَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّ مَعَهُ إِلَهًا(١) : ﴿ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل:٦١] ، بَلْ هُمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّ الله وَحْدَهُ فَعَلَ هَذَا ، وَهَكَذَا سَائِرُ الْآيَاتِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١] ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [الأنعام:٤٦] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

ولما كَانَ هَذَا الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مَوْجُودًا فِي بعض النَّاسِ ، بَيَّنَ الْقُرْآنُ بُطْلَانَهُ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١] . فَتَأَمَّلْ هَذَا الْبُرْهَانَ الْبَاهِرَ ، بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزِ الظَّاهِرِ ، فَإِنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا فَاعِلًا ، يُوصِلُ إِلَى عَابِدِهِ النَّفْعَ ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ الضُّرَّ ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ إِلَهٌ آخَرُ يُشْرِكُهُ فِي مُلْكِهِ ، لَكَانَ لَهُ خَلْقٌ وَفِعْلٌ ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَرْضَى تِلْكَ الشَّرِكَةَ ، بَلْ إِنْ قَدَرَ عَلَى قَهْرِ ذَلِكَ الشَّرِيكِ ، وَتَفَرُّدِهِ بِالْمُلْكِ وَالْإِلَهِيَّةِ دُونَهُ فَعَلَ ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ،

---

(١) يبدو أن الصواب خالقا أي لكنهم ما كانوا يقولون إن معه خالقًا .

انْفَرَدَ بِخَلْقِهِ ، وَذَهَبَ بِذَلِكَ الْخَلْقِ ، كَمَا يَنْفَرِدُ مُلُوكُ الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِمَمَالِكِهِ ، إِذَا لَمْ يَقْدِرِ الْمُنْفَرِدُ مِنْهُمْ عَلَى قَهْرِ الْآخَرِ وَالْعُلُوِّ عَلَيْهِ . فَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ :

* إِمَّا أَنْ يَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِخَلْقِهِ وَسُلْطَانِهِ .

* وَإِمَّا أَنْ يَعْلُوَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

* وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا تَحْتَ قَهْرِ مَلِكٍ وَاحِدٍ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ ، بَلْ يَكُونُ وَحْدَهُ هُوَ الْإِلَهُ ، وَهُمُ الْعَبِيدُ الْمَرْبُوبُونَ الْمَقْهُورُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ .

وَانْتِظَامُ أَمْرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ وَإِحْكَامُ أَمْرِهِ ، مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ مُدَبِّرَهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَمَلِكٌ وَاحِدٌ ، وَرَبٌّ وَاحِدٌ ، لَا إِلَهَ لِلْخَلْقِ غَيْرُهُ ، وَلَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ ، كَمَا قَدْ دَلَّ دَلِيلُ التَّمَانُعِ عَلَى أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ فَلَا إِلَهَ سِوَاهُ ، فَذَلِكَ تَمَانُعٌ فِي الْفِعْلِ وَالْإِيجَادِ ، وَهَذَا تَمَانُعٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، فَكَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِ رَبَّانِ خَالِقَانِ مُتَكَافِئَانِ ، كَذَلِكَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ .

فَالْعِلْمُ بِأَنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ عَنْ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ ، مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ ، مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ بُطْلَانُهُ ، فَكَذَا تَبْطُلُ إِلَهِيَّةُ اثْنَيْنِ .

فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُوَافِقَةٌ لِمَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ فِي الْفِطَرِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، دَالَّةٌ مُثْبِتَةٌ مُلْزِمَةٌ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ .

وَقَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]. وَقَدْ ظَنَّ طَوَائِفُ أَنَّ هَذَا دَلِيلُ التَّمَانُعِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ ... الخ ، وَغَفَلُوا عَنْ مَضْمُونِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُهُ ، وَلَمْ يَقُلْ : أَرْبَابٌ .

وَأَيْضًا : فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ وُجُودِهِمَا ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ آلِهَةٌ

سِوَاهُ لَفَسَدَتَا .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ ، وَهَذَا فَسَادٌ بَعْدَ الْوُجُودِ ، وَلَمْ يَقُلْ : لَمْ يُوجَدَا .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمَا آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، بَلْ لَا يَكُونُ الْإِلَهُ إِلَّا وَاحِدا ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِلَهُ الْوَاحِدُ إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَنَّ فَسَادَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْآلِهَةِ فِيهِمَا مُتَعَدِّدَةً ، وَمِنْ كَوْنِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ غَيْرَ الله ، وَأَنَّهُ لَا صَلَاحَ لَهُمَا إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ فِيهِمَا هُوَ الله وَحْدَهُ لَا غَيْرُ ، فَلَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ كُلُّهُ ، فَإِنَّ قِيَامَهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَدْلِ ، وَبِهِ قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَأَظْلَمُ الظُّلْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ الشِّرْكُ ، وَأَعْدَلُ الْعَدْلِ التَّوْحِيدُ .

وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعَكْسِ ، فَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَكُونُ عَاجِزًا ، وَالْعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف:١٩١] .

وقال تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧] .

وكذا قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٢] .

وَفِيهَا لِلْمُتَأَخِّرِينَ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا إِلَى مُغَالَبَتِهِ .

وَالثَّانِي : وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ ، كَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِ ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ولَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ : لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [المزمل، الإنسان: ١٩] ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ [الإسراء: ٤٢] ، وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا : إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ

صَانِعَانِ ، بَلْ جَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ ، وَقَالُوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] ، بِخِلَافِ الْآيَةِ الْأُولَى .

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسُلُ الله وَنَزَلَتْ بِهِ كُتُبُهُ نَوْعَانِ :

* تَوْحِيدٌ فِي الْإِثْبَاتِ وَالمَعْرِفَةِ .

* وَتَوْحِيدٌ فِي الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ .

فَالْأَوَّلُ : هُوَ إِثْبَاتُ حَقِيقَةِ ذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَكَمَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ ﷺ . وَقَدْ أَفْصَحَ الْقُرْآنُ عَنْ هَذَا النَّوْعِ كُلَّ الْإِفْصَاحِ ، كَمَا فِي أَوَّلِ « الْحَدِيدِ » وَ « طه » ، وَآخِرِ «الْحَشْرِ» وَأَوَّلِ «الم تَنْزِيلُ» السَّجْدَةِ ، وَأَوَّلِ «آلِ عِمْرَانَ» ، وَسُورَةِ «الْإِخْلَاصِ» بِكَمَالِهَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَالثَّانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ ، مِثْلَ مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، وَ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦٤] ، وَأَوَّلُ سُورَةِ « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » وَآخِرُهَا ، وَأَوَّلُ سُورَةِ « يُونُسَ » وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا ، وَأَوَّلُ سُورَةِ « الأعراف » وَآخِرُهَا ، وَجُمْلَةُ سُورَةِ « الْأَنْعَامِ » .

وَغَالِبُ سُوَرِ الْقُرْآنِ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ ، بَلْ كُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ :

* إِمَّا خَبَرٌ عَنِ الله وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ .

* وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَلْعُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ .

* وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ ، فَذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتِهِ .

* وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ إِكْرَامِهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ

فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ.

* وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحُلُّ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ، فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ.

فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ.

فَـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تَوْحِيدٌ، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ تَوْحِيدٌ مُتَضَمِّنٌ لِسُؤَالِ الْهِدَايَةِ إِلَى طَرِيقِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الَّذِينَ فَارَقُوا التَّوْحِيدَ.

وَكَذَلِكَ شَهِدَ اللهُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا التَّوْحِيدِ، وَشَهِدَتْ لَهُ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٨،١٩].

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِثْبَاتَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَالرَّدَّ عَلَى جَمِيعِ طَوَائِفِ الضَّلَالِ، فَتَضَمَّنَتْ أَجَلَّ شَهَادَةٍ وَأَعْظَمَهَا وَأَعْدَلَهَا وَأَصْدَقَهَا، مِنْ أَجَلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ.

وَعِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي «شَهِدَ» تَدُورُ عَلَى الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ، وَالْإِعْلَامِ، وَالْبَيَانِ، وَالْإِخْبَارِ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا حَقٌّ لَا تَنَافِيَ بَيْنَهَا؛ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَتَضَمَّنُ كَلَامَ الشَّاهِدِ وَخَبَرَهُ، وَتَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ وَإِخْبَارَهُ وَبَيَانَهُ، فَلَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِهَا: عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ وَاعْتِقَادٌ لِصِحَّةِ الْمَشْهُودِ بِهِ وَثُبُوتِهِ.

وَثَانِيهَا: تَكَلُّمُهُ بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُعْلِمْ بِهِ غَيْرَهُ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَعَ نَفْسِهِ وَيَذْكُرُهَا وَيَنْطِقُ بِهَا، أَوْ يَكْتُبُهَا.

وَثَالِثُهَا: أَنْ يُعْلِمَ غَيْرَهُ بِهَا بِمَا يَشْهَدُ بِهِ، وَيُخْبِرُهُ بِهِ، وَيُبَيِّنُهُ لَهُ.

وَرَابِعُهَا : أَنْ يُلْزِمَهُ بِمَضْمُونِهَا وَيَأْمُرَهُ بِهِ .

فَشَهَادَةُ الله سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ : عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ ، وَتَكَلُّمَهُ بِهِ ، وَإِعْلَامَهُ ، وَإِخْبَارَهُ لِخَلْقِهِ بِهِ ، وَأَمْرَهُمْ وَإِلْزَامَهُمْ بِهِ .

فَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ : فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَضَمَّنَتْهَا ضَرُورَةٌ ، وَإِلَّا كَانَ الشَّاهِدُ شَاهِدًا بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦].

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ التَّكَلُّمِ وَالْخَبَرِ : فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩] ، فَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَهَادَةً ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظُوا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ ، وَلَمْ يُؤَدُّوهَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ .

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْإِعْلَامِ وَالْإِخْبَارِ ، فَنَوْعَانِ :

* إِعْلَامٌ بِالْقَوْلِ . * وَإِعْلَامٌ بِالْفِعْلِ .

وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مُعْلِمٍ لِغَيْرِهِ بِأَمْرٍ : تَارَةً يُعْلِمُهُ بِهِ بِقَوْلِه ، وَتَارَةً بِفِعْله ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ جَعَلَ دَارَهُ مَسْجِدًا وَفَتَحَ بَابَهَا ، وَأَفْرَزَهَا بِطَرِيقِهَا وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا : مُعْلِمًا أَنَّهَا وَقْفٌ ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِهِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ وُجِدَ مُتَقَرِّبًا إِلَى غَيْرِهِ بِأَنْوَاعِ الْمَسَارِّ ، يَكُونُ مُعْلِمًا لَهُ وَلِغَيْرِهِ أَنَّهُ يُحِبُّهُ ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِقَوْلِهِ ، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ .

وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ الرَّبِّ ﷻ وَبَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ ، يَكُونُ بِقَوْلِهِ تَارَةً ، وَبِفِعْلِهِ أُخْرَى .

فَالْقَوْلُ : مَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ .

وَأَمَّا بَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ بِفِعْلِهِ : فَكَمَا قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ : شَهِدَ الله بِتَدْبِيرِهِ الْعَجِيبِ وَأُمُورِهِ الْمُحْكَمَةِ عِنْدَ خَلْقِهِ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَقَالَ آخَرُ :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّهَادَةَ تَكُونُ بِالْفِعْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة:١٧] ، فَهَـذِهِ شَـهَادَةٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَهُ .

وَالمَقْصُودُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَشْهَدُ بِمَا جَعَلَ آيَاتِهِ المَخْلُوقَةَ دَالَّةً عَلَيْهِ ، وَدَلَالَتُهَا إِنَّمَا هِيَ بِخَلْقِهِ وَجَعْلِهِ .

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْأَمْرِ بِذَلِكَ وَالْإِلْزَامِ بِهِ ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الشَّهَادَةِ لَا يَسْتَلْزِمُهُ ، لَكِنَّ الشَّهَادَةَ فِي هَذَا المَوْضِعِ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتَتَضَمَّنُهُ : فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ شَهِدَ بِهِ شَهَادَةَ مَنْ حَكَمَ بِهِ ، وَقَضَى وَأَمَرَ ، وَأَلْزَمَ عِبَادَهُ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] . وَقَالَ تَعَالَى :﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [النحل:٥١] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة:٣١] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء:٣٩] . وَقَالَ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [القصص:٨٨] . وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ .

وَوَجْهُ اسْتِلْزَامِ شَهَادَتِهِ سُبْحَانَهُ لِذَلِكَ : أَنَّهُ إِذَا شَهِدَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَقَدْ أَخْبَرَ وَبَيَّنَ وَأَعْلَمَ وَحَكَمَ وَقَضَى أَنَّ مَا سِوَاهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ ، وَأَنَّ إِلَهِيَّةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ ، كَمَا لَا تَصْلُحُ الْإِلَهِيَّةُ لِغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْأَمْرَ بِاتِّخَاذِهِ وَحْدَهُ إِلَهًا ، وَالنَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِهِ مَعَهُ إِلَهًا ، وَهَذَا يَفْهَمُهُ الْمُخَاطَبُ مِنْ هَذَا النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ، كَمَا إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا يَسْتَفْتِي رَجُلًا ، أَوْ يَسْتَشْهِدُهُ ، أَوْ يَسْتَطِبُّهُ وَهُوَ لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ ، وَيَدَعُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ ، فَتَقُولُ : هَذَا لَيْسَ بِمُفْتٍ ، وَلَا شَاهِدٍ وَلَا طَبِيبٍ ، الْمُفْتِي فُلَانٌ ، وَالشَّاهِدُ فُلَانٌ ، وَالطَّبِيبُ فُلَانٌ ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنْهُ وَنَهْيٌ .

وَأَيْضًا : فَالْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ ، فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ ، تَضَمَّنَ هَذَا الْإِخْبَارُ أَمْرَ الْعِبَادِ وَإِلْزَامَهُمْ بِأَدَاءِ مَا يَسْتَحِقُّه

الرَّبُّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ الْقِيَامَ بِذَلِكَ هُوَ خَالِصُ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ .

وَأَيْضًا : فَلَفْظُ «الْحُكْمِ» و«الْقَضَاءِ» يُسْتَعْمَلُ فِي الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ ، وَيُقَالُ لِلْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ : قَضِيَّةٌ ، وَحُكْمٌ ، وَقَدْ حُكِمَ فِيهَا بِكَذَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات:١٥١-١٥٤] . فَجَعَلَ هَذَا الْإِخْبَارَ الْمُجَرَّدَ مِنْهُمْ حُكْمًا . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥،٣٦]. لَكِنَّ هَذَا حُكْمٌ لَا إِلْزَامَ مَعَهُ ، وَالْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُتَضَمِّنٌ الْإِلْزَامَ.

وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ شَهَادَةٍ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهَا ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا ، وَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِمْ بِهَا الْحُجَّةُ ، بَلْ قَدْ تَضَمَّنَتِ الْبَيَانَ لِلْعِبَادِ وَدَلَالَتَهُمْ وَتَعْرِيفَهُمْ بِمَا شَهِدَ بِهِ ، كَمَا أَنَّ الشَّاهِدَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ وَلَمْ يُبَيِّنْهَا ، بَلْ كَتَمَهَا ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا أَحَدٌ ، وَلَمْ تَقُمْ بِهَا حُجَّةٌ .

وَإِذَا كَانَ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَّا بِبَيَانِهَا ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ بَيَّنَهَا غَايَةَ الْبَيَانِ بِطُرُقٍ ثَلَاثَةٍ : السَّمْعِ ، وَالْبَصَرِ ، وَالْعَقْلِ .

أَمَّا السَّمْعُ : فَبِسَمْعِ آيَاتِهِ الْمَتْلُوَّةِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَا عَرَّفَنَا إِيَّاهُ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ كُلِّهَا ، الْوَحْدَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، غَايَةَ الْبَيَانِ ، لَا كَمَا يَزْعُمُهُ الْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَمُعَطِّلَةِ بَعْضِ الصِّفَاتِ مِنْ دَعْوَى احْتِمَالَاتٍ تُوقِعُ فِي الْحَيْرَةِ ، تُنَافِي الْبَيَانَ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ وَرَسُولَهُ الْكَرِيمَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [الزخرف ، والدخان:١،٢] . ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [يوسف:١]. ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر:١] . ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨] . ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا

ﵟٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُﵞ [المائدة:٩٢] . ﵟوَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَﵞ [النحل: ٤٤] .

وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ تَأْتِي مُبَيِّنَةً أَوْ مُقَرِّرَةً لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، لَمْ يُحْوِجْنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَأْيِ فُلَانٍ ، وَلَا إِلَى ذَوْقِ فُلَانٍ ، وَوَجْدِهِ فِي أُصُولِ دِينِنَا .

وَلِهَذَا نَجِدُ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مُخْتَلِفِينَ مُضْطَرِبِينَ ، بَلْ قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﵟٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاﵞ [المائدة:٣] . فَلَا يَحْتَاجُ فِي تَكْمِيلِهِ إِلَى أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ رحمه الله فِيمَا يَأْتِي مِنْ كَلَامِهِ بِقَوْلِهِ : « لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا ، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا ، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ للهِ عز وجل وَلِرَسُولِهِ ﷺ » .

وَأَمَّا آيَاتُهُ الْعِيَانِيَّةُ الْخَلْقِيَّةُ : فَالنَّظَرُ فِيهَا وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا يَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ الْقَوْلِيَّةُ وَالسَّمْعِيَّةُ ، وَالْعَقْلُ يَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ ، فَيَجْزِمُ بِصِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، فَتَتَّفِقُ شَهَادَةُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ .

فَهُوَ سُبْحَانَهُ لِكَمَالِ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَمَحَبَّتِهِ لِلْعُذْرِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ ، لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا وَمَعَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﵟلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِﵞ [الحديد:٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﵟوَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِﵞ [النحل:٤٣،٤٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﵟقُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡﵞ [آل عمران: ١٨٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﵟفَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِﵞ [آل عمران:١٨٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﵟٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَﵞ

[الشورى: ١٧] ، حَتَّى إِنَّ مِنْ أَخفى آيَاتِ الرُّسُلِ آيَات هُودٍ ، حَتَّى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : ﴿ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود:٥٣] ، وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُهُ مِنْ أَوْضَحِ الْبَيِّنَاتِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِتَدَبُّرِهَا ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٤ـ٥٦]. فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ : أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ وَلَا خَوَّارٍ ، بَلْ هُوَ وَاثِقٌ بِمَا قَالَهُ ، جَازِمٌ بِهِ ، فَأَشْهَدَ اللهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ وَغَيْرُ مُسَلِّطٍ لَهُمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمُ الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا ، ويُعادون عليها ، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهِمْ لَهَا ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ ، وَلَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ ، ثُمَّ يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ ، ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُمْ أَحْسَنَ تَقْرِيرٍ ، وَبَيَّنَ أَنَّ رَبَّهُ تعالَى وَرَبَّهُمُ الَّذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَقَرَّ بِهِ ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ .

فَأَيُّ آيَةٍ وَبُرْهَانٍ أَحْسَنُ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَرَاهِينِهِمْ وَأَدِلَّتِهِمْ ؟ وَهِيَ شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ لهم ، بَيَّنَهَا لِعِبَادِهِ غَايَةَ الْبَيَانِ .

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى « الْمُؤْمِنُ » وَهُوَ فِي أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ : الْمُصَدِّقُ الَّذِي يُصَدِّقُ الصَّادِقِينَ بِمَا يُقِيمُ لَهُمْ مِنْ شَوَاهِدِ صِدْقِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي بَلَّغَهُ رُسُلُهُ حَقٌّ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣] . أَيِ الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ الْمُتَقَدِّمُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

[فصلت:٥٢] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت:٥٣] . فَشَهِدَ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ بِقَوْلِهِ : أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ ، وَوَعَدَ أَنَّهُ يُرِي الْعِبَادَ مِنْ آيَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ الْخَلْقِيَّةِ مَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَيْضًا، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَجَلُّ ، وَهُوَ شَهَادَتُهُ سُبْحَانَهُ [بِأَنَّهُ] عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، فَإِنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ «الشَّهِيدَ» الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُشَاهِدٌ لَهُ ، عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِهِ .

وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَالْأَوَّلُ اسْتِدْلَالٌ بِقَوْلِهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاسْتِدْلَاله بِالْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ اسْتِدْلَالٌ بِأَفْعَالِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَإِنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِذَلِكَ لَا يُعْهَدُ فِي الِاصْطِلَاحِ ؟

فَالْجَوَابُ : أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ فِي الْفِطْرَةِ الَّتِي لَمْ تَتَنَجَّسْ بِالْجُحُودِ وَالتَّعْطِيلِ ، وَلَا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَامِلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ ، وَمَا خَفِيَ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ كَمَالِهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ مِمَّا عَرَفُوهُ مِنْهُ .

وَمِنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ شَهَادَتُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَاطِّلَاعُهُ عَلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ ذَرَّةٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ كَيْفَ يَلِيقُ بِالْعِبَادِ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ ، وَأَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ ، وَيَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ ؟ وَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَمَالِهِ أَنْ يُقِرَّ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْكَذِبِ ، وَيُخْبِرَ عَنْهُ بِخِلَافِ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَنْصُرَهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُؤَيِّدَهُ وَيُعْلِيَ شَأْنَهُ ، وَيُجِيبَ دَعْوَتَهُ وَيُهْلِكَ عَدُوَّهُ ، وَيُظْهِرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَعْجِزُ عَنْ مِثْلِهِ قُوَى الْبَشَرِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَاذِبٌ عَلَيْهِ مُفْتَرٍ ؟!

وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقُدْرَتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَعِزَّتَهُ وَكَمَالَهُ الْمُقَدَّسَ يَأْبَى ذَلِكَ ، وَمَنْ جَوَّزَ ذَلِكَ ، فَهُوَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ .

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ ، وَهِيَ طَرِيقُ الْخَوَاصِّ ، يَسْتَدِلُّونَ بِالله عَلَى أَفْعَالِهِ وَمَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ وَلَا يَفْعَلَهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧] . وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى .

وَيَسْتَدِلُّ أَيْضًا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر:٢٣] . وَأَضْعَافُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ .

وَهَذِهِ الطَّرِيقُ قَلِيلٌ سَالِكُهَا ، لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ . وَطَرِيقَةُ الْجُمْهُورِ الِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَاتِ الْمُشَاهَدَةِ ؛ لِأَنَّهَا أَسْهَلُ تَنَاوُلًا وَأَوْسَعُ ، وَالله سُبْحَانَهُ يُفَضِّلُ بَعْضَ خَلْقِهِ عَلَى بَعْضٍ .

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ فِي غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ وَالْمَدْلُولُ عَلَيْهِ ، وَالشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ له ، قَالَ تَعَالَى لِمَنْ طَلَبَ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١] .

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ - كَمَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ - فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَسَّمَ التَّوْحِيدَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ ، وَجَعَلَ هَذَا النَّوْعَ : تَوْحِيدَ الْعَامَّةِ ، وَالنَّوْعَ الثَّانِيَ : تَوْحِيدَ الْخَاصَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَثْبُتُ بِالْحَقَائِقِ ، وَالنَّوْعَ الثَّالِثَ : تَوْحِيدًا قَائِمًا بِالْقِدَمِ ، وَهُوَ تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ ، فَإِنَّ أَكْمَلَ النَّاسِ تَوْحِيدًا الْأَنْبِيَاءُ - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ ، وَالْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ أَكْمَلُ فِي ذَلِكَ ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا ، وَهُمْ : نُوحٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ،

وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، وَمُحَمَّدٌ ـ صَلَّى الله وَسَلم عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَأَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا : الْخَلِيلَانِ : مُحَمَّدٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ـ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ ـ فَإِنَّهُمَا قَامَا مِنَ التَّوْحِيدِ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُمَا عِلْمًا ، وَمَعْرِفَةً ، وَحَالًا ، وَدَعْوَةً لِلْخَلْقِ وَجِهَادًا ، فَلَا تَوْحِيدَ أَكْمَلُ مِنَ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَدَعَوْا إِلَيْهِ ، وَجَاهَدُوا الْأُمَمَ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُنَاظَرَةِ إِبْرَاهِيمَ قَوْمَهُ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ ، وَصِحَّةِ التَّوْحِيدِ وَذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

فَلَا أَكْمَلَ مِنْ تَوْحِيدِ مَنْ أُمِرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ .

وَكَانَ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ إِذَا أَصْبَحُوا أَنْ يَقُولُوا : « **أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** » (١) .

فَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ : التَّوْحِيدُ ، وَدِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ : مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ الله قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ : هِيَ شَهَادَةُ : « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله » ، وَفِطْرَةُ الْإِسْلَامِ : هِيَ مَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ عُبُودِيَّةً وَذُلًّا وَانْقِيَادًا وَإِنَابَةً .

فَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ ، الَّذِي مَنْ رَغِبَ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٠٦) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (حديث رقم ١) ، وغيرهم من حديث عبد الرحمن بن أبزى قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : « ... » فذكره ، لكن ليس فيه أنه يعلِّم أصحابه .

أما رواية : « كان رسول الله ﷺ يعلمنا إذا أصبحنا ... » فهي ضعيفة.

لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠،١٣١]. وَكُلُّ مَنْ لَهُ حِسٌّ سَلِيمٌ وَعَقْلٌ يُمَيِّزُ بِهِ ، لا يَحْتَاجُ فِي الِاسْتِدْلَالِ إِلَى أَوْضَاعِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْجَدَلِ وَاصْطِلَاحِهِمْ وَطُرُقِهِمْ الْبَتَّةَ ، بَلْ رُبَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِهَا فِي شُكُوكٍ وَشُبَهٍ يَحْصُلُ لَهُ بِهَا الْحَيْرَةُ وَالضَّلَالُ وَالرِّيبَةُ ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذَا سَلِمَ قَلْبُ صَاحِبِهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي لَا يُفْلِحُ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِهِ .

فَأَيْنَ قَالَ الرَّسُولُ : هَذَا تَوْحِيدُ الْعَامَّةِ ، وَهَذَا تَوْحِيدُ الْخَاصَّةِ ، وَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ ؟ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أو أشار إليه؟! .

هَذِهِ النُّقُولُ ، وَالْعُقُولُ حَاضِرَة ، فَهَذَا كَلَامُ اللهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَهَذِهِ سُنَّةُ الرَّسُولِ ، وَهَذَا كَلَامُ خَيْرِ الْقُرُونِ بَعْدَ الرَّسُولِ ، وَسَادَاتِ الْعَارِفِينَ مِنَ الْأَئِمَّةِ ، هَلْ جَاءَ ذِكْرُ الْفَنَاءِ فيها وَهَذَا التَّقْسِيمُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ ؟! وَإِنَّمَا حَصَلَ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ ، الْمُشْبِهِ لِغُلُوِّ الْخَوَارِجِ ، بَلْ لِغُلُوِّ النَّصَارَى فِي دِينِهِمْ . وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ وَنَهَى عَنْهُ ، فَقَالَ تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء:١٧١] . ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧] .

*****

قَوْلُهُ : « وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ » .

ش : اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، لَا فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ، وَلَكِنَّ لَفْظَ «التَّشْبِيهِ» قَدْ صَارَ فِي كَلَامِ النَّاسِ لَفْظًا مُجْمَلًا يُرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ ، وَهُوَ مَا نَفَاهُ الْقُرْآنُ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ ، مِنْ أَنَّ خَصَائِصَ الرَّبِّ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ، رَدٌّ عَلَى الْمُمَثِّلَةِ الْمُشَبِّهَةِ ،

﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] . رَدٌّ عَلَى النُّفَاةِ الْمُعَطِّلَةِ ، فَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ الْخَالِقِ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ ، فَهُوَ الْمُشَبِّهُ الْمُبْطِلُ الْمَذْمُومُ ، وَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ مِثْلَ صِفَاتِ الْخَالِقِ ، فَهُوَ نَظِيرُ النَّصَارَى فِي كُفْرِهِمْ .

والله ﷻ سَمَّى نَفْسَهُ بِأَسْمَاءَ ، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِهَا ، وَكَذَلِكَ سَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءَ ، وَسَمَّى بِبَعْضِهَا صِفَاتِ خَلْقِهِ ، وَلَيْسَ الْمُسَمَّى كَالْمُسَمِّي ، فَسَمَّى نَفْسَهُ : حَيًّا ، عَلِيمًا ، قَدِيرًا ، رؤوفًا ، رَحِيمًا ، عَزِيزًا ، حَكِيمًا ، سَمِيعًا ، بَصِيرًا ، مَلِكًا ، مُؤْمِنًا ، جَبَّارًا ، مُتَكَبِّرًا . وَقَدْ سَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ فَقَالَ : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الأنعام : ٩٥/ الروم:١٩] . ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذريات:٢٨] . ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١] . ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان :٢] . ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ [يوسف:٥١] . ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [الكهف:٧٩] . ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾ [السجدة: ١٨] . ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُمَاثِلُ الْحَيُّ الْحَيَّ ، وَلَا الْعَلِيمُ الْعَلِيمَ ، وَلَا الْعَزِيزُ الْعَزِيزَ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَسْمَاءِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة :٢٥٥] ، ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء:١٦٦] ، ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر:١١] . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨] . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] .

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، يَقُولُ : « إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ

الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي ، وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي ، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ . قَالَ : وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ » ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١) .

وَفِي حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٢) وَغَيْرُهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ : « اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ ، عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ » .

فَقَدْ سَمَّى اللهُ وَرَسُولُهُ صِفَاتِ اللهِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَقُوَّةً ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ [الروم:٥٤] . ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف: ٦٨]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ الْعِلْمُ كَالْعِلْمِ ، وَلَا الْقُوَّةُ كَالْقُوَّةِ ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَهَذَا لَازِمٌ لِجَمِيعِ الْعُقَلَاءِ ، فَإِنَّ مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ ، كَالرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَالْمَحبة وَالْبُغْضِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ وَالتَّجْسِيمَ قِيلَ لَهُ : فَأَنْتَ تُثْبِتُ لَهُ الْإِرَادَةَ وَالْكَلَامَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ ، مَعَ أَنَّ مَا

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث (١١٦٢) ، وفي غير موضع .

(٢) صحيح : أخرجه النسائي (٣/ ٥٤، ٥٥) ، وأحمد في « المسند (٤/ ٢٦٤) وغيرهم . وعندهم : « ... أَحْيِنِي مَا علمت الْحَيَاة خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا علمت الْوَفَاة خَيْرًا لِي ... ».

تُثْبِتُهُ لَهُ لَيْسَ مِثْلَ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ ، فَقُلْ فِيمَا نَفَيْتَهُ وَأَثْبَتَهُ الله وَرَسُولُهُ مِثْلَ قَوْلِكَ فِيمَا أَثْبَتَّهُ ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا .

*****

قَوْلُهُ :«وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ» .

ش :لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:٢٠] ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥] ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر: ٤٤] ، ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[البقرة: ٢٥٥] ، ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾أَيْ : لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ وَلَا يُعْجِزُهُ ، فَهَذَا النَّفْيُ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ نَفْيٍ يَأْتِي فِي صِفَاتِ الله تَعَالَى فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩] ، لِكَمَالِ عَدْلِهِ ، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ: ٣] ، لِكَمَالِ عِلْمِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[ق: ٣٨] لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ ، ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ ، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] ، لِكَمَالِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، وَإِلَّا فَالنَّفْيُ الصِّرْفُ لَا مَدْحَ فِيهِ .

وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الحَقِّ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ سَبِيلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَالـمُعَطِّلَةُ يُعْرِضُونَ عَمَّا قَالَهُ الشَّارِعُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ مَعَانِيَهَا ، وَيَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ المَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ هُوَ الـمُحْكَمَ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ .

وَأَمَّا أَهْلُ الحَقِّ وَالسُّنَّةِ وَالْإِيمَانِ :

فَيَجْعَلُونَ مَا قَالَهُ الله وَرَسُولُهُ هُوَ الحَقَّ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ ، وَالَّذِي قَالَ

هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا جُمْلِيًّا ، أَوْ يُبَيِّنُوا حَالَهُ تَفْصِيلًا ، وَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، لَا يُحْكَمُ بِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

*****

قَوْلُهُ : «وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ» .

ش : هَذِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي دَعَتْ إِلَيْهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَإِثْبَاتُ التَّوْحِيدِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بِاعْتِبَارِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُقْتَضِي لِلْحَصْرِ ، فَإِنَّ الْإِثْبَاتَ الْمُجَرَّدَ قَدْ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الِاحْتِمَالُ ، وَلِهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - لَمَّا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] . فَإِنَّهُ قَدْ يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ خَاطِرٌ شَيْطَانِيٌّ : هَبْ أَنَّ إِلَهَنَا وَاحِدٌ ، فَلِغَيْرِنَا إِلَهٌ غَيْرُهُ ؟ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

*****

قَوْلُهُ : « قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ » .

ش : قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ [الحديد: ٣] ، وَقَالَ ﷺ : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ** »[١] .

فَقَوْلُ الشَّيْخِ: قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ[٢] ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ ، هُوَ مَعْنَى اسْمِهِ: الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ.

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (مع النووي ١٧/ ٣٥) من طريق سُهَيْلٍ قَالَ : كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ : « **اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ... » فذكر الحديث وفيه : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ** ... » الحديث ، قال : وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

(٢) لقد قال الشارح منذ قليل : والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة ، فليته سلك هذا المسلك ، فالتعبير عن الله ﷻ بلفظ القديم لا أعلم له أصلاً في الكتاب والسنة والوارد فيما علمت (وسلطانه القديم) ، أما التعبير عن الله بالقديم فكما ذكرت لا أعلم له أصلاً ، وكان الأولى أن يقول هو الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء ، وسيشير الشارح قريبًا إلى مزيد .

وَقَدْ أَدْخَلَ الـمُتَكَلِّمُونَ فِي أَسْمَاءِ الله تَعَالَى « الْقَدِيمَ » ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الله تعالى الْحُسْنَى ، فَإِنَّ « الْقَدِيمَ » فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ : هُوَ الـمُتَقَدِّمُ عَلَى غَيْرِهِ ، فَيُقَالُ : « هَذَا قَدِيمٌ » ، لِلْعَتِيقِ ، وَ« هَذَا حَدِيثٌ » ، لِلْجَدِيدِ ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلُوا هَذَا الِاسْمَ إِلَّا فِي الـمُتَقَدِّمِ عَلَى غَيْرِهِ ، لَا فِيمَا لَمْ يَسْبِقْهُ عَدَمٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩] . وَالْعُرْجُونُ الْقَدِيمُ : الَّذِي يَبْقَى إِلَى حِينِ وُجُودِ الْعُرْجُونِ الثَّانِي ، فَإِذَا وُجِدَ الْجَدِيدُ ، قِيلَ لِلْأَوَّلِ : قَدِيمٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف:١١] ، أَيْ : مُتَقَدِّمٌ فِي الزَّمَانِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦] ، فَالْأَقْدَمُ مُبَالَغَةٌ فِي الْقَدِيمِ ، وَمِنْهُ : الْقَوْلُ الْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ لِلشَّافِعِيِّ ﵀ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [هود: ٩٨] ، أَيْ: يَتَقَدَّمُهُمْ ، وَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ الْفِعْلُ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا ، كَمَا يُقَالُ : أَخذني مَا قَدُمَ وَمَا حَدُثَ ، وَيُقَالُ : هَذَا قَدَمَ هَذَا وَهُوَ يَقْدُمُهُ ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْقَدَمُ قَدَمًا ؛ لِأَنَّهَا تَقْدُمُ بَقِيَّةَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ ، وَأَمَّا إِدْخَالُ « الْقَدِيم » فِي أَسْمَاءِ الله تَعَالَى ، فَهُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ ، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، مِنْهُمُ ابْنُ حَزْمٍ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَعْمَلًا فِي نَفْسِ التَّقَدُّمِ ، فَإِنَّ مَا تقَدَّم عَلَى الْحَوَادِثِ كُلِّهَا ، فَهُوَ أَحَقُّ بِالتَّقَدُّمِ مِنْ غَيْرِهِ ، لَكِنَّ أَسْمَاءَ الله تَعَالَى هِيَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الَّتِي تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِ مَا يُمْدَحُ بِهِ ، وَالتَّقَدُّمُ فِي اللُّغَةِ مُطْلَقٌ لَا يَخْتَصُّ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى الْحَوَادِثِ كُلِّهَا ، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَجَاءَ الشَّرْعُ بِاسْمِهِ « الْأَوَّلِ » . وَهُوَ أَحْسَنُ مِنَ « الْقَدِيم » ؛ لِأَنَّهُ يُشْعِرُ بِأَنَّ مَا بَعْدَهُ آيِلٌ إِلَيْهِ وَتَابِعٌ لَهُ ، بِخِلَافِ « الْقَدِيمِ » ، وَالله تَعَالَى لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، لا الحسنة .

*****

قَوْلُهُ : « لا يَفْنَى وَلا يَبِيدُ » .

ش : إِقْرَارٌ بِدَوَامِ بَقَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] . وَالْفَنَاءُ وَالْبَيْدُ مُتَقَارِبَانِ فِي المَعْنَى ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا فِي الذِّكْرِ لِلتَّأْكِيدِ ، وَهُوَ أَيْضًا مُقَرِّرٌ وَمُؤَكِّدٌ لِقَوْلِهِ : « دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ »(١) .

*****

قَوْلُهُ : « وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ » .

ش : هَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ اللهَ أَرَادَ الْإِيمَانَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَالْكَافِرُ أَرَادَ الْكُفْرَ ، وَقَوْلُهُمْ فَاسِدٌ مَرْدُودٌ ، لِمُخَالَفَتِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَالمَعْقُولَ الصَّحِيحَ ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْقَدَرِ المَشْهُورَةُ ، وَسَيَأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَسُمُّوا قَدَرِيَّةً : لِإِنْكَارِهِمُ الْقَدَرَ ، وَكَذَلِكَ تُسَمَّى الْجَبْرِيَّةُ : الْمُحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ قَدَرِيَّةً أَيْضًا ، وَالتَّسْمِيَةُ عَلَى الطَّائِفَةِ الْأُولَى أَغْلَبُ .

وأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَيَقُولُونَ : إِنَّ اللهَ وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ المَعَاصِيَ قَدَرًا ، فَهُوَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا يَرْضَاهَا ، وَلَا يَأْمُرُ بِهَا ، بَلْ يُبْغِضُهَا وَيَسْخَطُهَا ، وَيَكْرَهُهَا ، وَيَنْهَى عَنْهَا ، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ قَاطِبَةً ، فَيَقُولُونَ : مَا شَاءَ اللهُ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ؛ وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الحَالِفَ لَوْ قَالَ : « وَاللهِ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ » ، لَمْ يَحْنَثْ إِذَا لَمْ يَفْعَلْهُ ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا ، وَلَوْ قَالَ : « إِنْ أَحَبَّ اللهُ » حَنِثَ ، إِذَا كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا .

وَالْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ يَقُولُونَ : الْإِرَادَةُ فِي كِتَابِ اللهِ نَوْعَانِ :

---

(١) ليته استبدل كلمة دائم بقوله : الآخر فليس بعده شيء .

إِرَادَةٌ قَدَرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ خَلْقِيَّةٌ .

وَإِرَادَةٌ دِينِيَّةٌ أَمْرِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ .

فَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ : هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا .

وَالْكَوْنِيَّةُ : هِيَ الْمَشِيئَةُ الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ الْحوادث ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] . وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عليه السلام : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود:٣٤] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣].

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ الْأَمْرِيَّةُ : فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٦-٢٨] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣] .

فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي مِثْلِ قَوْلِ النَّاسِ لِمَنْ يَفْعَلُ الْقَبَائِحَ : هَذَا يَفْعَلُ مَا لَا يُرِيدُهُ الله ، أَيْ : لَا يُحِبُّهُ ، وَلَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَأْمُرُ بِهِ .

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ : فَهِيَ الْإِرَادَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ : مَا شَاءَ الله كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَالْفَرْقُ ثَابِتٌ بَيْنَ إِرَادَةِ الْمُرِيدِ أَنْ يَفْعَلَ ، وَبَيْنَ إِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ ، فَإِذَا

أَرَادَ الْفَاعِلُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا ، فَهَذِهِ الإِرَادَةُ مُعَلَّقَةٌ بِفِعْلِهِ ، وَإِذَا أَرَادَ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا فَهَذِهِ الإِرَادَةُ لِفِعْلِ الْغَيْرِ ، وَكِلَا النَّوْعَيْنِ مَعْقُولٌ لِلنَّاسِ ، وَالْأَمْرُ يَسْتَلْزِمُ الإِرَادَةَ الثَّانِيَةَ دُونَ الْأُولَى ، فَاللهُ تَعَالَى إِذَا أَمَرَ الْعِبَادَ بِأَمْرٍ ، فَقَدْ يُرِيدُ إِعَانَةَ الْمَأْمُورِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ ، وَقَدْ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ مُرِيدًا مِنْهُ فِعْلَهُ .

وَتَحْقِيقُ هَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ فَصْلَ النِّزَاعِ فِي أَمْرِ اللهِ تَعَالَى : هَلْ هُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِإِرَادَتِهِ أَمْ لَا ؟ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ الْخَلْقَ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ عليهم السلام بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ ، وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ ، فَأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ الْفِعْلَ ، وَيَجْعَلَهُ فَاعِلًا لَهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ يُمْكِنُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ الْحَكِيمِ أَنْ يَأْمُرَ غَيْرَهُ بِأَمْرٍ وَلَا يُعِينَهُ عَلَيْهِ ، فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِإِمْكَانِ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مَعَ حِكْمَتِهِ . فَمَنْ أَمَرَهُ وَأَعَانَهُ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ الْمَأْمُورُ بِهِ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ خَلْقُهُ وَأَمْرُهُ نشأة خَلْقًا وَمَحَبَّةً ، فَكَانَ مُرَادًا بِجِهَةِ الْخَلْقِ وَمُرَادًا بِجِهَةِ الْأَمْرِ ، وَمَنْ لَمْ يُعِنْهُ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ الْمَأْمُورُ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ أَمْرُهُ ، وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ خَلْقُهُ ، لِعَدَمِ الْحِكْمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِتَعَلُّقِ الْخَلْقِ بِهِ ، وَلِحُصُولِ الْحِكْمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِخَلْقِ ضِدِّهِ . وَخَلْقُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يُنَافِي خَلْقَ الضِّدِّ الْآخَرِ ، فَإِنَّ خَلْقَ الْمَرَضِ ، الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ ذُلُّ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ ، وَدُعَاؤُهُ ، وَتَوْبَتُهُ ، وَتَكْفِيرُ خَطَايَاهُ ، وَيَرِقُّ بِهِ قَلْبُهُ ، وَيُذْهِبُ عَنْهُ الْكِبْرِيَاءَ ، وَالْعَظَمَةَ ، وَالْعُدْوَانَ ، يُضَادُّ خَلْقَ الصِّحَّةِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ مَعَهَا هَذِهِ الْمَصَالِحُ ، وَلِذَلِكَ خَلْقُ ظُلْمِ الظَّالِمِ ، الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ لِلْمَظْلُومِ مِنْ جِنْسِ مَا يَحْصُلُ بِالْمَرَضِ ، يُضَادُّ خَلْقَ عَدْلِهِ الَّذِي لَا يَحْصُلُ بِهِ هَذِهِ الْمَصَالِحُ ، وَإِنْ كَانَتْ مَصْلَحَتُهُ هُوَ فِي أَنْ يَعْدِلَ .

وَتَفْصِيلُ حِكْمَةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ، يَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا عُقُولُ الْبَشَرِ ، وَالْقَدَرِيَّةُ دَخَلُوا فِي التَّعْلِيلِ عَلَى طَرِيقَةٍ فَاسِدَةٍ : مَثَّلُوا اللهَ فِيهَا بِخَلْقِهِ ، وَلَمْ يُثْبِتُوا حِكْمَةً تَعُودُ إِلَيْهِ .

قَوْلُهُ : « لَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَفْهَامُ » .

ش : قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] . قَالَ فِي « الصِّحَاحِ »: تَوَهَّمْتُ الشَّيْءَ : ظَنَنْتُهُ ، وَفَهِمْتُ الشَّيْءَ : عَلِمْتُهُ . فَمُرَادُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللهُ : أَنَّهُ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَهْمٌ ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمٌ ، قِيلَ : الْوَهْمُ مَا يُرْجَى كَوْنُهُ ، أَيْ : يُظَنُّ أَنَّهُ عَلَى صفةِ كَذَا ، وَالْفَهْمُ : هُوَ مَا يُحَصِّلُهُ الْعَقْلُ وَيُحِيطُ بِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ سُبْحَانَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُهُ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ ، وَهُوَ أَنَّهُ أَحَدٌ ، صَمَدٌ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:٢٥٥] . ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحشر:٢٣،٢٤] .

قَوْلُهُ : « وَلَا يُشْبِهُ الْأَنَامَ » .

ش : هَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، قَالَ ﷻ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] . وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الصِّفَاتِ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْبِدَعِ ، فَمِنْ كَلَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ﷀ فِي « الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ » : لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا خِلَافُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا ، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا ، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا ، انْتَهَى .

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ : مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ .

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ : مَنْ وَصَفَ اللهَ ، فَشَبَّهَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ الْعَظِيمِ .

وَقَالَ : عَلَامَةُ جَهْمٍ وَأَصْحَابِهِ : دَعْوَاهُمْ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مَا أُولِعُوا بِهِ مِنَ الْكَذِبِ أَنَّهُمْ مُشَبِّهَةٌ ، بَلْ هُمُ الْمُعَطِّلَةُ .

وَكَذَلِكَ قَالَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ : عَلَامَةُ الْجَهْمِيَّةِ تَسْمِيَتُهُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ «مُشَبِّهَةً» ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُفَاةِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِلَّا يُسَمِّي الْمُثْبِتَ لَهَا «مُشَبِّهًا»، فَمَنْ أَنْكَرَ أَسْمَاءَ اللهِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَالِيَةِ الزَّنَادِقَةِ : الْقَرَامِطَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ ، وَقَالَ : إِنَّ اللهَ لَا يُقَالُ لَهُ : عَالِمٌ وَلَا قَادِرٌ : يَزْعُمُ أَنَّ مَنْ سَمَّاهُ بِذَلِكَ فَهُوَ مُشَبِّهٌ ؛ لِأَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الِاسْمِ يُوجِبُ الِاشْتِبَاهَ فِي مَعْنَاهُ ، وَمَنْ أَثْبَتَ الِاسْمَ وَقَالَ : هُوَ مَجَازٌ ، كَغَالِيَةِ الْجَهْمِيَّةِ ، يَزْعُمُ أَنَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ اللهَ عَالِمٌ حَقِيقَةً ؛ قَادِرٌ حَقِيقَةً : فَهُوَ مُشَبِّهٌ ، وَمَنْ أَنْكَرَ الصِّفَاتِ وَقَالَ : إِنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ وَلَا قُدْرَةٌ وَلَا كَلَامٌ ، وَلَا مَحَبَّةٌ وَلَا إِرَادَةٌ ، قَالَ لِمَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ : إِنَّهُ مُشَبِّهٌ ، وَإِنَّهُ مُجَسِّمٌ ، وَلِهَذَا كُتُبُ نُفَاةِ الصِّفَاتِ ، مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ ، كُلُّهَا مَشْحُونَةٌ بِتَسْمِيَةِ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ « مُشَبِّهَةً » « وَمُجَسِّمَةً » ، وَيَقُولُونَ فِي كُتُبِهِمْ : إِنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْمُجَسِّمَةِ قَوْمًا يُقَالُ لَهُمُ : الْمَالِكِيَّةُ ، يُنْسَبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ : مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَقَوْمًا يُقَالُ لَهُمُ الشَّافِعِيَّةُ ، يُنْسَبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ : مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ حَتَّى الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ مِنْهُمْ ـ كَعَبْدِ الْجَبَّارِ ، وَالزَّمَخْشَرِيِّ ، وَغَيْرِهِمَا ، يُسَمُّونَ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ ، وَقَالَ بِالرُّؤْيَةِ مُشَبِّهًا ، وَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ قَدْ غَلَبَ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ غَالِبِ الطَّوَائِفِ .

وَلَكِنَّ الْمَشْهُورَ مِنِ اسْتِعْمَالِ هَذَا اللَّفْظِ عِنْدَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ الْمَشْهُورِينَ : أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِنَفْيِ التَّشْبِيهِ نَفْيَ الصِّفَاتِ ، وَلَا يَصِفُونَ بِهِ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ الصِّفَاتِ . بَلْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ الْمَخْلُوقَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ أَبِي

حَنِيفَةَ رحمه الله: أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا ، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا ، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، فَنَفَى الْمِثْلَ ، وَأَثْبَتَ الوصف .

وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ نَفْيُ التَّشْبِيهِ مُسْتَلْزِمًا لِنَفْيِ الصِّفَاتِ .

وَنَفْيُ مُشَابَهَةِ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لَهُ ، مُسْتَلْزِمٌ لِنَفْيِ مُشَابَهَتِهِ لِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَلِذَلِكَ اكْتَفَى الشَّيْخُ رحمه الله بِقَوْلِهِ : وَلَا يُشْبِهُ الْأَنَامَ ، وَالْأَنَامُ : النَّاسُ ، وَقِيلَ : الخلقُ كُلُّهُمْ ، وَقِيلَ : كُلُّ ذِي رُوحٍ ، وَقِيلَ : الثَّقَلَانِ ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[الرحمن:١٠] ، يَشْهَدُ لِلْأَوَّلِ أَكْثَرَ مِنَ الْبَاقِي . وَالله أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ : « حَيٌّ لَا يَمُوتُ قَيُّومٌ لَا يَنَامُ » .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]. فَنَفْيُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران:١ـ٣] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه:١١١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الفرقان: ٥٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[غافر:٦٥] . وَقَالَ ﷺ : « **إِنَّ الله لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ** »[(١)] الْحَدِيثَ . لَمَّا نَفَى الشَّيْخُ رحمه الله التَّشْبِيهَ ، أَشَارَ إِلَى مَا تَقَعُ بِهِ التَّفْرِقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، بِمَا يَتَّصِفُ بِهِ تَعَالَى دُونَ خَلْقِهِ ، فَمِنْ ذَلِكَ : أَنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ؛ لِأَنَّ صِفَةَ الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ مُخْتَصَّةٌ بِهِ تَعَالَى دُونَ خَلْقِهِ ، فَإِنَّهُمْ يَمُوتُونَ .

وَمِنْهُ : أَنَّهُ قَيُّومٌ لَا يَنَامُ ؛ إِذْ هُوَ مُخْتَصٌّ بِعَدَمِ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ دُونَ خَلْقِهِ ، فَإِنَّهُمْ

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث رقم ١٧٩).

يَنَامُونَ ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ نَفْيَ التَّشْبِيهِ لَيْسَ الْمُرَادُ به نَفْيَ الصِّفَاتِ ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، لِكَمَالِ ذَاتِهِ .

فَالْحَيُّ بِحَيَاةٍ بَاقِيَةٍ لَا يُشْبِهُ الْحَيَّ بِحَيَاةٍ زَائِلَةٍ ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعًا وَلَهْوًا وَلَعِبًا ، ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ، فَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَالْمَنَامِ ، وَالْحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَالْيَقَظَةِ ، وَلَا يُقَالُ : فَهَذِهِ الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَامِلَةٌ ، وَهِيَ لِلْمَخْلُوقِ ، لِأَنَّا نَقُولُ : الْحَيُّ - الَّذِي الْحَيَاةُ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ اللَّازِمَةِ لَهَا - هُوَ الَّذِي وَهَبَ الْمَخْلُوقَ تِلْكَ الْحَيَاةَ الدَّائِمَةَ ، فَهِيَ دَائِمَةٌ بِإِدَامَةِ الله لَهَا ، لَا أَنَّ الدَّوَامَ وَصْفٌ لَازِمٌ لَهَا لِذَاتِهَا ، بِخِلَافِ حَيَاةِ الرَّبِّ تَعَالَى ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ صِفَاتِهِ ، فَصِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ أَعْنِي : الْحَيَّ الْقَيُّومَ مَذْكُورَانِ فِي الْقُرْآنِ مَعًا فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْمَاءِ الله الْحُسْنَى ، حَتَّى قِيلَ : إِنَّهُمَا الِاسْمُ الْأَعْظَمُ ، فَإِنَّهُمَا يَتَضَمَّنَانِ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَكْمَلَ تَضَمُّنٍ وَأَصْدَقَهُ ، وَيَدُلُّ الْقَيُّومُ عَلَى مَعْنَى الْأَزَلِيَّةِ وَالْأَبَدِيَّةِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْقَدِيمِ .

وَاقْتِرَانُهُ بِالْحَيِّ يَسْتَلْزِمُ سَائِرَ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَيَدُلُّ عَلَى بَقَائِهَا وَدَوَامِهَا ، وَانْتِفَاءِ النَّقْصِ وَالْعَدَمِ عَنْهَا أَزَلًا وَأَبَدًا . وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (١) .

فَعَلَى هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ مَدَارُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى كُلِّهَا ، وَإِلَيْهِمَا تَرْجِعُ مَعَانِيهَا ، فَإِنَّ

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم في «صحيحه» (ترتيب محمد فؤاد حديث ٨١٠) من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ، أَتَدْرِي أَيّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ ؟** » قَالَ: قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ، أَتَدْرِي أَيّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ ؟** » قَالَ : قُلْتُ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ قَالَ : فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ : « **وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ** ».

الْحَيَاةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، فَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا صِفَةٌ مِنْهَا إِلَّا لِضَعْفِ الْحَيَاةِ ، فَإِذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ تَعَالَى أَكْمَلَ حَيَاةٍ وَأَتَمَّهَا ، اسْتَلْزَمَ إِثْبَاتُهَا إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ يُضَادُّ نَفْيُهُ كَمَالَ الْحَيَاةِ .

وَأَمَّا « الْقَيُّومُ » فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ كَمَالَ غِنَاهُ وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ ، فَإِنَّهُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُقِيمُ لِغَيْرِهِ ، فَلَا قِيَامَ لِغَيْرِهِ إِلَّا بِإِقَامَتِهِ ، فَانْتَظَمَ هَذَانِ الِاسْمَانِ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَتَمَّ انْتِظَامٍ .

قَوْلُهُ : « خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ ، رَازِقٌ بِلَا مؤنَةٍ » .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذرايات:٥٦ -٥٨] . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] . ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ [محمد: ٣٨]. ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:١٤]. وَقَالَ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: **« يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ »** الْحَدِيثَ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)] .

وَقَوْلُهُ : « بِلَا مؤنَةٍ » : بِلَا ثِقَلٍ وَلَا كُلْفَةٍ .

******

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٥٧٧)

قَوْلُهُ : « مُمِيتٌ بِلَا مَخَافَةٍ ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ » .

ش : الْمَوْتُ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ ، خِلَافًا لِلْفَلَاسِفَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]. وَالْعَدَمُ لَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا ، وَفِي الْحَدِيثِ : « أَنَّهُ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ » (١) . وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عَرَضًا ، فَاللهُ تَعَالَى يَقْلِبُهُ عَيْنًا ، كَمَا وَرَدَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ ؛ أَنَّهُ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةِ الشَّابِّ الْحَسَنِ ، وَالْعَمَلُ الْقَبِيحُ عَلَى أَقْبَحِ صُورَةٍ (٢) ، وَوَرَدَ فِي الْأَعْمَالِ : أَنَّهَا تُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ (٣) ، وَالْأَعْيَانُ هِيَ الَّتِي تَقْبَلُ الْوَزْنَ دُونَ الْأَعْرَاضِ ، وَوَرَدَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ : أَنَّهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ » (٤) .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) هذا المعنى صحيح : وقد أخرجه أحمد رحمه الله بسند صحيح في « المسند » (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥، ٢٩٦) من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ : « اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ »(مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا) ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ ... وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ .. » الحديث وفيه : « وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ (قلت : أي في قبره) فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ... » الحديث وَذَكَرَ الْعَبْدَ الْكَافِرَ فَقَالَ : « ... وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ ، فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ ... ».

(٣) معنى صحيح: ومن ذلك ما أخرجه البخاري (مع الفتح ١٣/ ٥٣٧) ، ومسلم (مع النووي ١٧/ ١٩) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ ﷺ : « كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ ».

وعند مسلم أيضًا (مع النووي ٣/ ٩٩) من أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

(٤) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٨٠٤) ، من حديث أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه مرفوعًا : « اقْرَأُوا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يأتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شفعيًا لأَصْحَابِهِ ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ : الْبَقَرَةَ ، وسورة آلَ عِمْرَانَ ، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا » ، ثُمَّ قَالَ : « اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ ». قال معاوية : بلغني أن الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ .

وَفِي « الصَّحِيحِ » : أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ (١)، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى .

*****

قَوْلُهُ : « مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلقِهِ ، لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِهِ ، وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيًّا ، كَذَلِكَ لا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيًّا » .

ش : أَيْ : أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ : صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ الله وُصِفَ بِصِفَةٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا ؛ لِأَنَّ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ صِفَاتُ كَمَالٍ ، وَفَقْدَهَا صِفَةُ نَقْصٍ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْكَمَالُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِضِدِّهِ ، وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذا صِفَاتُ الْفِعْلِ وَالصِّفَاتُ الِاخْتِيَارِيَّةُ وَنَحْوُهَا كَالْخَلْقِ ، وَالتَّصْوِيرِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ، وَالْقَبْضِ، وَالْبَسْطِ ، وَالطَّيِّ ، وَالِاسْتِوَاءِ ، وَالْإِتْيَانِ ، وَالْمَجِيءِ ، وَالنُّزُولِ ، وَالْغَضَبِ ، وَالرِّضَا ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ، وَإِنْ كُنَّا لَا نُدْرِكُ كُنْهَهُ وَحَقِيقَتَهُ الَّتِي هِيَ تَأْوِيلُهُ ، وَلَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا ، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا ، وَلَكِنَّ أَصْلَ مَعْنَاهُ مَعْلُومٌ لَنَا ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رضي الله عنه لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] كَيْفَ اسْتَوَى ؟ فَقَالَ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ . وَإِن كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ تَحْدُثُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ،

---

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠] ، وأخرجه البخاري (حديث ٧٩٩) من حديث رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ : « سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ » قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ : رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ : « مَنِ الْمُتَكَلِّمُ ؟ » قَالَ : أَنَا ، قَالَ : « رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ »، وعند النسائي (٥/ ١٤٥) في هذا الحديث : « لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكًا أيهم يصعد بها » .

كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : « **إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ** »(١) .

لِأَنَّ هَذَا الْحُدُوثَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ تَكَلَّمَ الْيَوْمَ وَكَانَ مُتَكَلِّمًا بِالْأَمْسِ لَا يُقَالُ : أَنَّهُ حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ لِآفَةٍ كَالصِّغَرِ وَالْخَرَسِ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ يُقَالُ : حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ .

فَالسَّاكِتُ لِغَيْرِ آفَةٍ يُسَمَّى « مُتَكَلِّمًا بِالْقُوَّةِ » ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ ، وَفِي حَالِ تَكَلُّمِهِ يُسَمَّى « مُتَكَلِّمًا بِالْفِعْلِ » ، وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ فِي حَالِ الْكِتَابَةِ هُوَ كَاتِبٌ بِالْفِعْلِ ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ كَاتِبًا فِي حَالِ عَدَمِ مُبَاشَرَتِهِ لِلْكِتَابَةِ .

وَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ أَشَارَ بِقَوْلِهِ : « **مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ** » إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ – إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الشِّيعَةِ ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ اللهَ تَعَالَى صَارَ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ وَالْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَيْهِ ، لِكَوْنِهِ صَارَ الْفِعْلُ وَالْكَلَامُ مُمْكِنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا ، وَأَنَّهُ انْقَلَبَ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذَّاتِيِّ إِلَى الْإِمْكَانِ الذَّاتِيِّ .

قلت (الشارح) : وَأَنَّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ ، أَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ .

أَمَّا كَوْنُ الرَّبِّ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُعَطَّلًا عَنِ الْفِعْلِ ، ثُمَّ فَعَلَ ، فَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ ، وَلَا فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ ، بَلْ كِلَاهُمَا يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِهِ .

*****

قَوْلُهُ : « لَيْسَ مُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ اسْتَفَادَ اسم « الْخَالِق » ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ

---

(١) حديث الشفاعة الطويل ورد فيه هذا عن النبي ﷺ عند البخاري (حديث ٤٧١٢) ، ومسلم (حديث ١٩٤) .

اسْتَفَادَ اسم « الْبَارِي » » .

ش : قلت (مصطفى): أطال الشارح في هذا المقام بما لا يتعلق كثيرًا بالمتن مع وضوح المتن فالمتن مفاده أن الله ﷻ اسمه الخالق قبل أن يخلق ، واسمه البارئ قبل أن يبرئ . والله أعلم .

*****

قَوْلُهُ : « لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ » .

ش : يَعْنِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ « الرَّبُّ » قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَرْبُوبٌ ، وَمَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ « خَالِقٌ » قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَخْلُوقٌ .

******

قَوْلُهُ : « وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَمَا أَحْيَا ، اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الْخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ » .

ش : يَعْنِي : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ ، فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَالِقٌ قَبْلَ خَلْقِهِمْ .

*****

قَوْلُهُ : « ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

ش : ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِ صِفَاتِهِ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ خَلْقِهِ ، وَالْكَلَامُ عَلَى « كُلّ » وَشُمُولِهَا وَشُمُولِ « كُلّ » فِي كُلِّ مَقَامٍ بِحَسَبِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ ، يَأْتِي فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَقَدْ حَرَّفَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٨٤] ، فَقَالُوا : إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ ، وَأَمَّا نَفْسُ

أَفْعَالِ الْعِبَادِ ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ ، وَتَنَازَعُوا : هَلْ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهَا أَمْ لَا ؟! وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى مَا قَالُوا ، لَكَانَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ : هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَعْلَمُهُ ، وَخَالِقٌ لِكُلِّ مَا يَخْلُقُهُ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ فِيهَا ، فَسَلَبُوا صِفَةَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ : فَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ فَهُوَ مُنْدَرِجٌ فِي هَذَا ، وَأَمَّا الْمُحَالُ لِذَاتِهِ ، مِثْلَ كَوْنِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مَوْجُودًا مَعْدُومًا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ ، فَهَذَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ ، وَلَا يُسَمَّى شَيْئًا ، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ : خَلْقُ مِثْلِ نَفْسِهِ ، وَإِعْدَامُ نَفْسِهِ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ .

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ : الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ التَّامَّةِ ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلَّا مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ ، رَدٌّ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا شبيه ، فَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، فَلَيْسَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ كَسَمْعِ الرَّبِّ وَبَصَرِهِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَةِ تَشْبِيهٌ ، إِذْ صِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، وَصِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ .

وَلَا تَنْفِ عَنِ اللهِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَمَا وَصَفَهُ بِهِ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ ، وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ ، وَأَنْصَحُهُمْ لِأُمَّتِهِ ، وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْبَيَانِ ، فَإِنَّكَ إِنْ نَفَيْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُنْتَ كَافِرًا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَإِذَا وَصَفْتَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَا تُشَبِّهْهُ بِخَلْقِهِ ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَإِذَا شَبَّهْتَهُ بِخَلْقِهِ كُنْتَ كَافِرًا بِهِ ، قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ : مَنْ شَبَّهَ اللهَ

بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ ، فَقَدْ كَفَرَ ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ ، وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا .

*****

قَوْلُهُ : « خَلَقَ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ »

ش : خَلَقَ:أَيْ: أَوْجَدَ وَأَنْشَأَ وَأَبْدَعَ ، وَيَأْتِي « خَلَقَ » أَيْضًا بِمَعْنَى : قَدَّرَ ، أَيْ : خَلَقَهُمْ عَالِمًا بِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٥٩، ٦٠] . وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ .

*****

قَوْلُهُ : « وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَارًا » .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] . وَفِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ »(١) .

قَوْلُهُ : « وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالًا »

ش : يَعْنِي : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدَّرَ آجَالَ الْخَلَائِقِ ، بِحَيْثُ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

(١) صحيح: وقد تقدم الكلام عليه ولفظه عند مسلم : « كتب ... » .

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[يونس:٤٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[آل عمران: ١٤٥] .

وَفِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » (١) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ الله ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ ، قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **قَدْ سَأَلْتِ الله لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ ، وَأَيَّام مَعْدُودَةٍ ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ الله أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ** » .

فَالْمَقْتُولُ مَيِّتٌ بِأَجَلِهِ ، فَعَلِمَ الله تَعَالَى وَقَدَّرَ وَقَضَى أَنَّ هَذَا يَمُوتُ بِسَبَبِ الْمَرَضِ ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْقَتْلِ ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْهَدْمِ ، وَهَذَا بِالْحَرْقِ ، وَهَذَا بِالْغَرَقِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَالله سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، وَخَلَقَ سَبَبَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ .

وَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ : الْمَقْتُولُ مَقْطُوعٌ عَلَيْهِ أَجَلُهُ ، وَلَوْ لَمْ يُقْتَلْ ، لَعَاشَ إِلَى أَجَلِهِ فَكَأَنَّ لَهُ أَجَلَانِ ، وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الله تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَجَلًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعِيشُ إِلَيْهِ الْبَتَّةَ ، أَوْ يَجْعَلُ أَجَلَهُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ ، كَفِعْلِ الْجَاهِلِ بِالْعَوَاقِبِ ، وَوُجُوبِ الْقِصَاصِ وَالضَّمَانِ عَلَى الْقَاتِلِ ، لِارْتِكَابِهِ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ ، وَمُبَاشَرَتِهِ السَّبَبَ الْمَحْظُورَ . وَعَلَى هَذَا يُخَرَّجُ قَوْلُهُ ﷺ : « **صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ** » (٢) أَيْ: هِيَ سَبَبُ طُولِ الْعُمُرِ ، وَقَدْ قَدَّرَ الله أَنَّ هَذَا يَصِلُ رَحِمَهُ ، فَيَعِيشُ

---

(١) صحيح: وأخرجه مسلم (حديث ٢٦٦٣) .

(٢) صحيح: أخرج أحمد بإسناد صحيح عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: « **إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ** ».

وقد ذكر بعض العلماء له علةً وهي أنه روى مرةً من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم=

بِهَذَا السَّبَبِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ السَّبَبُ لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَلَكِنْ قَدَّرَ هَذَا السَّبَبَ وَقَضَاهُ ، وَكَذَلِكَ قَدَّرَ أَنَّ هَذَا يَقْطَعُ رَحِمَهُ فَيَعِيشُ إِلَى كَذَا ، كَمَا قُلْنَا فِي الْقَتْلِ وَعَدَمِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : هَلْ يَلْزَمُ مِنْ تَأْثِيرِ صِلَةِ الرَّحِمِ فِي زِيَادَةِ الْعُمُرِ وَنُقْصَانِهِ تَأْثِيرُ الدُّعَاءِ فِي ذَلِكَ أَمْ لَا ؟

فَالْجَوَابُ : أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ ، لِقَوْلِهِ ﷺ لِأُمِّ حَبِيبَةَ رضي الله عنها : « **قَدْ سَأَلْتِ اللهَ تَعَالَى لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ** » الْحَدِيثَ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

فَعُلِمَ أَنَّ الْأَعْمَارَ مُقَدَّرَةٌ ، لَمْ يُشْرَعِ الدُّعَاءُ بِتَغَيُّرِهَا [١] ، بِخِلَافِ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مَشْرُوعٌ لَهُ ، نَافِعٌ فِيهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِتَغْيِيرِ الْعُمُرِ لَمَّا تَضَمَّنَ النَّفْعَ الْأُخْرَوِيَّ شُرِعَ كَمَا فِي الدُّعَاءِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي** » [٢] ، إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ .

وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « **لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ**

= عن عائشة ، ومرة من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن عائشة مباشرة (بدون ذكر القاسم) ، لكن على كلٍ فللحديث شواهد .

وعند البخاري في « صحيحه » (٥٩٨٥) ، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ أَوْ يُنْسَأَ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ** » وللحديث شواهد أُخر .

(١) قد ورد الدعاء بطول العمر كما في قول سعد بن أبي وقاص لرجل افترى عليه : اللهم أطل عمره ، وأطل فقره ، وعرضه بالفتن .

(٢) **صحيح**: وقد تقدم.

يُصِيبُهُ »[(١)].

وَفِي الْحَدِيثِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّ النَّذْرَ سَبَبٌ فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ وَحُصُولِ النَّعْمَاءِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ نَهَى عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: « **إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ** »[(٢)].

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّعَاءَ يَكُونُ مَشْرُوعًا نَافِعًا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ هُوَ، وَلِهَذَا لَا يُحِبُّ اللهُ الْمُعْتَدِينَ فِي الدُّعَاءِ، وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله يَكْرَهُ أَنْ يُدْعَى لَهُ بِطُولِ الْعُمُرِ، وَيَقُولُ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ [فاطر:١١]، فَقَدْ قِيلَ فِي الضَّمِيرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ: عِنْدِي دِرْهَمٌ وَنِصْفُهُ، أَيْ: وَنِصْفُ دِرْهَمٍ آخَرَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ.

وَقِيلَ: الزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ فِي الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، وَحُمِلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

---

(١) **إسناده حسن لغيره**: وهو عند الحاكم (١/ ٤٩٣)، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح وأخرجه أيضًا أحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠ـ ٢٨٢)، وابن ماجه (حديث ٩٠) وغيرهم.

وللحديث شاهد عند الترمذي (٢١٣٩)، دون قوله: « **وإن الرجل ليحرم الرزق** ... » لكن في إسناده أبو مودود، واسمه فضه، ولم يوثق معتبر.

أما قوله: « **وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه** » فهذا المعنى له شواهد متعددة من كتاب الله ﷻ، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦].

أما قول: لا يزيد في العمر إلا البر، فالبر يزيد في العمر على هذا الحديث، ولكن قد تقدم أيضًا أن صلة الرحم وحسن الجوار يزيدان في الأعمار ... والله أعلم.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث ٦٦٩٢) و(٦٦٩٣) وفي غير موضع، ومسلم (حديث ١٦٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ وعن غير واحدٍ من الصحابة مرفوعًا.

[الرعد: ٣٨، ٣٩] ، عَلَى أَنَّ الْـمَحْوَ وَالْإِثْبَاتَ مِنَ الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الْـمَلَائِكَةِ ، وَأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ اللَّوْحُ الْـمَحْفُوظُ . وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ سِيَاقُ الْآيَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد:٣٩] ، أَيْ : مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ ، ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، أَيْ : أَصْلُهُ ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْـمَحْفُوظُ .

وَقِيلَ : يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَيَنْسَخُهُ ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ ، فَلَا يَنْسَخُهُ ، وَالسِّيَاقُ أَدَلُّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد:٣٨] . فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْتِي بِالْآيَاتِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: ٣٨، ٣٩] ، أَيْ : إِنَّ الشَّرَائِعَ لَهَا أَجَلٌ وَغَايَةٌ تَنْتَهِي إِلَيْهَا ، ثُمَّ تُنْسَخُ بِالشَّرِيعَةِ الْأُخْرَى ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشَّرَائِعِ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ .

وَفِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ أُخْرَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

*****

قَوْلُهُ : «لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ» .

ش : يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا كَانَ ، وَمَا يَكُونُ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٨] ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُرَدُّونَ ، وَلَكِنْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٣] ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الرَّافِضَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ وَيُوجِدَهُ ، وَهِيَ مِنْ فُرُوعِ مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ ، وَسَيَأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بَيَانٍ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

قَوْلُهُ : « وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ » .

ش : ذَكَرَ الشَّيْخُ رحمه الله الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ ، بَعْدَ ذِكْرِهِ الْخَلْقَ وَالْقَدَرَ ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]

*****

قَوْلُهُ : « وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ ، إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ »

ش: قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان:٣٠] وَقَالَ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:١١١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام : ١١٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٩٩] . وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] . وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ عليه السلام إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود:٣٤] .وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:٣٩] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . وَكَيْفَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاؤُه ! وَمَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا وَأَكْفَرُ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنَ الْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ شَاءَ الْكُفْرَ ، فَغَلَبَتْ مَشِيئَةُ الْكَافِرِ مَشِيئَةَ اللهِ ! تَعَالَى اللهُ عَمَّا

يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأنعام:١٤٨] الآية ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ [النحل:٣٥] الآية ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:٢٠] فَقَدْ ذَمَّهُمُ الله تَعَالَى حَيْثُ جَعَلُوا الشِّرْكَ كَائِنًا مِنْهُمْ بِمَشِيئَةِ الله ، وَكَذَلِكَ ذَمَّ إِبْلِيسَ حَيْثُ أَضَافَ الْإِغْوَاءَ إِلَى الله تَعَالَى ، إِذْ قَالَ : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحجر:٣٩] .

قِيلَ : قَدْ أُجِيبَ عَلَى هَذَا بِأَجْوِبَةٍ ، مِنْ أَحْسَنِهَا :

أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمُ احْتَجُّوا بِمَشِيئَتِهِ عَلَى رِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ ، وَقَالُوا : لَوْ كَرِهَ ذَلِكَ وَسَخِطَهُ ، لَمَا شَاءَهُ فَجَعَلُوا مَشِيئَتَهُ دَلِيلَ رِضَاهُ ، فَرَدَّ الله عَلَيْهِمْ ذَلِكَ .

أَوْ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ اعْتِقَادَهُمْ أَنَّ مَشِيئَةَ الله دَلِيلٌ عَلَى أَمْرِهِ بِهِ .

أَوْ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُعَارَضَةَ شَرْعِهِ ، وَأَمْرِهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَجَعَلُوا الْمَشِيئَةَ الْعَامَّةَ دَافِعَةً لِلْأَمْرِ ، فَلَمْ يَذْكُرُوا الْمَشِيئَةَ عَلَى جِهَةِ التَّوْحِيدِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرُوهَا مُعَارِضِينَ بِهَا لِأَمْرِهِ ، دَافِعِينَ بِهَا لِشَرْعِهِ ، كَفِعْلِ الزَّنَادِقَةِ ، وَالْجُهَّالِ إِذَا أُمِرُوا أَوْ نُهُوا احْتَجُّوا بِالْقَدَرِ ، وَقَدِ احْتَجَّ سَارِقٌ عَلَى عُمَرَ ﷺ بِالْقَدَرِ ، فَقَالَ : وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام:١٤٨] ، فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُمُ التَّكْذِيبُ ، فَهُوَ مِنْ قَبْلِ الْفِعْلِ ، مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ الله لَمْ يُقَدِّرْهُ؟ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ؟!

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُونَ فِي احْتِجَاجِ آدَمَ عَلَى مُوسَى عليهما السلام بِالْقَدَرِ ، إِذْ قَالَ لَهُ : أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا؟ وَشَهِدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ

آدَمَ حَجَّ مُوسَى ، أَيْ : غَلَبَه بِالْحُجَّةِ (١).

قِيلَ : نَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، لِصِحَّتِهِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ، وَلَا نَتَلَقَّاهُ بِالرَّدِّ التَّكْذِيبِ لِرَاوِيهِ ، كَمَا فَعَلَتِ الْقَدَرِيَّةُ ، وَلَا بِالتَّأْوِيلاتِ الْبَارِدَةِ ، بَلِ الصَّحِيحُ أَنَّ آدَمَ لَمْ يَحْتَجَّ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عَلَى الذَّنْبِ ، وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِرَبِّهِ وَذَنْبِهِ ، بَلْ آحَادُ بَنِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ ، فَإِنَّهُ بَاطِلٌ ، وَمُوسَى عليه السلام كَانَ أَعْلَمَ بِأَبِيهِ وَبِذَنْبِهِ مِنْ أَنْ يَلُومَ آدَمَ عليه السلام عَلَى ذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ وَتَابَ الله عَلَيْهِ ، وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ ، وَإِنَّمَا وَقَعَ اللَّوْمُ عَلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي أَخْرَجَتْ أَوْلَادَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، فَاحْتَجَّ آدَمُ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ ، لَا عَلَى الْخَطِيئَةِ ، فَإِنَّ الْقَدَرَ يُحْتَجُّ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ ، لَا عِنْدَ الْمَعَايِبِ.

وَهَذَا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ . فَمَا قُدِّرَ مِنَ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ لَهُ ، فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرِّضَى بِالله رَبًّا ، وَأَمَّا الذُّنُوبُ : فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُذْنِبَ ، وَإِذَا أَذْنَبَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ ، فَيَتُوبَ مِنَ الْمَعَايِبِ ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَصَائِبِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [المؤمن:٥٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٤٠٩) وفي غير موطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٦٥٢) ، وفي لفظ لمسلم (ص٢٠٤٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عليهما السلام عِنْدَ ربهما ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ، قَالَ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ الله بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ الله كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ قَالَ مُوسَى : بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ : فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١] ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ الله عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟ » قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ».

وَأَمَّا قَوْلُ إِبْلِيسَ : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الحجر : ٣٩] ، إِنَّمَا ذُمَّ عَلَى احْتِجَاجِهِ بِالْقَدَرِ ، لَا عَلَى اعْتِرَافِهِ بِالْقَدَرِ وَإِثْبَاتِهِ لَهُ ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ نُوحٍ ﷺ : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[هود: ٣٤] .

******

قَوْلُهُ : « يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلًا . وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي عَدْلًا » .

ش : هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ فِعْلِ الْأَصْلَحِ لِلْعَبْدِ عَلَى الله ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْهُدَى وَالإِضْلَالِ .

قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ : الْهُدَى مِنَ الله : بَيَانُ طَرِيقِ الصَّوَابِ ، وَالْإِضْلَالُ : تَسْمِيَةُ الْعَبْدِ ضَالًّا ، أَوْ حُكْمُهُ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ بِالضَّلَالِ عِنْدَ خَلْقِ الْعَبْدِ الضَّلَالَ فِي نَفْسِهِ ، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ : أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لَهُمْ (١)، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦] ، وَلَوْ كَانَ الْهُدَى بَيَانُ الطَّرِيقِ ، لَمَا صَحَّ هَذَا النَّفْيُ عَنْ نَبِيِّهِ ؛ لِأَنَّهُ ﷺ بَيَّنَ الطَّرِيقَ لِمَنْ أَحَبَّ وَأَبْغَضَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة:١٣] ، ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[المدثر:٣١] ، وَلَوْ كَانَ الْهُدَى مِنَ الله الْبَيَانُ ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ نَفْسٍ ، لَمَا صَحَّ التَّقْيِيدُ بِالْمَشِيئَةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾[الصافات:٥٧] وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الأنعام: ٣٩] .

---

(١) يعنون أنهم يخلقون أفعال أنفسهم .

قَوْلُهُ : « وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ ، بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ » .

ش : فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢] فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ فَبِفَضْلِهِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَبِعَدْلِهِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَسَيَأْتِي لِهَذَا الْمَعْنَى زِيَادَةُ إِيضَاحٍ ، إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى ، فَإِنَّ الشَّيْخَ رحمه الله لَمْ يَجْمَعِ الْكَلَامَ فِي الْقَدَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، بَلْ فَرَّقَهُ ، فَأَتَيْتُ بِهِ عَلَى تَرْتِيبِهِ .

*****

قَوْلُهُ : « وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ » .

ش : الضِّدُّ : الْمُخَالِفُ ، وَالنِّدُّ : الْمِثْلُ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا مُعَارِضَ لَهُ ، بَلْ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَا مِثْلَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤] . وَيُشِيرُ الشَّيْخُ رحمه الله بِنَفْيِ الضِّدِّ وَالنِّدِّ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ ، فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الْعَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَهُ.

*****

قَوْلُهُ : « لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ » .

ش : أَيْ : لَا يَرُدُّ قَضَاءَ الله رَادٌّ ، وَلَا يُعَقِّبُ ، أَيْ لَا يُؤَخِّرُ حُكْمَهُ ، مُؤَخِّرٌ ، وَلَا يَغْلِبُ أَمْرَهُ غَالِبٌ ، بَلْ هُوَ الله الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

*****

قَوْلُهُ : « آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَيْقَنَّا أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِهِ » .

ش : أَمَّا الْإِيمَانُ ، فَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى ، وَالْإِيقَانُ : الِاسْتِقْرَارُ ، مِنْ يَقِنَ الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ : إِذَا اسْتَقَرَّ ، وَالتَّنْوِينُ فِي « كُلًّا » بَدَلُ الْإِضَافَةِ ، أَيْ : كُلُّ كَائِنٍ مُحْدَثٍ مِنْ عِنْدِ الله ، أَيْ : بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَكْوِينِهِ . وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ ، إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى .

قَوْلُهُ : « وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى ، وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى ، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى » .

ش : الِاصْطِفَاءُ وَالِاجْتِبَاءُ وَالِارْتِضَاءُ : مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى .

وَاعْلَمْ أَنَّ كَمَالَ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لله تَعَالَى ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ ، ازْدَادَ كَمَالُهُ ، وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ ، بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَأَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَذَكَرَ الله نَبِيَّهُ ﷺ بِاسْمِ الْعَبْدِ فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ ، فَقَالَ فِي ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء:١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن:١٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:١٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة:٢٣] ، وَبِذَلِكَ اسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ عَلَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْمَسِيحُ عليه السلام يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام : « اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ »(١) . فَحَصَلَتْ لَهُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ بِتَكْمِيلِ عُبُودِيَّتِهِ لله تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : « وَإِنَّ مُحَمَّدًا » بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ ، عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ : « إِنَّ الله وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ » . لِأَنَّ الْكُلَّ مَعْمُولُ الْقَوْلِ ، أَعْنِي : قَوْلَهُ : « نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ الله » .

وَالطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ ، تَقْرِيرُ نُبُوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمُعْجِزَاتِ ، لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ نُبُوَّةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُضْطَرِبَةٍ ، وَالْتَزَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِنْكَارَ خَرْقِ الْعَادَاتِ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ، حَتَّى أَنْكَرُوا كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالسِّحْرِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ .

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري في حديث الشفاعة الطويل (٤٤٧٦) وفي غير موضع من الصحيح ، ومسلم (حديث ١٩٣).

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ ، لَكِنَّ الدَّلِيلَ غَيْرُ مَحْصُورٍ فِي الْمُعْجِزَاتِ ، فَإِنَّ النُّبُوَّةَ إِنَّمَا يَدَّعِيهَا أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ أَوْ أَكْذَبُ الْكَاذِبِينَ ، وَلَا يَلْتَبِسُ هَذَا بِهَذَا إِلَّا عَلَى أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ ، بَلْ قَرَائِنُ أَحْوَالِهِمَا تُعْرِبُ عَنْهُمَا ، وَتُعَرِّفُ بِهِمَا ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ فِيمَا دُونَ دَعْوَى النُّبُوَّةِ ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ؟ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ حَسَّانُ رضي الله عنه :

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ   كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

وَمَا مِنْ أَحَدٍ ادَّعَى النُّبُوَّةَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ، إِلَّا وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْكَذِبِ وَالْفُجُورِ وَاسْتِحْوَاذِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ مَا ظَهَرَ لِمَنْ لَهُ أَدْنَى تَمْيِيزٍ ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا بُدَّ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِأُمُورٍ ، وَيَأْمُرَهُمْ بِأُمُورٍ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ أُمُورًا يُبَيِّنُ بِهَا صِدْقَهُ ، وَالْكَاذِبُ يَظْهَرُ فِي نَفْسِ مَا يَأْمُرُ بِهِ ، وَمَا يُخْبِرُ عَنْهُ ، وَمَا يَفْعَلُهُ مَا يَبِينُ بِهِ كَذِبُهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، وَالصَّادِقُ ضِدُّهُ ، بَلْ كُلُّ شَخْصَيْنِ ادَّعَيَا أَمْرًا : أَحَدُهُمَا : صَادِقٌ ، وَالْآخَرُ : كَاذِبٌ ، لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ صِدْقُ هَذَا وَكَذِبُ هَذَا وَلَوْ بَعْدَ مُدَّةٍ ، إِذِ الصِّدْقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبِرِّ ، وَالْكَذِبُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْفُجُورِ ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَلا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا** » . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٦] .

---

(١) صحيح : وهو بهذا اللفظ عند مسلم (حديث ٢٦٠٧ص ٢٠١٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا ، وله لفظ مختصرًا عند البخاري (حديث ٦٠٩٤) ، ومسلم (ص ٢٠١٢) .

فَالْكُهَّانُ وَنَحْوُهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يُخْبِرُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِيَّاتِ ، وَيَكُونُ صِدْقًا ، فَمَعَهُمْ مِنَ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي يُخْبِرُونَ بِهِ لَيْسَ عَنْ مَلَكٍ ، وَلَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ صَيَّادٍ : « **قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا** » ، وَقَالَ : هُوَ الدُّخُّ ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « **اخْسَأْ ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ** »[1] يَعْنِي : إِنَّمَا أَنْتَ كَاهِنٌ . وَقَدْ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ ، وَقَالَ : أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ ، وَذَلِكَ هُوَ عَرْشُ الشَّيْطَانِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، وَالْغَاوِي : الَّذِي يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُضِرًّا لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ .

فَمَنْ عَرَفَ الرَّسُولَ وَصِدْقَهُ وَوَفَاءَهُ وَمُطَابَقَةَ قَوْلِهِ لِعَمَلِهِ ، عَلِمَ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا كَاهِنٍ .

وَالنَّاسُ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ ، حَتَّى فِي الْمُدَّعِي لِلصِّنَاعَاتِ وَالْمَقَالَاتِ ، كَمَنْ يَدَّعِي الْفِلَاحَةَ وَالنِّسَاجَةَ وَالْكِتَابَةَ ، أَوْعِلْمَ النَّحْوِ وَالطِّبِّ وَالْفِقْهِ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَالنُّبُوَّةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عُلُومٍ وَأَعْمَالٍ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّصِفَ الرَّسُولُ بِهَا ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُ الْأَعْمَالِ . فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ الصَّادِقُ فِيهَا بِالْكَاذِبِ؟ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ رِضَى الرَّجُلِ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ وَفَرَحَهُ وَحُزْنَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِي نَفْسِهِ ، بِأُمُورٍ تَظْهَرُ عَلَى وَجْهِهِ ، قَدْ لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [محمد:٣٠] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ وَقَدْ قِيلَ : مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (ص٢٢٤٠، ٢٢٤١) من حديث عبد الله ، وهو ابن مسعود رضي الله عنه . وله رواية عند البخاري (حديث ٣٠٥٥) ،وعند مسلم (حديث ٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

إِلَّا أَظْهَرَهَا الله عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ .

فَإِذَا كَانَ صِدْقُ الْمُخْبِرِ وَكَذِبُهُ يُعْلَمُ بِمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى الْمُدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ الله ، كَيْفَ يَخْفَى صِدْقُ هَذَا مِنْ كَذِبِهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَتَمَيَّزُ الصَّادِقُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَاذِبِ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ؟!

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ خَدِيجَةُ ﵂ تَعْلَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ الصَّادِقُ الْبَارُّ ، قَالَ لَهَا لَمَّا جَاءَهُ الْوَحْيُ : « **إِنِّي قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ، فَقَالَتْ : كَلَّا ، وَالله لَا يُخْزِيكَ الله أَبدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ** »(١) . فَهُوَ لَمْ يَخَفْ مِنْ تَعَمُّدِ الْكَذِبِ ، فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ ، وَإِنَّمَا خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ ، وَهُوَ الْمَقَامُ الثَّانِي ، فَذَكَرَتْ خَدِيجَةُ مَا يَنْفِي هَذَا ، وَهُوَ مَا كَانَ مَجْبُولًا عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيَمِ ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سُنَّةِ الله أَنَّ مَنْ جَبَلَهُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَنَزَّهَهُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ : فَإِنَّهُ لَا يُخْزِيهِ .

وَكَذَلِكَ قَالَ النَّجَاشِيُّ لَمَّا اسْتَخْبَرَهُمْ عَمَّا يُخْبِرُ بِهِ ، وَاسْتَقْرَأَهُمُ الْقُرْآنَ فَقَرَؤُوا عَلَيْهِ : « إِنَّ هَذَا - وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﵇ - لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ »(٢) .

وَكَذَلِكَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، لَمَّا أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَآهُ ، وَكَانَ وَرَقَةُ قَدْ تَنَصَّرَ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : « أَيْ عَمِّ ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ مَا يَقُولُ ؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَأَى ، فَقَالَ : هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى »(٣) .

وَكَذَلِكَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى

---

(١) صحيح : وأخرجه البخاري في حديث طويل (حديث رقم ٣) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ١٦٠) من حديث عائشة ﵂ .

(٢) حسن : أخرجه أحمد (١/ ٢٠٣) من حديث أم سلمة ﵂ .

(٣) صحيح : وانظر حديث عائشة المشار إليه قريبًا .

الْإِسْلَامِ ، طَلَبَ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ إِنْ كَذَبَ أَنْ يُكَذِّبُوهُ ، فَصَارُوا بِسُكُوتِهِمْ مُوَافِقِينَ لَهُ فِي الْأَخْبَارِ :

سَأَلَهُمْ : هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالُوا : لَا .

قَالَ : هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقَالُوا : لَا .

وَسَأَلَهُمْ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالُوا : لَا ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا .

وَسَأَلَهُمْ : هَلِ اتَّبَعَهُ ضُعَفَاءُ النَّاسِ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَذَكَرُوا أَنَّ الضُّعَفَاءَ اتَّبَعُوهُ .

وَسَأَلَهُمْ : هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ .

وَسَأَلَهُمْ : هَلْ يَرْجِعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقَالُوا : لَا .

وَسَأَلَهُمْ : هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالُوا : نَعَمْ .

وَسَأَلَهُمْ :عَنِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقَالُوا : يُدَالُ عَلَيْنَا مَرَّةً وَنُدَالُ عَلَيْهِ أُخْرَى .

وَسَأَلَهُمْ : هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ .

وَسَأَلَهُمْ : بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَقَالُوا : يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ .

وَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ مَسَائِلَ ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ مَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنَ الْأَدِلَّةِ ، فَقَالَ :

سَأَلْتُكُمْ : هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقُلْتُمْ : لَا ، قُلْتُ : لَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ لَقُلْتُ : رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ .

وَسَأَلْتُكُمْ : هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ فِيكُمْ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقُلْتُمْ : لَا ، فَقُلْتُ : لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ لَقُلْتُ : رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ .

وَسَأَلْتُكُمْ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقُلْتُمْ : لَا ،

فَقُلْتُ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبُ عَلَى الله تعالى .

وَسَأَلْتُكُمْ : أَضُعَفَاءُ النَّاسِ يَتْبَعُونَهُ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتُمْ : ضُعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ، يَعْنِي فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ : وَسَأَلْتُكُمْ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَقُلْتُمْ ، بَلْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ .

وَسَأَلْتُكُمْ : هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقُلْتُمْ : لَا ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ ، إِذَا خَالَطَتْ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ(١) .

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (حديث رقم ٧) وفي مواطن أُخر من صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا لفظ الحديث خشية بعض التداخلات من كلام المصنف رحمه الله : أخرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّامِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ : أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَقُلْتُ : أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا ، فَقَالَ : أَدْنُوهُ مِنِّي ، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ : قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ ، فَوَاللهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ : كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ ؟ قُلْتُ : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ ، قَالَ : فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَقُلْتُ : بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ ، قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ قُلْتُ : بَلْ يَزِيدُونَ ، قَالَ : فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ قُلْتُ : لَا، قَالَ : فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : لَا، قَالَ : فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قُلْتُ : لَا ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا ، قَالَ : وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، قَالَ : فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ قُلْتُ : الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ ، قَالَ : مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ : يَقُولُ : اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ ، فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ : قُلْ لَهُ : سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ ؟ فَذَكَرْتَ : أَنْ لَا ، فَقُلْتُ : لَوْ كَانَ أَحَدٌ =

= قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ فَذَكَرْتَ : أَنْ لاَ ، قُلْتُ : فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ قُلْتُ : رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ ، وَسَأَلْتُكَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ فَذَكَرْتَ : أَنْ لاَ ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى الله ، وَسَأَلْتُكَ : أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ : أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ، وَسَأَلْتُكَ : أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ فَذَكَرْتَ : أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ ، وَسَأَلْتُكَ : أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ، فَذَكَرْتَ : أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ ، وَسَأَلْتُكَ : هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ : أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ ، وَسَأَلْتُكَ : بِمَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَذَكَرْتَ : أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ .

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ الله ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ ، فَقَرَأَهُ ، فَإِذَا فِيهِ :

«**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ** ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:٦٤] » .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ ، وَأُخْرِجْنَا ، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا : لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ الله عَلَيَّ الإِسْلاَمَ .

وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ : صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ ـ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّامِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ : قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ ، قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ : وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ : إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ؟ قَالُوا : لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلاَّ الْيَهُودُ ، فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ : اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ : هُمْ يَخْتَتِنُونَ ، فَقَالَ هِرَقْلُ : هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ ، ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ عَلَامَاتِ الصِّدْقِ وَالْحَقِّ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْكَشِفَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ ، فَيَرْجِعَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَيَمْتَنِعَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ ، وَالْكَذِبُ لَا يَرُوجُ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ يَنْكَشِفُ .

وَسَأَلْتُكُمْ : كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُمْ : إِنَّهَا دُوَلٌ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَهَا .

قَالَ : وَسَأَلْتُكُمْ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَقُلْتُمْ : لَا ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ .

وَهُوَ لِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِعَادَةِ الرُّسُلِ وَسُنَّةِ اللهِ فِيهِمْ ، أَنَّهُ تَارَةً يَنْصُرُهُمْ وَتَارَةً يَبْتَلِيهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ ، عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ عَلَامَاتُ الرُّسُلِ ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، لِيَنَالُوا دَرَجَةَ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ .

كَمَا فِي « الصَّحِيحِ » عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** »(١) .

وَاللهُ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ فِي الْقُرْآنِ مَا فِي إِدَالَةِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الْآيَاتِ [آل عمران:١٣٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ الْآيَاتِ [العنكبوت: ١ ، ٢] .

= يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الرُّومِ ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ ؟ فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ ، قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ ، وَقَالَ : إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ.

(١) صحيح بلفظ قريب : فقد أخرجه مسلم (حديث ٢٩٩٩) ، من حديث صُهَيْبٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** » .

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى سُنَّتِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَحِكْمَتِهِ الَّتِي بَهَرَتِ الْعُقُولَ .

قَالَ : وَسَأَلْتُكُمْ عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ؟ فَذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ والزكاة وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ، وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ .

وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ ، لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا ، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ .

وَكَانَ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَهُوَ حِينَئِذٍ كَافِرٌ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بُغْضًا وَعَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ : فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي وَنَحْنُ خُرُوجٌ ، لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، إِنَّهُ لَيُعَظِّمُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ ، وَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ سَيَظْهَرُ ، حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهٌ (١) .

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ :أَنَّ مَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ بِمَجْمُوعِ أُمُورٍ ، قَدْ لَا يَسْتَقِلُّ بَعْضُهَا بِهِ ، بَلْ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ شِبَعٍ وَرِيٍّ وَشُكْرٍ وَفَرَحٍ وَغَمٍّ بِأُمُورٍ مُجْتَمِعَةٌ ، لَا يَحْصُلُ بِبَعْضِهَا ، لَكِنْ بِبَعْضِهَا قَدْ يَحْصُلُ بَعْضُ الْأَمْرِ .

وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِخَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ ، فَإِنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ يُحَصِّلُ لِلْقَلْبِ نَوْعَ ظَنٍّ ، ثُمَّ الْآخَرُ يُقَوِّيهِ ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعِلْمِ ، حَتَّى يَتَزَايَدَ وَيَقْوَى . وَكَذَلِكَ الْأَدِلَّةُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ وَنَحْوَ ذَلِكَ .

وَأَيْضًا : فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ الْآثَارَ الدَّالَّةَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِأَنْبِيَائِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَمَا فَعَلَهُ بِمُكَذِّبِيهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، كَتَوَاتُرِ الطُّوفَانِ ،

---

(١) **صحيح:** هو جزء من الحديث قبل السابق .

وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا بَعْدَ نَبِيٍّ ، فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ، كَقِصَّةِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ ، يَقُولُ فِي آخِرِ كُلِّ قِصَّةٍ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٧، ٦٨]

وَبِالْجُمْلَةِ : فَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ الله ، وَأَنَّ أَقْوَامًا اتَّبَعُوهُمْ ، وَأَنَّ أَقْوَامًا خَالَفُوهُمْ ، وَأَنَّ الله نَصَرَ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ ، وَعَاقَبَ أَعْدَاءَهُمْ : هُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْعُلُومِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَأَجْلَاهَا .

وَنَقْلُ أَخْبَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَظْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنْ نَقْلِ أَخْبَارِ مَنْ مَضَى مِنَ الْأُمَمِ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَعُلَمَاءِ الطِّبِّ ، كَبُقْرَاطَ وَجَالِينُوسَ وَبَطْلَيْمُوسَ وَسُقْرَاطَ وَأَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطُو وَأَتْبَاعِهِ .

الأَدِلَّة عَلَى صِدْقِ الأَنْبِيَاءِ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلَاة وَالسَّلَام :

وَنَحْنُ الْيَوْمَ إِذَا عَلِمْنَا بِالتَّوَاتُرِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ – عَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّهُمْ كَانُوا صَادِقِينَ عَلَى الْحَقِّ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ :

مِنْهَا : أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا الْأُمَمَ بِمَا سَيَكُونُ مِنِ انْتِصَارِهِمْ وَخِذْلَانِ أُولَئِكَ وَبَقَاءِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ .

وَمِنْهَا : مَا أَحْدَثَهُ الله لَهُمْ مِنْ نَصْرِهِمْ وَإِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ ، إِذَا عُرِفَ الْوَجْهُ الَّذِي حَصَلَ عَلَيْهِ ، كَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَغَرَقِ قَوْمِ نُوحٍ وَبَقِيَّةِ أَحْوَالِهِمْ ، عُرِفَ صِدْقُ الرُّسُلِ .

وَمِنْهَا : أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَتَفَاصِيلِ أَحْوَالِهَا ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ الْخَلْقِ ، وَأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ كَذَّابٍ جَاهِلٍ ، وَأَنَّ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهُدَى وَالْخَيْرِ وَدَلَالَةِ الْخَلْقِ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُمْ ـ مَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ رَاحِمٍ بَرٍّ يَقْصِدُ غَايَةَ الْخَيْرِ وَالْمَنْفَعَةِ لِلْخَلْقِ.

وَلِذِكْرِ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ ، وَقَدْ أَفْرَدَهَا

النَّاسُ بِمُصَنَّفَاتٍ ، كَالْبَيْهَقِيِّ وَغَيْرِهِ .

بَلْ إِنْكَارُ رِسَالَتِهِ ﷺ طَعْنٌ فِي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَنِسْبَتُهُ إِلَى الظُّلْمِ وَالسَّفَهِ ، تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، بَلْ جَحْدٌ لِلرَّبِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْكَارٌ .

وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ عِنْدَهُمْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ صَادِقٍ ، بَلْ مَلِكٌ ظَالِمٌ ، فَقَدْ تَهَيَّأَ لَهُ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى الله وَيَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَمِرَّ حَتَّى يُحَلِّلَ وَيُحَرِّمَ ، وَيَفْرِضَ الْفَرَائِضَ ، وَيُشَرِّعَ الشَّرَائِعَ ، وَيَنْسَخَ الْمِلَلَ ، وَيَضْرِبَ الرِّقَابَ ، وَيَقْتُلَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ وَهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ ، وَيَسْبِيَ نِسَاءَهُمْ ، وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، وَيَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَفْتَحَ الْأَرْضَ ، وَيَنْسِبَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَمْرِ الله لَهُ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُشَاهِدُهُ وَهُوَ يَفْعَلُ بِأَهْلِ الْحَقِّ ، وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ ، وَيُعْلِي أَمْرَهُ ، وَيُمَكِّنُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْخَارِجَةِ عَنْ عَادَةِ الْبَشَرِ ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُجِيبُ دَعَوَاتِهِ ، وَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُ ، وَيَرْفَعُ لَهُ ذِكْرَهُ ، هَذَا وَهُوَ عِنْدَهُمْ فِي غَايَةِ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالظُّلْمِ ، فَإِنَّهُ لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى الله وَأَبْطَلَ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ ، وَبَدَّلَهَا ، وَقَتَلَ أَوْلِيَاءَهُ ، وَاسْتَمَرَّتْ نُصْرَتُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا ، وَالله تَعَالَى يُقِرُّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، وَلَا يَقْطَعُ مِنْهُ الْوَتِينَ .

فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا : لَا صَانِعَ لِلْعَالَمِ ، وَلَا مُدَبِّرَ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مُدَبِّرٌ قَدِيرٌ حَكِيمٌ ، لَأَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَلَقَابَلَهُ أَعْظَمَ مُقَابَلَةٍ ، وَجَعَلَهُ نَكَالًا لِلصَّالِحِينَ ، إِذْ لَا يَلِيقُ بِالْمُلُوكِ غَيْرُ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ ، وَأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ؟

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الله تَعَالَى قَدْ رَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَالشَّهَادَةَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَذَّابِينَ قَامَ فِي الْوُجُودِ ، وَظَهَرَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ، وَلَكِنْ لَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ ، بَلْ سَلَّطَ الله عَلَيْهِ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ ، فَقَطَعُوا دَابِرَهُ وَاسْتَأْصَلُوهُ ، هَذِهِ سُنَّةُ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ

قَبْلُ ، حَتَّى إِنَّ الْكُفَّارَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١] ، أَفَلَا تَرَاهُ يُخْبِرُ أَنَّ كَمَالَهُ وَحِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْبَى أَنْ يُقِرَّ مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيْهِ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، بل لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِعِبَادِهِ كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ سُنَّتُهُ فِي الْمُتَقَوِّلِينَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى : ٢٤] وَهُنَا انْتَهَى جَوَابُ الشَّرْطِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ خَبَرًا جَازِمًا غَيْرَ مُعَلَّقٍ : أَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٩١] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ نَفَى عَنْهُ الْإِرْسَالَ وَالْكَلَامَ لَمْ يُقَدِّرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ .

الفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ :

وَقَدْ ذَكَرُوا فُرُوقًا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ ، وَأَحْسَنُهَا : أَنَّ مَنْ نَبَّأَهُ الله بِخَبَرِ السَّمَاءِ ، إِنْ أَمَرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ ، فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ، فَالرَّسُولُ أَخَصُّ مِنَ النَّبِيِّ ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا ، وَلَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا ، فَالنُّبُوَّةُ جُزْءٌ مِنَ الرِّسَالَةِ ، إِذِ الرِّسَالَةُ تَتَنَاوَلُ النُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَنَاوَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ ، بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ ، فَالرِّسَالَةُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا ، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَهْلِهَا .

وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ الله عَلَى خَلْقِهِ ، وَخُصُوصًا مُحَمَّدًا ﷺ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

******

قَوْلُهُ: « وَأَنَّهُ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ ».

ش: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وَقَالَ ﷺ: « مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ بِنَيَانُهُ، وَتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ، فَطَافَ بِهِ النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ، إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بِيَ الْبُنْيَانُ وَخُتِمَ بِيَ الرُّسُلُ »، خَرْجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١).

وَقَالَ ﷺ: « إِنَّ لِي أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ، وَ« الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ »(٢).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « وَإِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي »(٣)،

---

(١) أخرج البخاري (حديث ٣٥٣٥)، ومسلم (حديث ٢٢٨٦) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: « مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بنيانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا بُنْيَانًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِلاَّ هَذِهِ اللَّبِنَةَ، فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةَ ».
وعند البخاري أيضًا (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلاَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ! ». قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ، جِئْتُ فَخَتَمْتُ الأَنْبِيَاءَ ».

(٢) أخرج البخاري (حديث ٣٥٣٢)، ومسلم (حديث ٢٣٥٤) من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ مرفوعًا، وعند مسلم زيادة: « وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ ».
والذي يظهر أن لفظة: « وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ » مُدرج من كلام بعض الرواة، وهو الزهري. انظر ما يفيد ذلك عند الحافظ في الفتح (٦/ ٥٥٧)، وفي صحيح مسلم (ص١٨٢٨).

(٣) هذه اللفظة لم أقف عليها عند مسلم من حديث ثوبان فعند مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ=

الحَدِيثَ .

وَلِمُسْلِمٍ : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ »(١) .

*****

قَوْلُهُ : « وَإِمَامُ الْأَتْقِيَاءِ »

ش : الْإِمَامُ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ ، أَيْ : يَقْتَدُونَ بِهِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا بُعِثَ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَتْقِيَاءِ .

*****

قَوْلُهُ : « وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ » .

ش : قَالَ ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢) . وَفِي أَوَّلِ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ

= مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ : مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ». وهذا الحديث عند أبي داود أيضًا (٤٢٥٢) من نفس الطريق (باستثناء شيخ مسلم) وعنده الزيادة المذكورة : « وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاَثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لاَ نَبِيَّ بَعْدِي » .

وعند مسلم (حديث ١٥٧ ص٢٢٣٩) ، والبخاري (حديث٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ... وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلاَثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ » .

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (حديث٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[١] وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »[٢].

وجه الجمع بين قوله ﷺ: « أنا سيد الناس » وقوله: « لا تفضلوني على موسى »:

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: « **لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِسَاقِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ؟** » خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[٣]، فَكَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ** »[٤].

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا كَانَ لَهُ سَبَبٌ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ قَالَ يَهُودِيٌّ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَلَطَمَهُ مُسْلِمٌ، وَقَالَ: أَتَقُولُ هَذَا وَرَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ، فَاشْتَكَى مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَطَمَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا؛ لِأَنَّ التَّفْضِيلَ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْحَمِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَهَوَى النَّفْسِ، كَانَ مَذْمُومًا، بَلْ نَفْسُ الْجِهَادِ إِذَا قَاتَلَ الرَّجُلُ حَمِيَّةً وَعَصَبِيَّةً كَانَ مَذْمُومًا، فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ الْفَخْرَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث٣٣٤٠)، ومسلم (حديث١٩٤) وفي غير موطن من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (حديث٢٢٧٦).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٤٠٨)، ومسلم (ص ١٨٤٤) وفي غير موطن، بألفاظ قريبة.

(٤) صحيح: وتقدم قريبًا حديث: « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »، وثَمَّ شواهد أُخر بلفظ: « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ** »، عند أحمد (٣/ ١٤٤) من حديث أنس مرفوعًا، وآخر عند أحمد أيضًا (٣/ ٢)، من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا وشواهد أُخر متعددة.

دَرَجَـٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمَذْمُومَ إِنَّمَا هُوَ التَّفْضِيلُ عَلَى وَجْهِ الْفَخْرِ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الِانْتِقَاصِ بِالْمَفْضُولِ . وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ أَيْضًا قَوْلُهُ ﷺ : « **لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ** » [١] ، إِنْ كَانَ ثَابِتًا ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ رُوِيَ فِي نَفْسِ حَدِيثِ مُوسَى ، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ ، لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ : إِنَّ فِيهِ عِلَّةً ، بِخِلَافِ حَدِيثِ مُوسَى ، فَإِنَّهُ صَحِيحٌ لَا عِلَّةَ فِيهِ بِاتِّفَاقِهِمْ .

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُهُمْ بِجَوَابٍ آخَرَ ، وَهُوَ : أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ : « **لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى** » ، وَقَوْلَهُ : « **لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ** » نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ الْخَاصِّ ، أَيْ : لَا يُفَضَّلُ بَعْضُ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ بِعَيْنِهِ ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ : « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ** » فَإِنَّهُ تَفْضِيلٌ عَامٌّ فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ ، وَهَذَا كَمَا لَوْ قِيلَ : فُلَانٌ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَلَدِ ، لَا يَنصَبُّ عَلَى أَفْرَادِهِمْ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ : فُلَانٌ أَفْضَلُ مِنْكَ . ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ الطَّحَاوِيَّ رَحِمَهُ اللهُ قَدْ أَجَابَ بِهَذَا الْجَوَابِ فِي « شَرْحِ مَعَانِي الْآثَارِ » .

وَأَمَّا مَا يُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ** » ، وَأَنَّ بَعْضَ الشُّيُوخِ قَالَ : لَا يُفَسِّرُ لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى يُعْطَى مَالًا جَزِيلًا ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ فَسَّرَهُ بِأَنَّ قُرْبَ يُونُسَ مِنَ اللهِ ، وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ، كَقُرْبِي مِنَ اللهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ ،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث٣٤١٤) ، ومسلم (حديث٢٣٧٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَةً لَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا ، كَرِهَهُ أَوْ لَمْ يَرْضَهُ ـ شَكَّ عَبْدُ الْعَزِيزِ ـ قَالَ: لاَ ، وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عليه السلام عَلَى الْبَشَرِ ! قَالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ ، قَالَ : تَقُولُ : وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عليه السلام عَلَى الْبَشَرِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ؟ ! قَالَ : فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ ! إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا ، وَقَالَ : فُلَانٌ لَطَمَ وَجْهِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ ؟** » قَالَ : قَالَ : (يَا رَسُولَ اللهِ !)وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عليه السلام عَلَى الْبَشَرِ ! وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، قَالَ : فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ** » قَالَ : ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ أَوْ : فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى عليه السلام آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلاَ أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَوْ بُعِثَ قَبْلِي وَلاَ أَقُولُ : إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام .

وَعدُّوا هَذَا تَفْسِيرًا عَظِيمًا . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِكَلَامِ الله وَبِكَلَامِ رَسُولِهِ لَفْظًا وَمَعْنًى ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بِهَذَا اللَّفْظِ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا اللَّفْظُ الَّذِي فِي «الصَّحِيحِ»: « **لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى** »[1] . وَفِي رِوَايَةٍ : « **مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ** »[2] . وَهَذَا اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى ، لَيْسَ فِيهِ نَهْيُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُفَضِّلُوا مُحَمَّدًا عَلَى يُونُسَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الله تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ الْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ، أَيْ : فَاعِلٌ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٧] فَقَدْ يَقَعُ فِي نَفْسِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ أَكْمَلُ مِنْ يُونُسَ ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ ، إِذْ لَا يَفْعَلُ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ ظَنَّ هَذَا فَقَدَ كَذَبَ ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله يَقُولُ مَا قَالَ يُونُسُ : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] ، كَمَا قَالَ أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ وَآخِرُهُمْ :

فَأَوَّلُهُمْ : آدَمُ ، قَدْ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[الأعراف: ٢٣] .

وَآخِرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ وخاتَمُهُم وَسَيِّدُهُمْ : مُحَمَّدٌ ﷺ ، قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ - حَدِيثِ الِاسْتِفْتَاحِ - مِنْ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَغَيْرِهِ ، بَعْدَ قَوْلِهِ : «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ** » إِلَى آخِرِهِ : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ،**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤١٦) ، ومسلم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا .
وأخرج البخاري أيضًا (٣٤١٣) ، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى** » ، وللحديث مصادر متعددة غير المشار إليها .

(٢) هذه الرواية عند البخاري (٤٦٠٤) وفي غير مصدر أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا .

ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، فَإِنَّه لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »(١)، إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ .

وَكَذَا قَالَ مُوسَى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[القصص:١٦] ، وَأَيْضًا : فَيُونُسُ ﷺ لَمَّا قِيلَ فِيهِ : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾[القلم: ٤٨] ، فَنُهِيَ نَبِيُّنَا ﷺ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِ ، وَأَمَرَهُ بِالتَّشَبُّهِ بِأُولِي الْعَزْمِ حَيْثُ قِيلَ لَهُ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥] ، فَقَدْ يَقُولُ مَنْ يَقُولُ : أَنَا خَيْرٌ مِنْه وَلَيْسَ لِلْأَفْضَلِ أَنْ يَفْخَرَ عَلَى مَنْ دُونَهُ ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَفِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ »(٢) . فَاللهُ تَعَالَى نَهَى أَنْ يُفْخَرَ عَلَى عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَيْفَ عَلَى نَبِيٍّ كَرِيمٍ؟ فَلِهَذَا قَالَ : « لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى »(٣) . فَهَذَا نَهْيٌ عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَضَّلَ وَيَفْتَخِرَ عَلَى يُونُسَ .

وَقَوْلُهُ : « مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ »(٤) ، فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ ، فَبِهَذَا الْكَلَامُ يَصِيرُ أَنْقَصَ ، فَيَكُونُ كَاذِبًا ، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ ، بَلْ هُوَ تَقْدِيرٌ مُطْلَقٌ ، أَيْ : مَنْ قَالَ هَذَا فَهُوَ كَاذِبٌ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر: ٦٥] ، وَإِنْ كَانَ ﷺ مَعْصُومًا

---

(١) أخرجه مسلم (حديث٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه وفيه عن رسول الله ﷺ؛ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ » .

(٢) صحيح: وأخرجه مسلم (ص٢١٩٩) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه مرفوعًا .

(٤،٣) كلاهما صحيح: وقد تقدم قريبًا .

مِنَ الشِّرْكِ ، لَكِنَّ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ لِبَيَانِ مَقَادِيرِ الْأَعْمَالِ .

وَإِنَّمَا أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، لِأَنَّا لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْلَمَ ذَلِكَ إِلَّا بِخَبَرِهِ ، إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ يُخْبِرُنَا بِعَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ الله ، كَمَا أَخْبَرَنَا هُوَ بِفَضَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ - صَلَّى الله عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ . وَلِهَذَا أَتْبَعَهُ : بِقَوْلِهِ: «وَلَا فَخْرَ» ، كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ ، وَهَلْ يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ : إِنَّ مَقَامَ الَّذِي أُسْرِيَ بِهِ إِلَى رَبِّهِ ، وَهُوَ مُقَرَّبٌ مُعَظَّمٌ مُكَرَّمٌ ، كَمَقَامِ الَّذِي أُلْقِيَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ! وَأَيْنَ الْمُعَظَّمُ الْمُقَرَّبُ مِنَ الْمُمْتَحَنِ الْمُؤَدَّبِ؟! فَهَذَا فِي غَايَةِ التَّقْرِيبِ ، وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّأْدِيبِ . فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الِاسْتِدْلَالِ ، لِأَنَّهُ بِهَذَا الْمَعْنَى الْمُحَرَّفِ لِلَفْظٍ لَمْ يَقُلْهُ الرَّسُولُ ، وَهَلْ يُقَاوِمُ هَذَا الدَّلِيلُ عَلَى نَفْيِ عُلُوِّ الله تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الصَّرِيحَةَ الْقَطْعِيَّةَ عَلَى عُلُوِّ الله تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ ، الَّتِي تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ دَلِيلٍ ، كَمَا يَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ رحمه الله : «مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ» ، إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى .

*****

قَوْلُهُ : « وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » [١].

ش : ثَبَتَ لَهُ ﷺ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَحَبَّةِ ، وَهِيَ الْخُلَّةُ ، كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : **« إِنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »**[٢] . وَقَالَ : **وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ »**[٣] .

---

(١) الأَوْلى أن يقال : « وهو أيضًا خليل رب العالمين » .

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (حديث٥٣٢) من حديث جُنْدَبٌ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ ، وَهُوَ يَقُولُ : « **إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً ، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ** » .

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (حديث٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :=

وَالْحَدِيثَانِ فِي «الصَّحِيحِ» ، وَهُمَا يُبْطِلَانِ قَوْلَ مَنْ قَالَ : الْخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ وَالْمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ ، فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الله وَمُحَمَّدٌ حَبِيبُهُ . وَفِي «الصَّحِيحِ» أَيْضًا : « **إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ** »[١] .

وَالْمَحَبَّةُ قَدْ ثَبَتَتْ لِغَيْرِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٤]. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:٧٦] . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة:٢٢٢].

فَبَطَلَ قَوْلُ: مَنْ خَصَّ الْخُلَّةَ بِإِبْرَاهِيمَ ، وَالْمَحَبَّةَ بِمُحَمَّدٍ ، بَلِ الْخُلَّةُ خَاصَّةٌ بِهِمَا ، وَالْمَحَبَّةُ عَامَّةٌ ، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، الَّذِي فِيهِ : « **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ الله ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ الله وَلَا فَخْرَ** »[٢]: لَمْ يَثْبُتْ .

وَاعْلَمْ أَنَّ وَصْفَ الله تَعَالَى بِالْمَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ ، هُوَ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِ الله تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ الله تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ بِالْإِرَادَةِ وَالْوُدِّ وَالْمَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ ، حَسْبَمَا وَرَدَ النَّصُّ .

*****

قَوْلُهُ : « وَكُلُّ دَعْوَى النُّبُوَّةِ بَعْدَهُ فَغَيٌّ وَهَوًى » .

ش : لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، عُلِمَ أَنَّ مَنِ ادَّعَى بَعْدَهُ النُّبُوَّةَ فَهُوَ كَاذِبٌ .

= « **لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي ، وَقَدِ اتَّخَذَ الله عز وجل صَاحِبَكُمْ خَلِيلاً** ».

(١) صحيح: وانظر ما تقدم .

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (حديث٣٦١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً وفيه أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **وَعَجِبْتُمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ الله وَهُوَ كَذَلِكَ ... لاَ وَأَنَا حَبِيبُ الله وَلاَ فَخْرَ ...** » الحديث ، قال الترمذي : «وهذا حديث غريب» .
قلت : وسنده ضعيف ففيه زمعة بن أبي صالح وهو ضعيف وخاصة فيما يرويه عن سلمة بن وهرام ، وسلمة بن وهرام أيضًا متكلم فيه .

وَالْغَيُّ : ضِدُّ الرَّشَادِ . وَالْهَوَى : عِبَارَةٌ عَنْ شَهْوَةِ النَّفْسِ . أَيْ : أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَى بِسَبَبِ هَوَى النَّفْسِ ، لَا عَنْ دَلِيلٍ ، فَتَكُونُ بَاطِلَةً .

*****

قَوْلُهُ : « وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى ، بِالْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ » .

ش : أَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ ، فَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْجِنِّ(١) : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ الآية [الأحقاف:٣١] ، وَكَذَا سُورَةُ الْجِنِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رَسُولٌ ، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُرٌ .

وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْجِنِّ : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف:٣٠] ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ أَيْضًا . وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى كَافَّةِ الْوَرَى ، فَقَدْ قَالَ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ

---

(١) الصواب في مثل هذا أن يقال: مؤمنوا الجن أما قولهم : (حكاية) فلم أقف عليها في شيء من الحديث ، ومثل هذا متكرر من الناس ، يقولون : قال الله حكاية عن فلان ، وهذا فيما يبدو لي ليس له مستندٌ ، والصواب أن نذكر من قاله مباشرة كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ ، وفي الحديث الآخر : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ولم يقل : قال الله حكايةً عن إبراهيم ، وقالت عائشة ـ أيضًا : فلا أجد لي ولكم مثلًا إلا قول أبي يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩] ، أَيْ : وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [آل عمران :٢٠] ، وَقَالَ ﷺ : « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** » ، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» (١).

وَقَالَ ﷺ : « **لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ** » (٢)، رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَكَوْنُهُ ﷺ مَبْعُوثًا إِلَى النَّاسِ كَافَّةً مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ النَّصَارَى : أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً ، فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا صَدَّقُوا بِالرِّسَالَةِ ، لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ ، وَقَدْ قَالَ أَنَّهُ رَسُولُ الله إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ، وَالرَّسُولُ لَا يَكْذِبُ ، فَلَزِمَ تَصْدِيقُهُ حَتْمًا ، فَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ ، وَبَثَّ كُتُبَهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ وَالْمُقَوْقِسِ ، وَسَائِرِ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (حديث٣٣٥) وفي غير موطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٥٢١) وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

(٢) أخرج مسلم (حديث١٥٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ! لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** ».

مُلُوكِ الْأَطْرَافِ ، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ .

وَقَوْلُهُ : « وَكَافَّةِ الْوَرَى » .

وَقَوْلُهُ : « بِالْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ » . هَذِهِ أَوْصَافُ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرْعِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْأَدِلَّةِ . وَالضِّيَاءُ : أَكْمَلُ مِنَ النُّورِ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يُونُس:٥].

*****

قَوْلُهُ : « وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ الله ، مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا ، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ الله تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ . فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ ، وَقَدْ ذَمَّهُ الله وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر:٢٦] ، فَلَمَّا أَوْعَدَ الله بِسَقَرَ لِمَنْ قَالَ : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٢٥] ، عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ » .

ش : هَذِهِ قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ ، وَأَصْلٌ كَبِيرٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ ، ضَلَّ فِيهِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنَ النَّاسِ . وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ الله هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُمَا ، وَشَهِدَتْ بِهِ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ بِالشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ .

وَقَوْلُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ الله : « وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ الله » . إِنَّ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ - عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ : « إِنَّ الله وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ » ثُمَّ قَالَ : « وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى » . بِكَسْرِ هَمْزَةِ إِنَّ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ .

وَقَوْلُهُ : « كَلَامُ الله مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا » ، رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ . فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ تَزْعُمُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ حِكَايَةُ قَوْلِهِمْ (١) ، قَالُوا : وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ

(١) قولهم الذي ذكره هو أنهم قالوا : إنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه .

إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ ، كَبَيْتِ الله ، وَنَاقَةِ الله ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ .

فَإِنَّ الْمُضَافَ إِلَى الله تَعَالَى مَعَانٍ وَأَعْيَانٌ ، فَإِضَافَةُ الْأَعْيَانِ إِلَى الله لِلتَّشْرِيفِ ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَهُ ، كَبَيْتِ الله ، وَنَاقَةِ الله ، بِخِلَافِ إِضَافَةِ الْمَعَانِي ، كَعِلْمِ الله ، وَقُدْرَتِهِ ، وَعِزَّتِهِ ، وَجَلَالِهِ ، وَكِبْرِيَائِهِ ، وَكَلَامِهِ ، وَحَيَاتِهِ ، وَعُلُوِّهِ ، وَقَهْرِهِ ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَخْلُوقًا .

وَالْوَصْفُ بِالتَّكَلُّمِ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ ، وَضِدُّهُ مِنْ أَوْصَافِ النَّقْصِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف:١٤٨] . فَكَانَ عُبَّادُ الْعِجْلِ - مَعَ كُفْرِهِمْ - أَعْرَفَ بِالله مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا لِمُوسَى : وَرَبُّكَ لَا يَتَكَلَّمُ أَيْضًا . وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْعِجْلِ أَيْضًا : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه :٨٩] . فَعُلِمَ أَنَّ نَفْيَ رجعِ الْقَوْلِ وَنَفْيَ التَّكَلُّمِ نَقْصٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عَدَمِ أُلُوهِيَّةِ الْعِجْلِ .

وَغَايَةُ شُبْهَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : يَلْزَمُ مِنْهُ التَّشْبِيهُ وَالتَّجْسِيمُ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ : إِذَا قُلْنَا : أَنَّهُ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، انْتَفَتْ شُبْهَتُهُمْ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥] ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ أَنَّهَا تَتَكَلَّمُ ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ تَتَكَلَّمُ ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١] ، وَكَذَلِكَ تَسْبِيحُ الْحَصَى وَالطَّعَامِ ، وَسَلَامُ الْحَجَرِ ، كُلُّ ذَلِكَ بِلَا فَمٍ يَخْرُجُ مِنْهُ الصَّوْتُ الصَّاعِدُ مِنَ الرِّئَةِ ، الْمُعْتَمِدُ عَلَى مَقَاطِعِ الْحُرُوفِ .

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ رحمه الله بِقَوْلِهِ : « مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا » ، أَيْ : ظَهَرَ مِنْهُ وَلَا يُدْرَى كَيْفِيَّةُ تَكَلُّمِهِ بِهِ ، وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ : « قَوْلًا » ، أَتَى بِالْمَصْدَرِ

الْمُعَرِّفِ لِلْحَقِيقَةِ ، كَمَا أَكَّدَ الله تَعَالَى التَّكْلِيمَ بِالْمَصْدَرِ الْمُثْبِتِ للحقيقة النَّافِي لِلْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤] ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ ـ أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ : أُرِيدُ أَنْ تَقْرَأَ : وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى ، بِنَصْبِ اسْمِ الله ، لِيَكُونَ مُوسَى هُوَ الْمُتَكَلِّمَ لَا الله! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو : هَبْ أَنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا ، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ! فَبُهِتَ الْمُعْتَزِلِيُّ .

وَكَمْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى تَكْلِيمِ الله تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَغَيْرِهِمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس : ٥٨] .

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ ، وَإِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ ، وَإِثْبَاتُ الْعُلُوِّ ، وَكَيْفَ يَصِحُّ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الرَّبِّ كُلُّهُ مَعْنًى وَاحِدًا ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [آل عمران : ٧٧] ، فَأَهَانَهُمْ بِتَرْكِ تَكْلِيمِهِمْ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ تَكْلِيمَ تَكْرِيمٍ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ، إِذْ قَدْ أَخْبَرَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى أَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ فِي النَّارِ : ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] ، فَلَوْ كَانَ لَا يُكَلِّمُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، لَكَانُوا فِي ذَلِكَ هُمْ وَأَعْدَاؤُهُ سَوَاءً ، وَلَمْ يَكُنْ فِي تَخْصِيصِ أَعْدَائِهِ بِأَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ فَائِدَةٌ أَصْلًا .

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » : بَابُ كَلَامِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَسَاقَ فِيهِ عِدَّةَ أَحَادِيثَ . فَأَفْضَلُ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ رُؤْيَةُ وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَتَكْلِيمُهُ لَهُمْ ، فَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِرُوحِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى نَعِيمِهَا وَأَفْضَلِهِ ، الَّذِي مَا طَابَتْ لِأَهْلِهَا إِلَّا بِهِ .

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الرعد: ١٦] ، وَالْقُرْآنُ شَيْءٌ ، فَيَكُونُ دَاخِلًا فِي عُمُومِ «كُلِّ» فَيَكُونُ مَخْلُوقًا!! فَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ ، وَذَلِكَ : أَنَّ

أَفْعَالَ الْعِبَادِ كُلَّهَا عِنْدَهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ لله تَعَالَى ، وَإِنَّمَا يَخْلُقُهَا الْعِبَادُ جَمِيعَهَا ، لَا يَخْلُقُهَا الله ، فَأَخْرَجُوهَا مِنْ عُمُوم «كُلِّ» ، وَأَدْخَلُوا كَلَامَ الله فِي عُمُومِهَا ، مَعَ أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ ، بِهِ تكُونُ الْأَشْيَاءُ الْمَخْلُوقَةُ ، إِذْ بِأَمْرِهِ تَكُونُ الْمَخْلُوقَاتُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] ، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ مَخْلُوقًا للَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا بِأَمْرٍ آخَرَ ، وَالْآخَرُ بِآخَرَ ، إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ ، فَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ ، وَهُوَ بَاطِلٌ ، وَطَرْدُ بَاطِلِهِمْ : أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ صِفَاتِهِ تَعَالَى مَخْلُوقَةً ، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِهِمَا ، وَذَلِكَ صَرِيحُ الْكُفْرِ ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَيْءٌ ، وَقُدْرَتَهُ شَيْءٌ ، وَحَيَاتَهُ شَيْءٌ ، فَيَدْخُلُ ذَلِكَ فِي عُمُومِ «كُلِّ» ، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، تَعَالَى الله عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكَلَامٍ يَقُومُ بِغَيْرِهِ؟ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ، لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَا أَحْدَثَهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْجَمَادَاتِ كَلَامَهُ وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا خَلَقَهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ ، لَا يُفَرَّقُ حِينَئِذٍ بَيْنَ «نَطَقَ» «وَأَنْطَقَ» . وَإِنَّمَا قَالَتِ الْجُلُودَ : ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾ [فصلت:٢١] ، وَلَمْ تَقُلْ : نَطَقَ الله ، بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكُلِّ كَلَامٍ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ ، زُورًا كَانَ أَوْ كَذِبًا ، أَوْ كُفْرًا أَوْ هَذَيَانًا ، تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ طَرَّدَ ذَلِكَ الِاتِّحَادِيَّةُ ، فَقَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ :

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ   سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ!

وَلَوْ صَحَّ أَنْ يُوصَفَ أَحَدٌ بِصِفَةٍ قَامَتْ بِغَيْرِهِ ، لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ لِلْبَصِيرِ : أَعْمَى ، وَلِلْأَعْمَى : بَصِيرٌ ؛ لِأَنَّ الْبَصِيرَ قَدْ قَامَ وَصْفُ الْعَمَى بِغَيْرِهِ ، وَالْأَعْمَى قَدْ قَامَ وَصْفُ الْبَصَرِ بِغَيْرِهِ وَلَصَحَّ أَنْ يُوصَفَ الله تَعَالَى بِالصِّفَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا فِي غَيْرِهِ ، مِنَ الْأَلْوَانِ وَالرَّوَائِحِ وَالطُّعُومِ وَالطُّولِ وَالْقِصَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَعُمُومُ «كُلِّ» فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ ، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالْقَرَائِنِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥]،

وَمَسَاكِنُهُمْ شَيْءٌ ، وَلَمْ تَدْخُلْ فِي عُمُومِ كُلِّ شَيْءٍ دَمَّرَتْهُ الرِّيحُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُرَادَ : تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ التَّدْمِيرَ بِالرِّيحِ عَادَةً ، وَمَا يَسْتَحِقُّ التَّدْمِيرَ ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بِلْقِيسَ : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٢٣] ، الْمُرَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُفْهَمُ مِنْ قَرَائِنِ الْكَلَامِ . إِذْ مُرَادُ الْهُدْهُدِ أَنَّهَا مَلِكَةٌ كَامِلَةٌ فِي أَمْرِ الْمُلْكِ ، غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى مَا يَكْمُلُ بِهِ أَمْرُ مُلْكِهَا ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ .

وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] ، أَيْ : كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللهِ تَعَالَى ، فَهُوَ مَخْلُوقٌ ، فَدَخَلَ فِي هَذَا الْعُمُومِ أَفْعَالُ الْعِبَادِ حَتْمًا ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْعُمُومِ الْخَالِقُ تَعَالَى ، وَصِفَاتُهُ لَيْسَتْ غَيْرَهُ ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَصِفَاتُهُ مُلَازِمَةٌ لِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ صِفَاتِهِ عَنْهُ .

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] ، فَمَا أَفْسَدَهُ مِنِ اسْتِدْلَالٍ! فَإِنَّ «جَعَلَ» إِذَا كَانَ بِمَعْنَى : «خَلَقَ» يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠ ،٣١] . وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَى «خَلَقَ»، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل:٩١] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر:٩١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء:٣٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ [الزخرف:١٩] . وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ ، فَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة:٤٠، التكوير: ١٩] . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ أَحْدَثَهُ ، إِمَّا جِبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ ﷺ .

قِيلَ : ذِكْرُ الرَّسُولِ مُعَرِّفٌ أَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنْ مُرْسِلِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَنَّهُ قَوْلُ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ ، فَعُلِمَ أَنَّهُ بَلَّغَهُ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ بِهِ ، لَا أَنَّهُ أَنْشَأَهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ .

وَأَيْضًا : فَالرَّسُولُ فِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ جِبْرِيلُ ، وَفِي الْأُخْرَى مُحَمَّدٌ ، فَإِضَافَتُهُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُمَا تُبَيِّنُ أَنَّ الْإِضَافَةَ لِلتَّبْلِيغِ ، إِذْ لَوْ أَحْدَثَهُ أَحَدُهُمَا امْتَنَعَ أَنْ يُحْدِثَهُ الْآخَرُ .

وَأَيْضًا : فَقَوْلُهُ : «رَسُولٌ أَمِينٌ» ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَزِيدُ فِي الْكَلَامِ الَّذِي أُرْسِلَ بِتَبْلِيغِهِ ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ أَمِينٌ عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ ، يُبَلِّغُهُ عَنْ مُرْسِلِهِ .

وَأَيْضًا : فَإِنَّ اللهَ قَدْ كَفَّرَ مَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ الْبَشَرِ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ ، فَمَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ مُحَمَّدٍ ـ بِمَعْنَى أَنَّهُ أَنْشَأَهُ ـ فَقَدْ كَفَرَ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ : إِنَّهُ قَوْلُ بَشَرٍ ، أَوْ جِنِّيٍّ ، أَوْ مَلَكٍ ، وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا ، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا ، وَمَنْ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمُنْزِلِ

قَالَ : هَذَا شِعْرُ امْرِئِ الْقَيْسِ ، وَمَنْ سَمِعَهُ يَقُولُ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »[١] قَالَ : هَذَا كَلَامُ الرَّسُولِ ، وَإِنْ سَمِعَهُ يَقُولُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ١ـ٥] قَالَ : هَذَا كَلَامُ اللهِ ، إِنْ كَانَ عِنْدَهُ خَبَرُ ذَلِكَ ، وَإِلَّا قَالَ : لَا أَدْرِي كَلَامُ مَنْ هَذَا؟ وَلَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ لَكَذَّبَهُ . وَلِهَذَا مَنْ سَمِعَ مِنْ غَيْرِهِ نَظْمًا أَوْ نَثْرًا ، يَقُولُ لَهُ : هَذَا كَلَامُ مَنْ؟ أَهَذَا كَلَامُكَ أَوْ كَلَامُ غَيْرِكَ؟

---

(١) حديث : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » صحيح متفق عليه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعًا . أخرجه البخاري (حديث ١) وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (حديث١٩٠٧) وغيرهم .

وَبِالْجُمْلَةِ : فَأَهْلُ السُّنَّةِ كُلُّهُمْ ، مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ كَلَامَ الله غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَنَازَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِي أَنَّ كَلَامَ الله هَلْ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالذَّاتِ ، أَوْ أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ تَكَلَّمَ الله بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ .

وَقَدْ يُطْلِقُ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى الْقُرْآنِ أَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَمُرَادُهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْتَلَقٍ مُفْتَرًى مَكْذُوبٌ ، بَلْ هُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى مُنْتَفٍ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ .

وَالنِّزَاعُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا خَلَقَهُ الله ، أَوْ هُوَ كَلَامُهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَامَ بِذَاتِهِ؟ وَأَهْلُ السُّنَّةِ إِنَّمَا سُئِلُوا عَنْ هَذَا ، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ مَكْذُوبًا مُفْتَرًى مِمَّا لَا يُنَازِعُ مُسْلِمٌ فِي بُطْلَانِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَشَايِخَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اعْتِقَادَهُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ لَمْ يَتَلَقَّوْهُ لَا عَنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ، وَلَا عَنْ أَئِمَّةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّ عَقْلَهُمْ دَلَّهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ تَلَقَّوْا مِنَ الْأَئِمَّةِ الشَّرَائِعَ .

وَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ عَلَى فِطَرِهِمُ السَّلِيمَةِ وَعُقُولِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نِزَاعٌ ، وَلَكِنْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ أُغْلُوطَةً مِنْ أَغَالِيطِهِ ، فَرَّقَ بِهَا بَيْنَهُمْ . ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة:١٧٦] .

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ الطَّحَاوِيِّ رحمه الله : أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ ، وَأَنَّ نَوْعَ كَلَامِهِ قَدِيمٌ ، وَكَذَلِكَ ظَاهِرُ كَلَامِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رضي الله عنه فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ» ، فَإِنَّهُ قَالَ : وَالْقُرْآنُ كَلامُ الله فِي الْمَصَاحِفِ مَكْتُوبٌ ، وَفِي الْقُلُوبِ مَحْفُوظٌ ، وَعَلَى الْأَلْسُنِ مَقْرُوءٌ ، وَعَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُنَزَّلٌ ، وَلَفْظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ وَكِتَابَتُهُ لَنَا مَخْلُوقَةٌ ، وَقِرَاءَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ ، وَالْقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَمَا ذَكَرَهُ الله فِي الْقُرْآنِ حِكَايَةً

عَنْ مُوسَى وَغَيْرِهِ من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وَعَنْ فِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَلَامُ الله إِخْبَارٌ عَنْهُمْ، وَكَلَامُ الله غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَكَلَامُ مُوسَى وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَخْلُوقٌ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ الله لَا كَلَامُهُمْ، وَسَمِعَ مُوسَى عليه السلام كَلَامَ الله تَعَالَى، فَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى، كَلَّمَهُ بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ، وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا خِلَافُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِنَا. انْتَهَى.

فَقَوْلُهُ: «وَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلَّمَهُ بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ لَهُ مِنْ صِفَاتِهِ» يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حِينَ جَاءَ كَلَّمَهُ، لَا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ أَزَلًا وَأَبَدًا يَقُولُ: يَا مُوسَى.

وَقَوْلُهُ: «الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ» لَمْ يَزَلْ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: أَنَّهُ حَدَثَ لَهُ وَصْفُ الْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَكُلُّ مَا تَحْتَجُّ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ، وَمَا يَقُولُ بِهِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ كَلَامَ الله قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَأَنَّهُ صِفَةٌ لَهُ، وَالصِّفَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْمَوْصُوفِ، فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ وَالْقَوْلُ بِهِ، فَيَجِبُ الْأَخْذُ بِمَا فِي قَوْلِ كُلٍّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الصَّوَابِ، وَالْعُدُولِ عَمَّا يَرُدُّهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مِنْ قَوْلِ كُلٍّ مِنْهُمَا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ خَاطَبُوا النَّاسَ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّ الله قَالَ وَنَادَى وَنَاجَى وَيَقُولُ، لَمْ يُفْهِمُوهُمْ أَنَّ هَذِهِ مَخْلُوقَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، بَلِ الَّذِي أَفْهَمُوهُمْ إِيَّاهُ: أَنَّ الله نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ، وَالْكَلَامُ قَائِمٌ بِهِ لَا بِغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَالَهُ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ: «**وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ الله فِيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى**»[١].

---

(١) صحيح: عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وقد أخرجه البخاري ضمن حديث الإفك الطويل (حديث رقم ٤٧٥٠)، ومسلم (حديث ٢٧٧٠) وغيرهما.

وَلَوْ كَانَ المُرَادُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ خِلَافَ مَفْهُومِهِ ، لَوَجَبَ بَيَانُهُ ، إِذْ تَأْخِيرُ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ لَا يَجُوزُ .

وَلَا يُعْرَفُ فِي لُغَةٍ وَلَا عَقْلٍ قَائِلٌ مُتَكَلِّمٌ لَا يَقُومُ بِهِ الْقَوْلُ وَالْكَلَامُ وَإِنَّمَا قَامَ الْكَلَامَ بِغَيْرِهِ ، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فَرُّوا مِنْ ذَلِكَ حَذَرًا مِنَ التَّشْبِيهِ ، فَلَا يُثْبِتُوا صِفَةَ غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا قَالُوا : يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا ، قُلْنَا : وَيَتَكَلَّمُ لَا كَتَكَلُّمِنَا ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّفَاتِ .

وَهَلْ يُعْقَلُ قَادِرٌ لَا تَقُومُ بِهِ الْقُدْرَةُ ، أَوْ حَيٌّ لَا تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ : **« أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ »**(١) ، فَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ أَنَّهُ ﷺ عَاذَ بِمَخْلُوقٍ؟ بَلْ هَذَا كَقَوْلِهِ : **« أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ »**(٢) ، وَكَقَوْلِهِ : **« أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ »**(٣) . وَكَقَوْلِهِ : **« وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا »**(٤) . كُلُّ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤١٩) وغيره من حديث عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَنْبَشٍ ، وَقد سَأَلَه رَجُلٌ كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ ؟ قَالَ : جَاءَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الأَوْدِيَةِ وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الجِبَالِ وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : فَرُعِبَ ـ قَالَ جَعْفَرٌ : أَحْسَبُهُ قَالَ : جَعَلَ يَتَأَخَّرُ ـ قَالَ : وَجَاءَ جِبْرِيلُ ﵇ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، قُلْ مَا أَقُولُ ، قُلْ : **« أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ ، فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ وَهَزَمَهُمُ اللهُ ﷻ »** .

وضعفه البخاري بقوله : (وفي إسناده نظر) . ولمزيد من الكلام حول هذا الحديث انظر الإصابة (٢/ ٣٨٩) ، و«تعجيل» المنفعة ترجمة عبد الرحمن بن خنبش .

(٢) صحيح : وقد تقدم ، وأخرجه مسلم بلفظ قريب (حديث٤٨٦) من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا.

(٣) صحيح : أصله في مسلم (مع النووي ١٤/ ١٨٩) بلفظ : **« أَعُوذُ بِالله وَقُدْرَتِهِ ، مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ »** أما قوله : **أَعُوذُ بِعِزَّةِ بِالله وَقُدْرَتِهِ** » فعند أبي داود (حديث٣٨١٩) ، والترمذي (حديث٢٠٨٠) ، وابن ماجه (حديث٣٥٢٢) وسندها صحيح أيضًا .

(٤) صحيح : أخرجه أبو داود (٥/ ٣١٤) ، والنسائي في الاستعاذة (باب٦٠)، وأحمد (٢/ ٢٥) ، وابن ماجه (٣٨٧١) وغيرهم بلفظ : **« وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي »**.

وَهَذِهِ الْمَعَانِي مَبْسُوطَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَإِنَّمَا أُشِيرُ إِلَيْهَا هُنَا إِشَارَةً .

وَالْحَقُّ : أَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ الله حَقِيقَةً ، وَكَلَامُ الله تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧] . وَلَوْ كَانَ مَا فِي الْمُصْحَفِ عِبَارَةً عَنْ كَلَامِ الله ، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامَ الله ، لَمَا حَرُمَ عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحْدِثِ مَسُّهُ ، وَلَوْ كَانَ مَا يَقْرَؤُهُ الْقَارِئُ لَيْسَ كَلَامَ الله لَمَا حَرُمَ عَلَى الْجُنُبِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ .

بَلْ كَلَامُ الله مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ ، مَقْرُوءٌ بِالْأَلْسِنَةِ ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ ، كَمَا قَالَه أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ» . وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ كُلِّهَا حَقِيقَةٌ ، وَإِذَا قِيلَ : الْمَكْتُوبُ فِي الْمُصْحَفِ كَلَامُ الله فُهِمَ مِنْهُ مَعْنى صَحِيحٌ حَقِيقِيٌّ ، وَإِذَا قِيلَ : فِيهِ خَطُّ فُلَانٍ وَكِتَابَتُهُ : فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِيٌّ ، وَإِذَا قِيلَ : فِيهِ مِدَادٌ قَدْ كُتِبَ بِهِ : فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِيٌّ ، وَإِذَا قِيلَ : الْمِدَادُ فِي الْمُصْحَفِ : كَانَتِ الظَّرْفِيَّةُ فِيهِ غَيْرَ الظَّرْفِيَّةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ : فِيهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَفِيهِ مُحَمَّدٌ وَعِيسَى ، وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مُغَايِرَانِ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ : فِيهِ خَطُّ فُلَانٍ الْكَاتِبِ ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ مُغَايِرَةٌ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ : فِيهِ كَلَامُ الله .

وَمَنْ لَمْ يَتَنَبَّهْ لِلْفُرُوقِ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي ضَلَّ ، وَلَمْ يَهْتَدِ لِلصَّوَابِ .

وَكَذَلِكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْقَارِئِ ، وَالْمَقْرُوءِ الَّذِي هُوَ قَوْلُ الْبَارِي ، مَنْ لَمْ يَهْتَدِ لَهُ ، فَهُوَ ضَالٌّ أَيْضًا ، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا وَجَدَ فِي وَرَقَةٍ مَكْتُوبًا :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

مِنْ خَطِّ كَاتِبٍ مَعْرُوفٍ ، لَقَالَ : هَذَا مِنْ كَلَامِ لَبِيدٍ حَقِيقَةً ، وَهَذَا خَطُّ فُلَانٍ

حَقِيقَةً ، وَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ حَقِيقَةً ، وَهَذَا خَبَرٌ حَقِيقَةً ، وَلَا تَشْتَبِهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ بِالْأُخْرَى .

وَالْقُرْآنُ فِي الْأَصْلِ : مَصْدَرٌ ، فَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْقِرَاءَةُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وَقَالَ ﷺ : « **زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ** »(١) .

وَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْمَقْرُوءُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤] . وَقَالَ ﷺ : « **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ** »(٢).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ ، فَالْحَقَائِقُ لَهَا وُجُودٌ عَيْنِيٌّ ، وَذِهْنِيٌّ ، وَلَفْظِيٌّ ، وَرَسْمِيٌّ ، وَلَكِنَّ الْأَعْيَانَ تُعْلَمُ ، ثُمَّ تُذْكَرُ ، ثُمَّ تُكْتَبُ ، فَكِتَابَتُهَا فِي الْمُصْحَفِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ .

وَأَمَّا الْكَلَامُ : فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُصْحَفِ وَاسِطَةٌ ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِلَا وَاسِطَةِ ذِهْنٍ وَلَا لِسَانٍ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ كَوْنِهِ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ، وَبَيْنَ كَوْنِهِ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ، أَوْ كِتَابٍ مَكْنُونٍ : وَاضِحٌ .

فَقَوْلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٦] ، أَيْ : ذِكْرُهُ وَوَصْفُهُ وَالْإِخْبَارُ عَنْهُ ، كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ ، إِذِ الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، لَمْ يُنْزِلْهُ عَلَى غَيْرِهِ أَصْلًا ، وَلِهَذَا قَالَ : «فِي الزُّبُرِ» ، وَلَمْ يَقُلْ : فِي الصُّحُفِ ، وَلَا فِي الرَّقِّ ، لِأَنَّ «الزُّبُرَ» جَمْعُ «زَبُورٍ» وَ«الزَّبْرُ» هُوَ : الْكِتَابَةُ وَالْجَمْعُ ، فَقَوْلُهُ :

(١) صحيح: وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٣) ، وأبو داود في الصلاة (٣٥٦/ ٢) ، والنسائي في الصلاة (٣٤٠/ ١) ، وابن ماجه (٢١٥) ، وغيرهم وله طرق أخر .

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث٢٤١٩) ، ومسلم (حديث٨١٨) .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦] أَيْ : مَزْبُورِ الْأَوَّلِينَ ، فَفِي نَفْسِ اللَّفْظِ وَاشْتِقَاقِهِ مَا يُبَيِّنُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ ، وَيُبَيِّنُ كَمَالَ بَيَانِ الْقُرْآنِ وَخُلُوصِهِ مِنَ اللَّبْسِ ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ [الأعراف:١٥٦] ، أَيْ : ذِكْرَهُ ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ : ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ [الطور: ٣] أَوَ ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج:٢٢] ، أَوَ ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٨] ؛ لِأَنَّ الْعَامِلَ فِي الظَّرْفِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْعَامَّةِ ، مِثْلَ الْكَوْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْحُصُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، أَوْ يُقَدَّرُ : مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ ، أَوْ فِي رَقٍّ .

وَالْكِتَابُ : تَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ مَحَلُّ الْكِتَابَةِ ، وَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ الْمَكْتُوبُ ، وَيَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ كِتَابَةِ الْكَلَامِ فِي الْكِتَابِ ، وَكِتَابَةِ الْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ فِيهِ ، فَإِنَّ تِلْكَ إِنَّمَا يُكْتَبُ ذِكْرُهَا ، وَكُلَّمَا تَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْمَعْنَى وَضَحَ لَهُ الْفَرْقُ .

وَحَقِيقَةُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى الْخَارِجِيَّةُ : هِيَ مَا يُسْمَعُ مِنْهُ ، أَوْ مِنَ الْمُبَلِّغِ عَنْهُ ، فَإِذَا سَمِعَهُ السَّامِعُ ، عَلِمَهُ وَحَفِظَهُ ، فَكَلَامُ اللهِ مَسْمُوعٌ لَهُ مَعْلُومٌ مَحْفُوظٌ ، فَإِذَا قَالَهُ السَّامِعُ فَهُوَ مَقْرُوءٌ لَهُ مَتْلُوٌّ ، فَإِنْ كَتَبَهُ فَهُوَ مَكْتُوبٌ لَهُ مَرْسُومٌ ، وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا لَا يَصِحُّ نَفْيُهُ ، وَالْمَجَازُ يَصِحُّ نَفْيُهُ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : لَيْسَ فِي الْمُصْحَفِ كَلَامُ اللهِ ، وَلَا : مَا قَرَأَ الْقَارِئُ كَلَامَ اللهِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦] . وَهُوَ لَا يَسْمَعُ كَلَامَ اللهِ مِنَ اللهِ ، وَإِنَّمَا يَسْمَعُهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ عَنِ اللهِ وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ قَالَ : أَنَّ الْمَسْمُوعَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ وَلَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] ، وَلَمْ يَقُلْ : حَتَّى يَسْمَعَ مَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ ، وَالْأَصْلُ الْحَقِيقَةُ .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ الْمَكْتُوبَ فِي الْمَصَاحِفِ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ ، أَوْ حِكَايَةُ كَلَامِ اللهِ ،

وَلَيْسَ فِيهَا كَلَامُ الله : فَقَدْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَسَلَفَ الْأُمَّةِ ، وَكَفَى بِذَلِكَ ضَلَالًا .

وَكَلَامُ الطَّحَاوِيِّ رحمه الله يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ قَالَ : أَنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ لَا يُتَصَوَّرُ سَمَاعُهُ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْمَسْمُوعَ الْمُنَزَّلَ الْمَقْرُوءَ وَالْمَكْتُوبَ لَيْسَ كَلَامَ الله ، وَإِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْهُ ، فَإِنَّ الطَّحَاوِيَّ رحمه الله يَقُولُ : « كَلَامُ الله مِنْهُ بَدَا » . وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ ، وَيَقُولُونَ : « مِنْهُ بَدَا ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ » . وَإِنَّمَا قَالُوا : « مِنْهُ بَدَا » ، لِأَنَّ الْجَهْمِيَّةَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّهُ خلقَ الْكَلَامَ فِي مَحَلٍّ ، فَبَدَأَ الْكَلَامُ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ ، فَقَالَ السَّلَفُ : « مِنْهُ بَدَا » أَيْ : هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ ، فَمِنْهُ بَدَا ، لَا مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[الزمر:١] . ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ السجدة:١٣] ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[النحل:١٠٢].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : وَإِلَيْهِ يَعُودُ : يُرْفَعُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ ، فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ ، وَلَا فِي الْمَصَاحِفِ ، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ آثَارٍ .

وَقَوْلُهُ : « بِلَا كَيْفِيَّةٍ » أَيْ : لَا تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَكَلُّمِهِ بِهِ قَوْلًا لَيْسَ بِالْمَجَازِ ، « وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا» أَيْ : أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ الْمَلَكِ ، فَسَمِعَهُ الْمَلَكُ جِبْرِيلُ مِنَ الله ، وَسَمِعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْمَلَكِ ، وَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء:١٠٦] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] . وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ لله تَعَالَى .

وَقَدْ أُورِدَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ نَظِيرُ إِنْزَالِ الْمَطَرِ ، وَإِنْزَالِ الْحَدِيدِ ، وَإِنْزَالِ ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ مِنَ الْأَنْعَامِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَذْكُورٌ أَنَّهُ إِنْزَالٌ مِنَ الله ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ حمٓ

﴿٢﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:١،٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٣-٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص:٤٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]

وَإِنْزَالُ الْمَطَرِ مُقَيَّدٌ بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧] . وَالسَّمَاءُ : الْعُلُوُّ ، وَقَدْ جَاءَ فِي مَكَانٍ آخَرَ : أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ الْمُزْنِ ، وَالْمُزْنُ : السَّحَابُ ، وَفِي مَكَانٍ آخَرَ : أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ، وَإِنْزَالُ الْحَدِيدِ وَالْأَنْعَامِ مُطْلَقٌ ، فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ هَذَا الْإِنْزَالُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ ، وَهَذَا الْإِنْزَالُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ؟! فَالْحَدِيدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمَعَادِنِ الَّتِي فِي الْجِبَالِ ، وَهِيَ عَالِيَةٌ عَلَى الْأَرْضِ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ كُلَّمَا كَانَ مَعْدِنُهُ أَعْلَى كَانَ حَدِيدُهُ أَجْوَدَ ، وَالْأَنْعَامُ تُخْلَقُ بِالتَّوَالُدِ الْمُسْتَلْزِمِ إِنْزَالَ الذُّكُورِ الْمَاءَ مِنْ أَصْلَابِهَا إِلَى أَرْحَامِ الْإِنَاثِ ، وَلِهَذَا يُقَالُ : «أَنْزَلَ» «وَلَمْ يُنَزِّلْ» ، ثُمَّ الْأَجِنَّةُ تَنْزِلُ مِنْ بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَنْعَامَ تَعْلُو فُحُولُهَا إِنَاثَهَا عِنْدَ الْوَطْءِ ، وَيَنْزِلُ مَاءُ الْفَحْلِ مِنْ عُلْوٍ إِلَى رَحِمِ الْأُنْثَى ، وَتُلْقِي وَلَدَهَا عِنْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ عُلْوٍ إِلَى سُفْلٍ ، وَعَلَى هَذَا فَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ ، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦] وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنْ تَكُونَ «مِنْ» لِبَيَانِ الْجِنْسِ .

الثَّانِي : أَنْ تَكُونَ «مِنْ» لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ ، وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ يُحْتَمَلَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ [الشورى:١١] .

وَقَوْلُهُ : «وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا» .

الْإِشَارَةُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ وَإِنْزَالِهِ ، أَيْ : هَذَا قَوْلُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَهُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ ، وَأَنَّ هَذَا حَقٌّ وَصِدْقٌ.

وَقَوْلُهُ : « وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ » رَدُّهُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ بِهَذَا الْقَوْلِ ظَاهِرٌ ، وَفِي قَوْلِهِ : « بِالْحَقِيقَةِ » رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ : « إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ » قَامَ بِذَاتِ اللهِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لِمَنْ قَامَ بِهِ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ : أَنَّ هَذَا كَلَامٌ حَقِيقَةً ، وَإِلَّا لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْأَخْرَسُ مُتَكَلِّمًا ، وَلَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ الَّذِي فِي الْمُصْحَفِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ الْقُرْآنُ وَلَا كَلَامَ اللهِ ، وَلَكِنْ عِبَارَةً عَنْهُ لَيْسَتْ هِيَ كَلَامَ اللهِ ، كَمَا لَوْ أَشَارَ أَخْرَسُ إِلَى شَخْصٍ بِإِشَارَةٍ فَهِمَ بِهَا مَقْصُودَهُ ، فَكَتَبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ عِبَارَتَهُ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَخْرَسُ ، فَالْمَكْتُوبُ : هُوَ عِبَارَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى ، وَهَذَا الْمَثَلُ مُطَابِقٌ غَايَةَ الْمُطَابَقَةِ لِمَا يَقُولُونَهُ ، وَإِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى لَا يُسَمِّيهِ أَحَدٌ «أَخْرَسَ» ، لَكِنْ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْمَلَكَ فَهِمَ مِنْهُ مَعْنًى قَائِمًا بِنَفْسِهِ ، لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ حَرْفًا وَلَا صَوْتًا ، بَلْ فَهِمَ مَعْنًى مُجَرَّدًا ثُمَّ عَبَّرَ عَنْهُ ، فَهُوَ الَّذِي أَحْدَثَ نَظْمَ الْقُرْآنِ وَتَأْلِيفَهُ الْعَرَبِيَّ ، أَوْ أَنَّ اللهَ خَلَقَ فِي بَعْضِ الْأَجْسَامِ كَالْهَوَاءِ الَّذِي هُوَ دُونَ الْمَلَكِ هَذِهِ الْعِبَارَةَ .

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ : «إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ»: هَلْ سَمِعَ مُوسَى عليه السلام جَمِيعَ الْمَعْنَى أَوْ بَعْضَهُ؟ فَإِنْ قَالَ : سَمِعَهُ كُلَّهُ ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ جَمِيعَ كَلَامِ اللهِ وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ ، وَإِنْ قَالَ : بَعْضَهُ ، فَقَدْ قَالَ : يَتَبَعَّضُ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَلَّمَهُ اللهُ ، أَوْ أَنْزَلَ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ .

وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] . وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ : ﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ [البقرة:٣٤]. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ : هَلْ هَذَا جَمِيعُ كَلَامِهِ أَوْ بَعْضُهُ؟ فَإِنْ قَالَ : إِنَّهُ جَمِيعُهُ ، فَهَذَا مُكَابَرَةٌ ، وَإِنْ قَالَ : بَعْضُهُ ، فَقَدِ اعْتَرَفَ بِتَعَدُّدِهِ .

وَقَوْلُهُ : « وَمَنْ سَمِعَهُ ، وَقَالَ : إِنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ ، فَقَدْ كَفَرَ » لَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ ، بَلْ قَالَ : إِنَّهُ كَلَامُ مُحَمَّدٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ ، مَلَكًا كَانَ أَوْ بَشَرًا ، وَأَمَّا إِذَا أَقَرَّ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ ، ثُمَّ أَوَّلَ وَحَرَّفَ ، فَقَدْ وَافَقَ قَوْلَ مَنْ قَالَ : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٢٥] . فِي بَعْضِ مَا بِهِ كَفَرَ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ « وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ » إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : « وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ » : يَعْنِي أَنَّهُ أَشْرَفُ وَأَفْصَحُ وَأَصْدَقُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ الْآيَةَ . [الإسراء: ٨٨] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود: ١٣] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨] . فَلَمَّا عَجَزُوا وَهُمْ فُصَحَاءُ الْعَرَبِ ، مَعَ شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، تَبَيَّنَ صِدْقُ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ ، لَا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، أَيْ : بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . فَنَفْيُ الْمُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ ، وَمِنْ حَيْثُ النَّظْمُ وَالْمَعْنَى ، لَا مِنْ حَيْثُ الْكَلِمَاتُ وَالْحُرُوفُ . وَإِلَى هَذَا وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، أَيْ : أَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ كَلَامِهِمْ وَبِلُغَتِهِمُ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ ؟ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:١، ٢] .

﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الآية [آل عمران: ١ـ ٣] ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يونس:١] . وَكَذَلِكَ الْبَاقِي ، يُنَبِّهُهُمْ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ لَمْ يَأْتِكُمْ بِمَا لَا تَعْرِفُونَهُ ، بَلْ خَاطَبَكُمْ بِلِسَانِكُمْ .

وَلَكِنَّ أَهْلَ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ يَتَذَرَّعُونَ بِمِثْلِ هَذَا إِلَى نَفْيِ تَكَلُّمِ الله بِهِ ، وَسَمَاعِ جِبْرِيلَ مِنْهُ ، كَمَا يَتَذَرَّعُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾ [الشورى:١١] ، إِلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ . وَفِي الْآيَةِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨] ، مَا يَرُدُّ عَلَى مَنْ يَنْفِي الْحَرْفَ ، فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : فَأْتُوا بِحَرْفٍ ، أَوْ بِكَلِمَةٍ ، وَأَقْصَرُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُ آيَاتٍ ، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ ــ رَحِمَهُمَا الله : إِنَّ أَدْنَى مَا يُجْزِئُ فِي الصَّلَاةِ ثَلَاثُ آيَاتٍ قِصَارٍ ، أَوْ آيَةٌ طَوِيلَةٌ ، لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ ، الْإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلِكَ . وَالله أَعْلَمُ .

*****

قَوْلُهُ : «وَمَنْ وَصَفَ اللهَ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ ، فَقَدْ كَفَرَ. مَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ. وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ . وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ » .

ش :لَمَّا ذَكَرَ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ الله حَقِيقَةً ، مِنْهُ بَدَا ، نَبَّهَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ ، نَفْيًا لِلتَّشْبِيهِ عَقِيبَ الْإِثْبَاتِ ، يَعْنِي : أَنَّه تَعَالَى وَإِنْ وُصِفَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ، لَكِنْ لَا يُوصَفُ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِهَا مُتَكَلِّمًا ، فَإِنَّ الله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . وَمَا أَحْسَنَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ لِلْمُثْبِتِ لِلصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، بِاللَّبَنِ الْخَالِصِ السَّائِغِ لِلشَّارِبِينَ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ التَّعْطِيلِ ، وَدَمِ التَّشْبِيهِ ، وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا

وَالْمُشَبِّهُ يَعْبُدُ صَنَمًا .

وَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ : « وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ » وَكَذَا قَوْلُهُ : « وَهُوَ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ » أَيْ : دِينُ الْإِسْلَامِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّعْطِيلَ شَرٌّ مِنَ التَّشْبِيهِ ، لِمَا سَأَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا ، بَلْ صِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : « فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ » . أَيْ : مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ فِيمَا قَالَهُ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَصْفِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ وَوَعِيدِ الْمُشَبِّهِ اعْتَبَرَ وَانْزَجَرَ عَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ .

*****

قَوْلُهُ : «وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] . وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ ، وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا ، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا ، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ للهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ . وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ » .

ش : الْمُخَالِفُ فِي الرُّؤْيَةِ : الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْإِمَامِيَّةِ ، وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَدْ قَالَ بِثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ ، وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفُونَ بِالْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ ، وَسَائِرُ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَنْسُوبُونَ إِلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَشْرَفِ مَسَائِلِ أُصُولِ الدِّينِ وَأَجَلِّهَا ، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا الْمُشَمِّرُونَ ، وَتَنَافَسَ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ ، وَحُرِمَهَا الَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ مَحْجُوبُونَ ،

وَعَنْ بَابِهِ مَطْرُودُونَ .

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ رحمه الله مِنَ الْأَدِلَّةِ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢، ٢٣] . وَهِيَ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ ، وَأَمَّا مَنْ أَبَى إِلَّا تَحْرِيفَهَا بِمَا يُسَمِّيهِ تَأْوِيلًا ، فَتَأْوِيلُ نُصُوصِ الْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ ، أَسْهَلُ مِنْ تَأْوِيلِهَا عَلَى أَرْبَابِ التَّأْوِيلِ ، وَلَا يَشَاءُ مُبْطِلٌ أَنْ يَتَأَوَّلَ النُّصُوصَ ، وَيُحَرِّفَهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا إِلَّا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ السَّبِيلِ ، مَا وَجَدَهُ مُتَأَوِّلُ هَذِهِ النُّصُوصِ .

وَهَذَا الَّذِي أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَالدِّينَ ، وَهَكَذَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي نُصُوصِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَحَذَّرَنَا اللهُ أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَهُمْ . وَأَبَى الْمُبْطِلُونَ إِلَّا سُلُوكَ سَبِيلِهِمْ ، وَكَمْ جَنَى التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنْ جِنَايَةٍ ، فَهَلْ قُتِلَ عُثْمَانُ رضي الله عنه إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ؟ وَكَذَا مَا جَرَى فِي يَوْمِ الْجَمَلِ ، وَصِفِّينَ ، وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه ، وَالْحَرَّةِ ؟ وَهَلْ خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ ، وَاعْتَزَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ ، وَرَفَضَتِ الرَّوَافِضُ ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ ؟!

وَإِضَافَةُ النَّظَرِ إِلَى الْوَجْهِ ، الَّذِي هُوَ مَحَلُّهُ ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ (١) ، وَتَعْدِيَتُهُ بِأَدَاةِ «إِلَى» الصَّرِيحَةِ فِي نَظَرِ الْعَيْنِ ، وَإِخْلَاءُ الْكَلَامِ مِنْ قَرِينَةٍ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ صَرِيحَ فِي أَنَّ اللهَ أَرَادَ بِذَلِكَ نَظَرَ الْعَيْنِ الَّتِي فِي الْوَجْهِ إِلَى الرَّبِّ جل جلاله.

فَإِنَّ النَّظَرَ لَهُ عِدَّةُ اسْتِعْمَالَاتٍ ، بِحَسَبِ صِلَاتِهِ وَتَعَدِّيهِ بِنَفْسِهِ ، فَإِنْ عُدِّيَ بِنَفْسِهِ ، فَمَعْنَاهُ : التَّوَقُّفُ وَالِانْتِظَارُ ، ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[الحديد:١٣] . وَإِنْ عُدِّيَ بِـ «فِي» ، فَمَعْنَاهُ : التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف:١٨٥] . وَإِنْ عُدِّيَ بِـ «إِلَى» فَمَعْنَاهُ : الْمُعَايَنَةُ بِالْأَبْصَارِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾[الأنعام: ٩٩] . فَكَيْفَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى

---

(١) يعني : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢، ٢٣].

الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْبَصَرِ! .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢] ، قَالَ : مِنَ النَّعِيمِ ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣] ، قَالَ : تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا نَظَرًا ، ثُمَّ حَكَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما مِثْلَهُ .

وَهَذَا قَوْلُ كُلِّ مُفَسِّرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥] . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ** عز وجل .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦] ، « **فَالْحُسْنَى: الْجَنَّةُ ، وَالزِّيَادَةُ : هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ** » ، فَسَّرَهَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ مِنْ بَعْدِهِ ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ صُهَيْبٍ ، قَالَ : قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] ، قَالَ : « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَى مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا وَيُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ ، فَيَقُولُونَ : مَا هُوَ ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا ، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ ، وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ** »(١) .

وَبِهَذَا **قَالَ عَدَدٌ مِنَ** الصَّحَابَةِ **وَأَهْلِ العلم قَالُوا** : مَعْنَاهَا : أَنَّ الزِّيَادَةَ : النَّظَرُ إِلَى

---

(١) أخرجه مسلم (حديث١٨١) من طريق حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، قَالَ : يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عز وجل » .

وقد أعلَّ الدارقطني ـ رحمه الله تعالى ـ إسناد هذا الحديث فقال : رواه حماد بن زيد عن ابن أبي ليلى . قوله انتهى .

وَجْهِ اللهِ ﷻ .

رَوَى ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ جَمَاعَةٍ ، مِنْهُمْ : أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَحُذَيْفَةُ ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ.

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] . احْتَجَّ الشَّافِعِيُّ رحمه الله وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الْمُزَنِيِّ ، عَنِ الشَّافِعِيِّ ، وَقَالَ الْحَاكِمُ : حَدَّثَنَا الْأَصَمُّ حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ : حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيَّ رحمه الله ، وَقَدْ جَاءَتْهُ رُقْعَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ فِيهَا : مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] ؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَمَّا أَنَّ حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي السُّخْطِ ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا .

الجواب على من استدل بقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ على نفى الرؤية :

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف:١٤٣] ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] . فَالْآيَتَانِ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ .

أما الْآيَةُ الْأُولَى : فَالِاسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَالِ .

الثَّانِي : أَنَّ اللهَ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ ، وَلَمَّا سَأَلَ نُوحٌ عليه السلام رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ ، وَقَالَ : ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤] ، وَلَمْ يَقُلْ : إِنِّي لَا أُرَى ، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيَتِي ، أَوْ لَسْتُ بِمَرْئِيٍّ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ ظَاهِرٌ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي

كُمِّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ : أَطْعِمْنِيهِ ، فَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ : أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ ، أَمَّا إِذَا كَانَ طَعَامًا صَحَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرْئِيٌّ ، وَلَكِنَّ موسى عليه السلام لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَتَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى . يُوَضِّحُهُ .

الْوَجْهُ الرَّابِعُ : وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣] . فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْجَبَلَ مَعَ قُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّي فِي هَذِهِ الدَّارِ ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ ؟

الْخَامِسُ : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُسْتَقِرًّا ، وَذَلِكَ مُمْكِنٌ ، وَقَدْ عَلَّقَ بِهِ الرُّؤْيَةَ ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرَ أَنْ يَقُولَ : إِنِ اسْتَقَرَّ الْجَبَلُ ، فَسَوْفَ آكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَامُ ، وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ .

السَّادِسُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَجَلَّى لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ ! وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْلَمَ مُوسَى عليه السلام أَنَّ الْجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَتِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، فَالْبَشَرُ أَضْعَفُ .

السَّابِعُ : أَنَّ اللهَ كَلَّمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ ، وَمَنْ جَازَ عَلَيْهِ التَّكَلُّمُ وَالتَّكْلِيمُ ، وَأَنْ يُسْمِعَ مُخَاطِبَهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ ، فَرُؤْيَتُهُ أَوْلَى بِالْجَوَازِ ، وَلِهَذَا لَا يَتِمُّ إِنْكَارُ رُؤْيَتِهِ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا . وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْبِيدَ النَّفْيِ بِـ « لَنْ » وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ ، فَفَاسِدٌ ، فَإِنَّهَا لَوْ قُيِّدَتْ بِالتَّأْبِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ ، فَكَيْفَ إِذَا أُطْلِقَتْ ؟ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة:٩٥] ، مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف:٧٧] . وَلِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ لِلتَّأْبِيدِ الْمُطْلَقِ لَمَا جَازَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ ، قَالَ

تَعَالَى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾[يوسف :٨٠] . فَثَبَتَ أَنَّ « لَنْ » لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْـمُؤَبَّدَ .

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ بْنُ مَالِكٍ ـ رَحِمَهُ الله تعالى :

وَمَـــنْ رَأَى النَّفْـــيَ بِلَـــنْ مُؤَبَّـــدَا فَقَوْلُـــهُ ارْدُدْ وَسِـــوَاهُ فَاعْضُـــدَا

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ : فَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى الرُّؤْيَةِ مِنْ وَجْهٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ ، وَهُوَ أَنَّ الله تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ التَّمَدُّحِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْـمَدْحَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ ، وَأَمَّا الْعَدَمُ الْـمَحْضُ ، فَلَيْسَ بِكَمَالٍ ، فَلَا يُمْدَحُ بِهِ ، وَإِنَّمَا يُمْدَحُ الرَّبُّ تَعَالَى بِالنَّفْيِ إِذَا تَضَمَّنَ أَمْرًا وُجُودِيًّا ، كَمَدْحِهِ بِنَفْيِ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ ، الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْقَيُّومِيَّةِ ، وَنَفْيِ الْـمَوْتِ الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْحَيَاةِ ، وَنَفْيِ اللُّغُوبِ وَالْإِعْيَاءِ ، الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْقُدْرَةِ ، وَنَفْيِ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالظَّهِيرِ ، الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ ، وَنَفْيِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ صمديته وَغِنَاهُ ، وَنَفْيِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ تَوَحُّدِهِ وَغِنَاهُ عَنْ خَلْقِهِ ، وَنَفْيِ الظُّلْمِ ، الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ عَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَغِنَاهُ ، وَنَفْيِ النِّسْيَانِ وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنْ عِلْمِهِ ، الْـمُتَضَمِّنِ كَمَالَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ ، وَنَفْيِ الْمِثْلِ ، الْـمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ .

وَلِهَذَا لَمْ يَتَمَدَّحْ بِعَدَمٍ مَحْضٍ لَا يَتَضَمَّنُ أَمْرًا ثُبُوتِيًّا ، فَإِنَّ الْـمَعْدُومَ يُشَارِكُ الْـمَوْصُوفَ فِي ذَلِكَ الْعَدَمِ ، وَلَا يُوصَفُ الْكَامِلُ بِأَمْرٍ يَشْتَرِكُ هُوَ وَالْـمَعْدُومُ فِيهِ ، فَإِنَّ الْـمَعْنَى : أَنَّهُ يُرَى وَلَا يُدْرَكُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ، يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ ، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ لَا يُدْرَكُ بِحَيْثُ يُحَاطُ بِهِ ، فَإِنَّ «الْإِدْرَاكَ» هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ﴾ [الشعراء:٦١ ، ٦٢] ، فَلَمْ يَنْفِ مُوسَى عليه السلام الرُّؤْيَةَ ، وَإِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ ، فَالرُّؤْيَةُ وَالْإِدْرَاكُ كُلٌّ مِنْهُمَا يُوجَدُ مَعَ الْآخَرِ وَبِدُونِهِ ، فَالرَّبُّ تَعَالَى يُرَى وَلَا يُدْرَكُ ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ مِنَ الْآيَةِ ، كَمَا ذُكِرَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ . بَلْ هَذِهِ الشَّمْسُ الْمَخْلُوقَةُ لَا يَتَمَكَّنُ رَائِيهَا مِنْ إِدْرَاكِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ .

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رضي الله عنهم ، الدَّالَّةُ عَلَى الرُّؤْيَةِ فَمُتَوَاتِرَةٌ ، رَوَاهَا أَصْحَابُ الصِّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ .

فَمِنْهَا : حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟** » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « **هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟** » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « **فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ** » [(١)] ، الْحَدِيثَ ، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» بِطُولِهِ .

وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَيْضًا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٢)] نَظِيرُهُ .

وَحَدِيثُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ، قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ ، فَقَالَ : « **إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ** » [(٣)] ، الْحَدِيثَ أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» .

وَحَدِيثُ صُهَيْبٍ رضي الله عنه الْمُتَقَدِّمُ ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ .

وَحَدِيثُ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « **جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ،**

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث٧٤٣٧) ، ومسلم (حديث١٨٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) أخرجه البخاري (حديث٧٤٣٩) ، ومسلم (حديث١٨٣).

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (حديث٧٤٣٦) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث٦٣٣) .

وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ »(١) ، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» .

وَمِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ: « وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ ، فَلَيَقُولَنَّ : أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ ؟ فَيَقُولُ ، بَلَى يَا رَبِّ »(٢) ، الحديث . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» .

وَقَدْ رَوَى أَحَادِيثَ الرُّؤْيَةِ نَحْوُ ثَلَاثِينَ صَحَابِيًّا ، وَمَنْ أَحَاطَ بِهَا مَعْرِفَةً يَقْطَعُ بِأَنَّ الرَّسُولَ قَالَهَا ، وَلَوْلَا أَنِّي الْتَزَمْتُ الْاخْتِصَارَ لَسُقْتُ مَا فِي الْبَابِ مِنَ الْأَحَادِيثِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا فَلْيُوَاظِبْ سَمَاعَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ ، فَإِنَّ فِيهَا مَعَ إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ أَنَّهُ يُكَلِّمُ مَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ ، وَأَنَّهُ يَأْتِي الخلق لِفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ ، وَأَنَّهُ يَتَجَلَّى لِعِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ يَضْحَكُ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي سَمَاعُهَا عَلَى الْجَهْمِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ .

وَكَيْفَ تُعْلَمُ أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ؟ وَكَيْفَ يُفَسَّرُ كِتَابُ اللهِ بِغَيْرِ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ وَأَصْحَابُ رَسُولِهِ ، الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ !

وَلَيْسَ تَشْبِيهُ رُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَى بِرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ تَشْبِيهًا للهِ ، بَلْ هُوَ تَشْبِيهُ الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ ، لَا تَشْبِيهُ الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ ، وَلَكِنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَإِلَّا فَهَلْ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِلَا مُقَابَلَةٍ ؟! وَمَنْ قَالَ : يُرَى لَا فِي جِهَةٍ ، فَلْيُرَاجِعْ عَقْلَهُ فَإِمَّا أَنْ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٧٤٤٤) ، ومسلم (حديث ١٨٠) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٤١٣) ، وأصله عند مسلم (حديث ١٠١٦).

يَكُونَ مُكَابِرًا لِعَقْلِهِ، أو فِي عَقْلِهِ شَيْءٌ، وَإِلَّا فَإِذَا قَالَ: يُرَى لَا أَمَامَ الرَّائِي، وَلَا خَلْفَهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلَا عَنْ يَسَارِهِ وَلَا فَوْقَهُ وَلَا تَحْتَهُ، رَدَّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ بِفِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ.

وَلِهَذَا أَلْزَمَ الْمُعْتَزِلَةُ مَنْ نَفَى الْعُلُوَّ بِالذَّاتِ بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَقَالُوا: كَيْفَ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِغَيْرِ جِهَةٍ؟

وَإِنَّمَا لَمْ نَرَهُ فِي الدُّنْيَا لِعَجْزِ أَبْصَارِنَا، لَا لِامْتِنَاعِ الرُّؤْيَةِ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ إِذَا حَدَّقَ الرَّائِي الْبَصَرَ فِي شُعَاعِهَا، ضَعُفَ عَنْ رُؤْيَتِهَا، لَا لِامْتِنَاعٍ فِي ذَاتِ الْمَرْئِيِّ، بَلْ لِعَجْزِ الرَّائِي، فَإِذَا كَانَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْمَلَ الله قُوَى الْآدَمِيِّينَ حَتَّى أَطَاقُوا رُؤْيَتَهُ، وَلِهَذَا لَمَّا تَجَلَّى الله لِلْجَبَلِ، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بِأَنَّهُ لَا يَرَاكَ حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ، وَلِهَذَا كَانَ الْبَشَرُ يَعْجِزُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ، إِلَّا مَنْ أَيَّدَهُ الله كَمَا أَيَّدَ نَبِيَّنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨]. **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ**: لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَرَوُا الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ، فَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ، وَحِينَئِذٍ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ: هَلْ هُوَ بَشَرٌ أَوْ مَلَكٌ؟ وَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ الله عَلَيْنَا أَنْ بَعَثَ فِينَا رَسُولًا مِنَّا.

وَمَا أَلْزَمَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ هَذَا الْإِلْزَامَ إِلَّا لَمَّا وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، لَكِنَّ قَوْلَ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ مِنْ قَوْلِ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ لَا يُرَى وَلَا فِي جِهَةٍ.

وَكَيْفَ يَتَكَلَّمُ فِي أُصُولِ الدِّينِ مَنْ لَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ قَوْلِ فُلَانٍ؟ وَإِذَا زَعَمَ أَنَّهُ يَأْخُذُهُ مِنْ كِتَابِ الله لَا يَتَلَقَّى تَفْسِيرَ كِتَابِ الله مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ، وَلَا يَنْظُرُ فِيهَا، وَلَا فِيمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ،

الْـمَنْقُولِ إِلَيْنَا عَنِ الثِّقَاتِ النَّقَلَةِ ، الَّذِينَ تَخَيَّرَهُمُ النُّقَّادُ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ، بَلْ نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ ، وَلَا كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ كَمَا يَتَعَلَّمُ الصِّبْيَانُ ، بَلْ يَتَعَلَّمُونَهُ بِمَعَانِيهِ .

وَمَنْ لَا يَسْلُكُ سَبِيلَهُمْ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ ، وَمَنْ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنُّهُ دِينَ اللهِ وَلَمْ يَتَلَقَّ ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْثُومٌ وَإِنْ أَصَابَ ، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَهُوَ مَأْجُورٌ وَإِنْ أَخْطَأَ ، لَكِنْ إِنْ أَصَابَ يُضَاعَفُ أَجْرُهُ .

وَقَوْلُهُ : « وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ » . تَخْصِيصُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالذِّكْرِ ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرُّؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَا شَكَّ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِرَبِّهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، وَكَذَلِكَ يَرَوْنَهُ فِي الْـمَحْشَرِ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[(١)] .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾[الأحزاب:٤٤] .

وَاخْتُلِفَ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الْـمَحْشَرِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْـمُؤْمِنُونَ .

الثَّانِي : يَرَاهُ أَهْلُ الْـمَوْقِفِ ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ الْكُفَّارِ وَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ .

الثَّالِثُ : يَرَاهُ مَعَ الْـمُؤْمِنِينَ الْـمُنَافِقُونَ دُونَ بَقِيَّةِ الْكُفَّارِ .

---

(١) يريد المصنف فيما يبدو لي حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه البخاري (حديث ٧٤٣٧) ، ومسلم (حديث١٨٢) ، عن النبي ﷺ وفيه أن ناسًا قالوا الرسول ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فذكر الحديث وفيه : « **يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا ، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا** » .

وَكَذَلِكَ الْخِلَافُ فِي تَكْلِيمِهِ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ .وَهَلْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ ﷻ .

وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنِهِ ، وَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي نَبِيِّنَا ﷺ خَاصَّةً: مِنْهُمْ مَنْ نَفَى رُؤْيَتَهُ بِالْعَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا لَهُ ﷺ ، وَحَكَى الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي كِتَابِهِ « الشِّفَا » اخْتِلَافَ الصَّحَابَةِ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ ، وَإِنْكَارَ عَائِشَةَ ﵂ أَنْ يَكُونَ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ ، وَأَنَّهَا قَالَتْ لِمَسْرُوقٍ حِينَ سَأَلَهَا : هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ؟ فَقَالَتْ : لَقَدْ قَفَّ شِعْرِي مِمَّا قُلْتَ ، ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ (١) .

ثُمَّ قَالَ : وَقَالَ جَمَاعَةٌ بِقَوْلِ عَائِشَةَ ﵂، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ (٢) وَأَبِي هُرَيْرَةَ (٣) وَاخْتُلِفَ عَنْهُ ، وَقَالَ بِإِنْكَارِ هَذَا وَامْتِنَاعِ رُؤْيَتِهِ فِي الدُّنْيَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄: أَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ (٤) .

وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ : أَنَّهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ (٥) ، ثُمَّ ذَكَرَ أَقْوَالًا وَفَوَائِدَ ، ثُمَّ قَالَ : وَأَمَّا

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث٤٨٥٥ ، ٧٣٨٠)، ومسلم (حديث١٧٧) وهو عنده مطول وله روايات .

(٢) أخرجه البخاري (حديث٤٨٥٦، ٤٨٥٧) ، ومسلم (حديث١٧٤) عن ابن مسعود ﵁ في قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:٩، ١٠] ، أنه محمدٌ ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح .

(٣) أخرجه مسلم (حديث١٧٥) عن أبي هريرة ﵁ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣] ، قال : رأى جبريل .

(٤) أخرجه البخاري (حديث٤٧١٦) من طريق عكرمة عن ابن عباس ﵄ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال : هي الرؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ، ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [الإسراء:٦٠] ، قال : شجرة الزقوم .

(٥) هي عند مسلم (حديث١٧٦) ، وعند مسلم أيضًا من طريق أبي العالية عن ابن عباس ﵄ قال : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم:١١] ، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣] ، قال : رآه بفؤاده مرتين .

وُجُوبُهُ لِنَبِيِّنَا ﷺ وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ : فَلَيْسَ فِيهِ قَاطِعٌ وَلَا نَصٌّ ، وَالْمُعَوَّلُ فِيهِ عَلَى آيَةِ النَّجْمِ ، وَالتَّنَازُعُ فِيهَا مَأْثُورٌ ، وَالاحْتِمَالُ لَهَا مُمْكِنٌ .

وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ الْحَقُّ ، فَإِنَّ الرُّؤْيَةَ فِي الدُّنْيَا مُمْكِنَةٌ ، إِذْ لَوْ لَمْ تَكُنْ مُمْكِنَةً ، لَمَا سَأَلَهَا مُوسَى عليه السلام ، لَكِنْ لَمْ يَرِدْ نَصٌّ بِأَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ ، بَلْ وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ »[١] . وَفِي رِوَايَةٍ : « رَأَيْتُ نُورًا »[٢] .

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ : النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ »[٣] .

فَيَكُونُ وَاللهُ أَعْلَمُ مَعْنَى قَوْلِهِ لِأَبِي ذَرٍّ : « رَأَيْتُ نُورًا » : أَنَّهُ رَأَى الْحِجَابَ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ » : النُّورُ الَّذِي هُوَ الْحِجَابُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَتِهِ ، فَأَنَّى أَرَاهُ ! أَيْ : فَكَيْفَ أَرَاهُ وَالنُّورُ حِجَابٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَمْنَعُنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ ؟ فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَحَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ اتِّفَاقَ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ .

وَنَحنُ إِلَى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِجِبْرِيلَ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِرَبِّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَتْ رُؤْيَةُ الرَّبِّ تَعَالَى أَعْظَمَ وَأَعْلَى ، فَإِنَّ النُّبُوَّةَ لَا يَتَوَقَّفُ ثُبُوتُهَا عَلَيْهَا أَلْبَتَّةَ .

(١، ٢) عند مسلم (حديث ١٧٨).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ١٧٩).

وَقَوْلُهُ : « بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ » .

هَذَا لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[الأنعام: ١٠٣]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[طه:١١٠] .

وَقَوْلُهُ : « وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ وَعَلِمَهُ » إِلَى أَنْ قَالَ : « لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا » .

أَيْ كَمَا فَعَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي الرُّؤْيَةِ ، وَذَلِكَ تَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ . فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ هُوَ الَّذِي يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ ، وَالْفَاسِدُ الْمُخَالِفُ لَهُ ، فَكُلُّ تَأْوِيلٍ بمعنى لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السِّيَاقِ ، وَلَا مَعَهُ قَرِينَةٌ تَقْتَضِيهِ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقْصِدُهُ الْمُبَيِّنُ الْهَادِي بِكَلَامِهِ ، إِذْ لَوْ قَصَدَهُ لَحَفَّ بِالْكَلَامِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُخَالِفِ لِظَاهِرِهِ ، حَتَّى لَا يُوقِعَ السَّامِعَ فِي اللَّبْسِ وَالْخَطَأِ ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كَلَامَهُ بَيَانًا وَهُدًى ، فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خِلَافَ ظَاهِرِهِ ، وَلَمْ يَحُفَّ بِهِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي يَتَبَادَرُ غَيْرُهُ إِلَى فَهْمِ كُلِّ أَحَدٍ ، لَمْ يَكُنْ بَيَانًا وَلَا هُدًى ، فَالتَّأْوِيلُ إِخْبَارٌ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ لَا إِنْشَاءٌ .

وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ: فَهْمُ مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ ، فَإِذَا قِيلَ : مَعْنَى اللَّفْظِ كَذَا وَكَذَا ، كَانَ إِخْبَارًا بِالَّذِي عَنَاهُ الْمُتَكَلِّمُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْخَبَرُ مُطَابِقًا كَانَ كَذِبًا عَلَى الْمُتَكَلِّمِ .

وَيُعْرَفُ مُرَادُ الْمُتَكَلِّمِ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ :

مِنْهَا : أَنْ يُصَرِّحَ بِإِرَادَةِ ذَلِكَ الْمَعْنَى .

وَمِنْهَا : أَنْ يَسْتَعْمِلَ اللَّفْظَ الَّذِي لَهُ مَعْنًى ظَاهِرٌ بِالْوَضْعِ ، وَلَا يُبَيِّنُ بِقَرِينَةٍ تَصْحَبُ الْكَلَامَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ الْمَعْنَى ، فَكَيْفَ إِذَا حُفَّ بِكَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ

إِنَّمَا أَرَادَ حَقِيقَتَهُ وَمَا وُضِعَ لَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]. و«**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»(١). فَهَذَا مِمَّا يَقْطَعُ بِهِ السَّامِعُ لَهُ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ مُرَادِهِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَقِيقَةُ لَفْظِهِ الَّذِي وُضِعَ لَهُ مَعَ الْقَرَائِنِ الْمُؤَكِّدَةِ، كَانَ صَادِقًا فِي إِخْبَارِهِ. وَأَمَّا إِذَا تَأَوَّلَ الْكَلَامَ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَلَا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ هَذَا مُرَادُهُ كَذِبٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ بِالرَّأْيِ، وَتَوَهُّمٌ بِالْهَوَى.

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: نَحْمِلُهُ عَلَى كَذَا، أَوْ: نَتَأَوَّلُهُ بِكَذَا، إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَمَّا وُضِعَ لَهُ، فَإِنَّ مُنَازِعَهُ لَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِهِ وَلَمْ يُمْكِنْهُ دَفْعُ وُرُودِهِ، دَفَعَ مَعْنَاهُ، وَقَالَ: أَحْمِلُهُ عَلَى خِلَافِ ظَاهِرِهِ.

وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لله ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ» أَيْ: سَلَّمَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا بِالشُّكُوكِ وَالشُّبَهِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ، أَوْ يَقُولُ: الْعَقْلُ يَشْهَدُ بِضِدِّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّقْلُ، وَالْعَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ فَإِذَا عَارَضَهُ قَدَّمْنَا الْعَقْلَ، وَهَذَا لَا يَكُونُ قَطُّ، لَكِنْ إِذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ النَّقْلُ صَحِيحًا فَذَلِكَ الَّذِي يُدَّعَى أَنَّهُ مَعْقُولٌ إِنَّمَا هُوَ مَجْهُولٌ، وَلَوْ حَقَّقَ النَّظَرَ ظَهَرَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ النَّقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ، فَلَا يَصْلُحُ لِلْمُعَارَضَةِ، فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَتَعَارَضَ عَقْلٌ صَرِيحٌ، وَنَقْلٌ صَحِيحٌ أَبَدًا.

فَالْوَاجِبُ كَمَالُ التَّسْلِيمِ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَالِانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ، وَتَلَقِّي خَبَرِهِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، دُونَ أَنْ يُعَارِضَهُ بِخَيَالٍ بَاطِلٍ يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا، أَوْ نُحَمِّلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ وَزُبَالَةَ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحِّدَهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ

(١) صحيح: وقد تقدم قريبًا من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مرفوعًا، وانظر أيضًا: حديث جرير عند البخاري (٧٤٣٥).

وَالْانْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ ، كَمَا وَحَّدَ الْمُرْسِلَ بِالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ .

فَهُمَا تَوْحِيدَانِ ، لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلَّا بِهِمَا :

* تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ .

* وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ .

فَلَا يُحَاكِمُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ ، وَلَا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَبَرِهِ عَلَى عَرْضِهِ عَلَى قَوْلِ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ وَذَوِي مَذْهَبِهِ وَطَائِفَتِهِ وَمَنْ يُعَظِّمُهُ ، فَإِنْ أَذِنُوا لَهُ نَفَّذَهُ وَقَبِلَ خَبَرَهُ ، وَإِلَّا فَإِنْ طَلَبَ السَّلَامَةَ فَوَّضَهُ إِلَيْهِمْ وَأَعْرَضَ عَنْ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ ، وَإِلَّا حَرَّفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَسَمَّى تَحْرِيفَهُ تَأْوِيلًا وَحَمْلًا ، فَقَالَ : نُؤَوِّلُهُ وَنَحْمِلُهُ . فَلَأَنْ يَلْقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ مَا خَلَا الْإِشْرَاكَ بِاللهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِهَذِهِ الْحَالِ .

بَلْ إِذَا بَلَغَهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ يَعُدُّ نَفْسَهُ كَأَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَهَلْ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يُؤَخِّرَ قَبُولَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَى رَأْيِ فُلَانٍ وَكَلَامِهِ وَمَذْهَبِهِ! بَلْ كَانَ الْفَرْضُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى امْتِثَالِهِ ، مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ إِلَى سِوَاهُ ، وَلَا يُسْتَشْكَلُ قَوْلُهُ لِمُخَالَفَتِهِ رَأْيَ فُلَانٍ ، بَلْ تُسْتَشْكَلُ الْآرَاءُ لِقَوْلِهِ ، وَلَا يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ ، بَلْ تُهْدَرُ الْأَقْيِسَةُ ، وَتُلْغَى لِنُصُوصِهِ ، وَلَا يُحَرَّفُ كَلَامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ ، لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولًا ، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ ، وَعَنِ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ ، وَلَا يُوقَفُ قَبُولُ قَوْلِهِ عَلَى مُوَافَقَةِ فُلَانٍ دُونَ فُلَانٍ ، كَائِنًا مَنْ كَانَ .

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ : « لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي ، وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً ، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ

الْقُرْآنِ ، فَتَمَارَوْا فِيهَا ، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا ، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ ، يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ ، وَيَقُولُ : « **مَهْلًا يَا قَوْمِ ، بِهَذَا أُهْلِكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَإِنَّمَا نَزَلَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ** »[1] .

وَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ ، فَيُصَدِّقُ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ ، وَمَا سِوَاهُ مِنْ كَلَامِ سَائِرِ النَّاسِ يُعْرَضُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ وَافَقَهُ فَهُوَ حَقٌّ ، وَإِنْ خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ : هَلْ خَالَفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لِكَوْنِ ذَلِكَ الْكَلَامِ مُجْمَلًا لَا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ ، أَوْ قَدْ عَرَفَ مُرَادَهُ لَكِنْ لَمْ يَعْرِفْ هَلْ جَاءَ الرَّسُولُ بِتَصْدِيقِهِ أَوْ بِتَكْذِيبِهِ ؟ فَإِنَّهُ يُمْسِكُ عَنْهُ ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِعِلْمٍ ، وَالْعِلْمُ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَقَدْ يَكُونُ عِلْمٌ عَنْ غَيْرِ الرَّسُولِ ، لَكِنْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، مِثْلَ الطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْفِلَاحَةِ ، وَأَمَّا الْأُمُورُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْمَعَارِفُ الدِّينِيَّةُ ، فَهَذِهِ الْعِلْمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرَّسُولِ لَا غَيْرَ .

*****

قَوْلُهُ : « وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ » .

ش : هَذَا مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ ، إِذِ الْقَدَمُ الْحِسِّيُّ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ شَيْءٍ . أَيْ لَا

(١) إسناده حسن : وأخرجه أحمد(في المسند ٢/ ١٨١) وفي موطن أخر .

يَثْبُتُ إِسْلَامُ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِنُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ ، وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا ، وَلَا يُعَارِضُهَا بِرَأْيِهِ وَمَعْقُولِهِ وَقِيَاسِهِ ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ رحمه الله أَنَّهُ قَالَ : مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ (١). وَهَذَا كَلَامٌ جَامِعٌ نَافِعٌ .

قَوْلُهُ : « فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ ، حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ ، وَصَافِي الْمَعْرِفَةِ ، وَصَحِيحِ الْإِيمَانِ » .

ش : هَذَا تَقْرِيرٌ لِلْكَلَامِ الْأَوَّلِ ، وَزِيَادَةُ تَحْذِيرٍ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي أُصُولِ الدِّينِ - بَلْ وَفِي غَيْرِهَا - بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٣، ٤] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٨، ٩] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « **مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى**

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، قال الزهري : من الله عز وجل الرسالة وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ وعلينا التسليم .
(البخاري مع الفتح ط دار المعرفة ٣/ ٥٠٣) قبيل حديث (٧٥٣٠) .

كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ » ثُمَّ تَلَا : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ [الزخرف: ٥٨](١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصْمُ »(٢) . خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» .

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ ، نَقَصَ تَوْحِيدُهُ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ ، أَوْ يُقَلِّدُ ذَا رَأْيٍ وَهَوًى بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ، فَيَنْقُصُ مِنْ تَوْحِيدِهِ بِقَدْرِ خُرُوجِهِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، فَإِنَّهُ قَدِ اتَّخَذَهُ فِي ذَلِكَ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣] أَيْ : عَبَدَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ . وَإِنَّمَا دَخَلَ الْفَسَادُ فِي الْعَالَمِ مِنْ ثَلَاثِ فِرَقٍ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

فَالْمُلُوكُ الْجَائِرَةُ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالسِّيَاسَاتِ الْجَائِرَةِ ، وَيُعَارِضُونَهَا بِهَا ، وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ .

وَأَحْبَارُ السُّوءِ ، وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْخَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِآرَائِهِمْ وَأَقْيِسَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، الْمُتَضَمِّنَةَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَتَحْرِيمَ مَا أَبَاحَهُ ، وَاعْتِبَارَ مَا أَلْغَاهُ ، وَإِلْغَاءَ مَا اعْتَبَرَهُ ، وَإِطْلَاقَ مَا قَيَّدَهُ ، وَتَقْيِيدَ مَا أَطْلَقَهُ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

---

(١) حسن : أخرجه الترمذي رحمه الله (حديث٣٢٥٣) ، والحديث أيضًا أخرجه (٥/ ٢٥٦) ، وابن ماجه (حديث٤٨) وغيرهم .

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث٢٤٥٧)،وفي غير موضع ،ومسلم (٢٦٦٨)من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا .

وَالرُّهْبَانُ - وَهُمْ جُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ ، الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالشَّرْعِ ، بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْخَيَالَاتِ وَالْكُشُوفَاتِ الْبَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، الْمُتَضَمِّنَةَ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، وَإِبْطَالَ دِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ ، وَالتَّعَوُّضَ عَنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ .

فَقَالَ **الْأَوَّلُونَ** : إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ . وَقَالَ **الْآخَرُونَ** : إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا الْعَقْلَ ، وَقَالَ **أَصْحَابُ الذَّوْقِ** : إِذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالْكَشْفُ ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذَّوْقَ وَالْكَشْفَ .

كَلَامٌ لأَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ فِي عِلَم الكَلَامِ وَبَيَانُهُ بُطْلَان هَذَا الْعِلْمِ :

وَمِنْ كَلَامِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ : « إِحْيَاءَ عُلُومِ الدِّينِ » وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ كُتُبِهِ ، أَوْ أَجَلِّهَا : فَإِنْ قُلْتَ : فَعِلْمُ الْجَدَلِ وَالْكَلَامِ مَذْمُومٌ كَعِلْمِ النُّجُومِ أَوْ هُوَ مُبَاحٌ أَوْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذَا غُلُوًّا وَإِسْرَافًا فِي أَطْرَافٍ ، فَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ بِدْعَةٌ وَحَرَامٌ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَنْ يَلْقَى اللهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ سِوَى الشِّرْكِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِالْكَلَامِ ، وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ فَرْضٌ ، إِمَّا عَلَى الْكِفَايَةِ ، وَإِمَّا عَلَى الْأَعْيَانِ ، وَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَأَعْلَى الْقُرُبَاتِ ، فَإِنَّهُ تَحْقِيقٌ لِعِلْمِ التَّوْحِيدِ ، وَنِضَالٌ عَنْ دِينِ اللهِ . قَالَ : وَإِلَى التَّحْرِيمِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَسُفْيَانُ وَجَمِيعُ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ وَسَاقَ الْأَلْفَاظَ عَنْ هَؤُلَاءِ . قَالَ : وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ عَلَى هَذَا ، وَلَا يَنْحَصِرُ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنَ التَّشْدِيدَاتِ فِيهِ ، قَالُوا : مَا سَكَتَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِالْحَقَائِقِ ، وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الْأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا لِمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ . وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ** »(١) . أَيِ الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الْبَحْثِ وَالِاسْتِقْصَاءِ .

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٦٧٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا .

وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لَكَانَ أَهَمَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ وَيُعْلَمُ طَرِيقُهُ، وَيُثْنِي عَلَى أَرْبَابِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ اسْتِدْلَالِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ اسْتِدْلَالَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ.

ثم قال الشارح رحمه الله: وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوهُ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلَاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالْاصْطِلَاحِ عَلَى أَلْفَاظٍ لِعُلُومٍ صَحِيحَةٍ، وَلَا كَرِهُوا أَيْضًا الدَّلَالَةَ عَلَى الْحَقِّ، وَالْمُحَاجَّةِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ، بَلْ كَرِهُوهُ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى أُمُورٍ كَاذِبَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْحَقِّ. وَمِنْ ذَلِكَ:

مُخَالَفَتُهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحَةٍ، فَقَدْ وَعَّرُوا الطَّرِيقَ إِلَى تَحْصِيلِهَا، وَأَطَالُوا الْكَلَامَ فِي إِثْبَاتِهَا مَعَ قِلَّةِ نَفْعِهَا، فَهِيَ لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ وَأَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ، فَهُوَ فِي الْقُرْآنِ أَصَحُّ تَقْرِيرًا، وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا التَّكَلُّفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ. كَمَا قِيلَ:

لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتُبُ التَّنَاظُرِ لَا الْمُغْنِي وَلَا الْعَمَدُ
يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمْ عُقَدًا ... وَبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ الْعُقَدُ

فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ بِالَّذِي وَضَعُوهُ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ، وَالْفَاضِلُ الذَّكِيُّ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ زَادَتْ بِذَلِكَ.

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ لَا يَحْصُلَ الشِّفَاءُ وَالْهُدَى وَالْعِلْمُ وَالْيَقِينُ مِنْ كِتَابِ الله وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَيَحْصُلَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَيِّرِينَ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الْأَصْلُ، وَيَتَدَبَّرَ مَعْنَاهُ وَيَعْقِلَهُ، وَيَعْرِفَ بُرْهَانَهُ وَدَلِيلَهُ، إِمَّا الْعَقْلِيُّ وَإِمَّا الْخَبَرِيُّ السَّمْعِيُّ، وَيَعْرِفَ دَلَالَتَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَيَجْعَلَ أَقْوَالَ النَّاسِ الَّتِي تُوَافِقُهُ وَتُخَالِفُهُ مُتَشَابِهَةً مُجْمَلَةً، فَيُقَالُ لِأَصْحَابِهَا: هَذِهِ الْأَلْفَاظُ تَحْتَمِلُ

كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا يُوَافِقُ خَبَرَ الرَّسُولِ قُبِلَ ، وَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا يُخَالِفُهُ رُدَّ .

وَهَذَا مِثْلُ لَفْظِ الْمُرَكَّبِ ، وَالْجِسْمِ ، وَالْمُتَحَيِّزِ ، وَالْجَوْهَرِ ، وَالْجِهَةِ ، وَالْحَيِّزِ ، وَالْعَرَضِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَمْ تَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالْمَعْنَى الَّذِي يُرِيدُهُ أَهْلُ هَذَا الاصْطِلَاحِ ، بَلْ وَلَا فِي اللُّغَةِ ، بَلْ هُمْ يَخْتَصُّونَ بِالتَّعْبِيرِ بِهَا عَنْ مَعَانٍ لَمْ يُعَبِّرْ غَيْرُهُمْ عَنْهَا بِهَا ، فَتُفَسَّرُ تِلْكَ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ أُخَرَ ، وَيُنْظَرُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ ، وَإِذَا وَقَعَ الِاسْتِفْسَارُ وَالتَّفْصِيلُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ .

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ : وَكَمْ زَالَ بِالْاسْتِفْسَارِ وَالتَّفْصِيلِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَضَالِيلِ وَالْأَبَاطِيلِ . وَسَبَبُ الْإِضْلَالِ الْإِعْرَاضُ عَنْ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ، وَالِاشْتِغَالُ بِكَلَامِ الْيُونَانِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ .

وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَؤُلَاءِ : « أَهْلَ الْكَلَامِ » ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفِيدُوا عِلْمًا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا ، وَإِنَّمَا أَتَوْا بِزِيَادَةِ كَلَامٍ قَدْ لَا يُفِيدُ ، وَهُوَ مَا يَضْرِبُونَهُ مِنَ الْقِيَاسِ لِإِيضَاحِ مَا عُلِمَ بِالْحِسِّ ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقِيَاسُ وَأَمْثَالُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، وَمَعَ مَنْ يُنْكِرُ الْحِسَّ . وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ أَوْ ذَوْقِهِ أَوْ سِيَاسَتِهِ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ ، أَوْ عَارَضَ النَّصَّ بِالْمَعْقُولِ فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ ، حَيْثُ لَمْ يُسَلِّمْ لِأَمْرِ رَبِّهِ ، بَلْ قَالَ : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء:٨٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوا نَبِيَّهُ ، وَيَرْضَوْا بِحُكْمِهِ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

*****

قَوْلُهُ : « فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ ، مُوَسْوِسًا تَائِهًا ، شَاكًّا ، زَائِغًا لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا ، وَلَا جَاحِدًا مُكَذِّبًا » .

ش : يَتَذَبْذَبُ : يَضْطَرِبُ وَيَتَرَدَّدُ ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ الَّتِي وَصَفَهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ حَالُ كُلِّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَعِنْدَ التَّعَارُضِ يَتَأَوَّلُ النَّصَّ ، وَيَرُدُّهُ إِلَى الرَّأْيِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَيَئُولُ أَمْرُهُ إِلَى الْحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ وَالشَّكِّ ، كَمَا قَالَ ابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ - وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِمَذْهَبِ الْفَلَاسِفَةِ وَمَقَالَاتِهِمْ - فِي كِتَابِهِ « تَهَافُتِ التَّهَافُتِ » : « وَمَنِ الَّذِي قَالَ فِي الْإِلَهِيَّاتِ شَيْئًا يُعْتَدُّ بِهِ ؟! » . وَكَذَلِكَ الْآمِدِيُّ ، أَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ ، وَاقِفٌ فِي الْمَسَائِلِ الْكِبَارِ حَائِرٌ ، وَكَذَلِكَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ ، انْتَهَى آخِرُ أَمْرِهِ إِلَى الْوَقْفِ وَالْحَيْرَةِ فِي الْمَسَائِلِ الْكَلَامِيَّةِ ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْ تِلْكَ الطُّرُقِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ ، فَمَاتَ و[صحيح الإمام] «الْبُخَارِيُّ» عَلَى صَدْرِهِ ، وَكَذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ ، قَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي أَقْسَامِ اللَّذَّاتِ :

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ : قِيلَ وَقَالُوا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ ... فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا ... رِجَالٌ ، فَزَالُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ ، وَالْمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا ، وَلَا تُرْوِي غَلِيلًا ، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ ، اقْرَأْ فِي الْإِثْبَاتِ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠] وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] ثُمَّ قَالَ : « **وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي** » .

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّهْرَسْتَانِيُّ ، إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا الْحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ ، حَيْثُ قَالَ :

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وَكَذَلِكَ قَالَ **أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيُّ** رَحِمَهُ اللهُ : يَا أَصْحَابَنَا ، لَا تَشْتَغِلُوا بِالْكَلَامِ ، فَلَوْ عَرَفْتُ أَنَّ الْكَلَامَ يَبْلُغُ بِي إِلَى مَا بَلَغَ مَا اشْتَغَلْتُ بِهِ . وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ : لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ ، وَخَلَّيْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ ، وَدَخَلْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ ، وَالْآنَ فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ فَالْوَيْلُ لِابْنِ الْجُوَيْنِيِّ ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي ، أَوْ قَالَ : عَلَى عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ ، وَيُقَالُ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ .

وَقَالَ : لَقَدِ اطَّلَعْتُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ عَلَى شَيْءٍ مَا ظَنَنْتُ مُسْلِمًا يَقُولُهُ ، وَلَأَنْ يُبْتَلَى الْعَبْدُ بِكُلِّ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مَا خَلَا الشِّرْكَ بِالله خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُبْتَلَى بِالْكَلَامِ . انْتَهَى .

وَتَجِدُ أَحَدَ هَؤُلَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ يَرْجِعُ إِلَى مَذْهَبِ الْعَجَائِزِ ، فَيُقِرُّ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ ، وَيُعْرِضُ عَنْ تِلْكَ الدَّقَائِقِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ ، الَّتِي كَانَ يَقْطَعُ بِهَا ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ

فَسَادُهَا ، أَوْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ صِحَّتُهَا ، فَيَكُونُونَ فِي نِهَايَاتِهِمْ ـ إِذَا سَلِمُوا مِنَ الْعَذَابِ ـ بِمَنْزِلَةِ أَتْبَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَعْرَابِ .

وَالدَّوَاءُ النَّافِعُ لِمِثْلِ هَذَا الْمَرَضِ ، مَا كَانَ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ يَقُولُهُ : إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١) خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ .

تَوَسَّلَ ﷺ إِلَى رَبِّهِ بِرُبُوبِيَّةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، إِذْ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِالْهِدَايَةِ . وَقَدْ وَكَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ بِالْحَيَاةِ : فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ ، وَمِيكَائِيلُ بِالْقَطْرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَإِسْرَافِيلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَالَمِ وَعَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادِهَا ، فَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ بِرُبُوبِيَّةِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوَكَّلَةِ بِالْحَيَاةِ ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ . وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

*****

قَوْلُهُ : « وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ ، إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ ، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ ، بِتَرْكِ التَّأْوِيلِ ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ » .

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم لكونه من رواية عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير ، فرواية عكرمة عن يحيى فيها كلام ، ذكر ذلك أبو الفضل الهروي في كتابه « علل أحاديث في كتاب الصحيح لمسلم بن الحجاج ».

ش : يُشِيرُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ ، وَعَلَى مَنْ يُشَبِّهُ اللهَ بِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ** »(١)، الْحَدِيثَ ، أَدْخَلَ « كَافَ » التَّشْبِيهِ عَلَى « مَا » الْمَصْدَرِيَّةِ الْمَوْصُولَةِ بِـ « تَرَوْنَ » الَّتِي تنحل إِلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ الرُّؤْيَةُ ، فَيَكُونُ التَّشْبِيهُ فِي الرُّؤْيَةِ لَا فِي الْمَرْئِيِّ ، وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ وَتَحْقِيقُهَا ، وَدَفْعُ الِاحْتِمَالَاتِ عَنْهَا ، وَمَاذَا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْإِيضَاحِ !.

فَإِذَا سُلِّطَ التَّأْوِيلُ عَلَى مِثْلِ هَذَا النَّصِّ ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِنَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ ؟! وَهَلْ يَحْتَمِلُ هَذَا النَّصُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَعْلَمُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟! وَيَسْتَشْهِدُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل: ١] ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا اسْتُعْمِلَ فِيهِ « رَأَى » الَّتِي مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ ! ! وَلَا شَكَّ أَنَّ رَأَى تَارَةً تَكُونُ بَصَرِيَّةً ، وَتَارَةً تَكُونُ قَلْبِيَّةً ، وَتَارَةً تَكُونُ مِنْ رُؤْيَا الْحُلْمِ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ مَا يَخْلُو الْكَلَامُ مِنْ قَرِينَةٍ تُخَلِّصُ أَحَدَ مَعَانِيهِ مِنَ الْبَاقِي ، وَإِلَّا لَوْ أَخْلَى الْمُتَكَلِّمُ كَلَامَهُ مِنَ الْقَرِينَةِ الْمُخَلِّصَةِ لِأَحَدِ الْمَعَانِي ، لَكَانَ مُجْمَلًا مُلْغِزًا ، لَا مُبَيِّنًا مُوَضِّحًا وَأَيُّ بَيَانٍ وَقَرِينَةٍ فَوْقَ قَوْلِهِ : « **تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ** » ؟! فَهَلْ مِثْلُ هَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِرُؤْيَةِ الْبَصَرِ ، أَوْ بِرُؤْيَةِ الْقَلْبِ ؟ وَهَلْ يَخْفَى مِثْلُ هَذَا إِلَّا عَلَى مَنْ أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ ؟

وَقَوْلُهُ : « لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ » ، أَيْ تَوَهَّمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُرَى عَلَى صِفَةِ كَذَا ، فَيَتَوَهَّمُ تَشْبِيهًا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا التَّوَهُّمِ إِنْ أَثْبَتَ مَا تَوَهَّمَهُ مِنَ الْوَصْفِ ، فَهُوَ مُشَبِّهٌ ، وَإِنْ نَفَى الرُّؤْيَةَ مِنْ أَصْلِهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّوَهُّمِ ، فَهُوَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ ، بَلِ الْوَاجِبُ دَفْعُ ذَلِكَ الْوَهْمِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَعُمُّ بِنَفْيِهِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَيَنْفِيهِمَا رَدًّا عَلَى مَنْ أَثْبَتَ الْبَاطِلَ ، بَلِ الْوَاجِبُ رَدُّ الْبَاطِلِ وَإِثْبَاتُ الْحَقِّ .

---

(١) صحيح ،وقد تقدم مرارًا .

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ بِقَوْلِهِ : « وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ » ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَزِلَةَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُنَزِّهُونَ اللهَ بِهَذَا النَّفْيِ ، وَهَلْ يَكُونُ التَّنْزِيهُ بِنَفْيِ صِفَةِ الْكَمَالِ ؟! فَإِنَّ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ لَيْسَ بِصِفَةِ كَمَالٍ ، إِذِ الْمَعْدُومُ لَا يُرَى ، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ وَنَفْيِ إِدْرَاكِ الرَّائِي لَهُ إِدْرَاكَ إِحَاطَةٍ ، كَمَا فِي الْعِلْمِ ، فَإِنَّ نَفْيَ الْعِلْمِ بِهِ لَيْسَ بِكَمَالٍ ، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الْعِلْمِ ، وَنَفْيِ الْإِحَاطَةِ بِهِ عِلْمًا ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيَةً ، كَمَا لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا .

وَقَوْلُهُ : « أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ » أَيِ ادَّعَى أَنَّهُ فَهِمَ لَهَا تَأْوِيلًا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا ، وَمَا يَفْهَمُهُ كُلُّ عَرَبِيٍّ مِنْ مَعْنَاهَا ، فَإِنَّهُ قَدْ صَارَ اصْطِلَاحُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي مَعْنَى التَّأْوِيلِ : أَنَّهُ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ ، وَبِهَذَا تَسَلَّطَ الْمُحَرِّفُونَ عَلَى النُّصُوصِ ، وَقَالُوا : نَحْنُ نُؤَوِّلُ مَا يُخَالِفُ قَوْلَنَا ، فَسَمَّوُا التَّحْرِيفَ تَأْوِيلًا ، تَزْيِينًا لَهُ وَزَخْرَفَةً لِيُقْبَلَ ، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ الَّذِينَ زَخْرَفُوا الْبَاطِلَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[الأنعام:١١٢] ، وَالْعِبْرَةُ لِلْمَعَانِي لَا لِلْأَلْفَاظِ ، فَكَمْ مِنْ بَاطِلٍ قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مُزَخْرَفٌ عُورِضَ بِهِ دَلِيلُ الْحَقِّ .

وَكَلَامُهُ هُنَا نَظِيرُ قَوْلِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ : « لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا ، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا » . ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ : « إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ ، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ : تَرْكَ التَّأْوِيلِ ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ » . وَمُرَادُهُ تَرْكُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ تَأْوِيلًا ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ ، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ تَأَدَّبَ وَجَادَلَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥] وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكَ كُلِّ مَا يُسَمَّى تَأْوِيلًا ، وَلَا تَرْكَ شَيْءٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ لِبَعْضِ النَّاسِ لِدَلِيلٍ رَاجِحٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ تَرْكُ

التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، الْمُخَالَفَةِ لِمَذْهَبِ السَّلَفِ، الَّتِي يَدُلُّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى فَسَادِهَا، وَتَرْكُ الْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ.

فَمِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ: تَأْوِيلُ أَدِلَّةِ الرُّؤْيَةِ، وَأَدِلَّةِ الْعُلُوِّ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَلَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا.

ثُمَّ قَدْ صَارَ لَفْظُ «التَّأْوِيلِ» مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ.

فَالتَّأْوِيلُ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَؤُولُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ، فَتَأْوِيلُ الْخَبَرِ: هُوَ عَيْنُ الْمُخْبَرِ بِهِ، وَتَأْوِيلُ الْأَمْرِ: نَفْسُ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. وَمِنْهُ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا، وَتَأْوِيلُ الْعَمَلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]. وَقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وَقَوْلِهِ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فَمَنْ يُنْكِرُ وُقُوعَ مِثْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ، وَالْعِلْمَ بِمَا تَعَلَّقَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْهُ؟!.

وَأَمَّا مَا كَانَ خَبَرًا، كَالْإِخْبَارِ عَنِ اللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهَذَا قَدْ لَا يُعْلَمُ تَأْوِيلُهُ، الَّذِي هُوَ حَقِيقَتُهُ، إِذْ كَانَتْ لَا تُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ، فَإِنَّ الْمُخْبَرَ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَصَوَّرَ الْمُخْبَرَ بِهِ، أَوْ مَا يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ، الَّتِي هِيَ تَأْوِيلُهُ، بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ نَفْيُ الْعِلْمِ بِالْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَ الْمُخَاطِبُ إِفْهَامَ الْمُخَاطَبِ إِيَّاهُ، فَمَا فِي

الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ أَمَرَ الله بِتَدَبُّرِهَا ، وَمَا أَنْزَلَ آيَةً إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُعْلَمَ مَا عَنَى بِهَا ، وَإِنْ كَانَ مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله . فَهَذَا مَعْنَى التَّأْوِيلِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ ، وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا التَّأْوِيلُ مُوَافِقًا لِلظَّاهِرِ أَوْ مُخَالِفًا لَهُ .

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ - كَابْنِ جَرِيرٍ وَنَحْوِهِ - يُرِيدُونَ بِهِ تَفْسِيرَ الْكَلَامِ وَبَيَانَ مَعْنَاهُ ، سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ خَالَفَ ، وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مَعْرُوفٌ ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ كَالتَّفْسِيرِ ، يُحْمَدُ حَقُّهُ ، وَيُرَدُّ بَاطِلُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران: ٧] ، فِيهَا قِرَاءَتَانِ : قِرَاءَةُ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ، وَقِرَاءَةُ مَنْ لَا يَقِفُ عِنْدَهَا ، وَكِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَقٌّ ، وَيُرَادُ بِالْأُولَى الْمُتَشَابِهُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ الله بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ ، وَيُرَادُ بِالثَّانِيَةِ الْمُتَشَابِهُ الْإِضَافِيُّ الَّذِي يَعْرِفُ الرَّاسِخُونَ تَفْسِيرَهُ ، وَهُوَ تَأْوِيلُهُ .

وَلَا يُرِيدُ مَنْ وَقَفَ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ لِلْمَعْنَى ، فَإِنَّ لَازِمَ هَذَا أَنْ يَكُونَ الله أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ كَلَامًا لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ وَلَا الرَّسُولُ ، وَيَكُونُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا سِوَى قَوْلِهِمْ : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧] . وَهَذَا الْقَدْرُ يَقُولُهُ غَيْرُ الرَّاسِخِ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَجِبُ امْتِيَازُهُمْ عَنْ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵁ : أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ ، وَلَقَدْ صَدَقَ ﵁ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا لَهُ وَقَالَ : « **اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ** »(١) .

---

(١) حسن : أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥) ، وفي « فضائل الصحابة » أيضًا (١٨٥٨، ١٨٨٢) ، وابن أبي شيبة (المصنف ١٢٢٧٣) ، وغيرهم .
أما البخاري فلم يخرج الحديث بهذا اللفظ ، ولكنه أخرجه مختصرًا .

وَقَوْلُ الْأَصْحَابِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - فِي الْأُصُولِ : إِنَّ الْمُتَشَابِهَ : الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، وَيُرْوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ قَدْ تَكَلَّمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ ، فَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا مَعْرُوفًا ، فَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا ، وَهِيَ الْمُتَشَابِهُ ، كَانَ مَا سِوَاهَا مَعْلُومَ الْمَعْنَى ، وَهَذَا الْمَطْلُوبُ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ قَالَ : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]. وَهَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ آيَاتٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعَادِّينَ .

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ : هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلَالَةٍ تُوجِبُ ذَلِكَ . وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَتَنَازَعُ النَّاسُ فِيهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلَبِيَّةِ . فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ مِنْهُ : الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ .

قَوْلُهُ : « وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ » .

ش : النَّفْيُ وَالتَّشْبِيهُ مَرَضَانِ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ ، فَإِنَّ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ نَوْعَانِ :

مَرَضُ شُبْهَةٍ .

وَمَرَضُ شَهْوَةٍ .

وَكِلَاهُمَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢] . فَهَذَا مَرَضُ الشَّهْوَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى

= « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » عند البخاري (١٤٣) ، وعند مسلم : «« اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ » ، وعند البخاري أيضًا (٣٧٥٦) بلفظ : « اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ» ، وفي رواية عند البخاري أيضًا : «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ».

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾[التوبة:١٢٥] . فَهَذَا مَرَضُ الشُّبْهَةِ ، وَهُوَ أَرْدَأُ مِنْ مَرَضِ الشَّهْوَةِ ، إِذْ مَرَضُ الشَّهْوَةِ يُرْجَى لَهُ الشِّفَاءُ بِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ ، وَمَرَضُ الشُّبْهَةِ لَا شِفَاءَ لَهُ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ .

وَالشُّبْهَةُ الَّتِي فِي مَسْأَلَةِ الصِّفَاتِ نَفْيُهَا وَتَشْبِيهُهَا ، وَشُبْهَةُ النَّفْيِ أَرْدَأُ مِنْ شُبْهَةِ التَّشْبِيهِ ، فَإِنَّ شُبْهَةَ النَّفْيِ رَدٌّ وَتَكْذِيبٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَشُبْهَةَ التَّشْبِيهِ غُلُوٌّ وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَدِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَتَشْبِيهُ اللهِ بِخَلْقِهِ كُفْرٌ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[الشورى:١١] ، وَنَفْيُ الصِّفَاتِ كُفْرٌ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١] .

وَهَذَا أحدُ نَوْعَيِ التَّشْبِيهِ ، فَإِنَّ التَّشْبِيهَ نَوْعَانِ : تَشْبِيهُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ ، وَهَذَا الَّذِي يَتْعَبُ أَهْلُ الْكَلَامِ فِي رَدِّهِ وَإِبْطَالِهِ ، وَأَهْلُهُ فِي النَّاسِ أَقَلُّ مِنَ النَّوْعِ الثَّانِي ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ تَشْبِيهِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ ، كَعُبَّادِ المسيحِ ، وَعُزَيْرٍ ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَالْأَصْنَامِ ، وَالْمَلَائِكَةِ ، وَالنَّارِ ، وَالْمَاءِ ، وَالْعِجْلِ ، وَالْقُبُورِ ، وَالْجِنِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ يَدْعُونَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

*****

قَوْلُهُ : « فَإِنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ » .

ش : يُشِيرُ الشَّيْخُ ؒ إِلَى تَنْزِيهِ الرَّبِّ تَعَالَى بِالَّذِي هُوَ وَصْفُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا . وَكَلَامُ الشَّيْخِ مَأْخُوذٌ مِنْ مَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ . فَقَوْلُهُ : مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ ، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ : مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

وَقَوْلُهُ : لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ : مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ . وَهُوَ أَيْضًا مُؤَكِّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ . وَالْوَصْفُ وَالنَّعْتُ مُتَرَادِفَانِ ، وَقِيلَ : مُتَقَارِبَانِ . فَالْوَصْفُ لِلذَّاتِ ، وَالنَّعْتُ لِلْفِعْلِ ، وَكَذَلِكَ الْوَحْدَانِيَّةُ وَالْفَرْدَانِيَّةُ . وَقِيلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا : إِنَّ الْوَحْدَانِيَّةَ لِلذَّاتِ ، وَالْفَرْدَانِيَّةَ لِلصِّفَاتِ ، فَهُوَ تَعَالَى مُتَوَحِّدٌ فِي ذَاتِهِ ، مُتَفَرِّدٌ بِصِفَاتِهِ . وَهَذَا الْمَعْنَى حَقٌّ وَلَمْ يُنَازِعْ فِيهِ أَحَدٌ ، وَلَكِنْ فِي اللَّفْظِ نَوْعُ تَكْرِيرٍ . وَلِلشَّيْخِ رحمه الله نَظِيرُ هَذَا التَّكْرِيرِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْعَقِيدَةِ ، وَهُوَ بِالْخُطَبِ وَالْأَدْعِيَةِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْعَقَائِدِ ، وَالتَّسْجِيعُ بِالْخُطَبِ أَلْيَقُ . وَ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] . أَكْمَلُ فِي التَّنْزِيهِ(١) مِنْ قَوْلِهِ : « لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ » .

قَوْلُهُ : « وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ »(٢) .

ش : أَذْكُرُ بَيْنَ يَدَيِ الْكَلَامِ عَلَى عِبَارَةِ الشَّيْخِ رحمه الله مُقَدِّمَةً ، وَهِيَ : أَنَّ النَّاسَ فِي إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

فَطَائِفَةٌ تَنْفِيهَا ، وَطَائِفَةٌ تُثْبِتُهَا ، وَطَائِفَةٌ تُفَصِّلُ ، وَهُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِلسَّلَفِ ، فَلَا يُطْلِقُونَ نَفْيَهَا وَلَا إِثْبَاتَهَا إِلَّا إِذَا بُيِّنَ مَا أُثْبِتَ بِهَا فَهُوَ ثَابِتٌ ، وَمَا نُفِيَ بِهَا فَهُوَ مَنْفِيٌّ ؛ لِأَنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ قَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ فِيهَا إِجْمَالٌ وَإِبْهَامٌ ، كَغَيْرِهَا

---

(١) أحسن الشارح رحمه الله ، فما وصف الله به نفسه أولى وأحق وأكمل مما وصف به غيره .

(٢) في هذا الكلام خلل عظيم وإرباك للقارئ وإيهام ، فإن كان ينفي أن الله في السماء وأنه على العرش استوى فهذا ضلال عظيم وإن كان يقصد غير ذلك فقد أساء في اللفظ والتعبير أما الشارح فقد أحسن الظن بالمؤلف ودافع ، وأيضًا أشار إلى بعض وجوه الخلل.
وأقول : ليت المؤلف عبّر عن صريح مراده بتعبير ينفي به الاتهام عن نفسه وإلا فالاتهام ما زال قائمًا وكلامه ما زال غامضًا ولخصومه أن ينتقدوه من جملة وجوه .

مِنَ الْأَلْفَاظِ الِاصْطِلَاحِيَّةِ ، فَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَسْتَعْمِلُهَا فِي نَفْسِ مَعْنَاهَا اللُّغَوِيِّ . وَلِهَذَا كَانَ النُّفَاةُ يَنْفُونَ بِهَا حَقًّا وَبَاطِلًا ، وَيَذْكُرُونَ عَنْ مُثْبِتِيهَا مَا لَا يَقُولُونَ بِهِ ، وَبَعْضُ الْمُثْبِتِينَ لَهَا يُدْخِلُ فِيهَا مَعْنًى بَاطِلًا ، مُخَالِفًا لِقَوْلِ السَّلَفِ ، وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ ، وَلَمْ يَرِدْ نَصٌّ مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ بِنَفْيِهَا وَلَا إِثْبَاتِهَا ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَصِفَ الله تَعَالَى بِمَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ ، وَلَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا ، وَإِنَّمَا نَحْنُ مُتَّبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ .

فَالْوَاجِبُ أَنْ يُنْظَرَ فِي هَذَا الْبَابِ ، أَعْنِي بَابَ الصِّفَاتِ ، فَمَا أَثْبَتَهُ الله وَرَسُولُهُ أَثْبَتْنَاهُ ، وَمَا نَفَاهُ الله وَرَسُولُهُ نَفَيْنَاهُ ، وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي وَرَدَ بِهَا النَّصُّ يُعْتَصَمُ بِهَا فِي الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ ، فَنُثْبِتُ مَا أَثْبَتَهُ الله وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي . وننفي ما نفته نصوصُهما من الألفاظ والمعاني .

وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الَّتِي لَمْ يَرِدْ نَفْيُهَا وَلَا إِثْبَاتُهَا ، لَا تُطْلَقُ حَتَّى يُنْظَرَ فِي مَقْصُودِ قَائِلِهَا ، فَإِنْ كَانَ مَعْنًى صَحِيحًا قُبِلَ ، لَكِنْ يَنْبَغِي التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِأَلْفَاظِ النُّصُوصِ ، دُونَ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ ، مَعَ قَرَائِنَ تُبَيِّنُ الْمُرَادَ وَالْحَاجَةَ ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مَعَ مَنْ لَا يَتِمُّ الْمَقْصُودُ مَعَهُ إِنْ لَمْ يُخَاطَبْ بِهَا ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

وَالشَّيْخُ ـ رحمه الله تَعَالَى ـ أَرَادَ الرَّدَّ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ ، كَدَاوُدَ الْجَوَارِبِيِّ وَأَمْثَالِهِ الْقَائِلِينَ : إِنَّ الله جِسْمٌ ، وَإِنَّهُ جُثَّةٌ وَأَعْضَاءٌ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ تَعَالَى الله عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

فَالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ مِنَ النَّفْيِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُنَا حَقٌّ ، لَكِنْ حَدَثَ بَعْدَهُ مَنْ أَدْخَلَ فِي عُمُومِ نَفْيِهِ حَقًّا وَبَاطِلًا ، فَيَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ ذَلِكَ ، وَهُوَ : أَنَّ السَّلَفَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ لله حَدًّا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَحُدُّونَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ .

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ : كَانَ سُفْيَانُ وَشُعْبَةُ ، وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ، وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ وَشَرِيكٌ وَأَبُو عَوَانَةَ ، لَا يُحَدُّونَ وَلَا يُشَبِّهُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ ، يَرْوُونَ الْحَدِيثَ وَلَا يَقُولُونَ : كَيْفَ ؟ وَإِذَا سُئِلُوا قَالُوا بِالْأَثَرِ .

وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ : « وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقَهُ » . فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللهَ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِحَدِّهِ ؛ لَا أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ غَيْرُ مُتَمَيِّزٍ عَنْ خَلْقِهِ ، مُنْفَصِلٌ عَنْهُمْ ، مُبَايِنٌ لَهُمْ . سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ : بِمَ نَعْرِفُ رَبَّنَا ؟ قَالَ : بِأَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ ، قِيلَ : بِحَدٍّ ؟ قَالَ : بِحَدٍّ انْتَهَى .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَدَّ يُقَالُ عَلَى مَا يَنْفَصِلُ بِهِ الشَّيْءُ وَيَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى غَيْرُ حَالٍّ فِي خَلْقِهِ ، وَلَا قَائِمٍ بِهِمْ ، بَلْ هُوَ الْقَيُّومُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ ، الْمُقِيمُ لِمَا سِوَاهُ . فَالْحَدُّ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُنَازَعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَصْلًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ نَفْيِهِ إِلَّا نَفْيُ وُجُودِ الرَّبِّ وَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ .

وَأَمَّا لَفْظُ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ ، فَيَتَسَلَّطُ بِهَا النُّفَاةُ عَلَى نَفْيِ بَعْضِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ بِالْأَدِلَّةِ الْقَطْعِيَّةِ ، كَالْيَدِ وَالْوَجْهِ . قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ﷺ فِي « الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ » : لَهُ يَدٌ وَوَجْهٌ وَنَفْسٌ ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْيَدِ وَالْوَجْهِ وَالنَّفْسِ ، فَهُوَ لَهُ صِفَةٌ بِلَا كَيْفٍ ، وَلَا يُقَالُ : إِنَّ يَدَهُ قُدْرَتُهُ وَنِعْمَتُهُ ، لِأَنَّ فِيهِ إِبْطَالَ الصِّفَةِ . انْتَهَى . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ ﷺ ثَابِتٌ بِالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] . ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] . ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤]. وَقَالَ

تَعَالَى : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[طه:٤١] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨] . وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ لَمَّا يَأْتِي النَّاسُ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ : « **خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ** »(١) ، الْحَدِيثَ . وَلَا يَصِحُّ تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْيَدِ الْقُدْرَةُ ، فَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص:٧٥] . لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ بِقُدْرَتِي مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَدِ ، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ ، لَقَالَ إِبْلِيسُ : وَأَنَا أَيْضًا خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ ، فَلَا فَضْلَ لَهُ عَلَيَّ بِذَلِكَ . فَإِبْلِيسُ مَعَ كُفْرِهِ كَانَ أَعْرَفَ بِرَبِّهِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ . وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾[يس:٧١] . لِأَنَّهُ تَعَالَى جَمَعَ الْأَيْدِي لَمَّا أَضَافَهَا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ ، لِيَتَنَاسَبَ الْجَمْعَانِ ، اللَّفْظَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمُلْكِ وَالْعَظَمَةِ ، وَلَمْ يَقُلْ : « أَيْدِيَّ » مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُفْرَدِ ، وَلَا « يَدَيْنَا » بِتَثْنِيَةِ الْيَدِ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ ، فَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ : ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ نَظِيرَ قَوْلِهِ : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص:٧٥] . وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ ﷻ : « **حِجَابُهُ النُّورُ ، وَلَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ** »(٢) .

وَلَكِنْ لَا يُقَالُ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ : إِنَّهَا أَعْضَاءٌ ، أَوْ جَوَارِحُ ، أَوْ أَدَوَاتٌ ، أَوْ أَرْكَانٌ ؛ لِأَنَّ الرُّكْنَ جُزْءُ الْمَاهِيَّةِ ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَا يَتَجَزَّأُ ــ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ــ وَالْأَعْضَاءُ فِيهَا مَعْنَى التَّفْرِيقِ وَالتَّعْضِيَةِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾[الحجر:٩١] .

وَالْجَوَارِحُ فِيهَا مَعْنَى الِاكْتِسَابِ وَالِانْتِفَاعِ ، وَكَذَلِكَ الْأَدَوَاتُ هِيَ الْآلَاتُ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٧٥١٦) وفي غير موطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ١٩٣) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا .

(٢) صحيح : وقد تقدم قريبًا .

الَّتِي يُنْتَفَعُ بِهَا فِي جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ ، وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ . وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُنْتَفِيَةٌ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، وَلِهَذَا لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهَا فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى . فَالْأَلْفَاظُ الشَّرْعِيَّةُ صَحِيحَةُ الْمَعَانِي ، سَالِمَةٌ مِنَ الِاحْتِمَالَاتِ الْفَاسِدَةِ ، فَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ لَا يُعْدَلَ عَنِ الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا ، لِئَلَّا يَثْبُتَ مَعْنًى فَاسِدٌ ، أَوْ يُنْفَى مَعْنًى صَحِيحٌ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ عُرْضَةٌ لِلْمُحِقِّ وَالْمُبْطِلِ .

وَأَمَّا لَفْظُ الْجِهَةِ ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَعْدُومٌ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللهِ تَعَالَى كَانَ مَخْلُوقًا ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يَحْصُرُهُ شَيْءٌ ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ . وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ ، وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ . فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ فِي جِهَةٍ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ، فَهُوَ صَحِيحٌ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ حَيْثُ انْتَهَتِ الْمَخْلُوقَاتُ فَهُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ ، عَالٍ عَلَيْهِ .

وَنُفَاةُ لَفْظِ « الْجِهَةِ » الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ نَفْيَ الْعُلُوِّ يَذْكُرُونَ مِنْ أَدِلَّتِهِمْ (١) : أَنَّ الْجِهَاتِ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ ، وَأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْجِهَاتِ ، وَأَنَّ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ فِي جِهَةٍ يَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِقِدَمِ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْجِهَةِ ، ثُمَّ صَارَ فِيهَا . وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، سَوَاءٌ سُمِّيَ جِهَةً أَوْ لَمْ يُسَمَّ ، وَهَذَا حَقٌّ . وَلَكِنَّ الْجِهَةَ لَيْسَتْ أَمْرًا وُجُودِيًّا ، بَلْ أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِهَاتِ لَا نِهَايَةَ لَهَا ، وَمَا لَا يُوجَدُ فِيمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ ، فَلَيْسَ بِمَوْجُودٍ .

وَقَوْلُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ الله تعالى : « لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ » هُوَ حَقٌّ ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ .

---

(١) لسنا في حاجة إلى كلِّ هذا الكلام ولا في حاجة إلى معرفة الأقوال بهذه الطرائق من طرائق السياق ، بل يلزمنا معرفة معتقدنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ، أما التعقيدات والتخبطات والأقوال والردود والدفاع المتكلف فلسنا في حاجةٍ إليه ، ولسنا بمتعبدين به .

وَهَذَا الـمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ رحمه الله ، لِمَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ : « أَنَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ » فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَ كَلَامِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ : «لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ» وَبَيْنَ قَوْلُهُ: « مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ » عُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَحْوِيهِ شَيْءٌ ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ ، كَمَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْعَالِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

لَكِنْ بَقِيَ فِي كَلَامِهِ شَيْئَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ إِطْلَاقَ مِثْلَ هَذَا اللَّفْظِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالِاحْتِمَالِ كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى ، وَإِلَّا تَسَلَّطَ عَلَيْهِ ، وَأُلْزِمَ بِالتَّنَاقُضِ فِي إِثْبَاتِ الْإِحَاطَةِ وَالْفَوْقِيَّةِ وَنَفْيِ جِهَةِ الْعُلُوِّ ، وَإِنْ أُجِيبَ عَنْهُ بِمَا تَقَدَّمَ ، مِنْ أَنَّهُ نَفَى أَنْ يَحْوِيَهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَالِاعْتِصَامُ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْلَى .

الثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ : « كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ » يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مَا مِنْ مُبْتَدَعٍ إِلَّا وَهُوَ مَحْوِيٌّ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ ، فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مَحْوِيٌّ بِأَمْرٍ وُجُودِيٍّ فَمَمْنُوعٌ ، فَإِنَّ الْعَالَمَ لَيْسَ فِي عَالَمٍ آخَرَ ، وَإِلَّا لَزِمَ التَّسَلْسُلُ ، وَإِنْ أَرَادَ أَمْرًا عَدَمِيًّا ، فَلَيْسَ كُلُّ مُبْتَدَعٍ فِي الْعَدَمِ ، بَلْ مِنْهَا مَا هُوَ دَاخِلٌ فِي غَيْرِهِ ، كَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي الْكُرْسِيِّ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُنْتَهَى الْمَخْلُوقَاتِ كَالْعَرْشِ ، فَسَطْحُ الْعَالَمِ لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، قَطْعًا لِلتَّسَلْسُلِ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ : بِأَنَّ «سَائِرَ » بِمَعْنَى الْبَقِيَّةِ ، لَا بِمَعْنَى الْجَمِيعِ ، هَذَا أَصْلُ مَعْنَاهَا ، وَمِنْهُ « السُّؤْرُ » ، وَهُوَ مَا يُبْقِيهِ الشَّارِبُ فِي الْإِنَاءِ . فَيَكُونُ مُرَادُهُ غَالِبَ الْمَخْلُوقَاتِ ، لَا جَمِيعَهَا ، إِذِ « السَّائِرُ » عَلَى الْغَالِبِ أَدَلُّ مِنْهُ عَلَى الْجَمِيعِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : أَنَّ اللهَ تَعَالَى غَيْرُ مَحْوِيٍّ كَمَا يَكُونُ أَكْثَرُ الْمَخْلُوقَاتِ مَحْوِيًّا ، بَلْ هُوَ غَيْرُ مَحْوِيٍّ بِشَيْءٍ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ . وَلَا يُظَنَّ بِالشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللهُ

تعالى ـ أَنَّهُ مِمَّنْ يَقُولُ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيْسَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ بِنَفْيِ التعيينين ، كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الشَّارِحِينَ ، بَلْ مُرَادُهُ : أَنَّ اللهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، أَوَأَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، الْعَرْشِ أَوْ غَيْرِهِ .

وَفِي ثُبُوتِ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ﷺ نَظَرٌ ، فَإِنَّ أَضْدَادَهُ قَدْ شَنَّعُوا عَلَيْهِ بِأَشْيَاءَ أَهْوَنَ مِنْهُ ، فَلَوْ سَمِعُوا مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ، لَشَاعَ عَنْهُمْ تَشْنِيعُهُمْ عَلَيْهِ بِهِ ، وَقَدْ نَقَلَ أَبُو مُطِيعٍ الْبَلْخِيُّ عَنْهُ إِثْبَاتَ الْعُلُوِّ ، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . وَظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ يَقْتَضِي نَفْيَهُ ، وَلَمْ يَرِدْ بِمِثْلِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ ، فَلِذَلِكَ قُلْتُ : إِنَّ فِي ثُبُوتِهِ عَنِ الْإِمَامِ نَظَرًا ، وَإِنَّ الْأَوْلَى التَّوَقُّفُ فِي إِطْلَاقِهِ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ بِمِثْلِهِ خَطَرٌ ، بِخِلَافِ الْكَلَامِ بِمَا وَرَدَ عَنِ الشَّارِعِ (١) ، كَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْجُهَّالِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا (٢) كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ ، يَكُونُ الْعَرْشُ فَوْقَهُ ، وَيَكُونُ مَحْصُورًا بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ مِنَ الْعَالَمِ . فَقَوْلُهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ السَّلَفِ ، مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

وَقَالَ **شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو عُثْمَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّابُونِيُّ** : سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا مَنْصُورِ بْنَ حمشاذ ، بَعْدَ رِوَايَتِهِ حَدِيثَ النُّزُولِ يَقُولُ : سُئِلَ أَبُو حَنِيفَةَ ﷺ فَقَالَ : يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ . انْتَهَى .

وَإِنَّمَا تَوَقَّفَ مَنْ تَوَقَّفَ فِي نَفْيِ ذَلِكَ ، لِضَعْفِ عِلْمِهِ بِمَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ ؛ وَلِذَلِكَ يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَرْشِ ، بَلْ يَقُولُ : لَا

---

(١) لم أقف في الكتاب ولا في السنة على إطلاق لفظة الشارع على الله ﷻ .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري في عدة مواطن من صحيحه ، منها (حديث ٧٤٩٤) ، ومسلم (حديث ٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ ومن يسألني فأعطيه ؟ ومن يستغفرني فأغفر له** » .

مُبَايِنَ ، وَلَا مُحَايِثَ ، لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ، فَيَصِفُونَهُ بِصِفَةِ الْعَدَمِ وَالْمُمْتَنِعِ ، وَلَا يَصِفُونَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ : بِحُلُولِهِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ ، أَوْ يَقُولُ : هُوَ وُجُودُ كُلِّ مَوْجُودٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَسَيَأْتِي لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ للهِ تَعَالَى زِيَادَةُ بَيَانٍ ، عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ : « مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ » إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

*****

قَوْلُهُ : « وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللهُ مِنَ الْعُلَا ، وَأَكْرَمَهُ اللهُ بِمَا شَاءَ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . فَصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » .

ش : «الْمِعْرَاجُ» : مِفْعَالٌ ، مِنَ الْعُرُوجِ ، أَيِ الْآلَةِ الَّتِي يُعْرَجُ فِيهَا ، أَيْ يُصْعَدُ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ السُّلَّمِ ، لَكِنْ لَا يُعْلَمُ كَيْفَ هُوَ ، وَحُكْمُهُ كَحُكْمِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ ، نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَشْتَغِلُ بِكَيْفِيَّتِهِ .

وَقَوْلُهُ : « وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ » .

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْإِسْرَاءِ .

فَقِيلَ : كَانَ الْإِسْرَاءُ بِرُوحِهِ ، وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ ، نَقَلَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، وَنَقَلَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوَهُ .

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يُقَالَ : كَانَ الْإِسْرَاءُ مَنَامًا ، وَبَيْنَ أَنْ يُقَالَ : كَانَ بِرُوحِهِ دُونَ جَسَدِهِ ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ . فَعَائِشَةُ وَمُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لَمْ يَقُولَا : كَانَ مَنَامًا ، وَإِنَّمَا قَالَا : أُسْرِيَ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ ، وَفَرْقٌ مَا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، إِذْ مَا يَرَاهُ النَّائِمُ قَدْ يَكُونُ أَمْثَالًا مَضْرُوبَةً لِلْمَعْلُومِ فِي الصُّورَةِ الْمَحْسُوسَةِ ، فَيَرَى كَأَنَّهُ قَدْ

عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَذُهِبَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ ، وَرُوحُهُ لَمْ تَصْعَدْ وَلَمْ تَذْهَبْ ، وَإِنَّمَا مَلَكُ الرُّؤْيَا ضَرَبَ لَهُ الْمِثَالَ . فَمَا أَرَادَا أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ مَنَامًا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الرُّوحَ ذَاتَهَا أُسْرِيَ بِهَا ، فَفَارَقَتِ الْجَسَدَ ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ ، وَيَجْعَلَانِ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا تَنَالُ ذَاتُ رُوحِهِ الصُّعُودَ الْكَامِلَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ .

وَقِيلَ : كَانَ الْإِسْرَاءُ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً يَقَظَةً ، وَمَرَّةً مَنَامًا ، وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا الْجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِ شَرِيكٍ وَقَوْلِهِ : « ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ » ، وَبَيْنَ سَائِرِ الرِّوَايَاتِ .

وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : بَلْ كَانَ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً قَبْلَ الْوَحْيِ ، وَمَرَّةً بَعْدَهُ . **وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ** : بَلْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ :مَرَّةً قَبْلَ الْوَحْيِ ، وَمَرَّتَيْنِ بَعْدَهُ . وَكُلَّمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ لَفْظٌ زَادُوا مَرَّةً ، لِلتَّوْفِيقِ وَهَذَا يَفْعَلُهُ ضُعَفَاءُ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، وَإِلَّا فَالَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ النَّقْلِ : أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ ، بَعْدَ الْبِعْثَةِ ، قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ ، وَقِيلَ : بِسَنَةٍ وَشَهْرَيْنِ ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ .

قَالَ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيِّمِ : يَا عَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مِرَارًا ! كَيْفَ سَاغَ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُفْرَضُ عَلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ ، ثُمَّ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ رَبِّهِ وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى تَصِيرَ خَمْسًا ، فَيَقُولُ : « **أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي ، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي** » ، ثُمَّ يُعِيدُهَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَى خَمْسِينَ ، ثُمَّ يَحُطُّهَا إِلَى خَمْسٍ ؟! .

وَقَدْ غَلَّطَ الْحُفَّاظُ شَرِيكًا فِي أَلْفَاظٍ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ ، وَمُسْلِمٌ أَوْرَدَ الْمُسْنَدَ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : « فَقَدَّمَ وَأَخَّرَ وَزَادَ وَنَقَصَ » . وَلَمْ يَسْرُدِ الْحَدِيثَ ، فَأَجَادَ رَحِمَهُ اللَّهُ . انْتَهَى كَلَامُ الشَّيْخِ شَمْسُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ : أَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ ، عَلَى الصَّحِيحِ ، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، رَاكِبًا عَلَى الْبُرَاقِ ، صُحْبَةَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،

فَنَزَلَ هُنَاكَ ، وصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا ، وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْمَسْجِدِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ نَزَلَ بَيْتَ لَحْمٍ وَصَلَّى فِيهِ ، وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ ذَلِكَ الْبَتَّةَ .

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ جِبْرِيلُ ، فَفُتِحَ لَهُمَا ، فَرَأَى هُنَاكَ آدمَ أَبَا الْبَشَرِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَحَّبَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ . فَاسْتَفْتَحَ لَهُ ، فَرَأَى فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَلَقِيَهُمَا ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا ، فَرَدَّا عَلَيْهِ السَّلَامَ وَرَحَّبَا بِهِ ، وَأَقَرَّا بِنُبُوَّتِهِ ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَرَأَى فِيهَا يُوسُفَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، فَرَأَى فِيهَا إِدْرِيسَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَرَحَّبَ بِهِ ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ ، فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَرَحَّبَ بِهِ ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَلَقِيَ فِيهَا مُوسَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَرَحَّبَ بِهِ وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ ، بَكَى مُوسَى ، فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ : أَبْكِي ؛ لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَلَقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَرَحَّبَ بِهِ ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، ثُمَّ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، فَدَنَا مِنْهُ حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَرَجَعَ حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى ، فَقَالَ : بِمَ أُمِرْتَ ؟ قَالَ ؟ بِخَمْسِينَ صَلَاةً ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، فَالْتَفَتَ إِلَى جِبْرَائِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ ، فَأَشَارَ أَنْ : نَعَمْ ، إِنْ شِئْتَ ، فَعَلَا بِهِ جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ فِي مَكَانِهِ هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي «صَحِيحِهِ» وَفِي بَعْضِ الطُّرُقِ فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا ، ثُمَّ نَزَلَ حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى ، فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ،

حَتَّى جَعَلَهَا خَمْسًا ، فَأَمَرَهُ مُوسَى بِالرُّجُوعِ وَسُؤَالِ التَّخْفِيفِ ، فَقَالَ : قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ ، فَلَمَّا نَفَذَ ، نَادَى مُنَادٍ : قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي »(١) .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ رَبَّهُ ﷻ بِعَيْنِ رَأْسِهِ ، وَأَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ ، وَلَمْ يَرَهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم:١١] ، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣] صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ هَذَا الْمَرْئِيَّ جِبْرِيلُ ، رَآهُ مَرَّتَيْنِ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى :﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء:١] . وَالْعَبْدُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ . فَيَكُونُ الْإِسْرَاءُ بِهَذَا الْمَجْمُوعِ ، وَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ عَقْلًا ، وَلَوْ جَازَ اسْتِبْعَادُ صُعُودِ الْبَشَرِ ، لَجَازَ اسْتِبْعَادُ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى إِنْكَارِ النُّبُوَّةِ وَهُوَ كُفْرٌ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا الْحِكْمَةُ فِي الْإِسْرَاءِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوَّلًا ؟

فَالْجَوَابُ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ : أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِصِدْقِ دَعْوَى الرَّسُولِ ﷺ الْمِعْرَاجَ حِينَ سَأَلَتْهُ قُرَيْشٌ عَنْ نَعْتِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَنَعَتَهُ لَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ عِيرِهِمُ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ ، وَلَوْ كَانَ عُرُوجُهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ مَكَّةَ لَمَا حَصَلَ ذَلِكَ ، إِذْ لَا يُمْكِنُ اطِّلَاعُهُمْ عَلَى مَا فِي السَّمَاءِ لَوْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهُ ، وَقَدِ اطَّلَعُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِنَعْتِهِ . وَفِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ للهِ تَعَالَى مِنْ وُجُوهٍ ،

---

(١) انظر : البخاريَّ (حديث ٣٢٠٧) ، وحديث (٣٨٨٧) ، ومسلم (حديث ١٦٤) من حديث أنس ؓ مرفوعًا .

لِمَنْ تَدَبَّرَهُ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

❊❊❊❊❊

قَوْلُهُ : « وَالْحَوْضُ ـ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ غِيَاثًا لِأُمَّتِهِ ـ حَقٌّ » .

ش : الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بِضْعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا ﷺ ، وَلَقَدِ اسْتَقْصَى طُرُقَهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ بْنُ كَثِيرٍ ، تَغَمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ، فِي آخِرِ تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ ، الْمُسَمَّى بِـ « الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ » .

فَمِنْهَا : مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ** »(١) .

وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمُ اخْتَلَجُوا دُونِي ، فَأَقُولُ : أُصَيْحَابِي ، فَيَقُولُ : لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ** »(٢) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : أَغْفَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِغْفَاءَةً ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا ، إِمَّا قَالَ لَهُمْ ، وَإِمَّا قَالُوا لَهُ : لِمَ ضَحِكْتَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّهُ نَزَلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ** » ، فَقَرَأَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا ، ثُمَّ قَالَ : « **هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟** » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي ﷻ فِي الْجَنَّةِ ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الْكَوَاكِبِ ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، إِنَّهُ مِنْ**

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٦٥٨٠) ، ومسلم (حديث ٢٣٠٣) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا .

(٢) صحيح : رواه مسلم (٢٣٠٤) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا بنحوه .

أُمَّتِي ، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ »(١) .

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَلَفْظُهُ : « **هُوَ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » ، وَالْبَاقِي مِثْلُهُ .

وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّهُ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنْ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ ، وَالْحَوْضُ فِي الْعَرَصَاتِ قَبْلَ الصِّرَاطِ ؛ لِأَنَّهُ يُخْتَلَجُ عَنْهُ ، وَيُمْنَعُ مِنْهُ أَقْوَامٌ قَدِ ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُجَاوِزُونَ الصِّرَاطَ .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ** »(٢) .

وَالْفَرَطُ : الَّذِي يَسْبِقُ إِلَى الْمَاءِ .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ(٣) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ** » . قَالَ أَبُو حَازِمٍ : فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا فَقَالَ : هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، لَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا ، فَأَقُولُ : « **إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي فَقَالَ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ . فأقول : سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي** » . سُحْقًا : أَيْ بُعْدًا .

---

(١) صحيح :وأخرجه مسلم (حديث ٤٠٠) بلفظ قريب .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث٦٥٨٩) ، ومسلم (حديث ٢٢٨٩) .

(٣) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٧٠٥٠، ٧٠٥١) ، ومسلم (حديث٢٢٩٠، ٢٢٩١) ، ولفظ مسلم من طريق أبي حازم قال : سمعت سهلًا يقول : سمعت النبي ﷺيقول : « **أنا فرطكم** على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدًا ، وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم » .

وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنَ الأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ : أَنَّهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ ، وَمَوْرِدٌ كَرِيمٌ ، يُمَدُّ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ ، مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الاِتِّسَاعِ .

فَقَاتَلَ اللهُ الْمُنْكِرِينَ لِوُجُودِ الْحَوْضِ ، وَأَخْلِقْ بِهِمْ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وُرُودِهِ يَوْمَ الْعَطَشِ الأَكْبَرِ .

*****

قَوْلُهُ : « وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ ، كَمَا رُوِيَ فِي الأَخْبَارِ » .

ش : **الشَّفَاعَةُ أَنْوَاعٌ** : مِنْهَا مَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الأُمَّةِ ، وَمِنْهَا مَا خَالَفَ فِيهِ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ :

النَّوْعُ الأَوَّلُ : الشَّفَاعَةُ الأُولَى ، وَهِيَ الْعُظْمَى ، الْخَاصَّةُ بِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ إِخْوَانِهِ [(١)] مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرِهِمَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - أَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ .

مِنْهَا : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْمٍ ، فَدُفِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا الذِّرَاعُ ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ، ثُمَّ قَالَ : « **أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ** » ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ

---

(١) وهي الشفاعة في أن يأتي الله ﷻ لفصل القضاء .

بَلَغَكُمْ ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَبُوكُمْ آدَمُ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ ، فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا ، فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ نُوحٌ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ، فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى : فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، قَالَ : هَكَذَا هُوَ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟

فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيَأْتُونِي ، فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ ، مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَأَقُومُ ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهْ ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، أُمَّتِي أُمَّتِي ، يَا رَبِّ ، أُمَّتِي أُمَّتِي ، يَا رَبِّ ، أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيَقُولُ : أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »(١) .أخرجاه في «الصَّحِيحَيْنِ» بمعناه ، واللفظ للإمام أحمد .

النَّوْعُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ مِنَ الشَّفَاعَةِ : شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي أَقْوَامٍ قَدْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ ، فَيَشْفَعُ فِيهِمْ لِيَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَفِي أَقْوَامٍ آخَرِينَ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا .

النَّوْعُ الرَّابِعُ : شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فِيهَا فَوْقَ مَا كَانَ يَقْتَضِيهِ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ ، وَقَدْ وَافَقَتِ الْمُعْتَزِلَةُ عَلَى هَذِهِ الشَّفَاعَةِ خَاصَّةً ، وَخَالَفُوا فِيمَا عَدَاهَا مِنَ الْمَقَامَاتِ ، مَعَ تَوَاتُرِ الْأَحَادِيثِ فِيهَا .

النَّوْعُ الْخَامِسُ : الشَّفَاعَةُ فِي أَقْوَامٍ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَيَحْسُنُ أَنْ يُسْتَشْهَدَ لِهَذَا النَّوْعِ بِحَدِيثِ عُكَاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ ، حِينَ دَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ

(١) انظر : البخاريَّ (حديث ٤٧١٢) ، ومسلم (حديث ١٩٤) فقد أخرجاه هنالك بلفظ قريب ، وانظر أيضًا: مسند الإمام أحمد (٢/ ٤٣٥ ، ٤٣٦) .

يَجْعَلَهُ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ [١]، وَالْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

النَّوْعُ السَّادِسُ : الشَّفَاعَةُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ ، كَشَفَاعَتِهِ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ عَذَابُهُ [٢] .

ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي « التَّذْكِرَةِ » بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا النَّوْعِ : فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨] . قِيلَ لَهُ : لَا تَنْفَعُهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ ، كَمَا تَنْفَعُ عُصَاةَ الْمُوَحِّدِينَ ، الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

النَّوْعُ السَّابِعُ : شَفَاعَتُهُ أَنْ يُؤْذَنَ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَنَسٍ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ** » [٣] .

النَّوْعُ الثَّامِنُ : شَفَاعَتُهُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ ، مِمَّنْ دَخَلَ النَّارَ ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ بِهَذَا النَّوْعِ الْأَحَادِيثُ . وَقَدْ خَفِيَ عِلْمُ ذَلِكَ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ، فَخَالَفُوا فِي ذَلِكَ ، جَهْلًا مِنْهُمْ بِصِحَّةِ الْأَحَادِيثِ ، وَعِنَادًا مِمَّنْ عَلِمَ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى بِدْعَتِهِ .

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تُشَارِكُهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٥٨١١) وفي غير موضع ، ومسلم (حديث ٢١٦) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ قال : أن النبي ﷺ قال : « **يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب** » فقال رجل : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ؟ قال : «**اللهم اجعله منهم**» ثم قام آخر فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ؟ قال : « **سبقك بها عكاشة** » .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٦٢٠٨) ، ومسلم (حديث ٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال : يا رسول الله ، هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : « **نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار** » .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٦٩) وغيره من حديث أنس ﷺ مرفوعًا .

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تَتَكَرَّرُ مِنْهُ ﷺ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ .

وَمِنْ أَحَادِيثِ هَذَا النَّوْعِ : حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي** »(١) . رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رحمه الله .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ رحمه الله فِي كِتَابِ «التَّوْحِيدِ»: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ، حَدَّثَنَا مَعْبَدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنَزِيُّ ، قَالَ : اجْتَمَعْنَا ونَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ إِلَيْهِ ، يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ ، فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى ، فَاسْتَأْذَنَّا ، فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ : لَا تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا حَمْزَةَ ، هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، جَاؤُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ ، قَالَ : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ ، فَيَقُولُونَ : اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، فَيَقُولُ : لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ، فَيَقُولُ : لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى ، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، فَيَقُولُ : لَسْتُ لَهَا ، ولَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى ، فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُ : لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ، فَيَأْتُونِي ، فَأَقُولُ : أَنَا لَهَا ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي ، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا ، لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَلْ تُعْطَ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ

---

(١) صحيح بمجموع طرقه : فله عن رسول الله ﷺ طرق منها حديث أنس رضي الله عنه أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣) ، وأبو داود (حديث ٤٧٣٩) وله طرق أخرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا وله أيضًا طرق أخرى عن غير أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ كجابر بن عبد الله وغيره من الصحابة .

سَاجِدًا ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَلْ تُعْطَ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، وَسَلْ تُعْطَ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيَقُولُ : انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ».

قَالَ : فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ ، قُلْتُ : لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ ، وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ وَهُو جميع فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، فَأَتَيْنَاهُ ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ ، فَأَذِنَ لَنَا ، فَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ : هِيهْ ؟ فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ ، فَأتينا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَقَالَ : هِيهْ ؟ فَقُلْنَا : لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا ، فَقَالَ : لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ ، مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً ، فَمَا أَدْرِي ، أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا؟ فَقُلْنَا : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، فَحَدِّثْنَا ، فَضَحِكَ وَقَالَ : خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ، مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ ، قَالَ : « ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لك ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، فَيَقُولُ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي ، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله »(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَفِي «الصَّحِيحِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا ، قَالَ : « فَيَقُولُ الله تَعَالَى : شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ،

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٧٥١٠) ، ومسلم (ص ١٨٢ عقب حديث ١٩٣) .

فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ »(١) الْحَدِيثَ .

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي الشَّفَاعَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

فَالْـمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى وَالْـمُبْتَدِعُونَ مِنَ الْغُلَاةِ فِي الْـمَشَايِخِ وَغَيْرِهِمْ : يَجْعَلُونَ شَفَاعَةَ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ عِنْدَ اللهِ كَالشَّفَاعَةِ الْـمَعْرُوفَةِ فِي الدُّنْيَا .

وَالْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ : أَنْكَرُوا شَفَاعَةَ نَبِيِّنَا ﷺ وَغَيْرَهُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ .

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ : فَيُقِرُّونَ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا ﷺ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ ، وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ ، لَكِنْ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ لَهُ وَيَحُدَّ لَهُ حَدًّا ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : « إِنَّهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ ، ثُمَّ نُوحًا ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ مُوسَى ، ثُمَّ عِيسَى ، فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى عليه السلام : اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَإِنَّهُ عَبْدٌ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَيَأْتُونِي ، فَأَذْهَبُ ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيَّ ، لَا أُحْسِنُهَا الْآنَ ، فَيَقُولُ : أَيْ مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : رَبِّي أُمَّتِي ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا ، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ فَأَسْجُدُ ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا »(٢) ذَكَرَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

وَأَمَّا الِاسْتِشْفَاعُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ ، فَفِيهِ تَفْصِيلٌ : فَإِنَّ الدَّاعِيَ تَارَةً يَقُولُ : بِحَقِّ نَبِيِّكَ ؛ أَوْ بِحَقِّ فُلَانٍ ، يُقْسِمُ عَلَى اللهِ بِأَحَدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَهَذَا مَحْذُورٌ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أَقْسَمَ بِغَيْرِ اللهِ .

وَالثَّانِي : اعْتِقَادُهُ أَنَّ لِأَحَدٍ عَلَى اللهِ حَقًّا ، وَلَا يَجُوزُ الْحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى اللهِ حَقٌّ إِلَّا مَا أَحَقَّهُ عَلَى نَفْسِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٨٣ ص ١٧٠) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] . وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي « الصَّحِيحَيْنِ » مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِمُعَاذٍ رضي الله عنه ، وَهُوَ رَدِيفُهُ : « يَا مُعَاذُ ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ » (١). فَهَذَا حَقٌّ وَجَبَ بِكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ ، وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ ، لَا أَنَّ الْعَبْدَ نَفْسَهُ مُسْتَحِقٌّ عَلَى اللهِ شَيْئًا كَمَا يَكُونُ لِلْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى الْعِبَادِ بِكُلِّ خَيْرٍ ، وَحَقُّهُمُ الْوَاجِبُ بِوَعْدِهِ هُوَ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ (٢) ، وَتَرْكُ تَعْذِيبِهِمْ مَعْنًى لَا يَصْلُحُ أَنْ يُقْسَمَ بِهِ ، وَلَا أَنْ يُسْأَلَ بِسَبَبِهِ وَيُتَوَسَّلَ بِهِ ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ هُوَ مَا نَصَبَهُ اللهُ سَبَبًا . وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي فِي « الْمُسْنَدِ » مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فِي قَوْلِ الْمَاشِي إِلَى الصَّلَاةِ : « أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا ، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » (٣) ، فَهَذَا حَقُّ السَّائِلِينَ ، هُوَ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَهُوَ الَّذِي أَحَقَّ لِلسَّائِلِينَ أَنْ يُجِيبَهُمْ ، وَلِلْعَابِدِينَ أَنْ يُثِيبَهُمْ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٢٨٥٦) ، ومسلم (حديث ٣٠) عن معاذ بن جبل قال : كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال : « **يا معاذ بن جبل !** » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : « **يا معاذ بن جبل !** » قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : « **يا معاذ بن جبل !** » قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، قال : « **هل تدري ما حق الله على العباد ؟** » قال : قلت : الله ورسوله اعلم ، قال : « **فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا** » ثم سار ساعة ، ثم قال : « **يا معاذ بن جبل!** » قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، قال : « **هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟** » قال : قلت : الله ورسوله اعلم ، قال : « **أن لا يعذبهم** » .

(٢) وينبغي أن يستحضر قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ .

(٣) سنده ضعيف : أخرجه ابن ماجه (حديث ٧٧٨) ، وأحمد (٣/ ٢١) ، وغيرهم وفي سنده ضعفٌ .

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ ، أَوْ نُعِّمُـوا فَبِفَضْـلِهِ وَهُـوَ الْكَـرِيمُ الوَاسِـعُ

فَإِنْ قِيلَ : فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِ الدَّاعِي : « بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » وَبَيْنَ قَوْلِهِ : « بِحَقِّ نَبِيِّكَ » أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ؟ فَالجَوَابُ : أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ : « بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » أَنَّكَ وَعَدْتَ السَّائِلِينَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَنَا مِنْ جُمْلَةِ السَّائِلِينَ ، فَأَجِبْ دُعَائِي ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ : بِحَقِّ فُلَانٍ ـ فَإِنَّ فُلَانًا وَإِنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ عَلَى الله بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ - فَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ إِجَابَةِ دُعَاءِ هَذَا السَّائِلِ . فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : لِكَوْنِ فُلَانٍ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ أَجِبْ دُعَائِي . وَأَيُّ مُنَاسَبَةٍ فِي هَذَا وَأَيُّ مُلَازَمَةٍ ؟ وَإِنَّمَا هَذَا مِنَ الِاعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥]. وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَا عَنِ الصَّحَابَةِ ، وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ ﷸ ، وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا فِي الْحُرُوزِ وَالْهَيَاكِلِ الَّتِي يَكْتُبُهَا الْجُهَّالُ وَالطُّرُقِيَّةُ .

وَالدُّعَاءُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ ، وَالْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ ، لَا عَلَى الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ .

وَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ الْإِقْسَامَ عَلَى الله بِحَقِّ فُلَانٍ ، فَذَلِكَ مَحْذُورٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْإِقْسَامَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا يَجُوزُ ، فَكَيْفَ عَلَى الْخَالِقِ ؟! وَقَدْ قَالَ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ »(١) . وَلِهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ ﷸ : يُكْرَهُ أَنْ

(١) صحيح لشواهده : أخرجه الترمذي (٥/ ١٣٥ مع تحفة الأحوذي) ، وأبو داود (٣٢٥٧) ، والنسائي (٧/ ١٩) ، وابن ماجه (٢٠٩٨) ، وغيرهم من حديث ابن عمر ﵄ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك** » وهو حديث يصح بشواهده ، وفي سنده علة ، لكن له شاهد عند ابن ماجه (٢١١٨) ، وأحمد ٢٨٤، ٢٩٨) ، وغيرهم من حديث حذيفة ﷺ مرفوعًا .
وله شاهد آخر عند النسائي (٣٧٧٣) ، وأحمد (٦/ ٣٧١) ، وغيرهما من حديث قتليه ــ امرأة من جهينة ـ « أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تنددون وإنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله

يَقُولَ الدَّاعِي : أَسْأَلُكَ بِحَقِّ فُلَانٍ ، أَوْ بِحَقِّ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ ، وَبِحَقِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَتَارَةً يَقُولُ : بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَكَ ، أَوْ يَقُولُ : نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَأَوْلِيَائِكَ ، وَمُرَادُهُ لأَنَّ فُلَانًا عِنْدَكَ ذُو وَجَاهَةٍ وَشَرَفٍ وَمَنْزِلَةٍ ، فَأَجِبْ دُعَاءَنَا ، وَهَذَا أَيْضًا مَحْذُورٌ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ التَّوَسُّلُ الَّذِي كَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَفَعَلُوهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ فِي حَيَاتِهِ بِدُعَائِهِ ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ ، وَهُمْ يُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَائِهِ ، كَمَا فِي الاِسْتِسْقَاءِ وَغَيْرِهِ . فَلَمَّا مَاتَ ﷺ قَالَ عُمَرُ ﷺ لَمَّا خَرَجُوا يَسْتَسْقُونَ : « اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا ، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا »(١) . مَعْنَاهُ بِدُعَائِهِ هُوَ رَبَّهُ وَشَفَاعَتِهِ وَسُؤَالِهِ ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّا نُقْسِمُ عَلَيْكَ بِهِ ، أَوْ نَسْأَلُكَ بِجَاهِهِ عِنْدَكَ ، إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُرَادًا لَكَانَ جَاهُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ مِنْ جَاهِ الْعَبَّاسِ .

وَتَارَةً يَقُولُ : بِاتِّبَاعِي لِرَسُولِكَ وَمَحَبَّتِي لَهُ ، وَإِيمَانِي بِهِ وَبِسَائِرِ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَتَصْدِيقِي لَهُمْ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ وَالاِسْتِشْفَاعِ .

فَلَفْظُ التَّوَسُّلِ بِالشَّخْصِ وَالتَّوَجُّهِ بِهِ فِيهِ إِجْمَالٌ ، غَلِطَ بِسَبَبِهِ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ لِكَوْنِهِ دَاعِيًا وَشَافِعًا ، وَهَذَا فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ ، أَوْ لِكَوْنِ الدَّاعِي مُحِبًّا لَهُ ، مُطِيعًا لِأَمْرِهِ ، مُقْتَدِيًا بِهِ ، وَذَلِكَ أَهْلٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالاِقْتِدَاءِ ،

= وشئت وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة ، ويقولون : ما شاء ثم شئت .

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٠١٠) من حديث أنس ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : « اللَّهُمُ إنا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا ، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فاسقنا ،قال : فيسقون » .

فَيَكُونُ التَّوَسُّلُ إِمَّا بِدُعَاءِ الْوَسِيلَةِ وَشَفَاعَتِهِ ، وَإِمَّا بِمَحَبَّةِ السَّائِلِ وَاتِّبَاعِهِ ، أَوْ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ وَالتَّوَسُّلُ بِذَاتِهِ ، فَهَذَا الثَّانِي هُوَ الَّذِي كَرِهُوهُ وَنَهَوْا عَنْهُ .

وَكَذَلِكَ السُّؤَالُ بِالشَّيْءِ ، قَدْ يُرَادُ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ ، لِكَوْنِهِ سَبَبًا فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ .

وَمِنَ الْأَوَّلِ : حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَوَوْا إِلَى الْغَارِ ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» [١] وَغَيْرِهِمَا ، فَإِنَّ الصَّخْرَةَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ ، فَتَوَسَّلُوا إِلَى اللهِ بِذِكْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الْخَالِصَةِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ : فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ .

فَهَؤُلَاءِ دَعَوُا اللهَ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ هِيَ أَعْظَمُ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ ، وَيَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَيْهِ ، وَيَسْأَلُهُ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ وَعَدَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ .

فَالْحَاصِلُ : أَنَّ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللهِ لَيْسَتْ كَالشَّفَاعَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ ، فَإِنَّ الشَّفِيعَ عِنْدَ الْبَشَرِ كَمَا أَنَّهُ شَافِعٌ لِلطَّالِبِ شَفَّعَهُ فِي الطَّلَبِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ صَارَ بِهِ شَفْعًا فِيهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ وِتْرًا ، فَهُوَ أَيْضًا قَدْ شَفَعَ الْمَشْفُوعَ إِلَيْهِ ، وَبِشَفَاعَتِهِ صَارَ فَاعِلًا لِلْمَطْلُوبِ ، فَقَدْ شَفَّعَ الطَّالِبَ وَالْمَطْلُوبَ مِنْهُ ، وَاللهُ تَعَالَى وِتْرٌ ، لَا يَشْفَعُهُ أَحَدٌ ، فَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ بِوَجْهٍ . فَسَيِّدُ الشُّفَعَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى فَقَالَ لَهُ اللهُ : « **ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ** » [٢] فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ للهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٢٢١٥) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٧٤٣) من حديث ابن عمر ﵄ مرفوعًا .

(٢) صحيح : وهو في «**الصحيحين**» ، وقد تقدم .

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٤] . وَقَالَ تَعَالَى :﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

فَإِذَا كَانَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَلَكِنْ يُكْرِمُ الشَّفِيعَ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : « **اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا يَشَاءُ** »(١) .

وَفِي «**الصَّحِيحِ**» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله مِن شَيْءٍ ، يَا صَفِيَّةُ ، يَا عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنَ الله شَيْءٍ، يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ الله ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله شَيْءٍ** »(٢) .

وَفِي «**الصَّحِيحِ**» أَيْضًا: « **لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ شَاةٌ لَهَا يُعَارٌ ، أَوْ رِقَاعٌ تَخْفِقُ ، فَيَقُولُ : أَغِثْنِي أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شَيْءٍ** »(٣) .

فَإِذَا كَانَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُ الشُّفَعَاءِ يَقُولُ لِأَخَصِّ النَّاسِ بِهِ : « **لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله مِنْ شَيْءٍ** » فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ؟ وَإِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي ، وَشَفَعَ عِنْدَهُ الشَّفِيعُ ، فَسَمِعَ الدُّعَاءَ ، وَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ ، لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِيهِ كَمَا يُؤَثِّرُ الْمَخْلُوقُ فِي الْمَخْلُوقِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَذَا يَدْعُو وَيَشْفَعُ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ . وَهَذَا مُسْتَقِيمٌ عَلَى أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (حديث ١٤٣٢) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٦٢٧) ، من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

(٢) **صحيح** : أخرجه البخاري (حديث ٢٧٥٣) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٠٤) ، من حديث أبي هُرَيرة رضي الله عنه مرفوعًا بألفاظ قريبة .

(٣) **صحيح** : أخرجه البخاري (حديث ٣٠٧٣) ، ومسلم (حديث ١٨٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا مطولًا وفيه نحو مما ذكر .

الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ .

قَوْلُهُ : « وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ » .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢] .يُخْبِرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي أَخْذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عليه السلام وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَإِلَى أَصْحَابِ الشِّمَالِ ، وَفِي بَعْضِهَا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ .

فَمِنْهَا :مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « إِنَّ اللهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عليه السلام بِنَعْمَانَ - يَعْنِي يَوْمَ عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا ، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا ، قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ . إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ »(١).

وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ، وَقَالَ : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ .

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا ، فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عليه السلام ، ثُمَّ

---

(١) معلول بالوقف على ابن عباس رضي الله عنهما :فالصواب أنه من قوله والحديث أخرجه الإمام أحمد (١ / ٢٧٢) ، والنسائي في التفسير (السنن الكبرى ٦/ ٣٤٧ــ أثر ١١١٩١/ ٢) ، والطبري (١٣/ ٢٢٢ط . الشيخ أحمد شاكر رحمه الله) ، وابن عاصم في السنة (١/ ٨٩) ، والبيهقي في الأسماء والصفات حديث (٤٤١) ، والحاكم (٢/ ٥٤٤) ، وغيرهم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ . ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله ، فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَدْخُلَ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَ بِهِ النَّارَ »(١) .

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ : دَاوُدُ ، قَالَ : رَبِّ ، كَمْ عُمُرُهُ ؟ قَالَ : سِتُّونَ سَنَةً ، قَالَ : أَيْ رَبِّ ، زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ ، جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ ، قَالَ : أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ؟ قَالَ : فَجَحَدَ! فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ آدَمُ ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَخَطِئَ آدَمُ ، فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ »(٢) .

---

(١) إسناده ضعيف : وذلك للانقطاع أو للجهالة وقد أخرجه أحمد (١/ ٤٤، ٤٥) من طريق مسلم ابن يسار عن عمر ﷺ مرفوعًا ، وأخرجه النسائي (السنن الكبرى ٦/ ٣٤٧) ، والحاكم (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥) ، وأخرجه أيضًا أبو داود (حديث ٤٧٠٣) ، والترمذي (حديث ٣٠٧٥) ، وغيرهم جم غفير . وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر ، وقال الترمذي : وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن مسلم وبين عمر رجلًا مجهولًا .

(٢) حسن وله شواهد يصح بها : وأخرجه الترمذي (٣٠٧٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وانظر ـ أيضًا : مستدرك الحاكم (١/ ٦٤) .

ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ ، وَقَالَ : صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ .

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « **يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي** »(١) وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا .

وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخَرُ أَيْضًا كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ .

فَالْآثَارُ الْمَرْوِيَّةُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْقَدَرِ السَّابِقِ ، وَبَعْضُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ اسْتَخْرَجَ أَمْثَالَهُمْ وَصُوَرَهُمْ ، وَمَيَّزَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ .

وَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ ، فَإِنَّمَا هُوَ فِي حَدِيثَيْنِ مَوْقُوفَيْنِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ ﷺ ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فِطْرَتُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ شَهِدْنَآ ﴾ : أَيْ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَنَّكَ رَبُّنَا ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ .

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى الْقَوْلِ بِأَنَّ اللهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ ، كَالثَّعْلَبِيِّ وَالْبَغَوِيِّ وَغَيْرِهِمَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْهُ ، بَلْ ذَكَرَ أَنَّهُ نَصَبَ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَشَهِدَتْ بِهَا عُقُولُهُمْ وَبَصَائِرُهُمُ الَّتِي رَكَّبَهَا اللهُ فِيهِمْ ، كَالزَّمَخْشَرِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (حديث ٣٣٣٤) وفي عدة مواضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٨٠٥) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٧) ، واللفظ لأحمد في المسند .

الْقَوْلَيْنِ ، كَالْوَاحِدِيِّ وَالرَّازِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَغَيْرِهِمْ ، لَكِنْ نَسَبَ الرَّازِيُّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَالثَّانِيَ إِلَى الْمُعْتَزِلَةِ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، أَعْنِي أَنَّ الْأَخْذَ كَانَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ، وَإِنَّمَا فِيهَا أَنَّ الْأَخْذَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْأَخْذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ وَالْإِشْهَادَ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَإِرَاءَهُ آدَمَ إِيَّاهُمْ مِنْ غَيْرِ قَضَاءٍ وَلَا إِشْهَادٍ ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَالَّذِي فِيهِ الْإِشْهَادُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي قَالَهَا أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ ، وَتَكَلَّمَ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ ، وَلَمْ يُخَرِّجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحِيحِ غَيْرَ الْحَاكِمِ فِي «**الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ**» وَالْحَاكِمُ مَعْرُوفٌ تَسَاهُلُهُ رَحِمَهُ اللهُ . وَالَّذِي فِيهِ الْقَضَاءُ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ ، دَلِيلٌ عَلَى مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ ، وَذَلِكَ شَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ ، وَلَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَإِنَّمَا يُخَالِفُ فِيهِ الْقَدَرِيَّةُ الْمُبْطِلُونَ الْمُبْتَدِعُونَ .

وَأَمَّا الْأَوَّلُ : فَالنِّزَاعُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَلَوْلَا مَا الْتَزَمْتُهُ مِنَ الِاخْتِصَارِ لَبَسَطْتُ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ ، وَمَا قِيلَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَيْهَا ، وَمَا ذُكِرَ فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ ، وَدَلَالَةِ أَلْفَاظِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْكِلَةٌ ، وَقَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهَا ، فَنَذْكُرُ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ ذَلِكَ ، حَسَبَ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ قَوْمٌ : مَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ اللهَ أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ بَنِي آدَمَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، قَالُوا : وَمَعْنَى ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٧٢] . دَلَّهُمْ بخلقه عَلَى تَوْحِيدِهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ بَالِغٍ يَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّ لَهُ رَبًّا وَاحِدًا . ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : قَالَ ، فَقَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الْإِشْهَادِ

عَلَيْهِمْ ، والإقرارِ منهم ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١] ، ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَفَّالُ وَأَطْنَبَ . وَقِيلَ : إِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْرَجَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ خَلْقِ الْأَجْسَادِ ، وَإِنَّهُ جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا عَلِمَتْ بِهِ مَا خَاطَبَهَا .

ثُمَّ ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ .

وَأَقْوَى مَا يَشْهَدُ لِصِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ : حَدِيثُ أَنَسٍ الْمُخَرَّجُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» ، الَّذِي فِيهِ : « **قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا ، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي** » .وَلَكِنْ قَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى : « **قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ** » . وَلَيْسَ فِيهِ : « فِي ظَهْرِ آدَمَ » [(١)]. وَلَيْسَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى إِخْرَاجُهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ .

بَلِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ مُتَضَمِّنٌ لِأَمْرَيْنِ عَجِيبَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : كَوْنُ النَّاسِ تَكَلَّمُوا حِينَئِذٍ وَأَقَرُّوا بِالْإِيمَانِ ، وَأَنَّهُ بِهَذَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَالثَّانِي : أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ ، وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ لِوُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : مِنْ آدَمَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : مِنْ ظَهْرِهِ ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ ، أَوْ

(١) وما معنى هذا الكلام من الشارح رحمه الله ؟ إن كان يقصد تضعيف الرواية ، فليس له ذلك فالرواية ثابتة صحيحة ويلزمه توجيهًا ، ثم هب أن الآثار موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، فليس من السهل اليسير طرح كلام ابن عباس وغيره من سلف الأمّةِ وراء الظهور ، فالشارح وإن أجاب على الآية إلا أنه لم يجب بما يشفي عن الحديث والأثر ، ثم ما المانع أن يكون الميثاق أخذ عليهم وهم في صلب آدم عليه السلام ، وأخذ عليهم وقد استخرجهم الله من صلب آدم عليه السلام وأخذ عليهم وهم في أصلاب الآباء كذلك ، وبذلك ، والله أعلم تعمل الأدلة ولا تُهمل .

بَدَلُ اشْتِمَالٍ ، وَهُوَ أَحْسَنُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : ذُرِّيَّهُ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا شَهِدَ بِهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ ، كَمَا تَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ ، لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهُ .

الْخَامِسُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْإِشْهَادِ إِقَامَةٌ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ ، وَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] .

السَّادِسُ : تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢] ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلِّهِمْ وَإِشْهَادِهِمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الْوَقْتَ ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ .

السَّابِعُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [الأعراف:١٧٣] ، فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا الْأَخْذِ بِالْإِشْهَادِ : أَنْ لَا يَدَّعُوا الْغَفْلَةَ ، أَوْ يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ ، فَالْغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ ، وَالْمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ . وَلَا تَتَرَتَّبُ هَاتَانِ الْحِكْمَتَانِ إِلَّا عَلَى مَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ .

الثَّامِنُ : قَوْلُهُ : ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٣] ، أَيْ : لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشِرْكِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَلو أهلكهم بتقليد آبائهم في شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسل ، لأهلكم بما فعل المُبْطِلُونَ ، أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما

كانوا عليه وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ .

التَّاسِعُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِهَذَا الإشهاد فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، فَهَذِهِ هِيَ الْحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا ، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ ، بِقَوْلِهِمْ : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:١٠].

الْعَاشِرُ : أَنَّهُ جعَلَ هَذَا آيَةً ، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ الْبَيِّنَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْمَدْلُولُ ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى ، فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعِينَةٌ عَلَى مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الأعراف:١٧٤]، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ، فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، لَا يُولَدُ مَوْلُودٌ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْفِطْرَةِ ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ . وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا . وَالله أَعْلَمُ .

وَقَدْ تَفَطَّنَ لِهَذَا ابْنُ عَطِيَّةَ وَغَيْرُهُ ، وَلَكِنْ هَابُوا مُخَالَفَةَ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا التَّصْرِيحُ بِأَنَّ اللهَ أَخْرَجَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ . وَكَذَلِكَ حَكَى الْقَوْلَيْنِ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ فِي « شَرْحِ التَّأْوِيلَاتِ» وَرَجَّحَ الْقَوْلَ الثَّانِيَ ، وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَمَالَ إِلَيْهِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ ، وَالشِّرْكَ حَادِثٌ طَارِئٌ ، وَالْأَبْنَاءُ تَقَلَّدُوهُ عَنِ الْآبَاءِ ، فَإِذَا احْتَجُّوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ الْآبَاءَ أَشْرَكُوا وَنَحْنُ جَرَيْنَا عَلَى عَادَتِهِمْ كَمَا يَجْرِي النَّاسُ عَلَى عَادَةِ آبَائِهِمْ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ ، يُقَالُ لَهُمْ : أَنْتُمْ كُنْتُمْ مُعْتَرِفِينَ بِالصَّانِعِ ، مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ رَبُّكُمْ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَقَدْ

شَهِدْتُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّ شَهَادَةَ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ هِيَ إِقْرَارُهُ بِالشَّيْءِ لَيْسَ إِلَّا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء:١٣٥] . وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ : أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِكَذَا ، بَلْ مَنْ أَقَرَّ بِشَيْءٍ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِهِ ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِقْرَارِ الَّذِي شَهِدْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَى الشِّرْكِ ؟ بَلْ عَدَلْتُمْ عَنِ الْمَعْلُومِ الْمُتَيَقَّنِ إِلَى مَا لَا يُعْلَمُ لَهُ حَقِيقَةٌ ، تَقْلِيدًا لِمَنْ لَا حُجَّةَ مَعَهُ ، بِخِلَافِ اتِّبَاعِهِمْ فِي الْعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، فَإِنَّ تِلْكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ مَا يُعْلَمُ بِهِ فَسَادُهَا ، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ لَكُمْ ، بِخِلَافِ الشِّرْكِ ، فَإِنَّهُ كَانَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَا يُبَيِّنُ فَسَادَهُ وَعُدُولَكُمْ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ ، فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الصَّبِيُّ عَنْ أَبَوَيْهِ هُوَ دِينُ التَّرْبِيَةِ وَالْعَادَةِ ، وَهُوَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الطِّفْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ كَافِلٍ ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهِ أَبَوَاهُ ، وَلِهَذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِأَنَّ الطِّفْلَ مَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى دِينِهِمَا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا الظَّاهِرَةِ ، وَهَذَا الدِّينُ لَا يُعَاقِبُهُ اللهُ عَلَيْهِ عَلَى الصَّحِيحِ حَتَّى يَبْلُغَ وَيَعْقِلَ وَتَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَحِينَئِذٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ دِينَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ بِعَقْلِهِ هُوَ أَنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ .

فَإِنْ كَانَ آبَاؤُهُ مُهْتَدِينَ ، كَيُوسُفَ الصِّدِّيقِ مَعَ آبَائِهِ ، قَالَ : ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف:٣٨] ، وَقَالَ لِيَعْقُوبَ بَنُوهُ : ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ [البقرة:١٣٣] .

وَإِنْ كَانَ الْآبَاءُ مُخَالِفِينَ الرُّسُلَ ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُلَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ الْآيَةَ [العنكبوت:٨] .

فَمَنِ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ ، بَلْ يَعْدِلُ عَنِ الْحَقِّ الْمَعْلُومِ إِلَيْهِ ، فَهَذَا

اتَّبَعَ هَوَاهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

[البقرة:١٧٠]

وَهَذِهِ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ ، يَتْبَعُ أَحَدُهُمْ أَبَاهُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنِ اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً لَيْسَ هُوَ فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، بَلْ هُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الدَّارِ ، لَا مُسْلِمَةِ الِاخْتِيَارِ ، وَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ فِي قَبْرِهِ : مَنْ رَبُّكَ ؟ قَالَ ؟ هَاهْ هَاهْ ، لَا أَدْرِي ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ .

فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذَا الْمَحِلَّ ، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ ، وَلْيَقُمْ للهِ ، وَلْيَنْظُرْ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ، فَإِنَّهُ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ ، وَأَقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ الْمَرْءُ أَمْرُ نَفْسِهِ لَمَّا كَانَ نُطْفَةً ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ، وَالتَّرَائِبُ : عِظَامُ الصَّدْرِ ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبَوَيْنِ وَسَائِرِ الْخَلَائِقِ ، وَلَوْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً عَلَى لَوْحٍ أَوْ طَبَقٍ ، وَاجْتَمَعَ حُكَمَاءُ الْعَالَمِ عَلَى أَنْ يُصَوِّرُوا مِنْهَا شَيْئًا لَمْ يَقْدِرُوا .

مُحَالٌ تَوَهُّمُ عَمَلِ الطَّبَائِعِ فِيهَا ، لِأَنَّهَا مَوَاتٌ عَاجِزَةٌ ، وَلَا تُوصَفُ بِحَيَاةٍ ، وَلَنْ يَتَأَتَّى مِنَ الْمَوَاتِ فِعْلٌ وَتَدْبِيرٌ ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ وانتقالِ هذه النطفة من حالٍ إلى حال ، عَلِمَ بذلك تَوْحيدَ الربوبية ، فانتقلَ منه إلى توحيدِ الإلهية ، فإنَّه إذا عَلِمَ بالعقلِ أن له ربًا أوجده ، كيف يليقُ به أن يَعْبُدَ غيره ؟! وكلما تَفَكَّر وتَدَبَّرَ ، ازْدَادَ يقينًا وتوحيدًا ، والله الموفِّقُ ، لا ربَّ غيره ، ولا إله سواه .

*****

قَوْلُهُ : « وَقَدْ عَلِمَ الله تعالى فِيمَا لَمْ يَزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ

النَّارِ ، جُمْلَةً واحدَةً ، فلا يزاد في ذلِكَ العَدَدُ ولا يَنْقُصِ مِنْهُ ، وَكَذلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُم أنْ يَفْعَلُوهُ » .

ش : قال الله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٧٥] . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠]. فالله تَعَالَى موصوف بأنه بكل شيء عليم ، أزلًا وأبدًا ، لم يتقدم علمَه بالأشياء جهالةٌ .﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]. وعن علي بن أبي طالب ﷺ ، قال : كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بقيعِ الغَرْقَد ، فأتانا رسولُ الله ﷺ ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ، ومَعَهُ مخْصَرَةٌ ، فَنَكَّس رأسَهُ يَنْكُتُ بمخْصرِتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ، مَا مِنْ نفْسٍ مَنْفُوسة إلاَّ قدْ كَتَبَ الله مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّة والنَّارِ ، وإلاَّ قَدْ كُتِبَتْ شِقيَّةً أَوْ سَعِيدَةً** » ، قَالَ : فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله ، أَفَلاَ نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا ، وَنَدَعُ العمَلَ ؟ فقَالَ : « **مَنْ كَانَ مِنِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، فَسَيصيرُ إلى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادة ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوةَ فَسَيَصِيرُ إلى عَمَلَ أَهْلِ الشَّقَاوةِ** » . ثم قال : « **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ ، أَمَّا أَهْلِ السَّعادة ، فَيُيَسَّرُونَ لعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوة فَيُيَسَّرُونَ لعَمَلِ أهْلِ الشَّقَاوَةِ** » ، ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-١٠] . خرَّجاه في[1] «**الصحيحين**».

*****

قَوْلُهُ : « وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ ، والأَعْمَالُ بالخَوَاتِيمِ ، والسعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ الله ، والشقِّي مَنْ شَقِي بِقَضَاءِ الله » .

ش : تقدم حديث علي ﷺ ، وَقَوْلُهُ ﷺ فِيهِ : « **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** ».

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٣٦٢) وفي غير موطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٦٤٧) بنحوه .

وعن زهير، عن أبي الزُّبير ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ ، قَالَ : جاء سُرَاقَةُ بِنُ مِالك بن جُعْشُم ، فَقَالَ : يَا رُسُولَ الله ، بَيِّنْ لَنا دِينَنَا كَأَنَّا خُلقْنَـا الآنَ ، فِيمَ العَمَـلُ اليَـوْمَ ؟ أفيِمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ ، أم فيما يُسْتَقْبَلُ ؟ قـال : « **لَا ، بَـلْ فِيمَا جَفَّت بِهِ الأَقْلَامُ ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرِ** » قَالَ : ففيم العَمَلُ ؟ قَالَ زُهَـيْرٌ : ثُـمَّ تَكَلَّـمَ أبو الزُّبَيرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ ، فَسَأَلَتُ : مَا قَالَ ؟ فَقَالَ :« **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ** » [(١)] .

وعـن سـهل بـن سَعْدٍ السَّـاعِدِيِّ ﷺ، أن رسـول الله ﷺ قـال : « **إِنَّ الرَّجُـلَ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وَهُوَ مِـنْ أَهْـلِ النَّـارِ ، وإِنَّ الرَّجُـلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ** » [(٢)]، خرجاه في «الصحيحين» ، وزاد البخاري : « **وإنما الأعمال بالخواتيم** » .

وفي «الصحيحين» أيضًا عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قـال : حَـدَّثَنَا رَسُـولُ الله ﷺ، وَهْوَ الصَّادِقُ الْـمَصْدُوقُ : «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا** ،

---

(١) صحيح :أخرجه مسلم (حديث ٢٦٤٨) .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٢٨٩٨) ، وأخرجه مسلم (حديث ١١٢) ، ولفظ مسلم : عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره . ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه . فقالوا : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان . فقال رسول الله ﷺ: « **أما أنه من أهل النار** » فقال رجل من القوم : أنا صاحبه أبدًا ، قال : فخرج معه . كلما وقف وقف معه . وإذا أسرع أسرع معه . قال : فجُرح الرجل جرحًا شديدًا فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله ، قال : « **وما ذاك ؟** » قال : الرجل الذي ذكرت آنفًا أنه من أهل النار . فأعظم الناس ذلك . فقلت : أنا لكم به . فخرجت في طلبه حتى جُرِحَ جِرحًا شَديدًا . فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه . ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « **إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة** » . ولفظة : « **إنما الأعمال بالخواتيم** » عند البخاري (٦٦٠٧) .

ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : يَكْتُبُ رِزْقَهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ، فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »[١] والأحاديثُ في هذا الباب كثيرةٌ ، وكذلك الآثار عن السَّلَفَ .

قَالَ أَبُو عُمَرُ بنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التمهيد» : قد أكثر النَّاسُ مِن تخريج الآثار في هذا الباب ، وأكثر المتكلمون من الكلامِ فيه ، وأهلُ السنة مُجْتَمِعُون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادهم وتَرْكِ المجادلة فيها ، وبالله العِصْمَةُ والتوفيق .

*****

وَقَوْلُهُ : « وأصْلُ القَدَر سِرُّ الله تَعَالَى فِي خَلقهِ ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، والتَّعَمُّقُ والنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الخِذْلاَنِ ، وسُلَّمُ الحِرْمَان ، ودَرَجَةُ الطُّغْيانِ ، فالحذَرَ كُلَّ الحَذَر مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وفكْرًا وَوسْوَسَة ، فَإِنَّ الله تَعَالَى طَوَى عِلْمَ القَّدَرِ عَنْ أنامِهِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ مَرَامِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ فَمَنْ سَأَلَ : لِمَ فَعَلَ ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ ، كَانَ مِنَ الكافِرِين » .

ش : أَصْلُ القَدَرِ سِرُّ الله فِي خَلْقِهِ ، وَهُوَ كَوْنُه أَوْجَدَ وأفنى ، وأفقر وأغنى ، وأمات وأحيا ، وأضَلَّ وهدى . قال علي ﷺ : القَدَرُ سِرُّ الله ، فلا تَكْشفْه .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٢٠٨) وفي غير موضع من صحيح ، ومسلم (حديث ٢٦٤٣) وغيرهما .

والنزاعُ بَيْنَ الناسِ في مسألة القَدَر مشهور ، والذي عليه أهْلُ السُّنَّةِ والجماعةِ : أن كُلَّ شيءٍ بقضاء الله وقدره ، وأن الله تعالى خالقٌ أفْعَالَ العباد . قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] . وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢] . وَأَنَّ الله تَعَالَى يُرِيْدُ الكُفِرَ مِنْ الكافر ويشاؤه ، ولا يرضاه ولا يُحبُّه ، فيشاؤه كونًا ، ولا يرضاه دينًا .

وخالف في ذلك القَدَرِيَّة والمعتزلة ، وزعموا : أن الله شاء الإيمانَ من الكافر ، ولكنَّ الكافر شاءَ الكفر ، فرُّوا إلى هذا ، لئلا يقولوا : شاء الكفر من الكافر وعذَّبه عليه ! ولكن صارُوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فإنهم هربُوا من شيء ، فوقعوا فيما هو شرٌّ منه ، فإنه يلزمهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئةَ الله تعالى ، فَإِنَّ الله قد شاء الإيمانَ منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر ، فوقعتْ مشيئةُ الكافر دون مشيئة الله تعالى! ! وهذا مِن أقبح الاعتقاد ، وهو قولٌ لا دليل عليه ، بل هو مخالف للدليل .

ووقف أعرابيٌّ على حلْقةٍ فيها عمرو بنُ عبيد ، فقال : يا هؤلاء إنَّ ناقتي سُرِقَتْ ، فادْعُوا الله أن يَرْدَّها علي ، فقال عمرو بن عُبَيد : اللهم إنَّك لم تُرِدْ أن تُسْرَقَ نَاقَتُهُ فَسُرِقَتْ ، فارْدُدْها عليه ، فقال الأعرابيُّ : لا حَاجَةَ لي في دعائك ! قال : ولِمَ؟ قال : أخافُ - كما أراد أن لا تُسْرَقَ فَسُرِقَتْ أن يُرِيدَ ردَّها فلا تُرَدُّ .

وأما الأدلَّةُ مِنَ الكتاب والسنة : فقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان:٣٠] ، وقال تعالى :

﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:٣٩] ، وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

ومَنْشَأُ الضَّلالِ : من التسوية بَيْنَ المشيئة والإرادة ، وبَيْنَ المحبَّة والرِّضا ، فسوَّى بينهما الجَبْرِيَّةُ والقَدَرِيَّة ، ثم اختلفوا ، فقالت الجبرية : الكونُ كُلُّه بقضائه وقدره ، فيكون محبوبًا مرضيًا ، وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ، ولا مرضيةً له ، فليست مقدَّرة ، ولا مقضية ، فهي خارجةٌ عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتابُ والسُّنةُ والفطرةُ الصحيحة ، أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب ، فقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ بعضها . وأما نصوصُ المحبة والرِّضا ، فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥] . ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر:٧] .

وقال تعالى :عَقِيبَ ما نهى عنه مِن الشرك والظُّلْمِ والفواحشِ والكِبْر : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨] .

وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ : « **إنَّ الله كَرِه لَكُم ثلاثًا : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤالِ ، وإضاعةَ المَالَ** »(١) .

وفي «المسند»: « **إنَّ الله يُحِبُّ أن يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤتَى مَعْصِيَتُه** »(٢) .

وكان من دعائه ﷺ : « **اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ**

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٤٧٧) وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٥٩٣/ ص١٣٤) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ مرفوعًا .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨) بسنده إلى ابن عمر ﷺ قال : قال رسول ﷺ : « **إن الله يحب أن تؤتي رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته** » وإسناده صحيح .

مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وأعُوذُ بِكَ مِنْك »[١] .

فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرِّضا مِن صفة السخط ، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ، **فالأول** : الصِّفة ، **والثاني** : لأثرها المرتب عليها ، ثم رَبَطَ ذلك كلَّه بذاته سبحانه ، وأن ذلك كُلَّه راجع إليه وَحْدَهُ ، لا إلى غيره ، فما أعُوذُ منه واقعٌ بمشيئتك وإرادتك ، وما أعُوذُ بِهِ من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتُعافِيه ، وإن شئت أن تَغْضَبَ عليه وتُعاقِبه ، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يَحِلَّ بي ، هي بمشيئتك أيضًا ، فالمحبوبُ والمكروهُ كُلُّه بقضائك ومشيئتك ، فعياذي بك منك ، وعياذي بحولِكِ وقوتك ورحمتك مما يَكُونُ بَحَوْلِكَ وقُوَّتِكَ وعدلِك وحكمتِك ، فلا أَسْتَعِيذُ بغيرِك مِنْ غيرك ، ولا أستعيذُ بِك مِنْ شيءٍ صادرٍ عن غير مشيئتك ، بل هُوَ منك ، فلا يَعْلَمُ ما في هذه الكلمات مِنَ التوحيد والمعارف والعُبُودِيَّةِ ، إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفتِه ومعرفة عبوديته .

فإن قيل : كيف يُريدَ الله أمرًا ولا يرضاه ولا يُحِبُّه ؟ وَكَيْفَ يشاؤه ويُكونِّه ؟ وكيف يجتمعُ إرادتُه له وبُغْضُه وَكَرَاهَتُه ؟

قيل : هذا السؤالُ هو الذي افترق الناسُ لأجله فرقًا ، وتباينت طُرُقُهم وأقوالُهم . **فاعلم أن المراد نوعان** : مرادٌ لِنفسه ، ومُرادٌ لغيره .

فالمرادُ لنفسه :مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يَكُونُ مقصودًا للمريد ، ولا فيه مصلحةٌ له بالنظر إلى ذاته ، وإن كانَ وَسِيلةٌ إلى مقصوده ومُرَادِه ، فهو مكروه له مِنْ حَيْثُ نفسُه وذاتُه ،

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

مرادٌ له من حيث إِفْضَاؤُهُ وَإيصَالُه إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضُه وإرادتُه ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما . وهذا كالدواءِ الكَرِيهِ ، إذا عَلِمَ المتناوِلُ له أن فيه شفَاءَهُ ، وقطع العضو المتآكل ، إذا عَلِمَ أن في قطعه بقاء جسدِهِ ، وكقطع المسافة الشاقة ، إذا عَلِمَ أنها تُوصِلُ إلى مراده ومحبوبه ، بل العَاقِلُ يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظنِّ الغالب ، وإن خفيت عنه عاقِبَتُه ، فكيف بمن لا يخفى عليه خَافِيَةٌ .

فهو سبحانه يَكْرَهُ الشيء ، ولا يُنَافِي ذلك إرادتَه لأجل غيرِه ، وكونه سببًا إلى أمرٍ هو أَحَبُّ إليه من فوته.

من ذلك : أنه خَلَقَ إبليسَ ، الذي هو مَادَّةٌ لِفَسادِ الأديان والأعمالِ والاعتقاداتِ والإراداتِ ، وهو سَبَبٌ لشقاوة كثيرٍ من العباد ، وعملهم بما يُغْضِبُ الربَّ تبارك وتعالى ، وهو السَّاعي في وقوعِ خلافِ ما يُحِبُّه الله ويرضاه . ومع هذا ، فهو وسيلةٌ إلى مَحَابَّ كثيرةٍ للرب تعالى تَرَتَبَتْ على خلقه ، ووجودُها أَحَبُّ إليه مِنْ عدمها :

منها : أنه تظهرُ للعباد قُدْرَةُ الربِّ تعالى على خلق المتضاداتِ المتقابلاتِ ، فخلق هذه الذات ، التي هِيَ أَخْبَثُ الذوات وشرُّها ، وهي سَبَبُ كل شر ، في مقابلة ذات جبرائيل ، التي هي مِنْ أشرفِ الذوات وأطهرها وأزكاها ، وهي مادةُ كل خير ، فتبارك خالق هذا وهذا . كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ، والدَّاءِ والدواء ، والحياةِ والموتِ ، والحَسَنِ والقَبِيحِ ، والخيرِ والشر . وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته ومُلكه وسلطانه ، فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابل بَعْضَهَا ببعض ، وجعلها مَجَالَّ تصرُّفه وتدبيره ، فَخُلُوُّ الوجودِ عن بعضها بالكُلِّيَّة تَعْطِيلٌ لحكمته وكمالِ تصرُّفِهِ وتدبير مملكته .

ومنها : ظهورُ آثار أسمائه القهرية ، مثل : القهَّار ، والمنتقِم ، والعدل ، والضَّارِّ ، والشديد العقاب ، والسريعِ الحسَابِ ، وذي البَطْشِ الشديد ، والخافضِ ، والمُذلِّ ، فإن هذه الأسماء والأفعال كَمَالٌ ، لا بُدَّ مِن وجودِ متعلَّقِهَا ، ولو كان الجنُّ والإنسُ على طبيعة الملائكة لم يَظْهَرْ أثَرُ هذه الأسماء .

ومنها : ظهورُ آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وسَتْرِه وتجاوزِه عن حقه وعِتقه لمن شاء مِنْ عبيده ، فلولا خَلْقُ ما يكرهه مِن الأسبابِ المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطَّلَتْ هذه الحِكَمُ والفَوَائِدُ ، وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى هذا بقوله : « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبونَ ، ويستغفرون ، فَيَغْفِرُ لَهُم » [(١)] .

ومنها : ظهورُ آثارِ أسماء الحكمة والخبرة ، فإنَّه الحكيمُ الخبيرُ ، الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضِعَها ، ويُنْزِلُها مَنَازلَها اللائقةَ بها ، فلا يَضَعُ الشيء في غير موضعه ، ولا يُنْزِلَهُ في غير منزلته التي يقتضيها كَمَالُ علمه وحكمته وخبرته ، فهو أعْلَمُ حيث يجعل رسالاته ، وأعلَمُ بمن يَصْلُحُ لقبولها ، وَيَشْكُرُه على انتهائها إليه ، وأعْلَمُ بمن لا يَصْلُحُ لذلك . فلو قدر عَدَمُ الأسبابِ المكروهة ، لتَعَطَّلَتْ حِكَمٌ كثيرةٌ ، ولفاتت مصالِحُ عَدِيدَةٌ ، ولو عُطِّلَتْ تلك الأسبابُ لِما فيها من الشر ، لَتَعَطَّلَ الخَيْرُ الذي هُوَ أعْظَمُ مِن الشَّرِّ الذي فِي تلك الأسبابِ ، وهذا كالشَّمْسِ والمطر والرِّياح ، التي فيها مِنَ المصالحِ ما هُوَ أضْعَافُ أضعاف ما يَحْصُلُ بها من الشر .

ومنها : حُصُولُ العبودية المتنوعة التي لولا خَلْقُ إبليس لما حَصَلَتْ ، فإن عُبُودِيَّةَ الجهاد مِن أحبِّ أنواعِ العبودية إليه سبحانه ، ولو كان النَّاسُ كُلُّهم

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعًا بنحوه .

مؤمنين لَتعطَّلَتْ هذه العبوديةُ وتَوَابِعُها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه ، وعُبوديةُ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبوديةُ الصَّبْرِ ، ومخالفة الهوى ، وإيثار مَحَابِّ الله تعالى ، وعبوديةُ التوبة والاستغفار ، وعبوديةُ الاستعاذة بالله أنْ يُجِيرَهُ مِنْ عدوه وَيَعْصِمَهُ من كيده وأذاه . إلى غيرِ ذلك من الحِكَمِ التي تَعْجِزُ العُقُولُ عن إدراكها .

وَقَوْلُهُ : «والتَّعَمُّقُ والنظر في ذلك ذَرِيعَةُ الخِذلان » إلى آخره .

ش: التعمق : هو المبالغة في طلب الشيء ، والمعنى : أن المبالغة في طلب القدر والغَوصِ في الكلام فيه ذريعة الخذلان . الذريعة : الوسيلة ، والذريعة والدرجة والسُّلَّم ، متقاربة المعنى وكذلك الخذلان والحرمان والطُّغيان متقارب المعنى أيضًا ، لكن الخذلان في مقابلة النصر ، والحِرمان في مقابلة الظفر ، والطُّغيان في مقابلة الاستقامة .

*****

وَقَوْلُهُ : « فالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ من ذلك ، نظرًا وفكرًا ووسوسة ».

ش: عن أبي هريرة ﵁ ، قال : جاء ناسٌ مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ إلى رسولِ الله ﷺ ، فسألوه : « إنا نَجِدُ في أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلم به ؟ قال : « وَقَدَ وجدتُموه ؟ » قَالُوا : نَعَمْ، قَالَ : « ذاك صريحُ الإيمان » [(١)]. رواه مسلم .

الإشارة بقوله : « ذاك صريحُ الإيمان » إلى تعاظمهم أن يتكلموا به [(٢)].

ولمسلمٍ أيضًا عن عبد الله بن مسعود ﵁ ، قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ

(١) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه (حديث رقم ١٣٢) .

(٢) المراد أن كتمانهم الحديث وعدم بث ما يجدونه في صدورهم من الوساوس ، ذاك كله صريح الإيمان .

الْوَسْوَسَةِ؟ فَقَالَ : « تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ »[(١)] .

وهو بمعنى حديث أبي هريرة ، فإن وسوسةَ النفس ومدافعةَ وسوَاسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين ، فمدافعةُ الوسوسة الشيطانية واستعظامُها صريحُ الإيمان ، ومحضُ الإيمان .

هذه طريقة الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان ـ ثم خَلَفَ من بعدهم خلفٌ ، سوّدُوا الأوراقَ بتلك الوساوس ، التي هي شكوكٌ وشُبَهٌ ، بل وَسوَّدُوا القلوبَ ، وجادلوا بالباطلِ لِيُدحِضُوا به الحقَّ ، ولذلك أطنَبَ الشَّيخُ رحمه الله في ذم الخوضِ في الكلام في القَدَرِ والفحصِ عنه ، وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الْخَصِمُ** »[(٢)] . وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ أَبِى هِنْدٍ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ الله ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدَرِ ، قَالَ : فَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ : «**مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟! بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». قَالَ : فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ الله لَمْ أَشْهَدْهُ بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ[(٣)] . ورواه ابن ماجه أَيْضًا.

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾[التوبة:٦٩] ، الخلاق : النصيب ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾[البقرة:٢٠٠] ، أي : استمتعْتُم بنصيبكم من الدنيا ،

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٣٣) .
(٢) صحيح : وقد تقدم .
(٣) حسن : أخرجه ابن ماجه (حديث ٨٥) ، وأحمد (٢/ ١٧٨) وغيرهما .

كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم ،وخُضتُم كالذي خَاضُوا ، أي : كالخوضِ الذي خاضوه ، أو كالفَوجِ ، أو الصنف ، أو الجيل الذي خاضوا .

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخَلاقِ وبَينَ الخوضِ ؛ لأن فسادَ الدين : إما في العمل ، وإما في الاعتقاد ، **فالأوَّلُ** : من جهة الشهوات ، **والثاني** : من جهة الشُّبهات . وروى البخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مآخذَ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ** » قَالُوا : فَارِسَ وَالرُّومِ ؟ قَالَ : « **فَمَنِ النَّاسُ إِلاَّ أُولَئِكَ** »[(١)].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُم مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلاَنِيَةً ، كَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً** ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : **مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي** »[(٢)]. رواه الترمذي .

وأكبرُ المسائِلِ التي وقع فيها الخلافُ بين الأئمة مسألة القدرَ ، وقد اتَّسعَ الكلامُ فيها غايَةَ الاتساع .

---

(١) صحيح : رواه البخاري (حديث ٧٣١٩) ، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ** » فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ ؟ فَقَالَ : « **وَمَنِ النَّاسُ إِلاَّ أُولَئِكَ ؟!** » . وعند البخاري (حديث ٧٣٢٠) ، ومسلم (حديث ٢٦٦٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ** » قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : « **فَمَنْ ؟** » .

(٢) سنده ضعيف : أخرجه الترمذي (حديث ٢٦٤١) ، وقال : هذا حديث مُفسَّرٌ غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

قلت (مصطفى) : وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي وهو ضعيف ، ولبعض فقرات هذا الحديث شواهد .

وقوله : « فمن سأل : لِمَ فعل ؟ فقد ردَّ حُكمَ الكتاب ، ومن ردَّ حُكمَ الكتاب ، كان من الكافرين » .

ش : اعلم أنَّ مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله ، على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع ، ولهذه لم يحك الله سبحانه عن أمة نبيٍّ صدَّقت بنبيها ، وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيلِ الحكمة فيما أمرها به ، ونهاها عنه ، وبلغها عن ربها ، ولو فَعلَت ذلك ، لما كانت مؤمنةً بنبيها ، بل انقادت وسَلَّمَت وأذعنت ، وما عرَفَت مِن الحكمة عَرَفَتهُ ، وما خفي عنها ، لم تتوقف في انقيادِها وتسليمِها على معرفته ، ولا جَعَلت ذلك من شأنها ، وكان رَسُولُها أعظَمَ عِندَها من أن تسأله عن ذلك ، كما في الإنجيل : « يَا بَني إِسْرَائيل لا تَقولوا : لِمَ أَمَرَ رَبَّنَا ؟ ولكن قولوا : بِمَ أَمَرَ ربنا » ولهذا كان سلفُ هذه الأمة ، التي هي أكملُ الأُمَمِ عقولًا ومعارفَ وعلومًا ، لا تسْأَلُ نبيَّها : لِمَ أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولِمَ قَدَّرَ كذا ؟ ولِمَ فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضَادٌّ للإيمانِ والاستسلام ، وأن قَدَمَ الإسلام لا تَثْبُتُ إلا على دَرَجَةِ التسليم .

فَأَوَّلُ مراتب تعظيمِ الأمر : التصديقُ به ، ثُمَّ العَزمُ الجازم على امتثاله ، ثُمَّ المسارعةُ إليه والمبادرةُ به ، والحذر عن القواطع والموانعَ ، ثُمَّ بذلُ الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعلُه لكونه مأمورًا بِهِ ، بحيث لا يتوقفُ الإتيانُ بِهِ على معرفة حِكمته ، فإن ظهرت له ، فَعَلَه وإلا عطَّله ، فإن هذا يُنافي الانقياد ، وَيَقدَحُ فِي الامتثال .

قال القرطبيُّ ناقلاً عن ابنِ عبد البر : فمن سأل مستفهمًا راغبًا في العلم ، وَنفي الجَهلِ عن نفسه ، باحثًا عن معنى يجِبُ الوقوفُ في الدِّيانة عليه ، فلا بأسَ بِهِ ، فشفاءُ العِيِّ السُّؤالُ ، ومن سأل متعنِّتًا غير متفقه ولا متعلِّمٍ ، فهو الذي لا يَحِلُّ

قَلِيلُ سؤالِهِ ولا كثيرهُ .

قَالَ ابنُ العربي : الذي ينبغي للعالِمِ أن يشتغِلَ به هو بَسطُ الأدلة ، وإيضاحُ سُبُلِ النظر ، وتحصيلُ مقدمات الاجتهاد ، وإعدادُ الآلة المعِينَة على الاستمداد ، قال : فإن عَرَضَت نَازِلَةٌ ، أُتِيتَ من بابها ، ونُشِدَت مِن مَظَانِّها ، والله يَفتَحُ وَجهَ الصواب فِيها . انتهى .

ولا شك في تكفير من ردَّ حُكمَ الكتاب ، ولكِنَ من تأوَّلَ حُكمَ الكتاب لشبهة عَرَضَت له ، بُيِّنَ له الصوابُ ليرجعَ إليه ، والله سبحانه وتعالى لا يُسأَلُ عما يفعل ، لكمال حِكمته ورحمته وعدله ، لا بمجرَّدِ قهره وقدرته ، كما يقول جهمٌ وأتباعُه ، وسيأتي لذلك زيادةُ بيانٍ عند قول الشيخ : « ولا نُكَفِّرُ أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يَستَحِلَّهِ » .

*****

قوله : « فَهذَا جُملةٌ ما يحتَاجُ إلَيه من هُوَ مُنَوَّرٌ قلبه مِن أولياءِ الله تَعَالَى ، وَهِيَ دَرَجَةُ الراسخينَ فِي العلمِ ؛ لأنَّ العِلَمَ علمانِ : علمٌ في الخَلقِ مَوجُودٌ ، وعلمٌ في الخَلقِ مَفقُودٌ ، فإنكَارُ العلمِ ، المَوجُود كُفرٌ ، وادِّعاءُ العلمِ المَفقُودِ كُفرٌ ، ولَا يَثبتُ الإيمَانَ إلا بقُبُولِ العِلمِ الموجُودِ ، وتَركِ طَلَبِ العِلمِ المَفقُودِ » .

ش : الإشارةُ بقوله : « فهذا » إلى ما تقدم ذكره ، مما يجب اعتقادهُ والعملُ به ، مما جاءت به الشريعة .

وقوله : « وهي دَرَجَةُ الرَّاسِخينَ في العلمِ » . أي : عِلمِ ما جاء به الرسول جملةً وتفصيلاً ، نفيًا وإثباتًا ، ويعني بالعِلمِ المفقود : علم القدر الذي طواه الله عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه .

ويعني بالعِلمِ الموجود ، عِلمَ الشريعة ، أصولها وفروعها ، فمن أنكر شيئًا مما

جاء به الرسول كان من الكافرين ، ومن ادَّعى عِلمَ الغَيبِ كان مِن الكافرين ، قال تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ الآية [الجن:٢٦، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان:٣٤] ، ولا يلزمُ من خَفَاء حِكمَةِ الله علينا عدَمُها ، ولا انتفاؤء جهلنا حِكمته ، ألا ترى أن خَفَاءَ حِكمةِ الله علينا في خلق الحيَّات والعقارب والفأر والحشرات ، التي لا يُعلمُ منها إلا المَضَرَّةُ : لم يَنفِ أن يكون الله تعالى خالقًا لها ، ولا يلزم أن لا يَكُون فيها حِكمَةٌ خفيت علينا ؛ لأن عَدَمِ العِلمِ لا يكونُ علمًا بالمعدوم .

*****

قوله : « ونُؤمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ ، وبِجَميعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِم » .

ش : قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج:٢١، ٢٢] .

اللَّوْح المذكورُ : هو الذي كتب الله مقادِيرَ الخلائِق فيه ، والقَلَـمُ المذكور : هـو الذي خلقه الله ، وكتب به في اللوح المذكورِ المقاديرَ ، كما في «سنن أبي داود» عن عُبادَةَ بنِ الصامت ﷺ ، قال : سَمِعْت رَسُولَ الله ﷺ يَقُول : « **أَوَّلُ مَا خَلَقَ الله تَعَالَى القَلَمُ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، قَالَ : يَا رَبِّ ، وما أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى تَقُومَ الساعة** »(١) .

واختلف **العُلَماءُ** : هَلِ القَلَمُ أَوَّلُ المخلوقاتِ ، أو العرشُ ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظ أبو العلاءِ الهَمَذاني ، أصحُّهما : أن العَرْشَ قَبْلَ القَلَمِ ، لما ثبت في

---

(١) صحيح بمجموع طرقه : أخرجه أبو داود (حديث ٤٧٠٠) ، والترمذي (حديث ٢١٥٥) ، وأحمد (٥/ ٣١٧) ، وابن أبي عاصم في السنة (ص ٤٨ ، ٤٩/ ١) ، وغيرهم .

«الصحيح» من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « **قَدَّر الله مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** »[1].

فَهَذا صَرِيحٌ أن التقديرَ وقع بَعْدَ خلق العرش ، والتقدير وقع عند أوَّلِ خلق القلَم ، بحديث عُبادَةَ هذا ، ولا يخلو قولُه : « أول ما خلق الله القلم .. » إلخ ، إما أن يكونَ جملةً أو جملتين ، فإن كان جملةً ، وهو الصَّحيحُ ، كان معناه : أنه عند أول خلقِه قال له : « اكتُبْ » ، كما في اللفظ : « **أَوَّلُ مَا خَلَقَ الله القَلَمُ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ** » بنصب «أولَ »و« القَلَم» . وإن كان جملتين ، وهو مروي برفع «أولُ» و «القلمُ» ، فيتعيَّنُ حَمْلُهُ على أنه أولُ المخلوقاتِ مِن هذا العالم ، فَيَتَّفِقُ الحديثانِ ، إذ حَدِيثُ عبد الله بن عُمرو صريحٌ في أنَّ الْعَرْشَ سَابقٌ على التقدير ، والتقديرُ مقارن لخلقِ القلم ، وفي اللفظ الآخر : « **لما خلق الله القلم قال له : اكتُبْ** » .

فَهَذا القَلَم أوَّلُ الأَقْلَام وأَفْضَلُها وأَجَلُّها ، وقَد قَال غَيْرُ واحِدٍ من أهْلِ التَّفْسير : إنه القَلَمُ الذي أقسم الله به في قوله تعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم:١] .

والقلم الثاني : قَلَمُ الوحي : وهو الذي يُكتبُ به وحي الله إلى أنبيائه ورسله ، وأصحابُ هذا القلم هم الحُكَّامُ على العالم . والأَقْلامُ كلها خَدَمٌ لأقلامهم ، وقد رُفِعَ النبيُّ ﷺ ليلةَ أسْرِيَ به إلى مستوىً يَسْمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلام ، فهذه الأقلامُ هي التي تَكْتُب ما يُوحيه الله تبارك وتعالى من الأمورِ التي يدبِّرها ، أَمْرَ العالَمِ العُلويِ والسُّفلي .

*****

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا .

قوله : « فَلَو اجْتَمَعَ الخَلْقَ كُلُّهُمْ على شَيءٍ كَتَبَهُ الله تعالى أنّه كَائِنٌ ، لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، وَلو اجْتَمَعُوا كُلُّهُم عَلَى شَيءٍ كتبه الله تعالى فيه أنه غير كَائن، لِيَجْعَلُوه كَائِنًا ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ . جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ » .

ش : تَقَدَّمَ حَدِيثُ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ : جَاءَ سُرَاقَةُ بنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُم ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ ، فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ ؟ أَمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ قَالَ « لاَ ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ »(١) .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ يَوْمًا ، فَقَالَ: « يَا غُلاَمُ أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »(٢) . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية غير الترمذي : « احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَى الله فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ ، واعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً » .

وقد جاءت « الأقلامُ » في هذه الأحاديث وغيرها مجموعةً ، فَدَلَّ ذلك على أن للمقادير أقلامًا غير القلم الأول ، الذي تقدَّم ذكرهُ مع اللوح المحفوظ .

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح لشواهده : أخرجه الترمذي (حديث ٢٥١٦) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد (١/ ٣٠٣، ٣٠٤) ، وغيرهم وهو صحيح بمجموع طرقه .

والذي دلت عليه السُّنَّةُ أنَّ الأَقْلَامَ أربعةٌ ، وهذا التقسيم غَيْرُ التقسيم المقدَّم ذكره :

القَلَمُ الأول : العام الشامل لجميعِ المخلوقات ، وهو الذي تقدَّم ذكرهُ مع اللوح .

القلمُ الثاني : حين خلق آدم عليه السلام ، وهو قلمٌ عام أَيْضًا ، لكن لبني آدم ، ورد في هذا آياتٌ تَدُلُّ على أن الله قدَّر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم ، عقيب خلقِ أبيهم .

القَلَمُ الثالث : حين يُرْسَلُ المَلَكُ إلى الجنينِ فِي بطنِ أمه ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الروح ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : يَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ [١] ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الأحاديث الصحيحة .

القلم الرابعُ : الموضوعُ على العبدِ عندَ بلوغه ، الذي بأيدي الكِرَامِ الكَاتِبِينَ ، الذين يكتبون ما يَفْعَلُه بنو آدَمَ ، كما ورد ذلك في الكِتَابِ والسنَّة .

وإذا عَلِمَ العَبْدُ أن كلاً من عِندِ الله ، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى .

قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤] ، ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠] ، ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة:٤١] ، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢] ،﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر:٥٦]

ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة ، ولا بُدَّ لِكل عبد أن يتقي أشياء ، فإنه لا يعيش وحدَه ، ولو كان مَلِكًا مطاعًا ، فلا بد أن يَتَّقِيَ أشياء يُراعي بها رعيته ،

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتقي ، فإن لم يتَّق الله ، اتقى المخلوقَ ، والخلق لا يَتَّفق حُبُّهم كُلُّهم وبغضُهم ، بل الذي يريده هذا يُبغضه هذا ، فلا يُمكن إرضاؤهم كُلُّهم ، كما قال الشافعي رضي الله عنه : رِضَى الناس غايَةٌ لا تُدرَك ، فعليك بالأمرِ الذي يُصلِحُك فالزمْه ، ودَعْ ما سواه فَلَا تُعَانِه ، فإرضاءِ الخلق لا مقدورٌ ولا مأمورٌ ، وإرضاء الخالق مقدورٌ ومأمور .

وأَيْضًا فالمخلوقُ لا يُغني عنه مِنَ الله شيئا ، فإذا اتقى العبدُ ربَّه ، كفاه مؤونة الناس ، كَمَا كَتبَتْ عَائشة إلى معاوية رضي الله عنهما ، روي مرفوعًا ، ورُوي موقوفًا عليها : **« مَنْ أَرْضَى الله بِسُخْط النَّاسِ ، رَضِيَ الله عَنْهُ ، وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسُخْطِ الله ، عَادَ حَامَدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًا »** [(١)] .

فَمَنْ أرضى الله ، كفاه مؤنة الناسِ وَرَضِيَ عنَه ، ثم فيما بعد يَرْضَوْنَ ، إذ العاقبةُ للتقوى ، ويُحِبُّه الله ، فيُحبُّه الناسُ ، كما في «**الصحيحين**» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ : **« إِذَا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ ، نَادَى: يَا جِبْرِيلَ ، إِنَّ الله يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ : إِنَّ الله يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ »** [(٢)] ، وقال في البغض مثل ذلك .

فقد بيَّن أنه لا بُدَّ لِكُلِّ مخلوقٍ من أن يَتّقِي إما المَخْلُوق ، وإما الخَالِقَ . وتقوى المخلوق ضَرَرُها راجحٌ على نفعها مِن وجوهٍ كثيرةٍ ، وتقوى الله هي التي يَحْصُلُ بها سعادةُ الدنيا والآخرة ، فهو سبحانه أَهْلٌ للتَّقْوى ، وهو أَيْضًا أَهْلُ للمغفرة ،

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (بتحقيقي حديث ١٥٢٢) ، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعًا بلفظ : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله الناس ، ومن أسخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس » ، وانظره في المصدر المشار إليه ، وقد ذكر له بعض العلماء علة ، لكن معناه صحيح .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٦٠٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا وله سياق أتم عند مسلم (٢٦٣٧) .

فإنه هو الذي يَغْفِرُ الذُّنوبَ ، لا يَقْدِرِ مخلوقٌ على أن يَغْفِر الذُّنوبَ ويُجير مِن عذابها غَيْرُه ، وهو الذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : ما احتاجَ تَقيٌّ قَطُّ ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢، ٣] ، فَقد ضَمِنَ الله للمتقين أن يجعلَ لهم مخرجًا مما يضيقُ على الناس ، وأن يَرْزُقَهم مِنء حيث لا يَحْتَسِبُونَ ، فإذا لم يَحْصُلْ ذلك ، دلَّ على أن في التَّقْوى خَلَلًا ، فليسْتَغفر الله ولْيَتُبْ إليه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] ، أي : فَهُو كافيه ، لا يُحْوِجُه إلى غيره .

وقد ظنَّ بَعْضُ الناس أن التوكل يُنَافِي الاكتسابَ ، وتعاطي الأسباب ، وأن الأمورَ إذا كانت مُقَدَّرَةً ، فلا حاجةَ إلى الأسباب ! وهذا فاسِد ، فإن الاكتسابَ : منه فَرْضٌ ، ومنه مُسْتَحَبٌّ ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ، كما قد عُرِفَ في موضعه . وقد كان النبيُّ ﷺ أَفْضَلَ المتوكلين ، يَلْبَس لأْمَةَ الحَرْبِ ، ويمشي في الأسواق للاكتساب ، حتى قال الكافرون : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧] . ولهذا تجد كثيرًا ممن يرى أَنَّ الاكتسابَ يُنافي التَّوَكُّلَ يُرْزَقُونَ على يد مَنْ يُعطيهم ، إما صدقةً ، وإما هَدِيَّةً ، وقد يكون ذلك من مَكَّاسٍ ، أو والي شُرْطَةٍ ، أو نحو ذلك ، وهذا مبسوط في موضعه ، لا يَسَعُهُ هذا المختصرُ .

وقد تقدمت الإشارةُ إلى بعض الأقوال التي في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد:٣٩] .

قوله : « **وَمَا أَخطَأَ العَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَه ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه** » .

ش : هذا بناء على ما تقدَّم من أن المقدور كائنٌ لا محالةَ ، ولقد أحسن القائل :

مَـــا قَضَى الله كَـــائِنٌ لاَ مَحَالَـــهْ والشَّـــقِيُّ الجَهُـــولُ مَـــنْ لاَمَ حَالَـــهْ

والقائلُ الآخر :

اقْنَـــعْ بِـــمَا تُـــرزَقُ يَـــا ذَا الفَتَـــى فَلَـــيسَ يَنْسَـــى رَبُّنَـــا نَمْلَـــهْ

إنْ أَقْبَـــلَ الـــدَّهْرُ فَقُـــمْ قَـــائِمًا وإنْ تَـــوَلَّى مُـــدْبِرًا نَـــمْ لَـــه

قوله : « وعَلَى العَبْد أَنْ يعْلَم أَنَّ الله قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَقَدَّرَ ذَلكَ تَقْديرًا مُحكَمًا مُبْرَمًا ، لَيْسَ فِيه نَاقِضٌ ، وَلاَ مُعَقِّبٌ وَلاَ مُزِيلٌ وَلاَ مُغَيِّرٌ ، وَلاَ مُحَوِّل وَلاَ نَاقِصٌ ، وَلاَ زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَماوَاتِهِ وأَرْضِهِ » .

ش : هذا بناء على ما تقدم ، من أن الله تعالى قد سبق علمُه بالكائنات ، وأنه قدَّر مقاديرها قبل خلقها ، كما قال ﷺ : « قَدَّرَ الله مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْماءِ »[1] ، فيعلم أن الله قد علم أن الأشياءَ تصيرُ موجودةً لأَوْقاتِهَا ، على ما اقتضَته حِكمتُه البَالِغَة ، فكَانَت كما عَلم ، فإنَّ حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يُتصوَّرُ إيجادها إلا من عالم قد سبق علمُه على إيجادها، قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] .

وأنكر غلاةُ المعتزلة أن الله كان عالمًا في الأَزَلِ ، وقالوا : إن الله تعالى لا يَعْلَمُ أفعالَ العباد حتى يفعلوا ! تعالى الله عما يقولُون علوًّا كبيرًا . قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى : ناظروا القَدَرِيَّة بالعلم ، فإن أقرُّوا به خُصِمُوا ، وإن أنكروا كفروا . فالله تعالى يَعْلمُ أن هذا مُسْتَطيعٌ يَفْعَلُ ما استطاعه فُيثِيبُه ، وهذا مستطيعٌ لا يَفْعَلُ ما استطاعه ، فُيعذبه ، فإنما يُعَذِّبُه ؛ لأنه لا يفعل مَعَ القُدرة ، وقد عَلِمَ

(١) صحيح : وقد تقدم .

الله ذلك منه ، ومن لا يَسْتَطيعُ لا يأمره ولا يُعَذَّبُه على ما لم يستطعه .

قوله : « وذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الإيمَانِ وأُصُولِ المَعْرِفَة ، والاعْتِرَاف بِتَوْحيد الله تَعَالى ورُبُوبِيتِه ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨] » .

ش : الإشارةُ إلى ما تَقَدَّم من الإيمانِ بالقَدَرِ ، وَسَبْقِ علمه بالكائنات قبلَ خلقها . قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان : « **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** » . وَقَالَ ﷺ في آخر الحَدَيث : « **يَا عُمَرُ ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ** » . قَالَ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ** » . رواه مسلم [١] .

وقوله : « والاعْتِرَافُ بِتَوْحِيدِ الله وَرُبُوبِيَّتِهِ » ، أي : لا يَتِمَّ التوحيدُ والاعتراف بالربوبية إلا بالإيمانِ بصفاته تعالى ، فَإِنَّ من زعم خالقًا غَيْرَ الله ، فقد أشرك ، فكيف بمن يزعم أن كُلَّ أَحَدٍ يَخْلُقُ فعلَه ؟ !

وَكلُّ أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة . وإنما يَصِحُّ المَوْقُوفُ منها : فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « القَدَرُ نِظَامُ التوحيدِ ، فَمَنْ وحَّد الله وكذَّب بالقدر، نَقَضَ تَكذيبُه توحيده وهذا لأن الإيمانَ بالقدر يتضمَّن الإيمانَ بعلمِ الله القديمِ ، وما أظهر مِن علمه الذي لا يحاط به وكتابه مقاديرَ الخلائق . وقد ضلَّ في هذا الموضوع خلائِقُ من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ، ممن يُنْكِرُ علمه بالجزئيات أو بغيرِ ذلك ، فإن ذلك كُلُّه مما يَدْخُلُ في التكذيبِ بالقدر .

وأما قدرةُ الله على كُلِّ شيء فهو الذي يُكَذِّبُ به القَدَرِيَّةُ جملَة ، حيث جعلوه لم يَخْلُقْ أفعالَ العباد ، فأخرجوها عن قدرته وخلقه .

---

(١) صحيح :أخرجه مسلم (حديث رقم ٨) .

والقدرُ الذي لا رَيْبَ في دِلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه ، وأن الذي جحدُوه هُمُ القَدَرية المحضة بلا نزاع : هو ما قَدَّره الله مِن مقاديرِ العباد ، وعامة ما يُوجَدُ مِن كلام الصحابة والأئمة في ذمِّ القَدَرية يعني به هؤلاء ، كقول ابن عمر رضي الله عنهما ، لما قيل له : يزعمون أنْ لا قَدَرَ ، وأن الأمر أُنُفٌ : أخبِرهم أني منهم بريء ، وأنهم مني بُرَآء .

وَالْقَدَر ، الَّذِي هُوَ التَّقْدِير المطَابِق للْعِلم : يتضمَّن أصولًا عَظِيمَة :

أَحَدُهَا : أنه عالمٌ بالأمور المقدَّرة قَبْلَ كونها ، فيثبت عِلْمُه القديمُ ، وفي ذلك الردُّ على مَن يُنكِرُ علمَه القَدِيمَ .

الثاني : أن التقديرَ يتضمَّنُ مقاديرَ المخلوقات ، ومقاديرُها هِيَ صِفَاتُها المعيَّنة المختصة بها ، فإنَّ الله قد جعل لِكُلِّ شيءٍ قَدْرًا ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢].

فالخلق يَتَضَمَّنُ التقديرَ : تقديرَ الشيءِ في نفسه ، بأن يُجعل له قَدْرٌ ، وتقديره قَبْلَ وجوده ، فإذا كان قد كتب لِكُلِّ مخلوق قَدْرَه الذي يَخُصُّه في كَمِّيته وكيفيته ، كان ذلك أَبْلَغَ في العلم بالأمورِ الجُزئية المعيَّنة ، خلافًا لمن أنكر ذلك ، وقال : إنه يَعْلَمُ الكُلِّيات دُونَ الجزئيات! فالقَدَرُ يتضمَّنُ العلمَ القديمَ ، والعِلْم بالجزئيات .

الثالث : أنه يَتَضَمَّنُ أنه أخبر بذلك وأظهره قَبْلَ وجودِ المخلوقات إخبارًا مفصَّلًا ، فيقتضي أنه يُمْكِنُ أن يعلم العِبَاد الأُمورَ قبل وجودها علمًا مفصلًا ، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم ، فإنه إذًا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو ؟ !!

الرابع : أنه يَتَضَمَّنُ أنه مختارٌ لما يفعله ، مُحْدِثٌ له بمشيئته وإرادته ، ليس لازمًا لذاته .

الخامس : أَنَّه يَدُلُّ على حدوث هذا المقدورِ ، وأنه كان بعدَ أن لم يكن ، فإنه يُقَدِّره ثُمَّ يَخْلُقُه .

قوله : « فَوَيْلٌ لِمَن ضَاعَ لهُ فِي القدَرِ قلبًا سقيمًا ـ وَفِي نسخة : فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ قَلْبه فِي القَدَر قلبًا سقيمًا ـ لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الغَيْبِ سِرًا كَتِيمًا ، وعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكًا أَثِيمًا » .

ش : القلب له حياةٌ وموت ، ومرضٍ وشفاءٍ ، وذلك أعظمُ مما للبدن ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢] .

أي : كان ميتًا بالكفر ، فأحييناه بالإيمان ، فالقَلْبُ الصحيح الحَيُّ إذا عُرِضَ عليه البَاطِلُ والقَبَائحُ ، نَفَرَ منه بطبعه ، وأبغضها ، ولم يَلْتَفِتْ إليها ، بخلاف القَلْبِ الميت ، فإنه لا يُفَرِّقُ بين الحسنِ والقبيحِ ، كما قال عَبْدَ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه : هَلَكَ مَنْ لم يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفَ به المعروفَ والمنكر .

وكذلك القَلْبُ المريضُ بالشهوة ، فإنه لِضعفه يَمِيلُ إلى ما يَعْرِضُ له من ذلك ، بحسبِ قوةِ المرض وضعفه .

ومَرَضُ القلب نوعان ، كما تقدم : مرضُ شهوة ، ومرضُ شبهة ، وأرْدَؤُهُما مَرَضُ الشبهة ، وأردُ الشُّبَهِ ما كان مِن أمرِ القدر . وقد يَمْرَضُ القَلْبُ ، وَيَشْتَدُّ مَرَضُهُ ، ولا يَعْرِفُ به صاحبُه ، لاشتغالِه وانصرافِه عن معرفة صحته وأسبابِها ، بل قد يَمُوتُ وصاحبُه لا يشعر بموته ، وعلامةُ ذلك أنه لا تُؤْلِمُهُ جِراحَاتُ القبائح ، ولا يُوجِعُه جَهْلُهُ بالحَقِّ وعقائدُه الباطلة ، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألَّمَ بورود القبيحِ عليه ، وتألَّمَ بجهله بالحَقِّ بحسب حياته ، و :

ما لِجُـرْحٍ بَميِّتٍ إيـلامُ

وقد يَشْعُرُ بمرضه ، ولكن يَشْتَدُّ عليه تَحَمُّلُ مرارةِ الدواء والصبرِ عليها ، فيُؤثِرُ بقاءَ ألمه على مشقة الدواء ، فإن دواءه في مخالفة الهوى ، وذلك أصْعَبُ شيءٍ عَلَى النفس ، وليس له أنفعُ منه .

وتارةً يُوطِّنُ نفسَه على الصبر ، ثم يَنْفَسِخُ عزمُهُ ، ولا يستمر معه ، لضعف علمه وبصيرتِه وصبره ، كمن دخل في طريق مخوف مُفْضٍ إلى غاية الأمن ، وهو يَعْلَمُ أنه إن صَبَرَ عليه انقضى الخوفُ وأعقبه الأمْنُ ، فهو محتاج إلى قوةِ صبر ، وقوةِ يقين بما يصيرُ إليه ، ومتى ضَعُفَ صَبْرُهُ ويقينُه ، رجع من الطريق ، ولم يتحمَّلْ مشقتها ، ولا سيما إن عَدِمَ الرفيق ، واستوحَشَ من الوَحْدَةِ ، وجعل يقول : أين ذَهَبَ النَّاسُ ، فلي أسْوَةٌ بهم! وهذه حَالُ أكثرِ الخلق ، وهي التي أهلكتهم . فالبَصيرُ الصادِقُ لا يستوحِشُ مِن قلة الرفيق ، ولا من فقده ، إذا استشعر قلبُه مرافقة الرَّعيل الأول : ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] .

وما أَحْسَن ما قال أبو محمد عَبْدُ الرحمن بنُ إسماعيل المعروف بأبي شَامة في كتاب« الحوادث والبدع » : حيث جاء الأَمْرُ بلزوم الجماعة ، فالمُرَادُ لُزُومُ الحقِّ واتباعُه ، وإن كان المُتَمَسِّكُ به قليلًا، والمُخَالِفُ له كثيرًا ؛ لأن الحقَّ هو الذي كانت عليه الجَمَاعَةُ الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه ، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطلِ بعدهم ».

وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : « السُّنَّةُ والذي لا إله إلا هو بَيْنَ الغالي والجَافِي ، فاصبروا عليها رَحِمَكُمُ الله ، فإن أهلَ السنة كانوا أَقَلَّ الناسِ فيما مضى ، وهُمْ أَقَلُّ الناسِ فيما بَقِيَ ، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ، ولا مَعَ أهلِ البدع في بِدَعِهِمْ ، وَصَبَرُوا على سُنَّتِهِمْ حتى لَقُوا رَبَّهم ، فكذلك ، فكونوا » .

وعلامةُ مرضِ القلب عُدُولُه عن الأغذيةِ النافعـة المُوافِقَـةِ ، إلى الأغذيـة الضـارة ، وعُدُولُه عن دوائه النافع ، إلى دَوائِه الضار .

فها هنا أربعة أشياء : غذاءٌ نافع ، ودواءٌ شافٍ ، وغذاءٌ ضار ، ودواءٌ مُهلك .

فالقَلْبُ الصحيحُ يؤثر النافعَ الشافيَ ، على الضـارِّ المؤذي ، والقلـبُ المريض بضد ذلك .

وأَنْفَعَ الأغذية غذاءُ الإيمان ، وأنفعُ الأدوية دواءُ القرآن ، وكُلٌّ منهما فيه الغذاء والدواء ، فمن طلبَ الشفاء في غير الكتاب والسنة ، فهو من أجهل الجاهلين ، وأضلِّ الضالين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢] . ومن في قوله : ﴿ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ لبيان الجنس ، لا للتبعيض ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧] .

فـالقرآنُ هـو الشـفاءُ التـام مـن جميـع الأدواء القلبيـة والبدنيـة ، وأدواء الـدنيا والآخرَةِ ، وما كُلُّ أحدٍ يُؤَهَّلُ للاستشفاءِ بـه . وإذا أَحْسَنَ العَلِيـلُ التَّـداويَ بـه ، ووضعه على دائه بصِدْقٍ وإيمانٍ ، وقَبُولٍ تام ، واعتقادٍ جازم واستيفاءِ شروطـه - لم يُقاومِ الدَّاءُ أبدًا ، وكيف تُقـاوِمُ الأدْوَاءُ كـلامَ ربِّ الأرضِ والسماءِ ، الـذي لـو نَزَلَ على الجبالِ لصَدَّعها ، أو عـلى الأرض لقَطَّعهـا ! فـما مِـن مـرضٍ مـن أمـراض القلوب والأبدانِ إلا وفي القرآن سبيلُ الدِّلالة على دوائه وسببه والحِمْيَة منه ، لمن

رزقه الله فهمًا في كتابه .

وقوله : « لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًا كتيمًا » أي : طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرًا مكتومًا ، إذ القدرُ سرُّ الله في خلقه ، فهو يرومُ ببحثه الاطلاعَ على الغيب ، وقد قال تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن:٢٦] ، إلى آخر السورة .

وقوله : « وعاد بما قال فيه » ، أي في القدر : « أفّاكًا » : كذابًا ، « أثيمًا » : أي : مأثومًا .

*****

وقوله : « والعَرْشُ والكُرْسِيّ حقٌّ » .

ش : كما بَيّنَ تعالى في كتابه ، قال تعالى : ﴿ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴾ [البروج:١٥] ، ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [غافر:١٥] ، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] ، ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [الأعراف:٥٤] ، في غير ما آيةٍ مِنَ القرآن : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٦] ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٦] ، ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [غافر:٧] ، ﴿ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ [الحاقة:١٧] ، ﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ [الزمر:٧٥]

وفي دُعاء الْكَرْبِ المروي في « الصحيح » : « **لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ ، لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** »(١).

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٣٤٦) ، ومسلم (٢٧٣٠) ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

وفي «صحيح البخاري» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الجَنَّةَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**»(١).

يروى: «وفوقَه» بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداءِ، أي: وسقفه.

وذهب طائفةٌ مِن أَهْلِ الكلامِ إلى أن العرش فَلَكٌ مِستديرٌ من جميع جوانبه محيطٌ بالعالَمِ مِنْ كُلِّ جهة، وربما سَمَّوْهُ: الفَلَكَ الأطلسَ، والفَلَكَ التاسع! وهذا ليس بصحيحٍ؛ لأنه قد ثبت في الشَّرْعِ أن له قَوائِمَ تَحْمِلُه الملائِكَةُ، كما قال ﷺ: «**فإِنَّ النَّاسُ يَصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**»(٢).

والعرش في اللغة: عِبَارَةٌ عن السريرِ الذي للمَلك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وليس هو فلكًا، ولا تَفْهَمُ منه العَرَبُ ذلك، والقرآن إنما نزل بلغةِ العربِ، فهو: سَريرٌ ذو قوائم تَحْمِلُه الملائكة، وهو كالقُبَّةِ على العالَمِ، وهو سقفُ المخلوقات.

وروى أبو داود عَنِ النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أُذن لي أن أَحَدِّثَ عَنْ مَلَك مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ ﷻ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، إن ما بَيْنَ أُذُنِيْه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سَبعَ مئة عَامٍ**». ورواه ابن أبي حاتِم، ولفظه: «**مَخْفق الطير سبع مئة عَامٍ**»(٣).

وأما مَنْ حرَّف كَلاَمَ الله، وجعل العَرْشِ عِبارَةً عن المُلْكِ، كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، وقوله:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (مع الفتح ٦/ ١١)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مرفوعًا.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود (حديث ٤٧٢٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (حديث ٨٤٦)، وغيرهم، وللحديث شواهد أيْضًا، منها حديث أبي هريرة ﷺ عند الحاكم (٤/ ٢٩٧)، وانظر ـ أيْضًا: مسند أبي يعلى (٦٦١٩)، وغير ذلك.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[هود:٧] . أيقول : وَيَحْمِلُ مُلْكَه يومئذ ثمانية ؟! وكان مُلْكُه على الماء ! ويكون موسى ﷺ آخذًا بقائمة من قوائم المُلكِ ؟ ! هل يقولُ هذا عاقلٌ يدري ما يقول ؟ !

وأما الكُرْسِيُّ ، فقال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[البقرة:٢٥٥].

وَقَدْ قِيل : هو العرشُ ، والصحيح أنه غَيْرُه ، نُقِلَ ذلك عن ابنِ عباس رضي الله عنهما وغيره ، روى ابنُ أبي شيبة في كتاب « صفة العرش » ، والحاكم في « مستدركه » ، وقال : إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، أنه قال : الكرسيُّ موضعُ القدمين ، والعرش لا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إلا الله تعالى. وقد روي مرفوعا ، والصوابُ أنه موقوف على ابن عباس (١).

وَقِيلَ : كُرْسِيُّهُ عِلْمُهُ ، ويُنْسَبُ إلى ابن عباس . والمحفوظُ عنه ما رواه ابنُ أبي شيبة ، كما تقدم ، ومَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فليس لَهُ دَلِيلٌ إلا مُجَرَّدُ الظن ، والظاهر أنه مِن جِراب الكلامِ المذموم ، كما قيل في العرش . وإنما هو كما قال غَيْرُ واحدٍ من السَلف : بين يدي العرش كالمرقاة إليه .

❊❊❊❊❊

قوله : « وهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ العَرْشِ وَمَا دُونَه ، مُحيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ ، وقد أعجز عن الإحاطة خلقَه » .

ش : أما قولُه : « وهو مستغن عن العرش وما دُونه ». فقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ

(١) صحيح موقوفٌ على ابن عباس رضي الله عنهما : أخرجه الطبري (٥٧٩٢) ، والحاكم (٢/ ٢٨٢) ،وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وأخرجه أيضًا الطبراني (في المعجم الكبير ١٢٤٠٤) ، وغيرهم ، أما الرواية المرفوعة فهي ضعيفة .

غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] ، وقال تعالى :﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] . وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلامَ هنا ؛ لأنه لما ذكر العَرْشَ والكرسي ، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دُونَ العرش ، ليبيِّنَ أن خلقه للعرشِ واستواءه عليه ، ليس لحاجته إليه ، بَلْ له في ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالي فوقَ السافِلِ لا يلزمُ أن يكونَ السافلُ حاويًا للعالي ، محيطًا به ، حاملًا له ، ولا أن يَكُونَ الأعلى مفتقرًا إليه .

فانظر إلى السماء ، كيف هِيَ فَوْقَ الأرض وليست مفتقرةً إليها ؟ فالربُّ تعالى أعظمُ شأنًا ، وأجلُّ مِن أن يلزم مِن عُلُوِّهِ ذلك ، بل لَوَازِمُ علوه مِن خصائصه ، وهي حَمْلُهُ بقُدرته للسافلِ ، وَفَقْرُ السافل ، وغناه هو سبحانه عن السافل ، وإحاطُته عز وجل به ، فهو فَوْقَ العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته ، وغناه عن العرشِ ، وفقر العرشِ إليه ، وإحاطته بالعرش ، وعدم إحاطة العرش به ، وحصره للعرش ، وعدم حصر العرشِ له . وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق .

ونُفاةُ العلوِّ ، أهل التعطيل ، لو فصَّلوا هذا التفصيل ، لهُدُوا إلى سواءِ السبيلِ ، وعَلِمُوا مطابقة العقلِ للتنزيل ، ولسلكوا خَلْفَ الدليل ، ولكن فارقوا الدليلِ ، فضَلُّوا عن سواء السبيل ، والأمرُ في ذلك كما قال الإمامُ مالك رحمه الله ، لما سُئلَ عن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكَيْفَ مجهول[١] . ويُرْوَى هذا الجوابُ عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا ومرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم

وأما قوله : « محيطٌ بِكُلِّ شيءٍ وفوقَه » ، وفي بعض النسخ :« محيطٌ بكُلِّ شيء

---

(١) أثر مالك هذا صحيح عن مالك : أخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات رقم (٨٦٧) ، ولفظه هناك : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ،والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعةٍ ، وهو أيْضًا عند اللالكائي (٣/ ٣٩٨) بسند ضعيف .

فوقه » بغير واو من قوله : « فوقه » . والنسخة الأولى هي الصحيحةُ ، ومعناها : أَنَّهُ تَعَالَى محيطٌ بِكُلِّ شيءٍ وفوقَ كل شيء .

ومعنى الثانية : أنه محيطٌ بكل شيء فوقَ العرش . وهذا والله أعلم إما أن يَكُونَ أسقطها بعضُ النساخ سهوًا ، ثم استنسخ بعضُ الناس من تلك النسخة ، أو أن بَعْضَ المحرِّفين الضالين أسقطها قصدًا للفساد ، وإنكارًا لصفة الفوقية ، وإلاَّ فقد قام الدليلُ على أن العرشَ فوقَ المخلوقات ، وليسَ فوقه شيء من المخلوقات ، فلا يبقى لقوله : محيط بكل شيء فوقَ العرشْ والحالة هذه معنى ؛ إذ ليس فوق العرش مِن المخلوقات ما يُحَاطُ به ؛ فتعين ثبوتُ الواو ، ويكون المعنى : أنه سبحانه محيط بكل شيء ، وفوقَ كل شيء .

أما كونه محيطًا بكل شيء ، فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ [البروج:٢٠] ، ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُۢ ﴾ [فصلت:٤١] ، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء:١٢٦] .

ولَيْسَ المُرادُ مِن إحاطته بخلقه أنه كالفلك ، وأن المخلوقات داخلُ ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك عُلُوّا كبيرًا .

وإنما المراد : إحاطة عظمتِهِ ، وسَعَةٍ وَعِلْمٍ وقُدرةٍ ، وأنها بالنسبة إلى عظمته كالخردلةِ. كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ما السماواتُ السبعُ ، والأرضون السبع ومَا فِيهِنَّ ومَا بَيْنَهن في يد الرحمن إلا كخَرْدَلَةٍ في يدِ أحدكم .

ومن المعلوم ـ ولله المثلُ الأعلى ـ أن الواحِدَ منا إذا كان عنده خَرْدَلَةٌ ، إن شاء قبضها وأحاطت قبضته بها ، وإن شاء جعلها تحته ، وهو في الحالين مُبَايِنٌ لها ، عالٍ عليها فوقَها مِنْ جميعِ الوجوه ، فكيف بالعظيمِ الذي لا يُحِيطُ بعظمته وَصْفُ واصِفٍ . فلو شاءَ لَقَبَضَ السَّماواتِ والأرضَ اليَوْمَ ، وفعل بها كما يَفْعَلُ بها يَوْمَ

القيامة ، فإنه لا يتجدَّدُ له إذْ ذاكَ قدرة لَيس عليها الآن ، فكيف يَسْتَبْعِدُ العَقْلُ مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعضِ أجزاء العالم وهو على عرشه فوقَ سماواته ؟ أو يُدني إليه مَنْ يشاءُ مِن خلقه ؟ فمن نفى ذلك لم يَقْدُرْهُ حقَّ قدره .

وأما كونه فوقَ المخلوقات ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٨، ٦١] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠] .

وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدِّم : « **والعرشُ فَوْقَ ذلكَ ، والله فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّه** »(١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ ، عَنْ النَّبيِّ ﷺ ، أَنَّهُ قَالَ : « **لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي سَبقَتْ غَضَبِي** »(٢) .

وفي رواية : « **تَغْلِبُ غَضَبِي** » رواه البخاري وغيره .

وروى مسلم عَنْ النَّبيِّ ﷺ ، فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣] بقوله : « **أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ ، وَأَنْتَ البَاطِنُ ، فَلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ** »(٣) .

والمرادُ بالظهور هنا : العلوُّ . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف:٩٧] ، أي : يَعْلُوه .

فهذه الأَسْمَاءُ الأربعةُ متقابلة : اسمان منها لأزلية(٤) الربِّ سبحانه وتعالى

---

(١) ضعيف : وقد تقدم قريبًا .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣١٩٤) ،وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٧٥١) ، وغيرهم .

(٣) صحيح : وقد تقدم تخريجه .

(٤) لفظ الأزل هذا ما زلت أبحث على مستندٍ له والأولى اتقاؤه وإبداله بلفظ من الكتاب والسنة

وأبديته ، واسمان لِعلوه وقربه .

وفي قصة سعدِ بن معاذ يومَ بني قُرَيظَةَ ، لما حكم فيهم أن تُقتل مُقاتلتُهم وتُسْبَى ذرارِيهم ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ المَلِكِ مِنْ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَات** »(١). وهو حديثٌ صحيح ، أخرجه الأُمَوي في « مغازيه » ، وَأَصلُه في «الصحيحين».

وروى البخاريُّ عَنْ زَيْنَبُ ﵂: « **أَنَّهَا كَانَتَ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقُولُ : زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ ، وَزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ** »(٢).

وروى عكرمةُ ، عن ابن عباسٍ ، في قوله : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾[الأعراف:١٧] ، قَالَ : ولم يَسْتَطِعْ أن يقول : مِن فَوْقِهم ؛ لأنه قد عَلِمَ أن الله سبحانه مِن فوقهم .

ومن سَمعَ أحاديثَ الرسول ﷺ وكلامَ السلف ، وَجَدَ منه في إثباتِ الفوقية ما لا ينحصر .

ولا ريبَ أن الله سبحانه لما خَلَقَ الخلق ، لم يَخْلُقْهُمْ في ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك ، فإنه الأَحَدُ الصمد الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، فتعيَّن أنه خلقهم خارجًا عن ذاته ، ولو لم يتَّصِفْ سبحانه بفوقية الذاتِ ، مع أنه قائمٌ بنفسه غَيْرُ مخالط للعالم ، لكان متَّصِفًا بِضِدِّ ذلك ؛ لأن القابِلَ للشيء لا يخلُو منه ، أو مِن ضده ، وضدُّ الفوقية : السفول ، وهو مذمومٌ على الإطلاق ؛ لأنه مستقرُّ إبليس وأتباعه وجنوده .

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٤٣) ، وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ١٧٦٨) ، ومن حديث أبي سعيد الخدري ﵁ مرفوعًا ولفظه : « **لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الله** » ، وفي رواية « **بِحُكْمِ الْمَلِكِ** » ، وبألفاظ قريبة لكن لم قوله : « **مِنْ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوات** » .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٧٤٢٠) من حديث أنس ﵁ مرفوعًا .

والنصوص الواردة المتنوعة المُحْكَمَةِ على عُلُوِّ الله عَلَى خلقه، وكونه فوق عباده، التي تَقرُبُ من عشرين نوعًا:

أَحَدُهَا: التَّصْرِيحُ بالفوقية مقرونًا بأداة «مِن» المعينة للفوقية بالذاتِ، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

الثاني: ذِكرُها مُجَرَّدَةً عن الأداة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨، ٦١]

الثالث: التَّصْرِيحُ بالعُرُوجِ إليه نَحْوُ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقوله ﷺ: «**فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ**»(١).

الرابعُ: التَّصْرِيحُ بالصُّعُودِ إِلَيْهِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]

الخامسُ: التَّصْرِيحُ برفعه بَعْضَ المخلوقات إِلَيْهِ، كَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥].

السادس: التَّصْرِيحُ بالعُلُوِّ المُطْلَقِ، الدَّالِّ عَلَى جميعِ مراتبِ العلو، ذاتًا وقدرًا وشرفًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

السَّابعُ: التَّصْرِيحُ بتنزيل الكتاب منه، كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:٢]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٥٥٥)، ومسلم (حديث ٦٣٢)، من حديث أبي هريرة ؓ مرفوعًا.

[النحل:١٠٢]، ﴿ حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴾

[الدخان: ١ ـ ٥]

الثامنُ: التَّصْرِيحُ باختصاصِ بعضِ المخلوقات بأنَّها عنده، وأن بعضهَا أقربُ إليهِ مِنَ بَعْضٍ، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾[الأعراف:٢٠٦]. ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ ﴾[الأنبياء:١٩]. ففرَّقَ بين «من له» عمومًا وبَيْنَ «من عنده» مِن ملائكته وعبيده خصوصًا، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الربُّ تعالى على نفسه: «**أَنَّه عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ**»(١).

التَّاسِعُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ تَعَالَى فِي السماء، وَهَذَا عِنْدَ المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون «في» بمعنى «على»، وإما أن يُرَادَ بالسماء العلوُّ، لا يختلِفُون في ذلك، ولا يجوزُ الحمل على غيره.

العاشِرُ: التَّصْرِيحُ بالاستواء مقرونًا بأداة «على» مختصًا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقاتِ، مصاحبًا في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمُهْلَةِ.

الحادي عشر: التَّصْرِيحُ برفع الأيدي إلى الله تعالى، كقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»(٢).

والقولُ بأن العُلُوَّ قِبْلَةُ الدعاء فقطَ بَاطِلٌ بالضرورة والفِطرة، وهذا يجده مِن نفسه كُلُّ داعٍ. كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (مع تحفة الأحوذي ٩/ ٥٤٤)، وقال: حسن صحيح، وأبو داود في الصلاة (٣٥٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٥)، وغيرهم من حديث سلمان ﷺ مرفوعًا، ولمزيد انظر كتابنا فقه الدعاء.

الثاني عشر : التَّصْرِيحُ بنزوله كُلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا ، والنزولُ المعقول عند جميعِ الأمم إنما يكونُ مِن علو إلى سفل .

الثالث عشر : الإشارةُ إليه حِسًّا إلى العلو ، كما أشار إليه مَنْ هُوَ أعلمُ به وبما يجِبُ له ، ويمتنعُ عليه مِن جميع البشر ، لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمعْ لأحدٍ مثلُه ، في اليوم الأعظمِ ، في المكان الأعظمِ ، قال لهم : « **أَنْتُمْ مُسئُولُون عَنِّي ، فماذا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟** » قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ [(١)] ، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء ، رافعًا لها إلى مَنْ هُوَ فَوْقَها وَفَوْقَ كُلِّ شيء ، قائلاً : « **اللَّهُمَّ اشْهَدْ** » . فكأَنَّا نُشَاهِدُ تلك الأصبعَ الكريمةَ وهي مرفوعةٌ إلى الله ، وذلك اللِّسانَ الكريمَ وهو يقولُ لمن رفع أصبَعه إليه : « **اللَّهمَّ اشْهَدْ** » ، ونشهد أنه بَلَّغَ البلاغَ المبينَ ، وأدَّى رسالةَ ربه كما أُمر ، ونصحَ أمته غايةَ النصيحة ، فلا يُحْتَاجُ مع بيانه وتبليغه وكشفِه وإيضاحه إلى تَنَطُّعِ المتنطعين ، وحذلقة المتحذلقين! والحمدُ لله رب العالمين .

الرابع عشر : التَّصْرِيحُ بلفظ «الأين» كقولِ أعلم الخلق به ، وأنصحهمْ لأمته ، وأفصحِهم بيانًا عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يُوهِمُ بَاطِلًا بِوَجْهٍ : « **أَيْنَ الله** » [(٢)] ، فِي غَيْرِ موضع .

الخامس عشر : شَهَادَتُه ﷺ لمن قَالَ : إِنَّ رَبَّه فِي السَّماءِ بالإيمان .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في حجة النبي ﷺ وفيه : « **وقد تركتم فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ؛ كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟** » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : « **اللهم اشهد ، اللهم اشهد** » ثلاث مرات .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٥٣٧) ، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه مرفوعًا، في سياق مطول بعض الشيء .

السادس عشر : إخبارهُ تعالى عن فرعون أنه رَامَ الصُّعُودَ إلى السَّماءِ ، لِيَطَّلعَ إلى إله موسى ، فَيُكذِّبه فيما أخبره من أنه سُبْحَانَه فَوْقَ السماوات ، فقال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ [غافر:٣٦، ٣٧] ، فَمَنْ نفى العُلُوَّ من الجهمية فهو فِرعوني ، ومن أثبته فهو موسوي محمدي .

السابع عشر : إخبارُه ﷺ : أنه تَرَدَّدَ بَيْنَ موسى عليه السلام وَبَيْنَ ربه لَيْلَةَ المِعراج بسببِ تخفيفِ الصَّلاةِ ، فَيَصْعَدُ إلى رَبِّه ، ثُمَّ يَعُود إِلَى مُوسى عِدَّةِ مرار[١] .

الثامن عشر : النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى رؤيةِ أَهْلِ الجَنَّةِ لَهُ تَعَالَى ، مِنَ الكِتَابِ والسنة ، وإخبار النَّبيِّ ﷺ أنهم يَرَوْنَهُ كَرُؤْيَةِ الشمس والقمر لَيْلَةَ البدرِ ليس دونه سحاب ، ولا يرونه إلا من فوقهم .

ولا يَتِمُّ إنكارُ الفوقية إلا بإنكار الرؤية . ولهذا طَرَّد الجهميةُ النفيين ، وصدَّق أهلِ السنة بالأمرين معًا ، وأقرُّوا بهما ، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلوّ مذبذبًا بينَ ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهذه الأنواع من الأدلة لو بُسِطَتْ أفرادُها لبلغتْ نحو ألفِ دليل ، فعلى المتأوِّل أن يُجيبَ عن ذلك كُلِّه! وهيهاتَ له بجواب صحيح عن بعضِ ذلك !

وكلامُ السلف في إثباتِ صفة العلو كثير جدًّا : فمنه :

ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه : « الفاروق » بسنده إلى مَطيع البلخي : أنه سأل أبا حنيفة عمن قال : لا أعْرِفُ ربي في السماء أم في الأرض ؟ فقال : قد كفر ؛ لأنَّ الله يقول : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾

(١) صحيح : وقد تقدم .

[طه:٥] ، وعرشُه فَوْقَ سبعِ سماواتٍ.

قلتُ : فإن قال : إنه على العرش ، ولكن يقول : لا أدري العرشُ في السماء أم في الأرض ؟ قال : هو كافر ؛ لأنه أنكر أنَّه في السَّماء ، فمن أنكر أنه في السَّماء فقد كفر. وزاد غَيْرُهُ : لأنَّ الله في أعلى عليين ، وهو يُدْعَى مِن أعلى ، لا مِنْ أَسْفَل . انتهى .

ولا يُلْتَفَتُ إلى مَنْ أنكر ذلك ممن يَنْتَسِبُ إلى مذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائفُ معتزلة وغيرهم ، مخالفون له في كثيرٍ من اعتقاداته . وقد يُنْتَسَبُ إلى مالك والشافعي وأحمد من يُخالِفُهُم في بعض اعتقاداتهم . وقصةُ أبي يوسف في استتابتِهِ لبشرٍ المريسي ، لما أَنْكَرَ أَنَّ يَكُونَ الله فَوْقَ العَرْشِ مَشْهُورَةٌ ، رواها عبدُ الرَّحمن بنُ أبي حاتِم وغيرُه .

ومن تأوَّل « فوق » ، بأنه خَيْرٌ مِن عباده وَأَفْضَلُ منهم ، وأنه خَيْرٌ مِن العرش وَأَفْضَلُ منه ، كَمَا يَقَال : الأَمِيرُ فَوْقَ الوزير ، والدِّينَارُ فَوْقَ الدرهم : فذلك مما تَنْفرُ عنه العُقُولُ السليمةُ ، وتَشْمَئِزُّ منه القُلُوبَ الصحيحةُ . فإنَّ قَوْلَ القائِلِ ابتداء : الله خَيْرٌ من عباده ، وخَيْرٌ مِن عرشه ؛ من جنس قوله : الثلج بارد ، والنارُ حارة ، والشمسُ أضوأ من السراج ، والسماءُ أعلى من سقف الدار ، والجبل أثقلُ من الحصى ، ورسولُ الله أفضلُ من اليهود ، والسماء فَوْقَ الأرض!! وليس في ذلك تَمْجِيدٌ ، ولا تعظيم ، ولا مدح ، بل هو مِن أرذل الكلام ، وأسمجِه ، وأَهْجَنِهِ! فكيف يَلِيقُ بكلام الله ، الذي لو اجتمع الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثله ، لما أَتَوْا بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيرًا ؟ ! بل في ذلك تنقُّصٌ ، كما قيل في المثل السائر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

ولو قال قائل : الجَوْهَرُ فَوْقَ قشر البصل وقشرِ السمك! لضحك منه العقلاء ،

للتفاوت الذي بينهما ، فإن التفاوتُ الذي بَيْنَ الخالقِ والمخلوق أَعْظَمُ وأَعْظَمُ . بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك ، بأن كان احتجاجًا على مُبْطِلٍ ، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف:٣٩] ، وقوله تعالى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[النمل:٥٩] ، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه:٧٢] .

وإنما يَثْبُتُ هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثُبُوت الفوقية المطْلَقَة مِن كُلِّ وَجْه ، فله سبحانه وتعالى فَوْقِيَّةُ القِهر ، وفَوْقِيَّةُ القدْر ، وَفَوْقِيَّةُ الذات . ومن أَثْبَتَ البَعْضَ ونفى البَعْضَ ، فقد تَنَقَّصَ.

وعُلُوُّه تعالى مطلق مِن كُلِّ الوجوه .

فإن قيل : المُرَادُ عُلُوُّه في القُلُوب ، وأنه أعلى في القُلوب من كُلِّ شيء .

قيل : وكذلك هو ، وهذا العُلُوُّ مطابق لعلوه في نفسه على كُلِّ شيء ، فإن لم يكن عاليًا بنفسه على كُلِّ شيء ، كان عُلُوُّه في القُلوب غَيْرَ مطابقٍ ، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى .

وعُلُوُّه سبحانه وتعالى كما هو ثابتٌ بالسمع ، ثَابِتٌ بالعقل والفِطرة .

وأما ثبوتُه بالفطرة :فإنَّ الخلق جميعًا بطباعهم وقلوبهم السَّلِيمَة يَرْفَعُونَ أَيْدَيِهم عند الدُّعاءِ ، ويَقْصِدُونَ جِهَةَ العُلُوِّ بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى ، وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشَّيْخَ أبا جعفر الهَمَذاني حضر مجلسَ الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمامِ الحرمين ، وهو يَتكَلَّم في نفي صِفَةِ العُلُوِّ ، ويقول : كان الله ولا عَرْشَ وهو الآن على ما كان! فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أُستَاذُ عن هذه الضرورة التي نَجِدُها في قلوبنا ؟ فإنه ما قال عَارِفٌ قَطُّ : يا الله ، إلاَّ وَجَدَ في قلبه ضرورة تطلُبُ العُلُوَّ ، لا يلتفت يَمْنَةً ولا يَسْرَةً ، فكيف ندفع

هذه الضرورةَ عن أنفسنا ؟ قال : فَلَطَمَ أبو المعالي على رأسه ونزل ! وأظنُّه قال : وبكى! وقال : حيَّرني الهَمَذاني حيَّرني! أراد الشيخ : أنَّ هذا أمرٌ فطرَ الله عليه عبادَه ، من غير أن يَتَلَقَّوهُ من المُعَلِّمِينَ ، يجدون في قُلُوبِهِم طلبًا ضروريًا يتوجه إلى الله ، ويطلبه في العلو .

وقد اعتُرِضَ على الدليلِ العقليِّ بإنكار بداهته ؛ لأنه أنكره جُمْهُورُ العقلاءِ ، فلو كان بديهيًا ، لما كان مُخْتَلَفًا فيه بَيْنَ العقلاء ، بل هو قضيةٌ وهميةٌ خيالية .

واعتُرِضَ على الدليل الفطريِّ : أن ذلك إنما كان لِكون السماء قبلةً للدعاء ، كما أن الكعبة قبلةٌ للصلاة ، ثُمَّ هُوَ منقوضٌ بوضع الجبهةِ على الأرض مع أنه لَيْسَ فِي جهة الأرض ، وأُجِيْبَ على هذا الاعتراضِ مِنْ وجوه :

أحَدُهَا : أن قولَكُم : إنَّ السماء قِبْلَةُ الدُّعاء لم يَقُلْهُ أَحَدٌ من سَلَفِ الأمة ، ولا أنزل الله بِهِ مِن سلطان ، وهذا من الأمور الشرعية الدينية ، فَلاَ يَجُوزُ أن يخفى على جميع سَلَفِ الأمة وعلمائها .

الثاني : أن قِبْلَةَ الدُّعَاءِ هِيَ قبلة الصلاة ، فَإِنَّهُ يُسْتَحَبُّ للداعي أن يَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ ، وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ فِي دعائه فِي مواطنَ كثيرة [1] ، فمن قال إن للدعاء قِبْلَةً غَيْرَ قبلةِ الصلاة ، أو إن له قِبْلَتَيْنِ : إحداهما الكعبةُ ، والأخرى السماءُ ، فقد ابتدعَ في الدين ، وخَالَفَ جماعةَ المسلمين .

الثالث : أن القِبْلَةَ : هي ما يَسْتَقْبِلُه العابدُ بوجهه ، كما تُسْتَقْبَلُ الكعبةُ فِي الصلاة والدعاء ، والذكر والذبح ، وكما يُوجَّهُ المُحْتَضَرُ والمدفون ، ولذلك

---

(١) هذا المعنى صحيح : انظر هذا المعنى في صحيح مسلم (مع النووي ١٢/ ٨٤) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في دعاء النبي ﷺ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ففيه : فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ : « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي** » وانظر أَيْضًا حديث ابن مسعود في الصحيحين (حديث ٣٩٦٠) ، ومسلم (حديث ١٧٩٤) .

سُميت وُجِهةً ، والاستقبالُ خِلافُ الاستدبار ، فالاستقبالُ بالوجه ، والاستدبَارُ بالدُّبرِ ، فأما ما حاذاه الإنسانُ برأسه أو يديه أو جنبه ، فهذا لا يُسَمَّى قبلةً ، لا حقيقةً ولا مجازًا ، فلو كانت السماءُ قبلةً الدُّعَاءِ لكان المشروعُ أن يُوجِّهَ الداعي وَجْهَهُ إليها ، وهذا لم يُشْرَعْ ، والموضعُ الذي تُرْفَعُ اليَدُ إليه لا يُسَمَّى قبلةً ، لا حقيقةً ولا مجازًا ، ولأن القِبْلَةَ في الدعاء أمرٌ شرعي تتبع فيه الشرائع ، ولم تأمر الرُّسُلُ أنَّ الداعي يستقبل السَّماء بوجهه ، بل نَهَوا عن ذلك .

ومعلومٌ أن التوجهَ بالقلب ، واللجأ والطلب الذي يجدُه الدَّاعي مِنْ نفسِهِ أمرٌ فِطْريّ ، يَفْعَلُهُ المسلم والكَافِرُ والعالمُ والجاهلُ ، وأكثرُ ما يَفْعَلُه المُضطرُّ والمستغيثُ بالله ، كما فُطِرَ على أنه إذا مسَّهُ الضُّرُ يدعو الله ، مع أن أمر القبلة مما يَقْبَلُ النسخَ والتحويلَ ، كما تحوَّلت القبلة من الصخرة إلى الكعبة .

وأمرُ التوجُّهِ في الدعاء إلى الجهة العُلْوِيَّةِ مركوزٌ في الفِطَرِ ، والمُسْتَقْبِلُ للكعبة يعلم أنَّ الله تعالى ليس هُناك ، بخلافِ الداعي ، فإنَّه يتوجَّه إلى ربِّه وخالقه ، ويرجو الرَّحْمَةَ أن تَنْزِلَ مِن عنده .

وأما النقضُ بوضع الجبهة ، فما أَفْسَدَهُ مِن نقض ، فإن واضعَ الجبهة إنما قَصْدُه الخضوعُ لمن فوقه بالذلِّ له ، لا بأن يَمِيلَ إليه إذْ هو تحتَه! هذا لا يَخْطُرُ في قلب ساجد ، ولكن يُحكى عن بشر المريسي أنه سُمعَ وهو يقول في سجوده : سبحانَ ربي الأسفل!! تعالى الله عما يقول الظَّالِمُون والجاحِدون علوًا كبيرًا .

وإنَّ مَن أفضى به النَّفْيُ إلى هذه الحال لَحَرِيٌّ أن يَتَزَنْدَق ، إن لم يتداركه الله برحمته ، وبعيدٌ من مثله الصَّلاح ، قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[الأنعام:١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥] . فمن لم يطلب الاهتداءَ مِن مظانِّه ، يُعاقبْ بالحِرْمانِ ، نسأل الله العفو

والعافية .

وقوله : « وقد أَعْجَزَ عن الإحاطَةِ خلقه » أي : لا يُحيطُونَ به علمًا ولا رُؤْيَةً ، ولا غيرَ ذلك من وجوه الإحاطة ، بل هو سبحانه مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ ، ولا يُحيطُ به شيء .

*****

قوله : « وَنَقُولُ : إنَّ الله اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيمًا ، إيمَانًا وتَصْدِيقًا وتَسْلِيمًا » .

ش : قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء:١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] .

الخُلَّة : كَمالُ المحبةِ ، وأنكرت الجَهْمِيَّةُ حقيقةَ المحبةِ مِنَ الجانبين ، زعمًا منهم أن المحبةَ لا تكونُ إلا لمناسبةٍ بَيْنَ المحبِّ والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بَيْنَ القديمِ والمُحْدَثِ تُوجِبُ المحبةَ! وكذلك أنكروا حقيقةَ التكليم ، كما تَقَدَّم ، وكان أوَّلَ من ابتدعَ هذا في الإسلام هو الجَعْدُ بنُ دِرهمٍ ، في أوائلِ المائة الثانية فَضَحَّى به خَالِدُ بنُ عَبْد الله القَسْري أَميرُ العِرَاقِ والمشرق بواسط ، خطب الناسَ يَوْمَ الأضحى فَقَالَ : أَيُّها النَّاسُ ضَحُّوا ، تَقَبَّلَ الله ضَحَايَاكُمْ ، فإنِّي مُضَحٍّ بالجَعْدِ بنِ دِرْهَم ، إنَّه زَعَمَ أنَّ الله لم يَتَّخذْ إبْرَاهِيم خليلاً ، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا ، ثُمَّ نَزَلَ فَذَبحه (١) ، وَكَانَ ذَلِكَ بفتوى أَهْلِ زَمَانَهُ مِن عُلماء التابعين رضي الله عنهم ، فجزاه الله عن الدين وأهلِه خيرًا .

---

(١) هذه القصة ضعيفة الإسناد .

وأخذ هذا المَذْهَبَ عن الجعد الجَهْمُ بِنُ صَفْوَان ، فأظهره ، وناظر عليه ، وإليه أُضِيفَ قَوْلُ «الجهمية» . فقتله سلمُ بنُ أحوز أميرُ خراسان بها [*] ، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلةِ أتباع عمرو بن عُبيد ، وظهر قولُهم في أثناء خلافة المأمون ، حتى امتُحِنَ أئمة الإسلام ، ودَعَوْهُم إلى الموافقة لهم على ذلك .

وأَصْلُ هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة ، وهم يُنْكِرُونَ أن يكونَ إبراهيمُ خليلاً ، وموسى كليمًا ؛ لأن الخُلَّة هِيَ كَمَالُ المحبة المستغرِقة للمحب ، كما قيل :

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّي الخَلِيلُ خليلاً

ولكن محبته وخلته ، كما يَلِيقُ به تعالى ، كسائر صفاته . ويَشهدُ لما دلَّت عليه الآيةُ الكريمة ما ثبت في «الصحيح» عن أبي سعيد الخُدْري ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً ، لاَتَّخَذْتُ أَبا بكر خَلِيلاً وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الله» [1] ، يعني نفسه .

وفي رواية : « أَلاَ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً » .

وفي رواية : « إِنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » .

فبيَّن ﷺ أنه لا يَصْلُحُ له أن يتَّخِذ من المخلوقين خليلاً ، وأنه لو أمكن ذلك ، لكان أَحَقَّ النَّاسِ به أبو بكر الصديق ، مع أنه ﷺ قد وصف نَفْسَهُ بأَنَّهُ يُحِبُّ

(*) قصة الجعد بن درهم هذه وقفنا عليها بإسناد ضعيف . فقد أخرجها البخاري في « خلق أفعال العباد » (ص٨) ، والتاريخ الكبير (١/ ١٦٤) ، والبيهقي (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦) وفي الأسماء (١/ ٦١٧، ٦١٨) ، والدارمي في الرد على الجهمية (٣٨٨ص٢٠٩) ، من طريق عبد الرحمن بن محمد بن حبيب عن أبيه عن جده ، وعبد الرحمن وأبوه مجهولان .

(١) صحيح : وقد تقدم .

أشخاصًا ، كقوله لمعاذ : « والله إِنِّي لأُحِبُّك »[(١)] . وكذلك قولُه للأنصارِ[(٢)] ، وكان زَيْدُ بنُ حارثة حِبَّ رَسُولِ الله ﷺ ، وابنُه أُسَامَةُ حبَّه ، وأمثال ذلك ، وَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: « عَائِشَةُ » ، قَالَ : فَمِنَ الرِّجَالِ ؟ قَالَ : « أَبُوهَا »[(٣)] .

فَعُلِمَ أن الخُلَّةَ أخصُّ من مطلَقِ المحبة ، والمحبوبُ بها لِكمالها يكون محبوبًا لذاته ، لا لشيءٍ آخر ، إذ المَحْبُوبُ لغيره هو مؤخَّرٌ في الحُبِّ عَنِ ذلك الغيرِ ، ومن كمالها لا تَقْبَلُ الشَّركة [ولا] المزاحمةَ ، لتخلُّلِهَا المحب ، ففيها كَمالُ التوحيد وكَمالُ الحب ؛ وَلِذَلِكَ لما اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ سَأَلَ ربَّه أن يَهَبَ له ولدًا صالحًا ، فَوَهَبَ له إسماعيلَ ، فأخذ هذا الوَلَدُ شُعبةً مِنْ قلبه ، فغار الخَليلُ على قَلْبِ خليلِه أن يَكُونَ فيه مكانٌ لغيره ، فامتحنه بذبحه ، لِيظهر سِرِّ الخُلَّة في تقديمه محبةَ خليله على محبة ولده ، فلما استسلمَ لأمرِ ربِّه ، وعزم على فِعله ، وَظَهَرَ سلطانُ الخُلة في الإقدام على ذَبْحِ الولد إيثارًا لمحبة خليله على محبته ، نَسَخَ الله ذلك عنه ، وَفَدَاه بالذِّبْحِ العظيمِ ؛ لأنَّ المصلحةَ في الذبح كانت ناشئة مِن العزم ، وتوطينِ النفس على ما أُمرِ ، فلما حَصَلَتْ هذه المصلحة ، عاد الذبحُ نفسه مفسدةً ، فنُسِخَ في حَقِّه ، وصارت الذبائِحُ والقرابينُ مِن الهدايا والضحايا سنة في أتباعِه إلى يوم القيامة .

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (١٥٢٢) ، والنسائي (٣/ ٥٣) ، والحاكم (٣/ ٢٧٣، ٣٧٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٥) من حديث أنس ﷺ قال : رَأَى النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ مُقْبِلِينَ ـ قَالَ : حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ : مِنْ عُرُسٍ ـ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُمْثِلاً فَقَالَ : « **اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ** » . قَالَهَا ثَلاثَ مِرَارٍ.

وقوله: « مُمْثِلاً » يعني : قائمًا منصبًا .

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٤٣٥٨) ، ومسلم (حديث ٢٣٨٤) ، وغيرهما من حديث عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا .

وكما أنَّ منزلة الخُلَّةِ الثابتة لإبراهيمَ ـ صلوات الله عليه ـ قد شاركه فيها نبيُّنا ﷺ كما تَقَدَّمَ ، كذلك منزلةُ التكليمِ الثابتة لموسى ـ صلواتُ الله عليه ـ قد شاركه فيها نبيُّنا ﷺ ، كَمَا ثَبت ذَلِكَ فِي حَدْيث الإسراء .

وهنا سؤالٌ مشهور ؛ وهو : أن النَّبيَّ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ، فكيف طلب له مِن الصلاة مِثْلَ ما لإبراهيمَ ، مع أن المُشَبَّه به أصْلُه أن يَكُونَ فَوْقَ المشبَّه ؟ وكيف الجمعُ بَيْنَ هذين الأمرين المتنافيين ؟

وقد أجاب عنه العُلَماءُ بأجوبةٍ عديدةٍ ، يَضيقُ هذا المَكَانُ عن بسطها .

وأحسنُها : أن آلَ إبراهيم فيهِم الأَنْبِيَاءُ الذين ليس في آل محمد مِثْلُهُمْ ، فإذا طَلَبَ للنَّبيِّ ﷺ ولآله من الصلاة مِثْلِ ما لإِبْرَاهِيمَ وآله وفيهم الأَنْبِياءُ ، حَصَلَ لآلِ محمد ما يليقُ بهم ، فإنَّهم لا يبلغون مَرَاتِبَ الأنبياء ، وتبقى الزِّيَادَةُ التي للأنبياء ، وفيهم إبراهيمُ لمحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ فَيَحْصُلُ له مِن المزيَّةِ ما لم يَحْصُلْ لغيره .

وأحسنُ مِن هذا : أن النَّبيَّ محمدًا ﷺ من آلِ إِبْرَاهِيم ، بْلَ هُو أَفْضَلُ آلِ إِبْرَاهِيم ، فَيكُونُ قولُنا :« كما صَلَّيْتَ على آل إبراهيم » متناولاً للصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ؛ بل هو متناول إِبْرَاهِيمَ أَيْضًا ،كَما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٣٣] ، فإبراهيمُ وعمرانُ دَخِلَا فِي آلِ إِبْرَاهِيْمَ وآلِ عمران ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر:٣٤] . فَإِنَّ لُوطًا داخل فِي آلِ لوط ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة:٤٩] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦] ، فَإِنَّ فِرْعَونَ داخل فِي آلِ فرعون ، وَلِهَذَا والله أَعْلَمُ أكثرُ روايات حَدِيث الصَّلاَة عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إنما فيها :

كما صَلَّيْتَ على آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْهَا : كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَرِدْ : كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِلا فِي قليلٍ مِنْ الروايات ، وَمَا ذَلِكَ والله أَعْلَمُ إِلاَّ لأَنَّ فِي قَوْلِهِ : « **كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ** » ، يَدْخُلُ آلُه تبعًا ، وَفِي قَولِهِ : « **كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ** » ، هو داخِلٌ فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ .

وَكَذلِكَ لما جَاءَ أَبُو أَوْفَى ﷺ بِصَدَقَتِه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، دَعا له النَّبيُّ ﷺ وقَالَ : « **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى** »[1] فعلى رواية مَنْ روى : « **كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ** » لاَ يَدْخُلُ فِيهم لإفراده بالذكر .

وَلِمَا كَان بيتُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَشْرَفَ بيوتِ العالَمِ عَلَى الإطلاق ، خصَّهم الله بخصائص :

مِنْهَا : أَنَّهُ جَعَلَ فِيهِ النُّبُوَّةَ والكِتَاب ، فَلَمْ يَأْت بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ نبيٌّ إلا مِنْ أَهْلِ بَيتِهِ .

وَمِنْهَا : أَنَّه سُبحَانه جعلهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بأمره إلى يَوْمِ القيامة ، فكُلُّ من دخل الجنة مِنْ أولياءِ الله بعدَهم ، فإنما دَخَلَ مِنْ طَرِيقهم وبدعوتهم .

وَمِنْهَا : أَنَّه سبحانه اتَّخَذَ منهم الخَلِيلَيْنِ ، كَمَا تَقدَّمَ ذِكْرُهُ .

وَمِنْهَا : أَنَّه جَعَلَ صَاحِبَ هَذَا البيت إمامًا للناس ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة:١٢٤] .

وَمِنْهَا : أَنَّه أجرى على يَدَيْهِ بناء بيته الذي جَعَلَه قيامًا للناس ، وَمَثابةً للناسِ وأمنًا ، وَجَعَلَهُ قِبلةً لهم وحجًا ، فكَانَ ظُهور هذا البيت من أهل هذا البيت في الأكرمين .

وَمِنْهَا : أَنَّه أَمَر عِبادَه أن يُصَلُّوا عَلَى أَهْلِ هذا البيتِ . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن الخصائص .

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٤١٦٦) ،ومسلم (حديث ١٠٧٨) ، وغيرهما من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه مرفوعًا .

قوله : « ونُؤْمنُ بالمَلائِكَةَ والنَّبيينَ ، والكُتُبِ المُنْزَلَةِ عَلَى المُرْسَلِينَ ، وَنَشْهَدُ أنهم كَانُوا عَلَى الحَقِّ المُبِينِ » .

ش : هذه الأمورُ من أركان الإيمان ، قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥] الآيات ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾

[البقرة:١٧٧]

فَجَعَلَ الله سبحانه وتعالى الإيمانَ هو الإيمانَ بِهَذِه الجُمْلَةِ ، وسَمَّى مَنْ آمَنَ بهذه الجملةِ مؤمنين ، كَمَا جَعَلَ الكافرين مَنْ كَفَرَ بِهَذِه الجملة ، بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

[النساء:١٣٦]

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته ، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان ، فقال : « **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** »(١) .

فهذه الأصولُ التي اتفقت عليها الأنبياءُ والرُّسُلُ ـ صلواتُ الله عليهم وسلامُه ـ ولم يُؤْمِن بها حَقيقَةَ الإيمانِ إلاَّ أَتْبَاعُ الرسل .

وأما أعداؤُهم وَمَنْ سلك سَبِيلَهُمْ مِن الفلاسفة وأَهْلِ البِدَعِ : فهم متفاوتون في جحدها وإنكارِهَا ، وأَعْظَمُ النَّاسِ لها إنكارًا الفلاسفَةُ المسمَّوْنَ عند مَنْ يُعَظِّمُهُمْ بالحُكَمَاء ، فإن مَنْ عَلِمَ حَقِيقَةَ قولِهم ، عَلِمَ أنهم لم يُؤْمِنُوا بالله ولا رُسُلِهِ

(١) صحيح : وقد تقدم .

ولا كُتُبِهِ وَلاَ مَلاَئِكَتِهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَإِنَّ مَذهبهم أن الله سبحانه وجودٌ مُجرَّدٌ لاَ مَاهِيَةَ لَهُ وَلاَ حقيقة ، فلا يَعْلَمُ الجُزئيات بأعيانها ، وكُلُّ موجودٍ في الخارجِ ، فهو جزئي ، وَلاَ يَفْعَلُ عندهم بقُدرته ومشيئته ، وإنما العالَمُ عندهم لازِمٌ له أزلاً وأبدًا ، وإن سَمَّوْه مفعولاً له ، فمُصَانَعَةً ومصالَحَةً للمسلمين فِي اللفظ ، وليس عندهم بمفعولٍ ، ولا مخلوق ولا مقدورٍ عليه ، ويَنفونَ عنه سَمْعَهُ وَبَصَرَه وسائرِ صفاتِه! فهذا إيمانُهم بالله .

وَأَمَا كُتُبُه عندهم ، فإنَّهم لا يَصِفُونَهُ بالكلامِ ، فلا تكلَّمَ ولا يتكلَّم ، ولا قال ولا يقولُ ، والقرآنُ عندهم فَيْضٌ فاضَ مِن العقل الفعَّالِ على قلب بشرٍ زاكي النفسِ طاهر ، متميِّزٍ عن النوع الإِنْسانِي بثلاثِ خصائص :

قوةِ الإدراكِ وسُرعته ، لينالَ العلمَ أعظمَ مما ينالُه غيره !

وقوةِ النَّفْسِ ، ليؤثِّر بها في هيولى العالم بقلب صورة إلى صورة .

وقوةِ التخيِّل ، ليخيل بِهِا القوى العقليةِ فِي أشكالٍ محسوسةٍ ، وهي الملائكةُ عندهم! وليس فِي الخارج ذاتٌ منفصلة تصعد وتَنْزِلَ ، وَتَذْهَبُ وتَجِيءُ ، وترى وتُخاطِبُ الرسولَ ، وإنما ذلك عندهم أُمُورٌ ذهنية لا وُجُودَ لها في الأعيان .

وَأَمَّا الْيَوْمُ الآخِرُ ، فَهُمْ أَشدُّ الناس تكذيبًا بِهِ وإنكارًا له ، وعندهم أن هذا العالَمَ لا يَخْرَبُ ، ولا تَنْشَقُّ السَّماواتُ ولا تَنْفطُر ، ولا تَنْكَدِرُ النُّجُومُ ، ولا تُكوَّرُ الشمس والقَمَرُ ، ولا يَقُومُ الناسُ مِن قبورهم ، ويُبْعثُونَ إِلَى جَنَّةٍ ونار! كُلُّ هَذَا عِنْدَهُم أمثالٌ مضروبةٌ لتفهيمِ العوام ، لا حقيقةَ لَهَا فِي الخَارِج ، كَمَا يَفْهَمُ مِنْهَا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ . فَهَذا إيمان هَذِه الطائفةُ الذليلة الحقيرةُ بالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. وَهَذِه هِيَ أُصولُ الدين الخمسة .

وقد أبدلتها المعتزِلَةُ بأُصُولِهم الخَمْسَةِ التي هَدَمُوا بها كَثيرًا مِنَ الدين : فإنهم

بَنَوْا أَصْلَ دينهم على الجِسْمِ والعَرَضِ ، الذي هُوَ المَوْصُوفُ والصفة عِنْدَهُمْ ، واحتجُّوا بالصفات التي هِيَ الأَعْرَاضُ ، على حُدُوث المَوْصُوفِ الذي هو الجِسْمُ ، وتكلَّموا فِي التوحيدِ عَلَى هَذَا الأصلِ ، فَنَفَوْا عَنَ الله كُلَّ صفَةٍ ، تشبيهًا بالصِّفاتِ الموجودَةِ فِي الموصوفات التي هِيَ الأَجْسَامُ ، ثُمَّ تكلَّموا بَعْدَ ذَلِكَ فِي أفعالِه التي هِيَ القَدَر ، وسَمَّوْا ذَلِكَ « العَدْلَ » ، ثم تكلموا في النبوة والشرائع ، والأمرِ والنهي ، والوعدِ والوعيدِ ، وَهِيَ مَسَائِلُ الأسماءِ والأحكام ، التي هِيَ المَنزِلةُ بَيْنَ المنزلتين ، ومسألة إنفاذِ الوعيد ، ثُمَّ تكلَّموا فِي إلزامِ الغير بذلك ، الذي هُوَ الأَمْرُ بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وضَمَّنُوه جَوَازَ الخروجِ على الأئمة بالقتال . فهذه أصولُهُم الخمسة ، التي وضعوها بإزاء أصولِ الدين الخمسة التي بُعِثَ بها الرسولُ .

والرافضة المتأخِّرُونَ ، جعلوا الأصولَ أربعة : التوحيدَ ، والعدلَ ، والنبوة ، والإمامةَ ، وأصولُ أَهْلِ السَّنة تابعةٌ لما جَاءَ بِهِ الرسُولُ .

وأصلُ الدين : الإيمانُ بما جاء به الرسولُ ، كما تقدَّم بيانُ ذلك ، ولهذا كانَتِ الآيتانِ مِن آخِرِ سورة البقرة لما تضمنتا هذا الأصل لهما شأنٌ عظيم ليس لِغيرهما ، ففي «الصحيحين» عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عقبة بن عمرو ، عن النَّبِيُّ ﷺ ، قَالَ: « مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ »(١) .

وَفِي «صحيح مسلم» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ : « بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ ،فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ ، فَسَلَّمَ ، وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا ، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ،

(١) صحيح : أخرجه البخاري مع الفتح (٩/ ٥٥) ، ومسلم (مع النووي (٦/ ٩١) .

وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُوتِيتَهُ » [(١)].

وَقَالَ أَبُو طالب المكي : أَرْكَانُ الإِيمان سَبْعَةٌ ، يعني هذه الخمسة ، والإيمان بالقدر ، والإيمان بالجنة والنار . وهذا حق ، والأدلةُ عليه ثابتة محكمةٌ قطعية . وَقَدْ تَقْدَمَ الإشارةُ إلى دليلِ التوحيد والرسالة .

وأما الملائكة ، فهم الموكَّلُون بالسماوات والأرض ، فكُلُّ حركة في العالم ، فهي ناشئة عن الملائكة [(٢)]، كما قال تعالى : ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:٥] ، ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات:٤] . وَهُم الملائكةُ عَنْدَ أَهْلِ الإِيمانِ وأتباعِ الرسل ، وأما المكذِّبونَ بالرسل المنكرِوُن للصانع فَيقُولُونَ : هِيَ النجومُ.

وَقَدْ دَلَ الكتابُ والسنة على أصناف الملائكة ، وَأَنَّهَا مُوَكَّلَةٌ بِأصنافِ المخلوقات ، وأنه سبحانه وَكَّلَ بالجبالِ ملائكة ، ووكَّلَ بالسحاب والمطرِ ملائكةً ، ووكَّلَ بالرَّحمِ ملائكة تُدَبِّرُ أمر النطفة حَتى يَتِمَّ خَلقُها ، ثُمَّ وَكَّل بالعبدِ ملائكةً لِحفظ ما يَعْمَلُهُ وإحصائه وكتابته ، ووكَّلَ بالموت ملائكةً ، ووكَّلَ بالسُّؤال فِي القبرِ ملائكةً ، ووكَّلَ بالأفلاكِ ملائكةُ يحركونها ، ووكَّلَ بالشمس والقمر ملائكة ، ووكَّلَ بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعِمارتها ملائكة ، ووكَّلَ بالجنة وعِمارتها وغِراسها وعَمَلِ آلاتِها ملائكة .

فَالمَلائِكَةُ أعْظَمُ جِنُود الله ، ومِنْهُم : المُرْسَلاتِ عُرْفًا [(٣)]، والنَّاشِرَاتُ نَشْرًا ، وَالفَارِقَاتِ فَرْقًا ، وَالمُلْقِيَاتُ ذِكرًا .

ومِنْهُم : النَّازِعَاتِ غَرْقًا ، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ، والسَّابِحَاتِ سَبْحًا ،

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم مع النووي (٦/ ٩١) .

(٢) بأمر ربها .

(٣) في تفسيرها أنها الرياح .

فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا .

ومِنْهُم : الصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا . ومعنى جمع التأنيث فِي ذَلِكَ كُلِّه : الفِرَقُ والطوائف والجماعات ، التي مفردها : « فرقة » و« طائفة » و« جماعة ».

ومِنْهُم : مَلائِكَةُ الرحمة ، وَمَلائِكَةُ العذاب ، وملائكةٌ قَدْ وُكِّلُوا بِحَمْلِ العرش ، وملائكة قد وكِّلُوا بِعمارةِ السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس ، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يُحصيها إلا الله تعالى .

ولفظ : « الملَك » يُشْعِرُ بأنه رسول مُنَفِّذٌ لأمر مرسِله ، فليس لهم مِن الأمر شيء ، بل الأمرُ كُلُّه لله الواحد القهار ، وهم يُنَفِّذُونَ أمرَه : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء:٢٧، ٢٨] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠]

فَهُمْ عِبَاد مُكْرَمُونَ ، مِنْهُم الصَّافُّون ، وَمِنْهُم المُسبِّحون ، لَيْسَ مِنْهُم إِلَا له مقام معلوم ، ولا يتخطَّاه ، وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ قَدْ أُمِر بِهِ . لا يُقَصِّر عَنْهُ وَلاَ يَتَعَدَّاه ، وأعلاهُم الَّذِينَ عِنْدَهُ : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء:١٩، ٢٠] .

ورؤساؤُهم **الأمْلاكُ الثلاثة** : جِبرِيل ومِيكائِيلُ وإسرافيلُ ، الموكَّلون بالحياة ، فجبريل موكَّل بالوحي الذي به حياةُ القلوب والأرواح ، وميكائيل موكَّل بالقَطْرِ الذي به حياةُ الأرضِ والنباتِ والحيوانِ ، وإسرافيلُ مُوَكَّلٌ بالنفخ فِي الصُّورِ الذي به حياةُ الخلق بعد مماتهم .

فَهُمْ رُسُلُ الله فِي خِلقَهِ وأمره ، وسُفراؤه بينَه وَبَيْنَ عِبَادِه ، ينزلُون بالأمرِ مِنْ عنده فِي أقطارِ العالم ، ويَصْعدُون إليه بالأمر ، قَدْ « أطَّتِ السَّماوَاتُ بهم ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعٍ إلا وَمَلَكٌ قائمٍ أو راكعٍ أو ساجد لله » ، ويدخُلُ البيتَ المعمورَ منهم كُلَّ يوم سبعون ألفًا لا يعودُونَ إليه آخرَ ما عليهم .

والقرآن مملوءٌ بذكرِ الملائكة وأصنافِهم ومراتبهم ، فتارةً يَقْرُنُ الله تعالى اسمه باسمهم ، وصلاتَه بصلاتهم ، ويُضيفهم إليه في مواضع التشريف .

وتارةً يذكر حَفَّهم بالعرش ، وحملهم له ، وبراءتهم من الذنوب .

وتارةً يصفهم بالإكرام والكرم ، والتقريب والعُلُوِّ والطهارةِ والقوةِ والإخلاص ، قال تعالى : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب:٤٣]

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر:٧] .

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر:٧٥]

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا

يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت:٣٨] .

﴿ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴾ [الأنفطار:١١] .

﴿ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٦] .

﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين:٢١] .

﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الصافات:٨] .

وكذلك الأحاديثُ طافحةٌ بذكرهم ، فلهذا كان الإيمانُ بالملائكة أَحَدَ الأصول الخمسة التي هي أركانُ الإيمان .

وأما الأنبياءُ والمرسلون ، فعلينا الإيمانُ بِمَنْ سَمَّى الله تَعَالَى فِي كِتَابه مِنْ رسله ، والإيمانُ بأنَّ الله تعالى أَرْسَلَ رُسُلاً سواهم وأنبياء ، لا يَعْلَمُ أَسْمَاءَهُم وعَدَدَهم إلا الله تَعَالَى الَّذِي أرسلهم .

فعلينا الإيمانُ بِهِمْ جملةً ؛ لأنَّه لم يأتِ فِي عددهم نصٌّ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٤] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] .

وعلينا الإيمانُ بأنهم بلَّغوا جَمِيعَ مَا أرسلوا بِهِ عَلَى مَا أَمَرَهُمُ الله بِهِ ، وَأَنَّهُمْ بَيَّنُوه بيانًا لا يَسَعُ أحدًا ممن أُرْسِلُوا إِلَيْهِ جهلُه ، ولا يَحِلُّ له خلافه .

قَـالَ تَعَـالَى : ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحـل:٣٥] ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٨٢] .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤] .

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [التغابن:١٢] .

وأما أولو العزم من الرُّسُلِ ، فَقَدْ قِيلَ فيهم أقوال أحسنُها : ما نقله البَغَويُّ وغيرُه عَنَ ابْنِ عَباسٍ وقتادة : أنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ قال : وَهُمُ المذكورون فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾

[الشورى:١٣]

وَأَما الإيمانُ بمحمدٍ ﷺ ، فَتَصْدِيقُه واتِّبَاعُ ما جاء به مِنَ الشرائعِ إجمالاً وتفصيلاً .

وأما الإيمانُ بالكُتُبِ المنزلةِ عَلَى المرسلين ، فَنُؤْمِنُ بِمَا سَمَّى الله تَعَالَى مِنْهَا فِي كِتَابِه ، مِنْ التوراة والإنجيلِ والزبور ، وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لله تَعَالَى سوى ذَلِكَ كُتُبًا أنزلها عَلَى أنبيائه ، لا يَعْرِفُ أسماءَهَا وَعَدَدَها إلا الله تَعَالَى .

وأما الإيمانُ بالقرآن ، فالإقرارُ به ، واتباعُ ما فيه ، وذلك أمرٌ زائد على الإيمان بغيره من الكتب . فعلينا الإيمانُ بأنَّ الكتبَ المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله ، وأنها حقٌّ وهدى ونورٌ وبيانٌ وشفاء .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة:١٣٦] .

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾

[آل عمران:١، ٣]

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيات الدالة عَلَى أَنَّ الله تكلَمَ بِهَا ، وَأَنَّهَا نَزْلِت مِنَ عِنْدِهِ .

وَفِي ذلك إثباتُ صفة الكلام والعلو ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [البقرة:٢١٣].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢] .

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ [سبأ:٦] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧] .

﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ ﴾ [فصلت:٤٤] .

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾ [التغابن:٨] .

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن .

*****

قَوْلِهِ : «وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتنا مُسْلمين مُؤْمِنِينَ ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَرِفِينَ ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ » .

ش : قَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « مَنْ صَلَى صَلاَتَنَا ، واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا ، فَهُوَ الْمُسْلِمُ ، لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا »(١) . وَيُشِيرُ الشَّيْخُ رحمه الله بهذا الكلامُ إلى أن

(١) أَخرجَ البخاري (حديث ٣٩١) من حديث أَنَس رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ ﷺ : «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا ، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَلاَ تُخْفِرُوا الله فِي ذِمَّتِهِ » . وَفِي لَفظٍ آخر عِنْدَ البخاري (٣٩٣) : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا ، وَصَلَّى صَلاَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ » .

الإسلامَ والإيمانَ وَاحِدٌ ، وَأَنَّ المُسْلِمَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ الإسلامِ بِارتِكَابِ الذنبِ مَا لَمْ يَستحِلَّه .

والمُرَادُ بِقَوْلِهِ : « أَهْلِ قِبْلَتِنا » ، من يدَّعي الإسْلامَ ، وَيَسْتَقبِلُ الكعبةَ ، وإن كَانَ مِنَ أَهْلِ الأهواء ، أَوْ مِن أَهْلِ المعاصي ، مَا لَمْ يُكذِّبْ بشيء مِمّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ . وسيأتي الكلامُ على هذين المعنيين عِنْدَ قَوْل الشَّيْخِ : « ولا نكفِّرُ أحدًا من أَهْلِ القبلة بذنبٍ ما لم يستحِلُّه » . وَعَنْدَ قَوْلِهِ : « والإسلامُ والإيمانُ واحد ، وأهلُه فِي أصلِه سواء ».

*****

قَوْلِهِ : « وَلاَ نَخُوضُ فِي الله ، وَلاَ نُماري فِي دِينِ الله » .

ش : يُشير الشَّيْخِ ـ رحمه الله تَعَالَى ـ إِلَى الكفِّ عَنْ كَلامِ المتكلمين الباطل ، وذمِّ علمهم ، فإنَّهم يتكلَّمون فِي الإله بغَيْرِ علمٍ وغيرِ سُلْطَانٍ أتاهم : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣].

وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله تَعَالَى ـ أَنَّهُ قَالَ : لاَ يَنْبَغِي لأَحدٍ أَنَّ يَنْطِقَ فِي ذَاتِ الله بشيءٍ ، بَلْ يَصِفُه بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَه .

وَقَوْلِهِ : « وَلاَ نماري فِي دِينِ الله » معناه : لاَ نُخَاصِمُ أَهْلَ الحق بإلقاء شبهات أَهْلِ الأهواءِ عليهم ، التماسًا لامترائهم ومَيْلِهم ؛ لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل ، وتلبيس الحق ، وإفسادِ دين الإسْلام .

قَوْلِهِ : « وَلاَ نُجادلُ فِي القُرآنِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّه كَلاَمُ رَبِّ العَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ ، فَعَلَّمَه سَيِّدَ المُرْسَلينَ مُحَمَّدًا ـ صَلَى الله عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ ـ وَهُوَ كَلاَمُ الله تَعَالَى ، لاَ يُسَاوِيه شيءٌ مِنْ كَلامِ المَخْلُوقِينَ ، وَلاَ نَقُولُ بِخَلْقِهِ ، وَلاَ

نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمين » .

ش : فَقَوْلِهِ : « وَلاَ نُجَادِلُ فِي الْقُرآنِ » ، يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أراد : أَنَّا لاَ نَقُولُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الزيغ واختلفوا ، وجَادَلُوا بالباطل لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ ، بَلْ نَقُولُ : « إِنَّهُ كَلاَمُ رَبِّ العَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ » إِلَى آخر كَلاَمَهُ .

ويحتمل أنه أراد : أنا لا نُجادل فِي القراءات الثابتة ، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح . وكلٌّ من المعنيين حقّ . يشهد بصحة المعنى الثاني ، مَا رُوي عَنْ عَبْدَ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ ، أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَأُ خِلاَفَهَا ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فانطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولَ الله ﷺ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَعَرَفْتُ فِي وَجهِهِ الكَرَاهَةَ ، وَقَالَ : « كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ ، وَلاَ تَخْتَلِفُوا ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا » رواه مسلم (١) .

نَهى ﷺ عن الاختلافِ الَّذي فِيهِ جَحْدُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ المختلفين مَا مَعَ صاحبه مِن الحَقّ ؛ لأَنَّ كلا القارئين كَانَ محسنًا فِيمَا قرأه ، وَعلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ كَانَ قبلنا اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا ، ولهذا قال حذيفة ﷺ لعثمان ﷺ : أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ لا تَخْتَلفْ كَمَا اخْتَلَفَتِ الأُمَمُ قَبْلَهُم . فَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى حَرفٍ وَاحِدٍ اجتماعًا سائغًا ، وَهُم معصومون أَنَّ يَجْتَمَعُوا عَلَى ضلال ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَركٌ لِوَاجب ، وَلاَ فِعْلٌ لِمحظورٌ ، إِذْ كَانَتَ قِرَاءَةُ القرآن عَلَى سبعةِ أحرف جائزةً لا وَاجِبَةً ، رُخْصَةً مِنَ الله تَعَالَى ، وَقَدْ جَعَلَ الاختِيَارَ إِلَيهِم فِي أَيْ حَرْفٍ اختاروه .

كَمَا أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ لَمْ يَكُنْ وَاجبًا عَلَيهم مَنْصُوصًا ، وَلِهَذَا كَانَ تَرْتِيبُ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٢٤١٠) ، أو في عدة مواطن من صحيحه ولفظه من حديث عَبْدَ الله قَالَ : سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلاَفَهَا ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَأَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ الله ﷺ ، فَقَالَ : « كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ » . قَالَ شُعْبَةُ : أَظُنُّهُ قَالَ : « لاَ تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا » .

مصحف عبد الله على غير ترتيبِ المصحف العثماني ، وكذلك مصحفُ غيره .

وأما تَرْتِيبُ آيات السور ، فهو ترتيبٌ منصوص عليه ، فَلم يكن لهم أن يُقَدِّمُوا آيةً على آية ، بخلاف السُّوَرِ ، فلما رأى الصحابةُ أن الأمة تَفتَرِقُ وتختلِفُ ، وتتقاتل إنْ لم تَجتَمِع عَلَى حَرفٍ وَاحِدٍ ، جَمعهم الصحابةُ عليه . هذا قَوْلُ جمهور السلف مِن العلماء والقراء . قاله ابنُ جرير وغيرُه .

وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ : إِنَّ التَّرَخُّصَ فِي الأحرفِ السبعة كَانَ فِي أَوَّلِ الإِسلام ، لما في المحافظة على حرفٍ واحدٍ من المشقة عليهم أولًا ، فلما تذلَّلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بالقراءة ، وكان اتفاقُهم عَلَى حرفٍ وَاحِدٍ يسيرًا عليهم ، وهو أَوْفَقُ لهم ؛ أجمعوا على الحرفِ الَّذِي كَانَ فِي العَرْضَةِ الأخيرة .

وَذَهبَ طَوَائِفَ مِنَ الفقهاء وَأَهْلِ الكَلاَمِ إِلَى أَنَّ المصحف مُشْتَمِلٌ عَلَى الأحرف السبعة ، لأَنَّه لاَ يَجُوزُ أَنَّ يُمْهَلَ شيءٌ مِنَ الأَحْرُفِ السبعة ، وَقَدْ اتفقوا عَلَى نَقْلِ المصحف العثماني . وَتَركَ مَا سواه . وَقَدْ تَقَدَّمتَ الإشَارَةُ إِلَى الجواب ، وَهُوَ : أَن ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا لاَ وَاجِبًا ، أَوْ أَنَّهُ صَارَ مَنسُوخًا .

وَأَمَا مَنْ قَالَ عَنْ ابْنَ مَسْعُودٍ : إِنَّهُ كَانَ يُجُوِّزُ القراءةَ بالمعنى ! فَقَدَ كذَب عليه ، وَإِنَّمَا قَالَ : قَدْ نَظرتُ إِلَى القُرَّاء فَرأيتُ قراءتَهم متقاربةً ، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحدكُم : هَلُمَّ ، وَأقبِلْ ، وَتعالَ ، فَاقرءوا كَمَا عُلِّمْتُمْ ، أَوْ كَمَا قَالَ .

والله تَعَالَى قَدْ أَمرنَا أَنَّ لاَ نُجَادِلَ أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَ الَّذِين ظَلَمُوا مِنهُم ، فكَيْف بمناظرة أَهْلِ القِبْلَةِ ؟ فَإِنَّ أَهْلَ القبلة من حيث الجُمْلَة خيرٌ مِنَ أَهْلِ الكتاب ، فَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُناظَرَ مَنْ لم يظلم منهم إلا بالتي هِيَ أَحْسَنُ ، وَلَيْسَ إِذَا أخطأ يُقَالَ: إِنَّهُ كَافِرٌ ، قَبْلَ أَنْ تُقَامَ عليه الحُجَّةُ التي حَكَمَ الرسُولُ بكفر من تركها . والله تَعَالَى قَدْ عفَا لِهَذِه الأمة عن الخطأ والنسيان . وَلِهَذَا ذَمَّ

السَّلَفُ أَهْلَ الأهْواء ، وذكروا أن آخِرَ أمرهم السيف .وسيأتي لهذا المعنى زيادةُ بيان ، إن شَاءَ الله تَعَالَى ، عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخ : « ونرى الجماعة حقًا وصوابًا ، والفرقة زيغًا وعذابًا ».

وَقَوْلِهِ : « ونشهد أَنَّهُ كَلاَمُ رَبِّ العَالَمِينَ » تَقَدمَ الكَلامَ عَلَى هَذَا المَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ : « وَإِنَّ القرآن كَلاَمُ الله مِنه بدا بلا كيفية قولاً ».

وقوله : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ » هُوَ جبريل عليه السلام ، سُمِّيَ رُوحًا ، لأَنَّهُ حامِلُ الوحي الَّذِي بِهِ حَيَاةُ القلُوب إِلَى الرسل من البشر ـ صلواتُ الله عَلَيهم أجمعين ـ وَهُوَ أمينٌ حقٌّ أمينٌ ـ صَلواتُ الله عليه ـ قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٣ـ ١٩٥] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[التكوير:١٩ــ٢١] . وَهَذَا وَصف جبريل ، بِخلاف قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾[الحاقة:٤٠، ٤١] ، فَإِنَّ الرَسُول هُنا هُوَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَوْلِهِ : « فَعَلَّمَه سَيِّدَ المُرْسَلينَ » تَصْرِيحٌ بِتعليم جبريلَ إياه ، إبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أَنَّهُ تَصوَّرَهُ فِي نَفْسِهِ إِلهامًا .

وَقَوْلِهِ : « وَلاَ نَقُولُ بِخَلْقِهِ ، وَلاَ نُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلمين » تَنْبيهٌ عَلَى أن مَنْ قَالَ بِخلق القرآن فَقَدْ خَالَفَ جَمَاعَةَ المُسْلِمينَ ، فَإِنَّ سَلَفَ الأُمة كُلَّهم متفقون عَلَى أَنَّهُ كَلاَمُ الله بالحقيقةِ غَيْرُ مخلوق ، بل قَوْلُهُ : « وَلاَ نُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلِمين » مجرى على إطلاقه : أنا لا نُخَالِفُ جَمَاعةَ المُسْلِمين فِي جَمِيعَ مَا اتفقوا عليه ، فَإِنَّ خِلافَهُم زَيْغٌ وضلال وَبِدْعَةٌ .

قوله : « وَلاَ نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ ، مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ ، وَلاَ نَقُولُ : لاَ يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ » .

ش : أراد بأهلِ القبلة الذين تَقَدَّمَ ذكرهُم فِي قَوْلِهِ : « ونسمِّي أَهْلَ قبلتنا مسلمين مؤمنين » يشيرُ الشَّيْخ رحمه الله إِلَى الردِّ عَلَى الخوارجِ القائلين بالتكفير بكُلِّ ذنب .

واعلم رَحِمَكَ الله وإيانا أن بَابَ التكفيرِ وَعَدَمَ التكفير ، بابٌ عَظُمَتِ الفِتْنَةُ والمحنةُ فِيْهِ ، وَكَثُرَ فيه الافتراقُ ، وتشتتت فيه الأهواءُ والآراء ، وتعارضت فيه دلائلُهم .

فالناسُ فيه فِي جنس تكفيرِ أهل المقالات والعقائد الفاسدة ، المخالفة للحق الذي بعث الله بِهِ رَسُولَه فِي نفسِ الأمر ، أو المخالفة لِذَلِكَ فِي اعتقادهم ، عَلَى طرفين ووسط ، من جنس الاختلافِ فِي تكفير أَهْلِ الكبائر العملية .

فطائفة تقولُ : لاَ نُكَفِّر مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ أَحدًا ، فتنفي التكفيرَ نفيًا عامًا ، مَعَ العلمِ بأنَّ فِي أَهْلِ القبلةِ المنافقين ، الَّذِين فيهم مَنْ هُوَ أَكْفَرُ من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع ، وفيهم من قَدْ يُظْهِرُ بَعْضَ ذَلِكَ حيث يُمْكِنُهُم ، وهم يتظاهرون بالشهادتين .

وَأَيْضًا : فَلاَ خلافَ بَيْنَ المُسْلِمين أَنَّ الرَّجُلَ لو أظهر إنكارَ الواجباتِ الظاهرة المتواترةِ ، والمُحَرَّمَات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك ؛ فإنه يُسْتَتَابُ ، فإنْ تَابَ ، وإلا قُتِلَ كافرًا مرتدًا . والنفاقُ والرِّدة مظنَّتُهما البِدَعُ والفُجُورُ ، كَما ذكره الخلاّل فِي كتاب «السنة» ، بسنده إلى محمد بن سيرين ، أنه قال : إنَّ أسرعَ النَّاسِ ردَّة أَهْلُ الأهواء . وَكَانَ يرى هَذِه الآيَةِ نزلت فيهم : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[الأنعام:٦٨] .

ولهذا امتنع كَثيرٌ من الأئمة عن إطلاقِ القولِ : بأنَّا لا نُكَفِّرُ أحدًا بذنب ، بل يُقَالَ : لاَ نُكَفِّرُهُمْ بكُلِّ ذنب . كَمَا تفعلُه الخوارج .

وَفَرْقٌ بَيْنَ النفي العامْ ونفي العموم ، والوَاجِبُ إنما هو نفي العموم ، مناقَضَةً لقولِ الخوارج الذين يُكَفِّرُون بكل ذنب .

وَلِهَذَا والله أَعْلَمُ قيَّدهُ الشَّيْخ رحمه الله بِقَوْلِهِ : « مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ » وَفِي قَوْلِهِ : « مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ » إشَارَةٌ إِلَى أَن مُرَادَه من هَذَا النفي العام لِكل ذنب ، الذُّنُوبُ العَمَلِيةُ لا العِلمِية . وَفِيهِ إشكالٌ ، فِإنَّ الشارعَ لَمْ يكتف مِن المُكَلَّفِ فِي العمليات بمجرد العمل دُونَ العِلم ، وَلاَ فِي العلميات بمجرد العلم دُونَ العمل ، وَلَيْسَ العَمَلُ مقصُورًا عَلَى عَمِلِ الجوارح ، بل أَعْمَالُ القلوب أَصْلٌ لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبعٌ . إلا أن يُضمَّنَ قَوْلُه : « يَسْتَحِلَّهُ » بمعنى : يعتقده أو نحو ذلك .

وقوله : « وَلاَ نَقُول :لاَ يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ » ... إِلَى آخر كَلاَمَهُ ، ردّ على المرجئة ، فَإِنَّهُم يَقُولُونَ : لاَ يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنبٌ، كَمَا لاَ يَنْفَعُ مَعَ الكفر طاعةٌ .

فهؤلاء فِي طَرَفٍ ، والخَوَارجُ فِي طَرَفٍ ، فَإِنَّهم يَقُولُون نكفر المُسْلمَ بِكُلِّ ذنب ، أَو بِكُلِّ ذَنبٍ كبير ، وَكَذلِكَ المعتزلةُ الَّذِينَ يَقُولُون يَحْبَطُ إِيمانُه كُلُّه بالكبيرة ، فَلاَ يَبْقَى مَعْهُ شيء مِنَ الإِيمان . لكن الخوارجَ يقولُون : يَخْرُجُ من الإيمان ، وَيدْخلُ فِي الكفر! والمعتزلة يقولون : يخرج من الإيمان ، ولا يدخلُ في الكفر ! وهذه المنزلةُ بَيْنَ المنزلتين !! وَبِقْولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار!

وطَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الكلام . والفقه ، والحديث لا يقولون ذلك في الأعمال ، لكن في الاعتقادات البِدْعية ، وإن كان صاحُبها متأوِّلًا ، فيَقُولُونَ : يَكْفُر كُلُّ مَنْ قَالَ هَذَا القولَ ، لاَ يُفَرِّقونَ بَيْنَ المجتهِدِ المخطئ وَغَيْره ، أَوْ يَقُولُون : بكفر كُلِّ

مبتدع ، وهؤلاء يدخل عليهم فِي هَذَا الإثبات العام أمورٌ عظيمة ، فَإِنَّ النصُوصَ المتواترة قَدْ دَلَّت عَلَى أَنَّهُ يَخْرُج من النار مَنْ فِي قَلبه مِثْقَالُ ذرَّةٍ من إيمان ، ونُصُوصُ الوعدِ التي يحتجُّ بها هؤلاء تُعارِضُ نصوصَ الوعيد التي يحتج بها أولئك .

وَالكَلاَمُ فِي الوعيد مبسوطٌ فِي موضعه . وسيأتي بَعْضُهُ عِنْدَ الكلامِ عَلَى قول الشيخ : « وَأَهْلُ الكبائر فِي النار لاَ يخلدون ، إذا ماتوا وهم مُوَحِّدُونَ » .

والمقصود هنا : أن البِدَعَ هِيَ من هَذَا الجنسِ ، فإن الرجلَ يكونُ مؤمنًا باطنًا وظاهرًا ، لكن تأوَّلَ تأويلاً أخطأ فيه ، إما مجتهدًا وإما مفرطًا مذنبًا ، فَلاَ يُقَالُ : إن إيمانه حَبِطَ بمجرد ذلك ، إلا أن يَدُلَّ عَلَى ذَلِكَ دَلِيلٌ شرعي ، بل هَذَا مِن جنس قَوْلِ الخوارج والمعتزلة ، ولا نقولُ : لا يكفر ، بل العَدْلُ هو الوسَطُ ، وهو : أن الأَقْوالَ البَاطِلَة المُبتَدعةَ المُحَرَّمة المُتَضَمِّنَةَ نَفْيَ ما أثبته الرسول ، أو إثباتَ ما نفاه ، أو الأَمْرَ بما نهى عنه ، أو النَّهْيَ عما أمر به ؛ يُقال فيها الحَقُّ ، ويُثبت لها الوَعِيدُ الذي دلَّت عليه النصوصُ ، ويُبَيَّنُ أنها كفر ، ويُقال : مَنْ قَالَهَا ، فهو كافر ، ونحو ذلك ، كَمَا يُذْكَرُ مِنَ الوعيدِ فِي الظلم فِي النفوس والأموالِ ، وَكَمَا قَدْ قَالَ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِ السنة المشاهيرِ بتكفيرِ مَنْ قَالَ بخلقِ القرآن ، وأن الله لاَ يُرَى فِي الآخرةَ ، ولا يَعْلَمُ الأشياءَ قَبْلَ وقوعها ، وعن أبي يوسف رحمه الله ، أنه قال : نَاظَرْتُ أبا حنيفة رحمه الله مدةً ، حتى اتَّفَقَ رأيي ورأيُه : أن مَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرآن ، فهو كَافِر .

وأما الشخص المُعَيَّنُ ، إذا قِيلَ : هل تشهدون أنه مِنْ أهلِ الوعيد ، وأنه كافر ؟ فهذا لا نَشْهَدُ عَليهِ إلاَّ بأمرٍ تَجُوزُ معه الشهادةُ ، فَإِنَّه مِن أَعظم البغي أن يُشْهَدَ على معين أن الله لاَ يَغْفِرُ لَهُ ، وَلاَ يرحَمُهُ ، بَلْ يُخَلِّدُهُ فِي النار ، فَإِنَّ هَذَا حُكْمُ الكافر بَعْدَ الموت . ولهذا ذكر أبو داود في «سننه» فِي كتابِ الأدب : «باب النهي عن البغي» ،

وَذَكَرَ فِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « كَانَ رَجُلاَنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ ، فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ ، فَيَقُولُ : أَقْصِرْ ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ : أَقْصِرْ . فَقَالَ : خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ فَقَالَ : وَالله لاَ يَغْفِرُ الله لَكَ ، أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ الله الْجَنَّةَ فَقُبِضَ أَرْوَاحُهُمَا ، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ : أَكُنْتَ بِي عَالِمًا ؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِيَّ قَادِرًا ؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وَقَالَ لِلآخَرِ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ» (١)، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

ولأنَّ الشخص المعينَ يمْكِنُ أن يكونَ مجتهدًا مخطئًا مغفورًا له ، أو يُمْكِنُ أن يكونَ ممن لم يَبْلُغْهُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ من النصوص ، ويُمْكِنُ أن يَكُونَ لَهُ إيمانٌ عظيمٌ وحسناتٌ أوجبت له رحمةَ الله ، كَمَا غفر للذي قَالَ : «إِذَا مُتُّ فَاسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِيهَا ، ثُمَّ غَفَرَ الله لَهُ لِخَشْيَتِه » (٢)، وَكَانَ يَظُنُّ أن الله لاَ يَقْدِرُ عَلَى جمعه وإعادته ، أَوْ شَكَّ فِي ذَلِكَ . لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نُعاقِبَهُ في الدنيا ، لِمَنْع بدعته ، وأن نستتيبه ، فإن تاب وإلا قتلناه .

ثُمَّ إِذَا كَانَ القَوْلُ فِي نَفْسِهِ كفرًا ، قِيلَ : إنه كفرٌ ، والقائلُ له يكفر بشروط وانتفاءِ موانع ، ولا يكونُ ذلك إلا إذا صار منافقًا زنديقًا . فلا يُتَصَوَّرُ أن يُكفر

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود (حديث١ ٤٩٠).

(٢) لهذا طرق صحيحة متعددة منها : ما أخرجه البخاري (حديث ٣٤٨١) ، ومسلم (٢٧٥٦، ص٢١١٠) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ، ثُمَّ اسْحَقُونِي ، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَالله ! لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا. قَالَ : فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ فَقَالَ لِلأَرْضِ : أَدِّي مَا أَخَذْتِ. فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ . فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ فَقَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ ! ـ أَوْ قَالَ : مَخَافَتُكَ ؛ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ ».

أحدٌ من أَهْلِ القبلة المظهرين الإسلام إلا مَنْ يكونُ منافقًا زنديقًا . وكتاب الله يُبَيِّنُ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الله صنَّفَ الخَلْقَ فيه ثَلاَثَةَ أصنافٍ : صِنْفٌ : كفار من المشركين ومِن أهلِ الكتاب ، وهُمُ الذين لا يُقِرُّونَ بالشهادتين ، وصِنْفٌ : مؤمنون باطنًا وظاهِرًا ، وصِنْفٌ : أقرُّوا به ظاهرًا لا باطنًا ، وهذه الأقسامُ الثلاثة مذكورة في أَوَّلِ سورة البقرة ، وكُلُّ مَنْ ثبت أنه كافر في نفسِ الأمر وكان مقرًا بالشهادتين ، فإنه لا يكونُ إلا زنديقًا ، والزِّنديقُ هو المنافق .

وهنا يَظْهَرُ غَلَطُ الطرفين ، فإنه من كفَّر كُلَّ مَنْ قَالَ القَوْلَ المبتدَع فِي الباطن ، يلزمُه أن يُكَفِّرَ أقوامًا ليسوا في الباطن منافقين ، بل هُمْ فِي الباطن يُحِبُّونَ الله ورسولَه ويُؤمِنُونَ بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين ، كما ثبت في « **صحيح البخاري** » ، عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ ﷺ ، عَنْ عُمَرَ : أَنَّ رَجُلاً كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ : عَبْدَ الله ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا : وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ الله ﷺ وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ جَلَدَهُ من الشَّرَابِ ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : اللَّهُمَّ الْعَنْهُ ! مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لاَ تَلْعَنْهُ ، فَأَنَّهُ يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ** »(١) . وهذا أمرٌ متيقَّنٌ بِهِ ! فِي طوائفَ كَثيرة وأئمة في العلمِ والدين ، وفيهم بَعْضُ مقالات الجهمية ، أو المرجئة ، أو القدرية ، أو الشيعة ، أو الخوارج ، ولكن الأئمةَ فِي العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة ، بل بفرعٍ منها . وَلِهَذَا انتحل أَهْلَ هذه الأهواء لِطوائف من السَّلَفِ المشاهير .فَمِنْ عيوبِ أهل البِدَعِ تَكْفِيرُ بعضِهم بعضًا ، وَمِنْ ممادحِ أَهْلِ العلم أنهم يُخَطِّئون ولا يكفِّرون .

ولكن بقي هنا إشكالٌ يَردُ على كلام الشيخ ـ رحمه الله تَعَالَى ـ وَهُوَ : أَنَّ الشَّارعَ قَدْ سمَّى بعضَ الذنوب كُفْرًا ، قال الله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] . وَقَالَ ﷺ : « **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ**

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٦٧٨٠).

كُفْرٌ »[١]. متفق عليه من حديث ابن مسعود ﷺ.

وَقَالَ ﷺ: « لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ »[٢]، « وَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ : يَا كَافِرُ ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا »[٣]. متفق عليهما مِنَ حَدِيث ابْنِ عُمَرَ ﷺ.

وَقَالَ ﷺ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ ، كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ »[٤].متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

وَقَالَ ﷺ: « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ »[٥].

وَقَالَ ﷺ: «بَيْنَ الْمُسْلم ، وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ»[٦]. رواه مسلم عن جابر ﷺ

وَقَالَ ﷺ: « ثِنْتَانِ فِي أمتي هُمَا كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ »[٧].

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٦٤) وفي عدة مواطن من صحيحه، ومسلم (حديث ٤٨) من حديث ابن مسعود ﷺمرفوعًا .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٦٧٨٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (حديث ٦٦) من حديث ابن عمر ﷺمرفوعًا ،وله عدة طرق عن النبي ﷺ.

(٣) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٦١٠٤) ، ومسلم (حديث ٦٠) من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعًا.

(٤) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (حديث ٥٨) من حديث ابن عمر ﷺمرفوعًا.

(٥) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٦٨١٠) ، ومسلم (حديث ٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

(٦) صحيح :أخرجه مسلم (حديث ٨٢) ، من حديث جابر بن عبد الله ﷺسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ ».

(٧)أخرجه مسلم (حديث ٦٧) من حديث ابن عمر ﷺمرفوعًا .

ونظائر ذلكَ كثيرة .

والجوابُ : أن أهلَ السُّنة متفقون كُلُّهم على أن مرتَكِبَ الكَبِيرَة لا يَكْفُرُ كفرًا يَنْقُلُ عن الملَّة بالكُلِّيَّةِ ، كَمَا قَالَتْ الخوارجُ ، إذ لو كفر كُفْرًا يَنْقلُ عن الملَّة ، لكان مرتدًا يُقْتَلُ على كُلِّ حَالَ ، ولا يُقْبَلُ عَفْوُ وليِّ القِصاص ، ولا تجري الحدودُ فِي الزِّني والسرقة ، وشرب الخمر! وَهَذَا القَوْلُ معلومٌ بُطَلاَنه وَفَسَادُه بالضرورة مِن دِينِ الإِسلام .

ومتفقون عَلَى أَنَّهُ لاَ يَخْرُجُ مِنَ الإِيمانِ والإِسلام ، ولاَ يَدْخُلُ فِي الكفر ، ولا يستحقُّ الخُلُودَ فِي النار مَعَ الكافرين ، كَمَا قَالَتْ المعتزلةُ ، فَإِنَّ قَوْلهم باطل أَيْضًا ؛ إذ قَدْ جَعَلَ الله مرتكِبَ الكبيرةِ من المؤمنين ، قَالَ تَعَالَى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة:١٧٨] .

إِلَى أَنْ قَالَ :﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨].

فلم يُخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله أَخًا لوليِّ القِصاص ، والمراد أُخُوَّةُ الدين بلا ريب ، وَقَالَ تَعَالَى :﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات:٩] ، إِلَى أَنْ قَالَ :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تَدُلُّ على أن الزاني والسارِق والقاذف لا يُقْتَلُ ، بل يُقَامُ عليه الحَدُّ ، فَدَلَّ على أنه ليس بمرتد .

وَقَدْ ثَبتَ فِي «الصحيح» عَنْ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ مِنْ عِرْضٍ أَوْ شَيء فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِرْهَمٌ وَلاَ دِينَارٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَته ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ**

صَاحِبِهِ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أُلقي فِي النار »[١]. أخرجاه في «الصحيحين» .

فثبت أن الظالمَ يكونُ له حسناتٌ يستوفي المظلوم منها حقَّه .

وكذلك ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا تَعدون الْـمُفْلِسُ فِيكم ؟ » قَالُوا الْـمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ دِينَارٌ قَالَ : « الْـمُفْلِسُ مِنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وله حسنات أمثال الجبال ، قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فيقتصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »[٢]. رواه مسلم .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[هود:١١٤] . فدل ذلك على أنه في حال إساءته يفعل حسناتٍ تمحو سيئاته ، وهذا مبسوط في موضعه .

والمعتزلة موافقون للخوارج هُنا فِي حُكْم الآخرة ، فَإِنَّهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلَّدٌ فِي النار ، لكن قالت الخوارج : نسمِّيه كافرًا ، وقالت المعتزلة : نُسمِّيه فاسقًا ، فالخلافُ بينهم لفظي فقط .

وأهلُ السنة أيضًا متَّفقُون على أَنَّهُ يَسْتَحِقُ الوَعِيد المُرَتَّب على ذلك الذنب . كما

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٩)وفي غير موضع من صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺمرفوعًا ولفظه : « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ عند أخيه مِن عِرْضِهِ أَوْ شيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » .

(٢) صحيح :أخرجه مسلم (حديث ٢٥٨١) ، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺقَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الْـمُفْلِسُ » . قَالُوا : الْـمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ . فَقَالَ : « إِن الْـمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي ، مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَام وَزَكَاة ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَت عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » .

وردت به النُّصوصُ . لا كما يقولُه المُرْجِئةُ من أنه لا يَضُرُّ مع الإيمانِ ذَنبٌ ، ولا يَنْفَعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعةٌ! وإذا اجْتَمَعَتْ نُصُوصُ الوعد التي استدلت بها المرجئة ، ونُصُوصُ الوعيد ، التي استدلَّت بها الخَوَارِجُ والمعتزلة ؛ تَبَيَّنَ لك فَسَادُ القولين . ولا فائدةَ فِي كلام هؤلاء سوى أنك تَسْتَفِيدُ من كلام كُلِّ طائفةٍ فسادَ مذهب الطائفة الأخرى .

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الاتفاقَ بَيْنَ أَهْلِ السنة اختلفوا ختلافًا لفظيًا ، لا يَتَرَتَّبُ عليه فساد ، وهو : أنه هَلْ يَكونُ الكُفْرُ عَلَى مراتب ، كفرًا دُونَ كفر ؟ كما اختلفوا : هل يكون الإيمان على مراتب ، إيمانًا دُونَ إيمان ؟ وهذا الاختلافُ نشأ من اختلافهم في مسمَّى «الإيمان» : هل هو قولٌ وعمل يزيد وينقص ، أم لا ؟ بعد اتفاقهم على أن مَنْ سماه الله تعالى ورسوله كافرًا نُسميه كافرًا ، إذ من الممتنع أن يُسمِّيَ الله سبحانه الحاكمَ بغير ما أنزل الله كافرًا ، ويسمي رَسُولُه مَنْ تقدم ذكره كافرًا ، ولا نُطْلِقُ عليهما اسمَ الكُفر . ولكن من قال : إن الإيمانَ قولٌ وعمل يزيدُ وَيَنْقُصُ ، قال : هو كفر عَمَلِيٌّ لا اعتقاديٌّ ، والكفر عنده على مراتب ، كفرٌ دونَ كفر ، كالإيمان عنده .

ومن قال : إن الإيمانَ : هو التصديقُ ، ولا يدخلُ العملُ فِي مسمَّى الإيمان ، والكفر : هو الجحود ، ولا يزيدان ولا ينقصان ، قال : هو كفر مجازيٌّ غَيْرَ حقيقي ، إذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة . وكذلك يقول في تسمية بعض الأعمال بالإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣] ، أي : صلاتكم إلى بَيْتِ المقدس ، إنَّما سُمِّيَتْ إيمانًا مجازًا ، لتوقف صحتها على الإيمان ، أو لدِلالتها على الإيمان ، إذ هِيَ دالَّة على كون مؤديها مؤمنًا . ولهذا يُحْكَمُ بإسلام الكافر إذا صلى كصلاتنا . فَلَيْسَ بَيْنَ فقهاء المِلَّةِ نِزَاعٌ فِي أصحابِ الذنوب ، إذا كانوا مقرِّين باطنًا وظاهرًا بما جاء به الرَّسُولُ وما تَوَاتَر عنه أنهم مِن أهل الوعيد .

ولكن الأقوالَ المنحرفة قَوْلُ من يقول بتخليدِهم فِي النار ، كالخوارج والمعتزلة ، ولكن أردأ ما في ذلك التعصبُ من بعضهم ، وإلزامه لمن يُخالِفُ قولَه بما لا يلزمه ، والتشنيعُ عليه! وإذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين ، وأن يجادَلُوا بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ، فكيف لا يَعْدِلُ بعضُنا على بعض في مثل هذا الخلاف ؟ ! قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ الآية [المائدة:٨] .

وهنا أمْرٌ يَجِبُ أن يُتَفَطَّن له ، وهو : أن الحُكْمَ بَغَيْرِ ما أنزل الله قد يكون كفرًا يَنْقُلُ عن المِلَّةِ ، وقد يكون مَعْصِيَةً : كبيرةً أو صغيرة ، ويكُونُ كفرًا : إما مجازيًا ، وإما كفرًا أصغر ، على القولين المذكورين . وذلك بحسبِ حال الحاكم : فإنه إن اعتقد أنَّ الحُكْمَ بما أنزل الله غَيْرُ واجب ، وأَنَّهُ مخيَّرٌ فيه ، أو استهان به مع تيقُّنِه أنه حُكْمُ الله ؛ فهذا كُفْرٌ أكبر ، وإن اعتقدَ وجُوبَ الحُكمِ بما أنزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة ، وعَدَلَ عنه مع اعترافِه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا عاصٍ ، ويُسمَّى كافرًا كُفرًا مجازيًا ، أو كفرًا أصغر . وإن جَهِلَ حُكْمَ الله فيها ، مع بذل جهده ، واستفراغِ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ ، فهذا مخطئ ، له أجرٌ على اجتهاده ، وخطؤه مغفور .

وأراد الشيخُ رحمه الله بقوله : « وَلاَ نَقُول : لاَ يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ » مخالفةَ المرجئة ، وشبهتُهم كانت قد وقعتْ لبعض الأولين ، فاتفق الصحابةُ على قتلهم إن لم يَتُوبُوا من ذلك . فإن قُدَامة بن مظعون شَرِبَ الخمر بعد تحريمها هو وطائفة ، وتأوَّلُوا قولَه تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة:٩٣] ، الآية . فلما ذُكِرَ ذَلِكَ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اتَّفَقَ هُوَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالب وسائرُ الصحابة

على أنَّهم إن اعترفوا بالتحريم ، جُلِدُوا ، وإن أَصَرُّوا على استحلالها قُتلُوا . وقال عمر لقدامة : أخطأت استُك الحُفْرَةَ ، أما إنك لو اتقيت ، وآمَنْتَ ، وَعَمِلْتَ الصالحاتِ لَمْ تَشْرَبِ الخمر .

وذلك أن هذه الآية نزلتْ بسبب أن الله سبحانه لما حَرَّمَ الخَمْرَ ، وكان تَحْرِيمُها بعد وقعةِ أُحُد ، قال بَعْضُ الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتُوا وَهُمْ يشربونَ الخمرَ ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية [(١)] ، بيَّن فيها أنَّ من طَعِمَ الشيءَ فِي الحال التي لم يُحَرَّمْ فيها ، فلا جُنَاحَ عليه إذا كان مِنَ المؤمنين المتَّقين المصلحين ، كما كان مِنْ أَمرِ استقبال بَيْتِ المقدس . ثُمَّ إنَّ أولئك الذين فعلوا ذلك نَدِمُوا وعَلمُوا أنهم أخطأوا ، وأيسُوا منَ التوبةِ . فكتب عُمَرُ إلى قُدَامة يقولُ له : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر:١-٣] . ما أدري أيُّ ذنبيك أَعْظَمُ ؟ استحلالك المُحَرَّم أولاً ؟ أم يَأْسُكَ مِن رحمة الله ثانيًا ؟وهذا الذي اتفق عليه الصحابةُ هو مُتَّفقٌ عليه بين أئمة الإسلام .

*****

قوله : « ونَرْجُو للمُحْسنينَ منَ المُؤْمنينَ أن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَيُدْخلَهُمُ الجَنَّةَ بِرَحْمَته ، وَلاَ نَأمنُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ نَشْهَدُ لَهُم بِالجَنَّةِ ، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسيئِهم ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ نُقَنِّطُهُمْ » .

ش: وعلى المؤمن أن يَعْتَقَدَ هَذَا الَّذِي قَالَهُ الشيخُ رحمه الله فِي حقِّ نفسه وَفِي حقِّ غَيْره ،

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٦٤) ،من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه : كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي : « **أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ** » . قَالَ : فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا ، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ . فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهْيَ فِي بُطُونِهِمْ . فَأَنْزَلَ الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة:٤١] . ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠] ، ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤] . وَمَدحَ أَهْلَ الخوفَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٧ـ ٦١] .

وَفِي « المسند » والترمذي عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ : قَلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠] ، أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُ ؟قَالَ : « **لاَ ، يَا ابنَةَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لاَ يُتَقَبَّلَ مِنْهُ** »(١) . قال الحسن ﵁ : عملوا والله بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن تُردَّ عليهم ، إنَّ المؤمن جَمَعَ إحسانًا وخشيةً ، والمُنَافِقَ جَمَعَ إساءةً وأمنًا . انتهى .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨] . فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ رجاءَهم مَعَ إتيانهم بِهَذِه الطاعات ؟ فالرجاءُ إنما يَكُونُ مع الإتيانِ بالأَسْبَابِ التي اقتضتها حِكْمَةُ الله تَعَالَى ، شرعُه وقدرُه وثوابُه وكرامتُه . ولو أن

---

(١) في إسناده ضعف قريب : وقد أخرجه الترمذي (حديث ٣١٧٥) ، وأحمد في المسند (٦/ ١٥٩، ٢٠٥) ، وابن ماجه(٤١٩٨) وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة ﵂ ، وعبد الرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة ﵂ .

رجلاً له أَرْضٌ يُؤمِّلُ أن يَعُودَ عليه مِن مَغَلِّها ما يَنْفَعُهُ ، فأهملها ولم يَحْرُثْهَا وَلم يَبْذُرْهَا ، ورجا أنه يأتي من مَغَلِّها مِثْلَ ما يأتي مَنْ حَرَثَ وزرع وتعاهَدَ الأرض ؛ لَعَدَّهُ الناسُ مِنْ أسفه السفهاء! وكذا لو رجا ، وحسَّنَ ظَنَّهُ أن يجيئه ولدٌ من غيرِ جماع! أو يَصيرَ أَعْلَمَ أَهْلِ زمانه من غير طَلَبِ العلمِ وحِرْصٍ تام! وأمثال ذلك . فكذلك مَنْ حَسُنَ ظنُّه وقوي رجاؤه في الفوز بالدَّرجات العُلى ، والنعيم المقيم ، من غير طاعةٍ ولا تقرُّب إلى الله تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ومما ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ من رجا شيئًا ، استلزم رجاؤه أمورًا :

أحدهُا : محبَّةُ ما يَرْجُوهُ .

الثاني : خَوْفُهُ مِن فَوَاتِه .

الثالث : سَعْيُهُ في تَحْصِيلِه بِحَسَبِ الإمكانِ .

وأما رجاءٌ لا يُقارِنُه شيء من ذلك ، فهو من باب الأمانيِّ ، والرجاء شيءٌ ، والأماني شيءٌ آخر ، فَكلُّ راجٍ خائفٌ ، والسائرُ على الطريق إذا خاف أسرع السيرَ ، مخافةَ الفوات .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦] .فالمشركُ لا تُرْجَى له المغْفِرَةُ ؛ لأن الله نفى عنه المغفرةَ ، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله ، إن شاء الله غفر له ، وإن شَاءَ عذّبه .

وَقَدْ اخْتَلِفَت عِبَارَات العلماء فِي الفرق بَيْنَ الكبَائِر والصَّغَائِر ، وستأتي الإشارةُ إِلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخ رحمه الله : « وَأَهْلُ الكبائر من أمة محمد في النار لا يُخلدون » .

ولكن ثَمَّ أمر ينبغي التَّفَطُنُ له ، وهو : أن الكبيرة قد يقترِنُ بها مِن الحياء والخوف والاستعظام لها ما يُلحقها بالصغائر ، وقد يقترِنُ بالصغيرة مِن قلة الحياء وعدم المبالاة ، وتركِ الخوف والاستهانة بها ما يُلحِقُها بالكبائر . وهذا أمر مرجعُه إلى

ما يقومُ بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يَعْرِفُ ذَلِكَ من نفسه وغيرِه .

أسباب سقوط العقوبات :

وأيضًا : فإنه قد يُعْفَى لِصَاحِبِ الإحسانِ العظيم ما لا يُعْفَى لِغَيْرِه ، فإن فَاعِلَ السيئات تَسْقُطُ عنه عُقُوبَةُ جهنم بنحو عشرة أسباب ، عُرِفتْ بالاستقراء من الكتاب والسنة :

السَّبَبُ الأول : التَّوْبَةُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [مريم:٦٠، والفرقان:٧٠] . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾[البقرة:١٦٠] . والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ ، وَهِيَ الخالِصَة ، لاَ يختصُّ بِهَا ذنبٌ دون ذنبٍ ، لكن هَلْ تَتَوَقَّفُ صِحَّتُها عَلَى أن تكون عامةً ؟ حتى لو تاب مِن ذنبٍ ، وأَصَرَّ على آخر لا تقبل ؟ والصحيحُ أنها تُقبل . وهل يَجُبُّ الإسلامُ ما قبلَه مِنَ الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يَتُبْ منها ؟ أم لا بُدَّ مع الإسلام من التوبة من غير الشرك ؟ حتى لو أَسلَمَ وهو مُصِرٌّ عَلَى الزني وشُرْبِ الخمر مثلًا ، هل لا يُؤاخذ بما كان منه في كفرِه من الزني ، وشُرْبِ الخمر ؟ أم لا بدّ أن يتوبَ من ذلك الذنب مع إسلامه ؟ أو يَتُوبَ توبةً عامةً من كُلِّ ذنبٍ ؟ وهذا هو الأصحُّ : أنه لا بُدَّ من التوبة مع الإسلام ، وكونُ التوبة سببًا لغُفْرانِ الذنوب ، وعدمِ المؤاخذة بها ، مما لا خلافَ فيه بَيْنَ الأمة ، وليس شيءٌ يكون سببًا لِغُفْرانِ جميعِ الذنوب إلا التوبةَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] ، وَهَذَا لِمن تَاب ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا تَقْنَطُواْ ﴾ ، وَقَالَ بَعْدِهَا : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ الآية [الزمر:٥٤].

السَّبَبُ الثاني : الاستِغْفَار ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ

فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣] . لكن الاستِغْفَار تَارَةً يُذْكَرُ وَحْدَهُ ، وتَارَةً يُقْرَنُ بالتَّوْبَة ، فإن ذكر وَحْدَهُ دَخَلَ مَعَهُ التَّوْبَة ، كَمَا إِذَا ذُكِرَت التوبةُ وحدَها شَمَلَتِ الاستِغْفَارَ ، فالتَّوْبَةُ تتضمن الاستِغْفَارَ ، والاستِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التوبةَ ، وكُلُّ واحد منهما يَدْخُلُ فِي مسمى الآخر عِنْدَ الإطلاق ، وأما عِنْدَ اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى ، فالاستِغْفَار : طَلَبُ وقاية شرّ مَا مَضَى ، والتَّوْبَةُ : الرُّجُوعُ وطَلَبُ وقاية شرِّ مَا يَخَافُهُ فِي المستقبل من سيئات أعماله .

ونظيرُ هَذَا : الفَقِيرُ والمِسْكِينُ ، إِذَا ذُكِرَ أَحَدُ اللفظين شَمِلَ الآخر ، وإذا ذُكِرَا معًا كان لِكُلٍّ منهما معنى . قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ [المائدة:٨٩] . ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة:٤] . ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٧١]. لاَ خِلاَفَ أن كُلَّ واحدٍ من الاسمين في هذه الآيات لما أفرد شَمِلَ المُقِلَّ والمُعدِمَ ، ولما قُرِنَ أَحَدُهما بالآخر فِي قَوْلِه تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ الآية [التوبة:٦٠] كان المُرَادُ بأحدهما المقلّ ، والآخر المُعدِم ، على خلاف فيه .

وكذلك : الإثمُ والعدوانُ ، والبرُّ والتقوى ، والفسوقُ والعصيان .

ويِقْرُبُ من هذا المعنى : الكفرُ والنفاقُ ، فإن الكفرَ أعمُّ ، فإذا ذُكِرَ الكفرُ ، شَمَلَ النفاقَ ، وإن ذُكِرَا معًا ، كان لكل منهما معنى . وكذلك الإيمانُ والإسلامُ ، على ما يأتي الكلامُ فيه ، إن شاء الله تعالى .

السَّبَبُ الثالث : الحَسَنَاتُ . فإن الحسنةَ بعشر أمثالها ، والسيئةَ بمثلها ، فالوَيْلُ لِمَنْ غَلَبَتْ آحادُه أعشارَه ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] .

السَّبَبُ الرابع : المصائبُ الدنيوية ، قَالَ ﷺ : « **مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلاَ**

نَصَبٍ ، وَلاَ غَمٌّ وَلاَ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »(١) .

فالمصائبُ نفسُها مكفرةٌ ، وبالصبر عليها يُثَابُ العبدُ ، وبالتَسخُّط يأْثَمُ ، والصبرُ والسخط أَمْرٌ آخر غَيْرُ المصيبة ، فالمصيبةُ مِن فِعْلِ الله لا مِنْ فِعْلِ العبد ، وهي جزاءٌ من الله للعبد على ذنبه ، ويُكفِّرُ ذنبه بها ، وإنما يُثَابُ المرءُ ويأثم على فعله ، والصبرُ والسخط من فعله ، وإن كان الثوابُ والأجرُ قَدْ يَحْصُلُ بِغَيْرِ عملٍ من العبد ، بل هَدِيَّة من الغير ، أو فضل من الله من غير سبب ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠] . فنفسُ المَرَضِ جزاءٌ وكفارة لما تقدم .

وكثيرًا ما يُفهم من الأجْرِ غُفْرَانُ الذنوب . وليس ذلك مَدْلُولَه ، وإنما يكُونُ من لازمه .

السَّبَبُ الخامسُ : عَذَاب القَبْرِ . ويأتي الكلامُ عليه ، إن شاء الله تعالى .

السَّبَبُ السادس : دُعَاءُ المؤمنين واستغفارهم في الحياةِ وبَعْدَ المماتِ .

السَّبَبُ السابعُ : ما يُهْدَى إليه بَعْدَ المَوْتِ ، من ثواب صدقةٍ ، أو قِرَاءةٍ(٢) أو حَجٍّ ، ونحو ذلك ، ويأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى .

السَّبَبُ الثامنُ : أهوالُ يومِ القيامة وشدائده .

السَّبَبُ التاسعُ : ما ثبت في « الصحيحين » : « **أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وقفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ** »(٣) .

---

(١) صحيح : أخرجه بلفظ قريب البخاري (حديث ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ، ومسلم (حديث ٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما مرفوعًا .

(٢) في مسألة وصول ثواب القراءة نظر .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٠) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ : « **إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَتَقَاصُّون مَظَالِمَ**

السَّبَبُ العاشِرُ : شفاعةُ الشافعين ، كما تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكَر الشفاعة وأقسامِها .

السَّبَبُ الحادي عشر : عفوُ أَرْحَمِ الراحمين مِن غَيْرِ شفاعةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء:٤٨، ١١٦] . فإن كان ممن لم يشأ الله أن يَغْفِرَ له لِعِظَم جُرْمِهِ ، فلا بُدَّ مِن دخوله إلى الكير ، ليخْلُصَ طِيبُ إيمانه مِنَ خَبَثِ معاصيه ، فلَاَ يبقى فِي النَّار مَنْ فِي قلبه أدنى أدنى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ من إيمانٍ ، بل مَنْ قَالَ : لا إله إلا الله ، كَمَا تَقْدَّمَ من حديث أنس رضي الله عنه[1] .

وإذا كان الأمْرُ كذلك ، امتنعَ القَطْعُ لأحد معيَّنٍ من الأمة ، غَيْرَ مَنْ شَهِدَ له الرسولُ ﷺ بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ، ونخافُ عليهم .

قوله : « والأمْنُ والإياسُ يَنْقُلان عَنْ مِلَّةِ الإسْلامِ ، وَسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُما لأهْلِ القِبْلَةِ » .

ش : يجب أن يَكُونَ العبدُ خائفًا راجيًا ، فإنَّ الخَوْفَ المحمودَ الصَّادِقَ مَا حَالَ بَيْنَ صاحبه وَبَيْنَ محارم الله ، فَإِذَا تَجاوَزَ ذَلِكَ ، خِيفَ منه اليأسُ والقُنُوطُ . والرجاء المحمود : رجاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بطاعة الله على نورٍ من الله ، فهو راجٍ لثوابه ، أو رجلٍ أذنب ذنبًا ، ثُمَّ تاب منه إلى الله ، فهو راجٍ لمغفرته . قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة:٢١٨] .

أما إذا كان الرَّجُلُ متمادِيًا في التفريط والخطايا ، يرجو رحمةَ الله بِلا عملٍ ، فَهَذَا هُوَ الغرُورُ والتمني والرجاءُ الكاذب .

= كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي محمد بِيَدِهِ ، لأَحَدُهُمْ بِمَسْكنه فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا » .

(١) صحيح :وقد تقدم.

وَقَدْ مَدحَ الله أَهْلَ الخوف والرجاء بِقَوْلِهِ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] ، الآية . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الآية ، [السجدة:١٦] . فالرجاء يستلزم الخوفَ ، ولولا ذلك ، لكان أمْنًا ، والخَوْفُ يستلزم الرَّجَاءَ ، ولولا ذلك ، لكان قُنوطًا ويأسًا . وكُلُّ أحدٍ إذا خِفْته هَرَبْتَ منه ، إلا الله تعالى ، فإنَّكَ إذا خِفْتَه هَرَبْتَ إليه ، فالخائفُ هاربٌ من ربه إلى ربه .

وقال صاحب «منازل السائرين» رحمه الله (١) : الرَّجَاءُ أَضْعَفُ منازِل المريد ، وفي كلامه نظر ، بل الرَّجَاءُ والخَوْفُ عَلَى الوجه المذكور من أشرف منازل المريد . وفي « الصحيح » عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « يَقُولُ اللهُ ﷻ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ » (٢) . وفي «صحيح مسلم» عَنْ جابر رضي الله عنه ، قَالَ : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ قَبْلَ موته بِثَلاَثٍ : « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ » (٣) ، ولهذا قيل : إن العبد ينبغي أن يَكُونَ رجاؤه في مرضه أَرْجَحَ مِنَ خوفه ، بخلاف زمن الصحة ، فإنَّه يَكُونُ خَوْفُه أَرْجَحَ مِن رجائه .

---

(١) لي بعض التحفظات على «منازل السائرين»، وكذا شرحه «مدارج السالكين» وفي الجملة فإني لا أنصح بهذا الكتاب لأمور يضيق المقام بذكرها .

(٢) صحيح لشواهده : أما بالنسبة للفظ المشار إليه فليس في الصحيح ،ولكن في الصحيح (البخاري ٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ...** » ، وعند الإمام أحمد (٢/ ٣٩١) ، وابن حبان (٢٣٩٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ ﷺ : « **أَنَّ اللهَ ﷻ قَالَ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْراً فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ** » أما اللفظ المشار إليه ففي مسند أحمد (٣/ ٤٩١، ٤/ ١٠٦) ، وابن حبان (٢٣٩٣) ، وابن المبارك في الزهد (٩٠٩) من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا.

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٨٧٧) ، ولفظه : « **لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ** » ، ولفظ آخر : « **إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ** » .

وَقَالَ بَعْضُهُم : مَنْ عَبَدَ الله بالحب وَحْدَه فهو زنديق ، وَمَنْ عبده بالخوف وحده فهو حَرُوريٌّ ، ومن عبده بالرجاء وَحْدَه ، فهو مرجئ ، وَمَنْ عَبَدَه بالحب والخوف والرجاء ، فهو مؤمن مُوَحِّدٌ ، ولقد أحسن محمود الوراق في قوله :

لَوْ قَدْ رَأَيْتَ الصَّغِيرَ مِنْ عَمَلَ الـ ـخيرِ ثَوَابًا عَجبْتَ مِنْ كِبَرِه
أَوْ قَدْ رَأَيْتَ الحَقِيرَ مِنْ عَمَلِ الشَّـ ـرِّ جَزَاءً أَشْفَقْتَ مِنْ حَذَرِه

قوله : « ولا يَخْرُجُ العَبْدُ مِن الإيمانِ إلا بجُحُودِ ما أَدْخَلَهُ فِيهِ » .

ش :يُشيرُ الشيخ رحمه الله إلى الردِّ على الخوارج والمعتزلة في قوله بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرةِ . وفيه تقريرٌ لما قال أولاً : « **إِنَّه لا يُكَفِّرُ أَحَدًا من أهل القبلة بذنبٍ ، مَا لَمْ يستحله** »وتقدم الكلام على هذا المعنى .

*****

قوله : « والإيمَانُ : هُوَ الإقْرَارُ باللِّسانِ ، والتَّصْديقُ بِالجَنَانِ [(١)] . وجَميعُ ما صَحَّ

---

(١)هذا من المواطن التي خولف فيها الطحاوي ، وأخطأ رحمه الله وعفا الله عنه ـ فيما ذهب إليه من قصره الإيمان على الإقرار باللسان والتصديق بالجنان دون ذكر العمل ، فالذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، قولٌ باللسان واعتقاد بالقلب والجنان ، وعمل بالجوارح والأركان ، أما قصر المصنف الإيمان على الإقرار باللسان والتصديق بالجنان فقولٌ لفريق من المرجئة ، والإرجاء تأخير العمل عن القول وكذا قوله : « والإيمَانُ وَاحِدٌ ، وَأَهْلُهُ في أَصْلِهِ سَوَاءٌ » كلام فيه نظر فالناس في الإيمان درجات ومراتب ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ﴾وفي الحديث : «**أَخرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذرةٍ مِنْ إِيمَانٍ**». والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جدًّا .
وكذا ليس إيمان الرسل كإيمان الصحابة ، وليس إيمان الصحابة كإيمان من بعدهم ، وكذا قوله : « **والتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ فِي الخَشْيَةِ** ...» هذه بعض وجوه التفاضل ليست كلها وإلا فإمَاطَةِ الأذى عَنِ الطَّرِيقِ مَنْ شُعَبِ الإِيمَانِ ، وكذلك الحياء وغير ذلك .
وأسباب التفاضل كثيرة جدًا يدخل فيها أعمال القلوب كالحب في الله ، والبغض في الله ، والموالاة ، وتدخل فيها أعمال اللسان من ذكر ونحو ذلك ، وتدخل فيها أعمال الجوارح أيضًا.

عَـنْ رَسُـولِ الله ﷺ مـنَ الشَّرْعِ والبَيَـانِ كُلُّـهُ حَـقٌّ . والإِيـمَانُ وَاحِـدٌ ، وَأَهْلُـهُ فِي أَصْـلِهِ سَـوَاءٌ ، والتَّفَاضُـلُ بَيْـنَهُمْ بالخَشْـيَةِ والتقـى ، ومُخَالَفَـة الهَـوَى ، وَمُلازَمَـةِ الأولى » .

اختلـف النَّـاسُ فِيمَا يقـع عليـه اسْـمُ الإيـمانِ ، اختلافًـا كثـيرًا : فـذهب مالـكٌ والشافعيٌّ وأحمد والأوزاعي وإسحاقُ بـنُ راهويـه ، وسـائِرُ أهـلِ الحـديث ، وَأَهْـلُ المدينة ـ رحمهم الله ، وَأَهْلُ الظاهر ، وجَمَاعَةٌ من المتكلمين : إلى أنـه تَصْـدِيقٌ بالجنـان ، وإقرارٌ باللسان ، وَعَمَلٌ بالأركان .

وذهـب كثـيرٌ مـن أصـحابنا إلى مـا ذكـره الطحـاوي : أنـه الإقْـرَار باللسـانِ ، والتَّصْدِيقُ بالجَنَانِ .

وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ : إن الإقرارَ باللسان رُكْنٌ زائدٌ ليس بأصلي ، وإلى هـذا ذهـب أبو منصور الماتُريدي رحمه الله ، ويُرْوَى عن أبي حنيفة رضي الله عنه .

وذهب الكرامية : إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ، وثَمَّ أَقْوَالٌ أُخَر .

وحَاصِلُ الكل يَرْجعُ إلى أن الإيمانَ : إمـا أن يَكُـونَ مـا يَقُـومُ بالقلـبِ واللسـان وسائرِ الجوارح ، كما ذهب إليه جُمْهُورُ السَّلَفِ مِنَ الأئمة الثلاثة وغَيْرِهم ـ رحمهم الله ـ كـما تقـدم ، أو بالقَلْـبِ واللسـانِ دُونَ الجـوارح ، كـما ذكـره الطَّحَـاوِيُّ عـن أبي حنيفـة وأصحابه ـ رحمهم الله ـ أو باللسان وحدَه ، كما تقدم ذكره عن الكرَّامية . أو بالقلـب وحده ، وهو : إما المعرفة ، كما قالـه الجهـم ، أو التصـديقُ ، كـما قالـه أبـو منصـور الماتريدي رحمه الله . وفسادُ قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهرٌ .

وقد أجمعوا على أنَّه لو صدَّق بقلبه وأقرَّ بلسانه ، وامتنع عن العَمَلِ بجوارحه : أنـه عـاصٍ لله ورَسُـولِه ، مسـتحق الوعيـدَ ، لكـن فـيمن يقـول : إن الأعـمال غَـيْرُ داخلةٍ فِي مسمى الإيمان من قال : لما كان الإيمانُ شيئًا واحدًا فإيماني كإيمان أبي بكر

الصديق وعمر رضي الله عنهما! بل قال: كإيمانِ الأنبياء والمرسلين وجبريل وميكائيل عليهم السلام!! وهذا غلوٌّ منه. فإن الكُفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شكَّ أن البصراء يختلِفُون في قوةِ البَصَرِ وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى، من يرى الخط الثخين، دون الدقيق إلا بزجاجةٍ ونحوها، ومن يرى عن قُرْبٍ زائدٍ على العادة، وآخر بضده.

ولهذا والله أعلم قَالَ الشيخ رحمه الله: « وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ »، يُشيرُ إلى أن التساوي إنما هو في أصله [(١)]، ولا يلزمُ منه التساوي مِنْ كُلِّ وجه، بل تفاوتُ نُورِ: لا إله إلا الله في قلوبِ أهلها لا يُحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس من نورُها في قلبه كالشمس، ومنهم من نُورُها في قلبه بالكوكب الدُرِّي، وآخَرُ كالمشعل العظيم، وآخر كالسِّرَاج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامة بأيمانهم وبَيْنَ أيديهم على هذا المقدارِ، بحسب ما في قلوبهم مِنْ نورِ الإيمان والتوحيد علمًا وعملاً، وكلما اشتدَّ نُورُ هذه الكلمة وعَظُمَ، أحرق مِن الشُّبهات والشهوات بحسبِ قوته، بحيث إنه ربما وَصَلَ إلى حال لا يُصادفُ شهوةً ولا شُبهةً ولا ذنبًا إلا أحرقه. وهذا حالُ الصادق في توحيده، فَسَماءُ إيمانه قد حُرِسَتْ بالرجوم مِنْ كُلِّ سارق، وَمَنْ عرف هذا، عرف معنى قول النبي ﷺ: « **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى** » [(٢)]. وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا النوع من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنَّها بعضُهم منسوخةً، وظنها بعضُهم قبلَ ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضُهم على نارِ المشركين والكفار، وأوَّلَ بعضُهم الدخولَ بالخلود، ونحو ذلك.

---

(١) هذا الكلام غير مفهوم، وغير جيد.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٤٢٥)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (حديث ٣٣)، من حديث عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه.

والشارع - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ [١] - لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قولِ اللسان فقط ، فإن هذا مِن المعلومِ بالاضطرار مِن دينِ الإسلام ، فإنَّ المنافقين يقولُونها بألسنتهم ، وهُمْ تَحْتَ الجاحدينِ فِي الدَّرْكَ الأسفلِ مِن النار ، فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضلُ بصُوَرِها [٢] وعددها ، وإنما تَتَفاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي القُلوب .

وتأمل حَديثَ البطاقة التي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ ، ويُقَابِلُها تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ سِجلاً ، كُلُّ سِجِلٍّ منها مَدُّ البصرِ ، فَتَثْقُلُ البِطاقةُ ، وتَطِيشُ السِّجلات ، فلا يُعَذَّبُ صَاحِبُهَا [٣] .

ومعلومٌ أن كُلَّ موحدٍ له مِثْلُ هذه البطاقة ، وكثيرٌ منهم يدخل النار .

وتأمّل ما قام بقلبِ قاتل المائة مِن حقائِق الإيمان ، التي لم تَشْغَلْهُ عند السِّياقِ عن السير إلى القرية ، وحَمَلَتْهُ وهو في تلك الحال أن جعل يَنُوءُ بصدره وهو يُعَالِجُ سكراتِ الموت.

وتأمَّلْ ما قامَ بقلب البَغِيِّ مِنَ الإيمان ، حين نزعت مُوقَها ، وسَقَتِ الكَلْبَ مِنَ الرَّكيَّة ، فَغُفِرَ لهَا .

وأما الزيادةُ بالعملِ والتصديق ، المستلزِمِ لعمل القلبِ والجوارح : [فهو] أَكْمَلَ مِنَ التصديق الذي لا يستلزمه ، فالعِلْم الذي يَعْمَلُ بِهِ صَاحِبُهُ أَكْمَلُ مِن العلم الذي لا يعمل به ، فإذا لم يَحْصُلِ اللازمُ ، دَلَّ على ضعف الملزوم . وَلِهَذا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَيْسَ الْمُخْبَرُ كَالْمُعَايِنِ » [٤] ، وموسى عليه السلام لما أُخْبِرَ أَنَّ قومَه عَبَدوا

(١) إطلاق الشارع على رسول الله لا أعلم له دليلًا ولا مستندًا .

(٢) بل تتفاضل أيضًا بصورها وعددها في كثير من الأحيان .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه الترمذي (حديث ٢٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعًا ، وقد تقدم ، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (حديث ٤٣٠٠) ،وأحمد في المسند (٢/ ٢١٣) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٦) وغيرهم .

(٤) صحيح بلفظ قريب: أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢١٥، ٢٧١) بلفظ : «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ» =

العِجْلَ لم يُلقِ الألواحَ ، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِشَكِّ مُوسَى فِي خَبر الله ، لَكِنَ المُخْبَرَ وإن جزم بصدق المُخبِرِ ، فَقَدْ لاَ يَتَصَوَّرُ المُخبَرَ بِهِ فِي نَفْسِهِ ، كَمَا يَتَصوَّرُه إذ عاينه ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ الخليل - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[البقرة:٢٦٠].

وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ أَوَّلَ مَا يُسْلِمُ ، إِنَّمَا يَجِبُ عليه الْإِقْرَارُ الْـمُجْمَلُ ، ثُـمَّ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلاةِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِوُجُوبِهَا وَيُؤَدِّيَهَا ، فَلَمْ يَتَسَاوَ النَّاسُ فِيمَا أُمِرُوا به مِنَ الْإِيمَانِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَامَ بِقَلْبِه التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ ، الَّذِي لَا يَقْوَى على مُعَارَضَتِه شَهْوَةٌ وَلَا شُبْهَةٌ ، لَا تَقَعُ مَعه مَعْصِيَة ، وَلَوْلَا مَا حَصَلَ له مِنَ الشَّهْوَة وَالشُّبْهَة ، أَوْ إِحْدَاهُمَا ، لَمَا عَصَى ، بَلْ يَشْتَغِلُ قَلْبُه ذَلِكَ الْوَقْتَ بِمَا يُوَاقِعُه مِنَ الْـمَعْصِيَة ، فَيَغِيبُ عنه التَّصْدِيقُ وَالْوَعِيدُ فَيَعْصِي . وَلِهَذَا والله أَعْلَمُ قَالَ ﷺ : « **لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ** » (١) الْحَدِيثَ . فَهُوَ حِينَ يَزْنِي يَغِيبُ عنه تَصْدِيقُه بِحُرْمَة الزِّنَى . وَإِنْ بَقِي أَصْلُ التَّصْدِيقِ في قَلْبِه ، ثُمَّ يُعَاوِدُه . فَإِنَّ الْـمُتَّقِينَ كَمَا وَصَفَهُمُ الله تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١] ، وَفِي الْحَدِيثَ المَرْفُوع إِلَى النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّهُ قَالَ : « **إِذَا زَنَى الْعَبْدُ ، نُزِعَ مِنْهُ الْإِيمَانُ ، فَإِنْ تَابَ أُعِيدَ إِليه** » (٢).

= من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا ، وأخرجه أيضًا ابن حبان (موارد الظمآن ٢٠٨٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٢٤٥١) وغيرهم ، وفي بعض الطرق زيادات بعد قوله : « لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ »، وهي : « **إِنَّ الله ﷻ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ** ».

(١) صحيح: وقد تقدم .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٩٠) ،والحاكم (١/ ٢٢) ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا برواته ، وقال الذهبي على شرطهما . =

أثر العمل على قوة الإيمان وضعفه :

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ : إِنَّ الرَّسُولَ قَدْ وَقَفَنَا عَلَى مَعَانِي الْإِيمَانِ ، وَعَلِمْنَا مِنْ مُرَادِهِ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قِيلَ : أَنَّهُ صَدَّقَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِلِسَانِهِ بِالْإِيمَانِ ، مَعَ قُدْرَتِهِ على ذَلِكَ ، وَلَا صَلَّى ، وَلَا صَامَ . وَلَا أَحَبَّ الله ورسولَه ، وَلَا خَافَ الله ، بَلْ كَانَ مُبْغِضًا لِلرَّسُولِ ، مُعَادِيًا له يُقَاتِلُه ؛ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ .

كَمَا عَلِمْنَا أنه رَتَّبَ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعَ الْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا . فَقَدْ قَالَ ﷺ : « **الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَدْنَاهَا : إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ** »(١) .

وَقَالَ أَيْضًا ﷺ : « **الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ** »(٢) .

وَقَالَ أَيْضًا ﷺ : « **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا** »(٣) .

وَقَالَ أَيْضًا: « **الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ** »(٤) .

فَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ أَصْلًا ، له شُعَبٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، وَكُلُّ شُعْبَةٍ مِنْهَا تُسَمَّى : إِيمَانًا ؛

= قلت (مصطفى) : ولفظه: « **إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الإِيمَانُ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ فَإِذَا انْقَلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ** ».

(١) **صحيح** :أخرج البخاري(حديث ٩) ،ومسلم (حديث ٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ** » ، وفي لفظ لمسلم : « **الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَستُونَ ـ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَدْنَاهَا : إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ** » .

(٢) **صحيح** :وانظر: الحديث المتقدم .

(٣) **صحيح بمجموع طرقه** :أخرجه أبو داود (٤٦٨٢) ، والترمذي (١١٦٢) ،وقال : حسن صحيح ، وأحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢) ، وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا .

(٤) **في إسناده بعض الضعف والاختلاف** :أخرجه أبو داود (حديث ٤١٦١) ، وابن ماجه (حديث ٤١١٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩) ، وغيرهم من طريق عبد الله بن أبي أمامة عن أبيه مرفوعًا وقد أدخل بعض الرواة رجلًا بين عبد الله بن أبي أمامة وأبيه ، وعبد الله بن أبي أمامة هذا لم أر من وثقه من الأولين سوى ابن حبان .

فَالصَّلَاة مِنَ الْإِيمَانِ ، وَكَذَلِكَ الزَّكَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ ، وَالْأَعْمَالُ الْبَاطِنَة ، كَالْحَيَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَشْيَةِ مِنَ الله وَالْإِنَابَة إليه ، حتى تَنْتَهِي هذه الشُّعَبُ إلى إمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، فإنه مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ ، وَهَذِهِ الشُّعَبُ ، مِنْهَا : مَا يَزُولُ الْإِيمَانُ بِزَوَالِهَا ، كَشُعْبَة الشَّهَادَتين ، وَمِنْهَا : مَا لَا يَزُولُ بِزَوَالِهَا ، كَتَرْكِ إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَبَيْنَهُمَا شُعَبٌ مُتَفَاوِتَة تَفَاوُتًا عَظِيمًا ، مِنْهَا : مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَة الشَّهَادَة ، وَمِنْهَا : مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَة إِمَاطَة الْأَذَى ، وَكَمَا أَنَّ شُعَبَ الْإِيمَانِ إِيمَانٌ ، فَكَذَا شُعَبُ الْكُفْرِ كُفْرٌ ، فَالْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ الله مَثَلًا مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ ، وَالْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله كُفْرٌ .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « **مَنْ رأى مِنكُمْ مُنْكَرًا ، فَلْيُغَيِّرْه بِيَدِه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ** » [1]. رواه مُسْلِمٌ .

وفي لَفْظٍ : « **لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّة خَرْدَلٍ** » .

وروى الترمذيُّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ لله ، وَأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله : فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ** » [2]. ومعناه والله أَعْلَمُ أَنَّ الْحُبَّ وَالْبُغْضَ أَصْلُ حَرَكَةِ الْقَلْبِ ، وَبَذْلُ الْمَالِ وَمَنْعُه هُوَ كَمَالُ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْمَالَ آخِرُ الْمُتَعَلِّقَاتِ بِالنَّفْسِ ، وَالْبَدَنُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْمَالِ ، فَمَنْ كَانَ أَوَّلُ أَمْرِه وَآخِرُه كله لله ، كَانَ الله إِلَهَه في كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَمْ يَكُنْ فيه شَيْءٌ مِنَ الشِّرْكِ ، وَهُوَ إِرَادَة غَيْرِ الله وَقَصْدُه وَرَجَاؤُه ، فَيَكُونُ مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّة على قُوَّة الْإِيمَانِ وَضَعْفِه بِحَسَبِ الْعَمَلِ .

وَيَأْتِي في كَلَامِ الشَّيْخ رَحِمَهُ اللهُ في شَأْنِ الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم : « وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ » . فَسَمَّى حُبَّ الصَّحَابَة إِيمَانًا ،

---

(١) **صحيح** :أخرجه مسلم (حديث ٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) **صحيح بمجموع طرقه وشواهده**:أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٨١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا ، وله شواهد انظر : مسند أحمد (٣/ ٤٣٨ـ ٤٤٠) .

وَبُغْضَهُمْ كُفْرًا .

بَعْضُ الأدلَّة على زِيادةِ الإيمانِ ونقْصانه :

وَالْأَدِلَّةُ على زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ مِنَ الْكِتَابِ والسنة وَالْآثَارِ السَّلَفِيَّة كثيرة جِدًّا ، مِنْهَا : قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ [الأنفال:٢] . ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم:٧٦] . ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾ [المدثر:٣١] . ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] . ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣] . وَكَيْفَ يُقَالُ فِي هَذِهِ الآية والتي قَبْلَهَا : إِنَّ الزِّيَادَة بِاعْتِبَارِ زِيَادَة الْمُؤْمِنِ بِهِ ؟ فَهَلْ فِي قَوْلِ النَّاسِ : ﴿ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ زِيَادَة مَشْرُوعٍ ؟ وَهَلْ فِي إِنْزَالِ السَّكِينَة على قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ زِيَادَة مَشْرُوعٍ ؟ وَإِنَّمَا أَنْزَلَ الله السَّكِينَة فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَرْجِعَهُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَة لِيَزْدَادُوا طُمَأْنِينَة وَيَقِينًا ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قوله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [آل عمران:١٦٧] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥] .

وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ بِنُقْصَانِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ [(١)]. وَقَالَ ﷺ : « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ وَلَدِه وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** » [(٢)] . وَالْمُرَادُ : نَفْي الْكَمَالِ . وَنَظَائِرُه كثيرة ، وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمَانِ ، وَحَدِيثُ الشَّفَاعَة ، وأنه

(١) صحيح: انظر البخاري (حديث ٣٠٤) ، ومسلم (حديث ٧٩) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٥) ، ومسلم (حديث ٤٤) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا

يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِه أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ . فَكَيْفَ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا : إِنَّ إِيمَانَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سَوَاءٌ ؟ وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِمَعَانٍ أُخَرَ غَيْرِ الْإِيمَانِ ؟ !

وَكَلَامُ الصَّحَابَة رضي الله عنهم فِي هَذَا المعنى كَثِيرٌ أَيْضًا :

كَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه يَقُولُ لِرَجُلٍ : اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً(١) . وَمِثْلُه عَنْ عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَة رضي الله عنه .

وَصَحَّ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه أنه قَالَ : ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ : إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِه ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ ، وَبَذْلِ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ(٢) . ذكره البخاري رحمه الله فِي «صَحِيحِه» .

وَفِي هَذَا الْقدرِ كِفَايَةٌ ، وَبِالله التَّوْفِيقُ .

وَأَمَّا كَوْنُ عَطْفِ الْعَمَلِ على الْإِيمَانِ يَقْتَضِي الْـمُغَايَرَة ، فَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا في مسمى الْإِيمَانِ : فَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِيمَانَ تَارَة يُذْكَرُ مُطْلَقًا عَنِ الْعَمَلِ وَعَنِ الْإِسْلَامِ ، وَتَارَةً يُقْرَنُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَتَارَةً يُقْرَنُ بِالْإِسْلَامِ . فَالْـمُطْلَقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْأَعْمَالِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأنفال:٢] . ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ الآية [الحجرات:١٥] . ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النور:٦٢] . ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٨١] .

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا (مع الفتح ١/ ٤٨ط . دار المعرفة) ، وقد صحح الحافظ ابن حجر إسناده إلى الأسود بن هلال قال : قال لي معاذ بن جبل : اجلس بنا نؤمن ساعة ،وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٢٦أثر ـ ١٠٤١٤)، ورجاله ثقات ،ولا تشوبه إلا عنعنة الأعمش .

(٢) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به (مع الفتح ط . دار المعرفة) (١/ ٨٢) ،وانظر : كلام الحافظ ابن حجر عليه هناك .

وَقَالَ ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » (١) الْحَدِيثَ .

« لَا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا » (٢).

« مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » « مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ ، فَلَيْسَ مِنَّا » (٣).

وجوه العطف في الكلام :

وأَمَّا إِذَا عُطِفَ عليه الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، فَاعْلَمْ أَنَّ عَطْفَ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عليه مَعَ الِاشْتِرَاكِ في الْحُكْمِ الذي ذُكِرَ لَهُمَا ، وَالْمُغَايَرَة على مَرَاتِبَ :

أَعْلَاهَا : أَنْ يَكُونَا مُتَبَايِنَيْنِ ، لَيْسَ أَحَدُهُمَا هُوَ الْآخَرَ ، وَلَا جُزْءَهُ ، وَلَا بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] . ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران:٣] . وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ .

وَيَلِيه : أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢] . ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة:٩٢]

الثَّالِثُ : عَطْفُ بَعْضِ الشَّيْءِ عليه ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٨] . ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة:٩٨] . ﴿ مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ ﴾ [الأحزاب:٧] .

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٥٤) من أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ ».

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٠١) ، من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا .

وفي مِثْلِ هَذَا وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا في الْأَوَّلِ ، فَيَكُونُ مَذْكُورًا مَرَّتَيْنِ .

والثاني : أَنَّ عَطْفَه عليه يَقْتَضِي أنه لَيْسَ دَاخِلًا فيه هُنَا ، وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فيه مُنْفَرِدًا ، كَمَا قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ في لَفْظِ : « الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ » وَنَحْوِه مما تَتَنَوَّعُ دِلَالَتُه بِالْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ .

الرَّابِعُ : عَطْفُ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ لِاخْتِلَافِ الصِّفَتَيْنِ ، كَقَوْلِه تَعَالَى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ [غافر:٣] . وَقَدْ جَاءَ في الشِّعْرِ الْعَطْفُ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظِ فَقَطْ ، كَقَوْلِه :

فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ في الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] . وَالْكَلَامُ على ذَلِكَ مَعْرُوفٌ في مَوْضِعِه .

طرف من الكلام على الإيمان والإسلام :

فَإِذَا كَانَ الْعَطْفُ في الْكَلَامِ يَكُونُ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوه ، نَظَرْنَا في كَلَامِ الشَّارِعِ : كَيْفَ وَرَدَ فيه الْإِيمَانُ ؟ فَوَجَدْنَاه إِذَا أُطْلِقَ يُرَادُ بِلَفْظِ الْبِرِّ ، وَالتَّقْوَى ، وَالدِّينِ ، وَدِينِ الْإِسْلَامِ .

وفي «الصَّحِيحِ» قولُه لِوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ : « آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله ؟ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ له ، وَإِقَامُ الصلاة ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاة ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ » (١) .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٥٣) ،وفي عدة مواضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ١٧) ، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يَرِدْ أَنَّ هذه الْأَعْمَالَ تَكُونُ إِيمَانًا بالله بِدُونِ إِيمَانِ الْقَلْبِ ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ فِي مَوَاضِعَ أنه لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانِ الْقَلْبِ ، فَعُلِمَ أَنَّ هذه مَعَ إِيمَانِ الْقَلْبِ وهُوَ الْإِيمَانُ .

وَأَي دَلِيلٍ على أَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَة في مسمى الْإِيمَانِ فَوْقَ هَذَا الدَّلِيلِ ؟ فإنه فَسَّرَ الْإِيمَانَ بِالْأَعْمَالِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ التَّصْدِيقَ ، لِلْعِلْمِ بِأَنَّ هذه الْأَعْمَالَ لَا تُفِيدُ مَعَ الْجُحُودِ .

وفي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ على الْمُغَايرَة بَيْنَ الْإِسْلَام وَالْإِيمَانِ . وَيُؤَيِّدُه حَدِيثِ جِبْرِيلَ عليه السلام ، وَقَدْ قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ : « هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينكُمْ »(١). فَجعَلَ الدِّينَ هُوَ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِحْسَانَ ، فَبَيَّنَ أَنَّ دِينَنَا يَجْمَعُ الثَّلَاثَة . لَكِنْ هُوَ دَرَجَاتٌ ثَلَاثَة : مُسْلِمٌ ، ثُمَّ مُؤْمِنٌ ، ثُمَّ مُحْسِنٌ . وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ : مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِسْلَامِ قَطْعًا ، كَمَا أنه أُرِيدَ بِالْإِحْسَانِ : مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَام . لَا أَنَّ الْإِحْسَانَ يَكُونُ مُجَرَّدًا عَنِ الْإِيمَانِ ، هَذَا مُحَالٌ . وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[فاطر:٣٢] . وَالْمُقْتَصِدُ وَالسَّابِقُ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّة بِلَا عُقُوبَة ، بِخِلَافِ الظَّالِمِ لِنَفْسِه ، فإنه مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ .

وَهَكَذَا مَنْ أَتَى بِالْإِسْلَام الظَّاهِرِ مَعَ التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ ، لَكِنْ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ عليه مِنَ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ ؛ فإنه مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ .

فَأَمَّا الْإِحْسَانُ ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنْ جِهَة نَفْسِه ، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَة أَهْلِه ، وَالْإِيمَانُ أَعَمُّ مِنْ جِهَة نَفْسِه ، وَأَخَصُّ مِنَ جِهَة أَهْلِه مِنَ الْإِسْلَام ، فَالْإِحْسَانُ يَدْخُلُ فيه الْإِيمَانُ ، وَالْإِيمَانُ يَدْخُلُ فيه الْإِسْلَامُ . وَالْمُحْسِنُونَ أَخَصُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَخَصُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا كَالرِّسَالَة وَالنُّبُوَّة ، فَالنُّبُوَّة دَاخِلَة في

(١) صحيح ،وقد تقدم .

الرِّسَالَة ، وَالرِّسَالَة أَعَمُّ مِنْ جِهَة نَفْسِهَا ، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَة أَهْلِهَا ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِي ، وَلَا يَنْعَكِسُ .

وَقَدْ صَارَ النَّاسُ فِي مسمى الْإِسْلَامِ على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ :

فَطَائِفَة : جَعَلَتِ الْإِسْلَامَ هُوَ الْكَلِمَة .

وَطَائِفَة : أَجَابُوا بِمَا أَجَابَ به النبي ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِسْلَام وَالْإِيمَانِ ، حَيْثُ فَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة ، وَالْإِيمَانَ بِالْإِيمَانِ بِالْأُصُولِ الْخَمْسَة .

وَطَائِفَة : جعَلُوا الْإِسْلَامَ مُرَادِفًا لِلْإِيمَانِ ، وَجعَلُوا معنى قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ : « **إن الْإِسْلَامُ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَإِقَامُ الصلاة** »(١) ، الْحَدِيثَ : شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ . وَالْأَصْلُ عَدَمُ التَّقْدِيرِ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ ، ثُمَّ قَالُوا : الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، فَيَكُونُ الْإِسْلَامُ هُوَ التَّصْدِيقَ ! وَهَذَا لَمْ يَقُلْه أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَة ، وَإِنَّمَا هُوَ الِانْقِيَادُ وَالطَّاعَة ، وَقَدْ قَالَ النبي ﷺ : « **اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ** »(٢) . وَفَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة ، وَالْإِيمَانَ بِالْإِيمَانِ بِالْأُصُولِ الْخَمْسَة . فَلَيْسَ لَنَا إِذَا جَمَعْنَا بَيْنَهُمَا أَنْ نُجِيبَ بِغَيْرِ مَا أَجَابَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ .

وَأَمَّا إِذَا أُفْرِدَ اسْمُ الْإِيمَانِ ، فإنه يَتَضَمَّنُ الْإِسْلَامَ ، وَإِذَا أُفْرِدَ الْإِسْلَامُ ، فَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْإِسْلَامِ مُؤْمِنًا بِلَا نِزَاعٍ ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ ، وَهَلْ يَكُونُ مُسْلِمًا وَلَا يُقَالُ له : مُؤْمِنٌ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فيه .

وَكَذَلِكَ هَلْ يَسْتَلْزِمُ الْإِسْلَامُ الْإِيمَانَ ؟ فيه النِّزَاعُ الْمَذْكُورُ ، وَإِنَّمَا وَعَدَ الله بِالْجَنَّة فِي الْقُرْآنِ ، وَبِالنَّجَاة مِنَ النَّارِ بِاسْمِ الْإِيمَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ

---

(١) صحيح : وهو ضمن الحديث المتقدم .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري ضمن حديث طويل في صحيحه (حديث ١١٢٠) ، وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾

[الحديد:٢١]

وَأَمَّا اسْمُ الْإِسْلَامِ مُجَرَّدًا ، فَمَا عُلِّقَ به في الْقُرْآنِ دُخُولُ الْجَنَّة ، لَكِنَّه فَرَضَهُ ، وَأَخْبَرَ أنه دِينُه الذي لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاه ، وبه بَعَثَ النَّبِيِّينَ ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] .

فَالْحَاصِلُ أَنَّ حَالَةَ اقْتِرَانِ الْإِسْلَامِ بِالْإِيمَانِ غَيْرُ حَالَة إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ ، فَمَثَلُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِيمَانِ ، كَمَثَلِ الشَّهَادَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مِنَ الأخرى ، فَشَهَادَة الرِّسَالَة غَيْرُ شَهَادَة الْوَحْدَانِيَّة ، فَهُنَا شَيْئَانِ في الْأَعْيَانِ ، وَإِحْدَاهُمَا مُرْتَبِطَة بِالْأُخْرَى في المعنى وَالْحُكْمِ ، كَشَيْءٍ وَاحِدٍ . كَذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ ، لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا إِسْلَامَ له ، وَلَا إِسْلَامَ لِمَنْ لَا إِيمَانَ له ، إِذْ لَا يَخْلُو الْمُؤْمِنُ مِنْ إِسْلَامٍ به يَتَحَقَّقُ إِيمَانُه ، وَلَا يَخْلُو الْمُسْلِمُ مِنْ إِيمَانٍ به يَصِحُّ إِسْلَامُه .

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ في كَلَامِ الله ورسوله وفي كَلَامِ النَّاسِ كثيرةٌ أَعْنِي في الْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ .

مِنْهَا : لَفْظُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، فَالْكُفْرُ إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا في وَعِيدِ الْآخِرَة دَخَلَ فيه الْمُنَافِقُونَ ، كَقَوْلِه تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٥] . وَنَظَائِرُه كثيرة . وَإِذَا قُرِنَ بَيْنَهُمَا كَانَ الْكَافِرُ مَنْ أَظْهَرَ كُفْرَه ، وَالْمُنَافِقُ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِه وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِه .

وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَفْظُ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَلَفْظُ التَّوْبَة وَالِاسْتِغْفَارِ ،

وَلَفْظُ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

وَيَشْهَدُ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤] ، إلى آخرِ السورة . وَقَدِ اعْتُرِضَ على هَذَا بِأَنَّ معنى الآية ؛ ﴿ قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ : انْقَدْنَا بِظَوَاهِرِنَا ، فَهُمْ مُنَافِقُونَ في الْحَقِيقَة ، وَهَذَا أَحَدُ قولي الْمُفَسِّرِينَ في هذه الآية الْكَرِيمَة ، وَأُجِيبَ بِالْقَوْلِ الْآخَرِ ، وَرُجِّحَ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ كَامِلِي الْإِيمَانِ ، لَا أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ ، كَمَا نَفَى الْإِيمَانَ عَنِ الْقَاتِلِ ، وَالزَّانِي ، وَالسَّارِقِ ، وَمَنْ لَا أَمَانَة له. وَيُؤَيِّدُ هَذَا سِيَاقُ الآية وسياقُها ، فَإِنَّ السورة مِنْ أَوَّلِهَا إلى هُنَا في النَّهْيِ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَأَحْكَامِ بَعْضِ الْعُصَاة ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [الحجرات:١٤] ، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ مَا نَفَعَتْهُمُ الطَّاعَة ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ [الحجرات:١٥] .الآية ، يعني والله أَعْلَمُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِي الْإِيمَانِ ، هُمْ هَؤُلَاءِ ، لَا أَنْتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ مُنْتَفِي عَنْكُمُ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ . يُؤَيِّدُ هَذَا : أنه أَمَرَهُمْ ، أَوْ أَذِنَ لَهُمْ ، أَنْ يَقُولُوا : أَسْلَمْنَا ، وَالْمُنَافِقُ لَا يُقَالُ له ذَلِكَ ، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ ، لَنَفَى عَنْهُمُ الْإِسْلَامَ ، كَمَا نَفَى عَنْهُمُ الْإِيمَانَ ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَمُنُّوا بِإِسْلَامِهِمْ ، فَأَثْبَتَ لَهُمْ إِسْلَامًا ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَمُنُّوا به على رسوله ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِسْلَامًا صَحِيحًا ، لَقَالَ : لَمْ تُسْلِمُوا ، بَلْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ ، كَمَا كَذَّبَهُمْ في قَوْلِهِمْ : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون:١] . والله أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

قَوْلَ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ الله ، مسألة الِاسْتِثْنَاءِ في الْإِيمَانِ ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلَ : أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ الله . وَالنَّاسُ فيه على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ : طَرَفَانِ وَوَسَطٌ ، مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُه ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَرِّمُه ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُه بِاعْتِبَارٍ وَيَمْنَعُه بِاعْتِبَارٍ ، وَهَذَا أَصَحُّ

الْأَقْوَالِ .ألا وهو قول : مَنْ يُجَوِّزُ الِاسْتِثْنَاءَ وَتَرْكَه ، فَهُمْ أَسْعَدُ بِالدَّلِيلِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا : فَإِنْ أَرَادَ الْمُسْتَثْنِي الشَّكَّ فِي أَصْلِ إِيمَانِه مُنِعَ مِنْ الِاسْتِثْنَاءِ ، وَهَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ فيه ، وَإِنْ أَرَادَ أنه مُؤْمِنٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الله فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢-٤] .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

[الحجرات:١٥]

فَالِاسْتِثْنَاءُ حِينَئِذٍ جَائِزٌ ، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَثْنَى وَأَرَادَ عَدَمَ عِلْمِه بِالْعَاقِبَة ، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَثْنَى تَعْلِيقًا لِلْأَمْرِ بِمَشِيئَة الله ، لَا شَكًّا فِي إِيمَانِه ، وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْقُوَّة كَمَا تَرَى .

*****

قوله : « وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كله حَقٌّ » .

ش : يُشِيرُ الشَّيْخُ رحمه الله بِذَلِكَ إلى الرَّدِّ على الْجَهْمِيَّة وَالْمُعَطِّلَة وَالْمُعْتَزِلَة وَالرَّافِضَة ، الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْأَخْبَارَ قِسْمَانِ : مُتَوَاتِرٌ وَآحَادٌ ، فَالْمُتَوَاتِرُ وَإِنْ كَانَ قَطْعِي السَّنَدِ - لَكِنَّه غَيْرُ قَطْعِي الدِّلَالَة ، فَإِنَّ الْأَدِلَّة اللَّفْظِيَّة لَا تُفِيدُ الْيَقِينَ !! وَبِهَذَا قَدَحُوا فِي دِلَالَة الْقُرْآنِ على الصِّفَاتِ ! قَالُوا : وَالْآحَادُ لَا تُفِيدُ الْعِلْمَ ، وَلَا يُحْتَجُّ بِهَا مِنْ جِهَة طَرِيقِهَا ، وَلَا مِنْ جِهَة مَتْنِهَا ! فَسَدُّوا على الْقُلُوبِ مَعْرِفَة الرَّبِّ

تعالى وَأَسْمَائِه وَصِفَاتِه وَأَفْعَالِه مِنْ جِهَة الرَّسُولِ ، وَأَحَالُوا النَّاسَ على قَضَايَا وَهْمِيَّة ، وَمُقَدِّمَاتٍ خَيَالِيَّة ، سَمَّوْهَا قَوَاطِعَ عَقْلِيَّة ، وَبَرَاهِينَ يَقِينِيَّة ! ! وهي في التَّحْقِيق : ﴿ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:٣٩، ٤٠].

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّهُمْ قَدَّمُوهَا على نُصُوصِ الْوَحْي ، وَعَزَلُوا لِأَجْلِهَا النُّصُوصَ ، فَأَقْفَرَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الاهْتِدَاءِ بِالنُّصُوصِ ، وَلَمْ يَظْفَرُوا بِقضَايَا الْعُقُولِ الصَّحِيحَة الْمُؤَيَّدَة بِالْفِطْرَة السَّلِيمَة وَالنُّصُوصِ النَّبَوِيَّة ، وَلَوْ حَكَّمُوا نُصُوصَ الْوَحْي ، لَفَازُوا بِالْمَعْقُولِ الصَّحِيحِ ، الْمُوَافِقِ لِلْفِطْرَة السَّلِيمَة .

بَلْ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ أَرْبَابِ الْبِدَعِ يَعْرِضُ النُّصُوصَ على بِدْعَتِه ، وَمَا ظَنَّه مَعْقُولًا فَمَا وَافَقَه قَالَ : أنه مُحْكَمٌ ، وقبِلَهُ ، وَاحْتَجَّ به ! ! وَمَا خَالَفَه قَالَ : أنه مُتَشَابِه ، ثُمَّ رَدَّه ، وَسَمَّى رَدَّه تَفْوِيضًا ! أَوْ حَرَّفَه ، وَسَمَّى تَحْرِيفَه تَأْوِيلًا ! ! فَلِذَلِكَ اشْتَدَّ إِنْكَارُ أَهْلِ السنة عَلَيْهِمْ .

وَطَرِيقُ أَهْلِ السنة : أَنْ لَا يَعْدِلُوا عَنِ النَّصِّ الصَّحِيحِ ، وَلَا يُعَارِضُوه بِمَعْقُولٍ ، وَلَا قَوْلِ فُلَانٍ ، كَمَا أَشَارَ إليه الشَّيْخُ .

وَكَمَا قَالَ البخاري رَحِمَهُ اللهُ : سَمِعْتُ الْحُمَيْدِي يَقُولُ : كُنَّا عِنْدَ الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللهُ ، فَأَتَاه رَجُلٌ ، فَسَأَلَه عَنْ مسألة ، فَقَالَ : قَضَى فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ رجُلُ لِلشَّافِعِي : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟ ! فَقَالَ : سُبْحَانَ الله ! تَرَانِي في كَنِيسَة ! تَرَانِي في بِيعَة ! تَرَى على وَسَطِي زُنَّار ؟ ! أَقُولُ لَكَ : قَضَى رَسُولُ الله ﷺ ، وَأَنْتَ تَقُولُ : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟ !

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ السَّلَفِ كَثِيرٌ .

وَقَالَ تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الأحزاب : ٣٦] .

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَقَّتْه الْأُمَّة بِالْقَبُولِ ، عَمَلًا به وَتَصْدِيقًا له : يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِي عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأُمَّة ، وَهُوَ أَحَدُ قِسْمَي الْمُتَوَاتِرِ . وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّة فِي ذَلِكَ نِزَاعٌ ، كَخَبَرِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: « **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ** » (١)، وَخَبَرِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ « **نَهَى عَنْ بَيْعِ الْوَلَاءِ وَهِبَتِه** » (٢)وَخَبَرِ أبي هريرة : « **لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَة على عَمَّتِهَا وَلَا على خَالَتِهَا** » (٣)، وَكَقَوْلِه : « **يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ** » (٤)، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَهُوَ نَظِيرُ خَبَرِ الذي أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْقِبْلَة تَحَوَّلَتْ إلى الْكَعْبَة . فَاسْتَدَارُوا إِلَيْهَا (٥).

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُرْسِلُ رُسُلَه آحَادًا ، وَيُرْسِلُ كُتُبَه مَعَ الْآحَادِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ : لَا نَقْبَلُه ؛ لأنه خَبَرٌ وَاحِدٌ ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة:٣٣] . فَلَا

---

(١) صحيح :وقد تقدم .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٢٥٣٥، ٢٧٥٦) ، ومسلم (حديث ١٥٠٦) من حديث ابن عمر ﷺمرفوعًا.

(٣)أخرجه البخاري (حديث ٥١١٠) ،ومسلم (ص١٠٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺقال : « نهى النبي ﷺأن تنكح المرأة على عمتها والمرأة على خالتها » .

(٤) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٢٦٤٥) ، ومسلم (حديث ١٤٤٧) من حديث ابن عباس ﷺمرفوعًا.

(٥) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٤٠٣) ، وفي عدة مواطن من صحيحه ،ومسلم (حديث ٥٢٦) ، من حديث ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ : « بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّأْمِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ» .

بُدَّ أَنْ يَحْفَظَ الله حُجَجَه وَبَيِّنَاتِه على خَلْقِه ، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجَه وَبَيِّنَاتِه .

وَلِهَذَا فَضَحَ الله مَنْ كَذَبَ على رسوله في حَيَاتِه وَبَعْدَ وَفَاتِه ، وَبَيَّنَ حَالَه لِلنَّاسِ . قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة : مَا سَتَرَ الله أَحَدًا يَكْذِبُ في الْحَدِيثِ . وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ الْمُبَارَكِ : لَوْ هَمَّ رَجُلٌ في السَّحَرِ أَنْ يَكْذِبَ في الْحَدِيثِ ، لَأَصْبَحَ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : فُلَانٌ كَذَّابٌ .

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ وَإِنْ كَانَ يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ ، وَلَكِنَّ التَّفْرِيقَ بَيْنَ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ وَسَقِيمِهَا لَا يَنَالُه أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مُعْظَمَ أَوْقَاتِه مُشْتَغِلًا بِالْحَدِيثِ ، وَالْبَحْثِ عَنْ سِيرَة الرُّوَاة ، لِيَقِفَ على أَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَشِدَّة حَذَرِهِمْ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالزَّلَلِ ، وَكَانُوا بِحَيْثُ لَوْ قُتِلُوا لَمْ يُسَامِحُوا أَحَدًا في كَلِمَة يَتَقَوَّلُهَا على رَسُولِ الله ﷺ ، وَلَا فَعَلُوا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ . وَقَدْ نَقَلُوا هَذَا الدِّينَ إِلَيْنَا كَمَا نُقِلَ إِلَيْهِمْ ، فَهُمْ تُرُكُ الْإِسْلَامِ وَعِصَابَةُ الْإِيمَانِ ، وَهُمْ نُقَّادُ الْأَخْبَارِ ، وَصَيَارِفَةُ الْأَحَادِيثِ ، فَإِذَا وَقَفَ الْمَرْءُ على هَذَا مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَعَرَفَ حَالَهُمْ ، وَخَبَرَ صِدْقَهُمْ وَوَرَعَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ ، ظَهَرَ له الْعِلْمُ فِيمَا نَقَلُوه وَرَوَوْه .

وَمَنْ له عَقْلٌ وَمَعْرِفَةٌ يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ نَبِيِّهِمْ وَسِيرَتِه وَأَخْبَارِه ، مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ به شُعُورٌ ، فَضْلًا أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لَهُمْ أَوْ مَظْنُونًا ، كَمَا أَنَّ النُّحَاة عِنْدَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ سِيبَوَيْه وَالْخَلِيلِ وَأَقْوَالِهِمَا مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَعِنْدَ الْأَطِبَّاءِ مِنْ كَلَامِ بُقْرَاطَ وَجَالِينُوسَ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَكُلُّ ذِي صَنْعَة هُوَ أَخْبَرُ بِهَا مِنْ غيره ، فَلَوْ سَأَلْتَ الْبَقَّالَ عَنْ أَمْرِ الْعِطْرِ ، أَوِ الْعَطَّارَ عَنِ الْبَزِّ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ! ! لَعُدَّ ذَلِكَ جَهْلًا كَثِيرًا .

وَلَكِنَّ النُّفَاة قَدْ جَعَلُوا قَوْلَه تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١] : مُسْتَنَدًا لَهُمْ في رَدِّ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة ، فَكُلَّمَا جَاءَهُمْ حَدِيثٌ يُخَالِفُ قَوَاعِدَهُمْ

وَآرَاءَهُمْ ، وَمَا وَضَعَتْه خَواطِرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ ، رَدُّوه بِـ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ ، تَلْبِيسًا مِنْهُمْ وَتَدْلِيسًا على مَنْ هُوَ أَعْمَى قَلْبًا مِنْهُمْ ، وَتَحْرِيفًا لمعنى الْآيَة عَنْ مَوَاضِعِه .

فَفَهِمُوا مِنْ أَخْبَارِ الصِّفَاتِ مَا لَمْ يُرِدْهُ الله وَلَا رسولُه ، وَلَا فَهِمَه أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّة الْإِسْلَامِ ، أنه يَقْتَضِي إِثْبَاتُهَا التَّمْثِيلَ بِمَا لِلْمَخْلُوقِينَ ! ثُمَّ اسْتَدَلُّوا على بُطْلَانِ ذَلِكَ بِـ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ تَحْرِيفًا لِلنَّصَّيْنِ ! ! وَيُصَنِّفُونَ الْكُتُبَ ، وَيَقُولُونَ : هَذَا أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ الذي أَمَرَ الله به ، وَجَاءَ مِنْ عِنْدِه ، وَيَقْرَءُونَ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ وَيُفَوِّضُونَ معناه إلى الله تعالى ، مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ لِمَعْنَاه الذي بَيَّنَه الرَّسُولُ ، وَأَخْبَرَ أنه معناه الذي أَرَادَه الله .

وَيُشِيرُ الشَّيْخُ رحمه الله بقوله : «مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ» إلى أَنَّ مَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَوْعَانِ : شَرْعٌ ابْتِدَائِي ، وَبَيَانٌ لِمَا شَرَعَه الله في كِتَابِه الْعَزِيزِ ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ حَقٌّ وَاجِبُ الِاتِّبَاعِ .

وقوله : « وَأَهْلُه في أَصْلِه سَوَاءٌ [1] ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِيقَة وَمُخَالَفَة الْهَوَى ، وَمُلَازَمَة الأولى » [2] .

وفي بَعْضِ النُّسَخِ : « بِالْخَشْيَة وَالتُّقَى » بَدَلَ قوله : « بِالْحَقِيقَة ». ففي الْعِبَارَة الأولى يُشِيرُ إلى أَنَّ الْكُلَّ مُشْتَرِكُونَ في أَصْلِ التَّصْدِيقِ ، وَلَكِنَّ التَّصْدِيقَ يَكُونُ بَعْضُه أَقْوَى مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتَ ، كَمَا تَقَدَّمَ تَنْظِيرُه بِقُوَّة الْبَصَرِ وَضَعْفِه . وفي الْعِبَارَة الأخرى يُشِيرُ إلى أَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ ، وَأَمَّا التَّصْدِيقُ فَلَا

---

(١) تقدم أن هذا اللفظ مشكل وغامض ، وعليه مؤاخذات كثيرة وتفاضل المؤمنين في الإيمان دلت عليه أدلة كثيرة جدًّا .

(٢) هذه بعض أسباب التفاضل وليست بكل الأسباب .

تَفَاوُتَ فيه . والمعنى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ قُوَّة ، والله أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

*****

قوله : « وَالْـمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ » .

ش : قَالَ تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣] ، الْوَلِي : مِنَ الْوِلَايَة بِفَتْحِ الْوَاوِ ، التي هي ضِدُّ الْعَدَاوَة .

فَالْـمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءُ الله ، والله تَعَالَى وَلِيُّهُمْ ، قَالَ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ الآية [البقرة:٢٥٧]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:١١] . وَالْـمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ الآية [التوبة:٧١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال:٧٢] ، إلى آخِرِ السورة . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٥٥، ٥٦] .

فهذه النُّصُوصُ كُلُّهَا ثَبَتَ فِيهَا مُوَالَاة الْـمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَأَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ الله ، وَأَنَّ الله وَلِيُّهُمْ وَمَوْلَاهُمْ . فالله يَتَوَلَّى عِبَادَه الْـمُؤْمِنِينَ ، فَيُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه ، وَيَرْضَى عَنْهُمْ وَيَرْضَوْنَ عنه ، وَمَنْ عَادَى له وَلِيًّا ، فَقَدْ بَارَزَه بِالْـمُحَارَبَة . وهذه الْوِلَايَة مِنْ رَحْمَتِه وَإِحْسَانِه ، لَيْسَتْ كَوِلَايَة الْـمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ لِحَاجَتِه إليه . قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[الإسراء:١١١] . فالله تَعالَى لَيْس له وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، بَلْ لله الْعِزَّة جَمِيعًا ، خِلَافَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَتَوَلَّاه لِذُلِّه وَحَاجَتِه إلى وَلِي يَنْصُرُه .

وَالْوِلَايَة أَيْضًا نَظِيرُ الْإِيمَانِ ، فَيَكُونُ مُرَادُ الشَّيْخِ : أَنَّ أَهْلَهَا في أَصْلِهَا سَوَاءٌ [١] ، وَتَكُونُ كَامِلَةً وَنَاقِصَة ، فَالْكَامِلَة تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْـمُتَّقِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[يونس:٦٢ـ٦٤] ، فَالْوِلَايَة لِمَنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، وَهُمْ أَهْلُ الْوَعْدِ الْـمَذْكُورِ في الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ، وهي عِبَارَة عَنْ مُوَافَقَة الْوَلِي الْحَمِيدِ في مَحَابِّه وَمَسَاخِطِه ، لَيْسَتْ بِكَثْرَة صَوْمٍ وَلَا صلاة ، وَلَا تَمَزُّقٍ وَلَا رِيَاضَة ، وَقِيلَ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾مُبْتَدَأٌ ، وَالْخَبَرُ ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ وَهُوَ بَعِيدٌ ، لِقَطْعِ الْجُمْلَة عَمَّا قَبْلَهَا ، وَانْتِثَارِ نَظْمِ الآية .

وَيَجْتَمِعُ في الْـمُؤْمِنِ وِلَايَةٌ مِنْ وَجْه ، وَعَدَاوَة مِنْ وَجْه ، كَمَا قَدْ يَكُونُ فيه كُفْرٌ وَإِيمَانٌ ، وَشِرْكٌ وَتَوْحِيدٌ ، وَتَقْوَى وَفُجُورٌ ، وَنِفَاقٌ وَإِيمَانٌ . وَإِنْ كَانَ في هَذَا الْأَصْلِ نِزَاعٌ لَفْظِي بَيْنَ أَهْلِ السنة ، وَنِزَاعٌ مَعْنَوِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبِدَعِ ، كَمَا تَقَدَّمَ في الْإِيمَانِ ، وَلَكِنَّ مُوَافَقَة الشَّارِعِ في اللَّفْظِ والمعنى أولى مِنْ مُوَافَقَتِه في المعنى وَحْدَه ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾[الحجرات:١٤] الآية . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ على هذه الآية ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ على أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ .

---

(١) كذلك القول في الولاية على هذا المذكور مؤاخذات .

وَقَالَ ﷺ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فيه خصلة مِنْهُنَّ كَانَتْ فيه خصلة مِنَ النِّفَاقِ حتى يَدَعَهَا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ »(١) ، وَفِي رِوَايَة : « وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » ، بَدَلَ : « وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ » . أَخْرَجَاه في «الصَّحِيحَيْن» . وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمَانِ تَقَدَّمَ . وقولُه ﷺ : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ »(٢) .

فَعُلِمَ أَنَّ مَنْ كَانَ معه مِنَ الْإِيمَانِ أَقَلُّ الْقَلِيلِ لَمْ يُخَلَّدْ فِي النَّارِ ، وَإِنْ كَانَ معه كَثِيرٌ مِنَ النِّفَاقِ ، فَهُوَ يُعَذَّبُ فِي النَّارِ على قَدْرِ مَا معه مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ .

فَالطَّاعَاتُ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ ، وَالْمَعَاصِي مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ ، وَإِنْ كَانَ رَأْسُ شُعَبِ الْكُفْرِ الْجُحودَ ، وَرَأْسُ شُعَبِ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقَ .

وَأَمَّا أَوْلِيَاءُ الله الْكَامِلُونَ فَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾[يونس:٦٢-٦٤] .

وَالتَّقْوَى : هِيَ الْمَذْكُورَة فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٧] .

وَهُمْ قِسْمَانِ : مُقْتَصِدُونَ ، وَمُقَرَّبُونَ . فَالْمُقْتَصِدُونَ : الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بِالْفَرَائِضِ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ . وَالسَّابِقُونَ : الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ ، كَمَا في «صَحِيحِ البخاري» عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « يَقُولُ الله تعالى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَة ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عليه ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّه ، فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به ، وَبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به ، وَيَدَه التي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَه التي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّه ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّه ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْـمُؤْمِنِ ، يَكْرَه الْـمَوْتَ وَأَكْرَه مَسَاءَتَه » (١) .

وَالْوَلِي : خِلَافُ الْعَدُوِّ ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَلَي ، وَهُوَ الدُّنُوُّ وَالتَّقَرُّبُ ، فَوَلِي الله : هُوَ مَنْ وَالَى الله بِمُوَافَقَتِه فِي مَحْبُوبَاتِه ، وَالتَّقَرُّبِ إليه بِمَرْضَاتِه ، وَهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢، ٣] . فَالْـمُتَّقُونَ يَجْعَلُ الله لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا ضَاقَ على النَّاسِ ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ، فَيَدْفَعُ الله عَنْهُمُ الْـمَضَارَّ ، وَيَجْلِبُ لَهُمُ الْـمَنَافِعَ ، وَيُعْطِيهِمُ الله أَشْيَاءَ يَطُولُ شَرْحُهَا ، مِنَ الْـمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ .

❊❊❊❊❊

قوله : « وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ الله أَطْوَعُهُمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ » .

ش : أَيْ : أَكْرَمُ الْـمُؤْمِنِينَ هُوَ الْأَطْوَعُ لله ، وَالْأَتْبَعُ لِلْقُرْآنِ ، وَهُوَ الْأَتْقَى ، وَالْأَتْقَى هُوَ الْأَكْرَمُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣] . وفي «السُّنَنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَبْيَضَ على أَسْوَدَ ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » (٢) . وَبِهَذَا الدَّلِيلِ يَظْهَرُ ضَعْفُ تَنَازُعِهِمْ في مسألة الْفَقِيرِ

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا كحديث قدسي ، وانظره : بتوسع في كتابنا : الصحيح المسند من الأحاديث القدسية .

(٢) صحيح وله شواهد : أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤١١) من طريق أَبِي نَضْرَةَ قَالَ حدثني من=

الصَّابِرِ وَالْغَنِيِّ الشَّاكِرِ ، وَتَرْجِيحِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ، وَأَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ التَّفْضِيلَ لَا يَرْجِعُ إِلَى ذَاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ وَالْحَقَائِقِ ، فَالْمَسْأَلَة فَاسِدَةٌ فِي نَفْسِهَا . فَإِنَّ التَّفْضِيلَ عِنْدَ الله بِالتَّقْوَى وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ ، لَا بِفَقْرٍ وَلَا غِنًى ؛ وَلِهَذَا والله أَعْلَمُ قَالَ عُمَرُ ﷺ : الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَطِيَّتَانِ ، لَا أُبَالِي أَيَّهُمَا رَكِبْتُ . وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءٌ مِنَ الله تعالى لِعَبْدِه ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ الآية [الفجر:١٥]، فَإِنِ اسْتَوَيَا الْفَقِيرُ الصَّابِرُ وَالْغَنِيُّ الشَّاكِرُ فِي التَّقْوَى ، اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَة ، وَإِنْ فَضَلَ أَحَدُهُمَا فِيهَا ، فَهُوَ الْأَفْضَلُ عِنْدَ الله ، فَإِنَّ الْفَقْرَ وَالْغِنَى لَا يُوزَنَانِ ، وَإِنَّمَا يُوزَنُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أَحَالَ المسألة مِنْ وَجْه آخَرَ : وَهُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ نِصْفٌ صَبْرٌ ، وَنِصْفٌ شُكْرٌ ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا لَا بُدَّ له مِنْ صَبْرٍ وَشُكْرٍ ، وَإِنَّمَا أَخَذَ النَّاسُ فَرْعًا مِنَ الصَّبْرِ ، وَفَرْعًا مِنَ الشُّكْرِ ، وَأَخَذُوا فِي التَّرْجِيحِ ، فَجَرَّدُوا غَنِيًّا مُنْفِقًا مُتَصَدِّقًا بَاذِلًا مَالَه فِي وُجُوبِ الْقُرْبِ شَاكِرًا لله عليه ، وَفَقِيرًا مُتَفَرِّغًا لِطَاعَة الله ، وَلِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ صَابِرًا على فَقْرِه ، وَحِينَئِذٍ يُقَالُ : إِنَّ أَكْمَلَهُمَا أَطْوَعُهُمَا وَأَتْبَعُهُمَا ، فَإِنْ تَسَاوَيَا تَسَاوَتْ دَرَجَتُهُمَا ، والله أَعْلَمُ . ولَوْ صَحَّ التَّجْرِيدُ ، لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ : أَيُّمَا أَفْضَلُ مُعَافًى شَاكِرٌ أَوْ مَرِيضٌ صابِرٌ ، أَوَ مُطَاعٌ شَاكِرٌ ، أَوْ مُهَانٌ صَابِرٌ ، وآمِنٌ شَاكِرٌ ، أَوْ خَائِفٌ صَابِرٌ ؟ وَنَحْوُ ذَلِكَ .

*****

قوله : « وَالْإِيمَانُ : هُوَ الْإِيمَانُ بالله ، وَمَلَائِكَتِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،

= سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال : « يا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ .... » الحديث .

وَالْقَدَرِ ، خَيْرِه وَشَرِّه ، وَحُلْوِه وَمُرِّه ، مِنَ الله تعالى » .

ش : تَقَدَّمَ أَنَّ هذه الخِصَالَ هي أُصُولُ الدِّينِ ، وَبِهَا أَجَابَ النَّبِيُّ ﷺ في حَدِيثِ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورِ الْمُتَّفَقِ على صِحَّتِه ، حِينَ جَاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ على صُورَة رَجُلٍ أَعْرَابِي ، وَسَأَلَه عَنِ الإِسْلَامِ ، فقَالَ : « **أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصلاة ، وَتُؤْتِي الزَّكَاة ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إليه سَبِيلًا** »(١) وَسَأَلَه عَنِ الإِيمَانِ ؟ فَقَالَ : « **أَنْ تُؤْمِنَ بالله ، وَمَلَائِكَتِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، خَيْرِه وَشَرِّه** » ، وَسَأَلَه عَنِ الإِحْسَانِ ؟ فَقَالَ : « **أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه فإنه يَرَاكَ** »(٢) وَقَدْ ثَبَتَ كَذَلِكَ في «**الصَّحِيحِ**» عنه ﷺ : أنه كَانَ يَقْرَأُ في رَكْعَتَي الْفَجْرِ تَارَة بِسُورَتَي الإِخْلَاصِ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وَتَارَةً بِآيَتَي الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ : التي في سورة الْبَقَرَة : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية [البقرة:١٣٦] ، والتي في آلِ عِمْرَانَ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية [آل عمران:٦٤](٣) ، وَفَسَّرَ ﷺ الإِيمَانَ في حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ ، الْمُتَّفَقِ

---

(١) **صحيح وله شواهد** : وقد تقدم .

(٢) **صحيح**: أخرج مسلم (حديث ٧٢٦) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وأخرج أحمد في المسند (٢/ ٩٤) بسند صحيح عن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ شهرًا فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

(٣) **صحيح**: أخرج مسلم (حديث ٧٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة:١٣٦] ، والتي في آل عمران: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦٤] ، وفي رواية عند مسلم من حديث ابن عباس أيضًا : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر : في الأولى منهما : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة:١٣٦] الآية ، التي في البقرة ، وفي الآخرة منهما : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢] .

على صِحَّتِه ، حَيْثُ قَالَ لَهُمْ : « **آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله ؟ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ له ، وَإِقَامُ الصلاة ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاة ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ** »(١) .

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يَرِدْ أَنَّ هذه الْأَعْمَالَ تَكُونُ إِيمَانًا بالله بِدُونِ إِيمَانِ الْقَلْبِ ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أنه لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانِ الْقَلْبِ . فَعُلِمَ أَنَّ هذه مَعَ إِيمَانِ الْقَلْبِ هُوَ الْإِيمَانُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ على هَذَا .

وَالْكِتَابُ والسنة مَمْلُوءَانِ بِمَا يَدُلُّ على أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَثْبُتُ له حُكْمُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ مَعَ التَّصْدِيقِ ، وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ معنى الصلاة وَالزَّكَاة ، فَإِنَّ تِلْكَ إِنَّمَا فَسَّرَتْهَا السنة ، وَالْإِيمَانُ بَيَّنَ معناه الْكِتَابُ والسنة . فَمِنَ الْكِتَابِ قولُه تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأنفال:٢] . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ الآية [الحجرات:١٥] . وَقَوْلُه تَعَالَى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ، نَفْي الْإِيمَانِ حتى تُوجَدَ هذه الْغَايَة دَلَّ على أَنَّ هذه الْغَايَة فَرْضٌ على النَّاسِ ، فَمَنْ تَرَكَهَا ، كَانَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ ، لَمْ يَكُنْ قَدْ أَتَى بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ ، الذي وُعِدَ أَهْلُهُ بِدُخُولِ الْجَنَّة بِلَا عَذَابٍ . وَلَا يُقَالُ : إِنَّ بَيْنَ تَفْسِيرِ النبي ﷺ الْإِيمَانَ في حَدِيثِ جبْرِيلَ وَتَفْسِيره إِيَّاه في حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مُعَارَضَة ؛ لأنه فَسَّرَ الْإِيمَانِ في حَدِيثِ جبْرِيلَ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ ، فَكَانَ المعنى أنه الْإِيمَانُ بالله وَمَلَائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ الْأَعْمَالِ التي ذَكَرَهَا في تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ ، كَمَا أَنَّ الْإِحْسَانَ مُتَضَمِّنٌ لِلْإِيمَانِ الذي قَدَّمَ تَفْسِيرَه قَبْلَ ذكره . بِخِلَافِ حَدِيثِ

---

(١) صحيح: وقد تقدم .

وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ ، لأنه فَسَّرَه ابْتِدَاءً ، لَمْ يَتَقَدَّمْ قبله تَفْسِيرُ الْإِسْلَامِ . وَلَكِنَّ هَذَا الْجَوَابَ لَا يَتَأَتَّى على مَا ذكره الشَّيْخُ رحمه الله مِنْ تَفْسِيرِ الْإِيمَانِ ، فَحَدِيثُ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مُشْكِلٌ عليه .

*****

وَمِمَّا يُسْأَلُ عنه : أنه إِذَا كَانَ مَا أَوْجَبَه الله مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة أَكْثَرَ مِنَ الْخِصَالِ الْخَمْسِ التي أَجَابَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ جبْرِيلَ الْمَذْكُورِ ، فَلِمَ قَالَ : إِنَّ الْإِسْلَامَ هذه الْخِصَالُ الْخَمْسُ ؟ وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُ النَّاسِ بِأَنَّ هذه أَظْهَرُ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَأَعْظَمُهَا ، وَبِقِيَامِه بِهَا يَتِمُّ اسْتِسْلَامُه ، وَتَرْكُه لَهَا يُشْعِرُ بِانْحِلَالِ قَيْدِ انْقِيَادِه .

وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ الدِّينَ الذي هُوَ اسْتِسْلَامُ الْعَبْدِ لِرَبِّه مُطْلَقًا ، الذي يَجِبُ لله عِبَادَةً مَحْضَةً على الْأَعْيَانِ ، فَيَجِبُ على كُلِّ مَنْ كَانَ قَادِرًا عليه ، لِيَعْبُدَ اللهَ بِهَا مُخْلِصًا له الدِّينَ ، وهذه هي الْخَمْسُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا يَجِبُ بِأَسْبَابٍ مَصَالِحَ ، فَلَا يَعُمُّ وُجُوبُهَا جَمِيعَ النَّاسِ ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فَرْضًا على الْكِفَايَة ، كَالْجِهَادِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ إِمَارَةٍ ، وَحُكْمٍ ، وَفُتْيَا ، وَإِقْرَاءٍ ، وَتَحْدِيثٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَإِمَّا أَنْ يَجِبَ بِسَبَبِ حَقِّ الْآدَمِيِّينَ ، فَيَخْتَصُّ به مَنْ وَجَبَ له وعليه ، وَقَدْ يَسْقُطُ بِإِسْقَاطِه ، مِنْ قَضَاءِ الدُّيُونِ ، وَرَدِّ الْأَمَانَاتِ وَالْمَغْصُوبِ ، وَالْإِنْصَافِ مِنَ الْمَظَالِمِ ، مِنَ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَحُقُوقِ الزَّوْجَة وَالْأَوْلَادِ ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ مِنْ ذَلِكَ على زَيْدٍ غَيْرُ الْوَاجِبِ على عَمْرٍو ، بِخِلَافِ صَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَالزَّكَاة ، فَإِنَّ الزَّكَاة وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا مَالِيًّا ، فَإِنَّهَا وَاجِبَة لله ، وَالْأَصْنَافُ الثَّمَانِيَة مَصَارِفُهَا ، وَلِهَذَا

وَجَبَتْ فِيهَا النِّيَّة ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَفْعَلَهَا الْغَيْرُ عنه بِلَا إِذْنِه ، وَلَمْ تُطْلَبْ مِنَ الْكُفَّارِ . وَحُقُوقُ الْعِبَادِ لَا يُشْتَرَطُ لَهَا النِّيَّة ، وَلَوْ أَدَّاهَا غَيْرُهُ عنه بِغَيْرِ إِذْنِه ، بَرِئَتْ ذِمَّتُه ، وَيُطَالَبُ بِهَا الْكُفَّارُ . وَمَا يَجِبُ حَقًّا لله تعالى ، كَالْكَفَّارَاتِ ، هُوَ بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ ، وَفِيهَا معنى الْعُقُوبَة ، وَلِهَذَا كَانَ التَّكْلِيفُ شَرْطًا في الزَّكَاة ، فَلَا تَجِبُ على الصَّغِيرِ وَالْمَجْنُونِ عِنْدَ أبي حنيفة وَأَصْحَابِه ـ رَحِمَهُمُ الله تعالى ، على ما عُرِفَ في مَوْضِعِه .

وقوله : « وَالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه ، وَحُلْوِه وَمُرِّه ، مِنَ الله تعالى » **تَقَدَّمَ قولُه ﷺ في حَدِيثِ جبْرِيلَ عليه السلام : « وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه »** [1]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ الآية [النساء:٧٨، ٧٩] .

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ قوله: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وَبَيْنَ قوله : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ؟

قِيلَ : قوله: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ : الْخِصْبُ وَالْجَدْبُ ، وَالنَّصْرُ وَالْهَزِيمَة ، **كُلُّهَا مِنْ عِنْدِ الله** ، وقوله : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ : أي : **مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَة مِنَ الله ، فَبِذَنْبِ نَفْسِكَ عُقُوبَة لَكَ** ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠] . يَدُلُّ على ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : أنه قَرَأَ : ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩] « **وَأَنَا كَتَبْتُهَا عَلَيْكَ** » .

وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنَة : هُنَا النِّعْمَة ، وَبِالسَّيِّئَة : الْبَلِيَّة ، في أَصَحِّ الْأَقْوَالِ .

وَقَدْ قِيلَ : الْحَسَنَةُ : الطَّاعَةُ ، وَالسَّيِّئَة : الْمَعْصِيَة .

---

(١) صحيح: وقد تقدم .

وَقِيلَ : الْحَسَنَة : مَا أَصَابَه يَوْمَ بَدْرٍ ، وَالسَّيِّئَة : مَا أَصَابَه يَوْمَ أُحُدٍ .

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ شَامِلٌ لمعنى الْقَوْلِ الثَّالِثِ ، والمعنى الثاني لَيْسَ مُرَادًا دُونَ الْأَوَّلِ قَطْعًا ، وَلَكِنْ لَا مُنَافَاة بَيْنَ أَنْ تَكُونَ سَيِّئَة الْعَمَلِ وَسَيِّئَة الْجَزَاءِ مِنْ نَفْسِه ، مَعَ أَنَّ الْجَمِيعَ مُقَدَّرٌ ، فَإِنَّ الْمَعْصِيَة الثَّانِيَة قَدْ تَكُونُ عُقُوبَة الأولى ، فتَكُونُ مِنْ سَيِّئَاتِ الْجَزَاءِ ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ سَيِّئَاتِ الْعَمَلِ ، وَالْحَسَنَة الثَّانِيَة قَدْ تَكُونُ مِنْ ثَوَابِ الأولى ، كَمَا دَلَّ على ذَلِكَ الْكِتَابُ والسُّنَّةُ .

وَلَيْسَ لِلْقَدَرِيَّة أَنْ يَحْتَجُّوا بقولِه تَعَالَى : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنْ فَعَلَ الْعَبْدُ حَسَنَة كَانَ أَوْ سَيِّئَة فَهُوَ منه لَا مِنَ الله ! وَالْقُرْآنُ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا ، وَهُمْ لَا يُفَرِّقُونَ ، ولأنه قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، فَجَعَلَ الْحَسَنَاتِ مِنْ عِنْدِ الله ، كَمَا جَعَلَ السَّيِّئَاتِ مِنْ عِنْدِ الله ، وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ ، بَلْ فِي الْجَزَاءِ .

وقوله بَعْدَ هَذَا : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ و ﴿ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ ، مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ و ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ .

وَفَرَّقَ سبحانه وتعالى بَيْنَ الْحَسَنَاتِ التي هي النِّعَمُ ، وَبَيْنَ السَّيِّئَاتِ التي هي الْمَصَائِبُ ، فَجَعَلَ هذه مِنَ الله ، وهذه مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ ؛ لِأَنَّ الْحَسَنَة مُضَافَة إلى الله ، إِذْ هُوَ أَحْسَنَ بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْه ، فَمَا مِنْ وَجْه مِنْ أَوْجُهِهَا إِلَّا وَهُوَ يَقْتَضِي الْإِضَافَة إليه ، وَأَمَّا السَّيِّئَة ، فَهُوَ إِنَّمَا يَخْلُقُهَا لِحِكْمَة ، وهي بِاعْتِبَارِ تِلْكَ الْحِكْمَة مِنْ إِحْسَانِه ، فَإِنَّ الرَّبَّ لَا يَفْعَلُ سَيِّئَة قَطُّ ، بَلْ فِعْلُه كله حَسَنٌ وَخَيْرٌ .

وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي الِاسْتِفْتَاحِ : « **وَالْخَيْرُ كله بِيَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ** » [(١)] أي : فَإِنَّكَ لَا تَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا ، بَلْ كُلُّ مَا تَخْلُقُه ، ففيه حِكْمَةٌ ،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٧٧١) .

هُوَ بِاعْتِبَارِهَا خَيْرٌ ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فيه شَرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ ، فَهَذَا شَرٌّ جُزْئِي إِضَافِي ، فَأَمَّا شَرٌّ كُلِّي ، أَوْ شَرٌّ مُطْلَقٌ ؛ فَالرَّبُّ سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عنه . وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الذي لَيْسَ إليه .

وَلِهَذَا لَا يُضَافُ الشَّرُّ إليه مُفْرَدًا قَطُّ ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَدْخُلَ في عُمُومِ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَقَوْلِه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] ، ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨] ، وَإِمَّا أَنْ يُضَافَ إلى السَّبَبِ ، كَقَوْلِه : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق:٢] ، وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُه ، كَقَوْلِ الْجِنِّ : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾[الجن:١٠] .

وَلَيْسَ إِذَا خَلَقَ مَا يَتَأَذَّى به بَعْضُ الْحَيَوَانِ لَا يَكُونُ فيه حِكْمَة ، بَلْ لله مِنَ الرَّحْمَة وَالْحِكْمَة مَا لَا يُقَدِّرُ قَدْرَه إِلَّا الله تعالى ، وَلَيْسَ إِذَا وَقَعَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ شَرٌّ جُزْئِي بِالْإِضَافَة ، يَكُونُ شَرًّا كُلِّيًّا عَامًّا ، بَلِ الْأُمُورُ الْعَامَّة الْكُلِّيَّة لَا تَكُونُ إِلَّا خَيْرًا أَوْ مَصْلَحَة لِلْعِبَادِ ، كَالْمَطَرِ الْعَامِّ ، وَكَإِرْسَالِه رَسُولا عَامًّا .

وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أنه لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيِّدَ كَذَّابًا عليه بِالْمُعْجِزَاتِ التي أَيَّدَ بِهَا الصَّادِقِينَ ، فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ ، يُضِلُّهُمْ ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ .

وَلَيْسَ هَذَا كَالْمَلِكِ الظَّالِمِ وَالْعَدُوِّ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ الظَّالِمَ لَا بُدَّ أَنْ يَدْفَعَ الله به مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِه ، وَقَدْ قِيلَ : سِتُّونَ سنة بِإِمَامٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ لَيْلَة وَاحِدَة بِلَا إِمَامٍ ، وَإِذَا قُدِّرَ كَثْرَة ظُلْمِه ، فَذَاكَ خَيْرٌ فِي الدِّينِ ، كَالْمَصَائِبِ ، تَكُونُ كَفَّارَة لِذُنُوبِهِمْ ، وَيُثَابُونَ على الصَّبْرِ عليه ، وَيَرْجِعُونَ فيه إلى الله ، وَيَسْتَغْفِرُونَه وَيَتُوبُونَ إليه ، وَكَذَلِكَ مَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ ؛ وَلِهَذَا قَدْ يُمَكِّنُ الله كَثِيرًا مِنَ الْمُلُوكِ

الظَّالِمِينَ مُدَّة ، وَأَمَّا الْـمُتَنَبِّئُونَ الْكَذَّابُونَ فَلَا يُطِيلُ تَمْكِينَهُمْ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُهْلِكَهُمْ ؛ لِأَنَّ فَسَادَهُمْ عَامٌّ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَة .

قَالَ تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦] .

وفي قولـه : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ، مِـنَ الْفَوَائِـدِ : أَنَّ الْعَبْـدَ لَا يَطْمَـئِنُّ إلى نَفْسِـه وَلَا يَسْكُنُ إِلَيْهَا ، فَإِنَّ الشَّرَّ كَامِنٌ فِيهَا ، لَا يَجِيءُ إِلَّا مِنْهَا ، وَلَا يَشْتَغِلُ بِمَـلَام النَّـاسِ ، وَلَا ذَمِّهِمْ إِذَا أَسَاءُوا إليه ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ التي أَصَابَتْه ، وهي إِنَّـما أَصَـابَتْه بِذُنُوبِه ، فَيَرْجِعُ إلى الذُّنُوبِ ، وَيَسْتَعِيذُ بالله مِنْ شَرِّ نَفْسِه وَسَيِّئَاتِ عَمَلِـه ، وَيَسْـأَلُ الله أَنْ يُعِينَه على طَاعَتِه ، فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ له كُلُّ خَيْرٍ ، وَيَنْدَفِعُ عنه كُلُّ شَرٍّ .

وَلِهَذَا كَانَ أَنْفَعُ الدُّعَاءِ وَأَعْظَمُه وَأَحْكَمُه دُعَاءَ الْفَاتِحَة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ إِذَا هَدَاه هَذَا الصِّرَاطَ ، أَعَانَه عـلى طَاعَتِـه وَتَـرْكِ مَعْصِيَتِه ، فَلَـمْ يُصِبْهُ شَرٌّ ، لَا في الدُّنْيَا وَلَا في الْآخِرَة .

لَكِنَّ الذُّنُوبَ هي لَوَازِمُ نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى الْهُدَى كُلَّ لَحْظَة ، وَهُـوَ إلى الْهُدَى أَحْوَجُ منه إلى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . لَيْسَ كَما يَقُولُه بَعْضُ الْـمُفَسِّرِينَ : أنـه قَدْ هَدَاه ! فَلِماذَا يَسْأَلُ الْهُدَى ؟ ! وَأَنَّ الْـمُرَادَ التَّثْبِيتُ ، أَوْ مَزِيدُ الْهِدَايَة ! بَلِ الْعَبْـدُ مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يُعَلِّمَه الله مَا يَفْعَلُه مِنْ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِـه ، وإلى مَـا يَتْرُكُـه مِـنْ تَفَاصِيلِ الْأُمُورِ ، في كُلِّ يَوْمٍ ، وإلى أَنْ يُلْهِمَه أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ ، فإنه لَا يَكْفِي مُجَرَّدُ عِلْمِه إِنْ لَمْ يَجْعَلْه مُرِيدًا لِلْعَمَلِ بِما يَعْلَمُه ، وَإِلَّا كَانَ الْعِلْمُ حُجَّة عليه ، وَلَمْ يَكُنْ مُهْتَدِيًا . وَ [الْعَبْدُ] مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يَجْعَلَه [الله] قَادِرًا على الْعَمَلِ بِتِلْكَ الْإِرَادَة الصَّالِحَة ، فَإِنَّ الْـمَجْهُولَ

لَنَا مِنَ الْحَقِّ أَضْعَافُ الْمَعْلُومِ ، وَمَا لَا نُرِيدُ فِعْلَه تَهَاوُنًا وَكَسَلًا مِثْلُ مَا نُرِيدُه أَوْ أَكْثَرُ منه أَوْ دُونَه ، وَمَا لَا نَقْدِرُ عليه مِمَّا نُرِيدُه كَذَلِكَ ، وَمَا نَعْرِفُ جُمْلَتَه وَلَا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِه ، فَأَمْرٌ يَفُوتُ الْحَصْرَ ، وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلى الْهِدَايَة التَّامَّة ، فَمَنْ كَمُلَتْ له هذه الْأُمُورُ كَانَ سُؤَالُه سُؤَالَ تَثْبِيتٍ ، وهي آخِرُ الرُّتَب .

وَبَعْدَ ذَلِكَ كله هِدَايَة أخرى ، وهي الْهِدَايَة إِلى طَرِيقِ الْجَنَّة في الْآخِرَة . وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ مَأْمُورِينَ بِهَذَا الدُّعَاءِ في كُلِّ صلاة ، لِفَرْطِ حَاجَتِهِمْ إليه ، فَلَيْسُوا إِلى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إلى هَذَا الدُّعَاءِ ، فَيَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله بِفَضْلِ رَحْمَتِه جَعَلَ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَة لِلْخَيْرِ ، الْمَانِعَة مِنَ الشَّرِّ ، فَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ أَنَّ السَّيِّئَاتِ مِنَ النَّفْسِ ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَدَرِ الله ، وَأَنَّ الْحَسَنَاتِ كُلَّهَا مِنَ الله تعالى .

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُشْكَرَ سبحانه ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَه الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِه ، وَأَلا يَتَوَكَّلَ إِلَّا عليه وَحْدَه ، فَلَا يأتي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ تَوْحِيدَه ، وَالتَّوَكُّلَ عليه وَحْدَه ، وَالشُّكْرَ له وَحْدَه ، وَالِاسْتِغْفَارَ مِنَ الذُّنُوبِ .

وهذه الْأُمُورُ كَانَ النبي ﷺ يَجْمَعُهَا في الصلاة ، كَمَا ثَبَتَ عنه في «الصَّحِيحِ» : أنه كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَه مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ : « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ ، وَمِلْءَ الْأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ » . فَهَذَا حَمْدٌ ، وَهُوَ شُكْرٌ لله تعالى ، وَبَيَانُ أَنَّ حَمْدَه أَحَقُّ مَا قاله الْعَبْدُ ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ : « لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » (١) .

---

(١) أخرجه مسلم (مع النووي ٤/ ١٩٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أحق مَا قَالَ العبدُ وكلنا لَكَ عبد ، اللهم لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ ».

وَهَذَا تَحْقِيقٌ لِوَحْدَانِيَّتِه ، لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة ، خَلْقًا وَقَدَرًا ، وَبِدَايَةً وَنِهَايَةً ، هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ ،وَلِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّة ، شَرْعًا وَأَمْرًا وَنَهْيًا ، وَهو أَنَّ الْعِبَادَ وَإِنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ جَدًّا : مُلْكًا وَعَظَمَة وَبَخْتًا وَرِيَاسَة فِي الظَّاهِرِ ، أَوْ فِي الْبَاطِنِ ، كَأَصْحَابِ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَة ، فَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ ، أي : لَا يُنْجِيه وَلَا يُخَلِّصُه ، وَلِهَذَا قَالَ : « لَا يَنْفَعُه مِنْكَ » وَلَمْ يَقُلْ : «وَلَا يَنْفَعُه عِنْدَكَ» ؛ لأنه لَوْ قِيلَ ذَلِكَ أَوْهَمَ أنه لَا يَتَقَرَّبُ به إِلَيْكَ ، لَكِنْ قَدْ لَا يَضُرُّه .

فَتَضَمَّنَ هَذَا الْكَلَامُ تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ ، أو تَحْقِيقَ قوله :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فإنه لَوْ قُدِّرَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْأَسْبَابِ يَكُونُ مُسْتَقِلًّا بِالْمَطْلُوبِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمَشِيئَةِ الله وَتَيْسِيرِه لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ لَا يُرْجَى إِلَّا الله ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عليه ، وَلَا يُسْأَلُ إِلَّا هُوَ ، وَلَا يُسْتَغَاثُ إِلَّا به ، وَلَا يُسْتَعَانُ إِلَّا هُوَ ، فله الْحَمْدُ ، وإليه الْمُشْتَكَى ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ ، وبه الْمُسْتَغَاثُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّة إِلَّا بالله .

فَكَيْفَ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ مُسْتَقِلًّا بِمَطْلُوبٍ ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ انْضِمَامِ أَسْبَابٍ أُخَرَ إليه ، وَلَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ صَرْفِ الْمَوَانِعِ وَالْمُعَارِضَاتِ عنه ، حتى يَحْصُلَ الْمَقْصُودُ ، فَكُلُّ سَبَبٍ فله شَرِيكٌ ، وله ضِدٌّ ، فَإِنْ لَمْ يُعَاوِنْه شَرِيكُه ، وَلَمْ يَنْصَرِفْ عنه ضِدُّه لَمْ تَحْصُلْ مَشِيئَة .

وَالْمَطَرُ وَحْدَه لَا يُنْبِتُ النَّبَاتَ إِلَّا بِمَا يَنْضَمُّ إليه مِنَ الْهَوَاءِ وَالتُّرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ثُمَّ الزَّرْعُ لَا يَتِمُّ حتى تُصْرَفَ عنه الْآفَاتُ الْمُفْسِدَة له ، وَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ لَا يُغَذِّي إِلَّا بِمَا جُعِلَ فِي الْبَدَنِ مِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْقُوَى ، وَمَجْمُوعُ ذَلِكَ لَا يُفِيدُ إِنْ لَمْ تُصْرَفْ عنه الْمُفْسِدَاتُ .

وَالْمَخْلُوقُ الذي يُعْطِيكَ أَوْ يَنْصُرُكَ ، فَهُوَ مَعَ أَنَّ الله يَجْعَلُ فيه الْإِرَادَة وَالْقُوَّة وَالْفِعْلَ فَلَا يَتِمُّ مَا يَفْعَلُه إِلَّا بِأَسْبَابٍ كثيرة ، خَارِجَة عَنْ قُدْرَتِه ، تُعَاوِنُه على

مَطْلُوبِه ، وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُصْرَفَ عَنِ الْأَسْبَابِ الْـمُتَعَاوِنَة مَا يُعَارِضُهَا وَيُمَانِعُهَا ، فَلَا يَتِمُّ الْـمَطْلُوبُ إِلَّا بِوُجُودِ الْـمُقْتَضِي وَعَدَمِ الْـمَانِعِ .

وَكُلُّ سَبَبٍ مُعَيَّنٍ فَإِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْـمُقْتَضِي ، فَلَيْسَ في الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ مُقْتَضٍ تَامٌّ ، وَإِنْ سُمِّي مُقْتَضِيًا ، وَسُمِّي سَائِرُ مَا يُعِينُه شُرُوطًا ، فَهَذَا نِزَاعٌ لَفْظِي ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ في الْـمَخْلُوقَاتِ عِلَّةٌ تَامَّةٌ تَسْتَلْزِمُ مَعْلُولَهَا ، فَهَذَا بَاطِلٌ .

وَمَنْ عَرَفَ هَذَا حَقَّ الْـمَعْرِفَة انْفَتَحَ له بَابُ تَوْحِيدِ الله ، وَعَلِمَ أنه لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسْأَلَ غيره ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُعْبَدَ غيرهُ ، وَلَا يُتَوَكَّلَ على غيره ، وَلَا يُرْجَى غيره .

قَوْلُهُ : « وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كله ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ على مَا جَاؤُوا به » .

ش : الْإِشَارَة بِذَلِكَ إلى مَا تَقَدَّمَ ، مِمَّا يَجِبُ الْإِيمَانُ به تَفْصِيلًا ، وقوله : « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه » إلى آخِرِ كَلَامِه ، أي : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُم بِأَنْ نُؤْمِنَ بِبَعْضٍ ، وَنكْفُرَ بِبَعْضٍ ، بَلْ نُؤْمِنُ بِهِمْ وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ ، فَإِنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ ، كَافِرٌ بِالْكُلِّ .

قَالَ تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فَإِنَّ المعنى الذي لِأَجْلِه آمَنَ بِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، مَوْجُودٌ في الذي لَمْ يُؤْمِنْ به ، وَذَلِكَ الرَّسُولُ الذي آمَنَ به قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ بَقِيَّة الْـمُرْسَلِينَ ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِبَعْضِ الْـمُرْسَلِينَ ، كَانَ كَافِرًا بِمَنْ في زَعْمِه أنه مُؤْمِنٌ به ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الرَّسُولَ قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ الْـمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ ، فَكَانَ كَافِرًا حَقًّا ، وَهُوَ يَظُنُّ أنه مُؤْمِنٌ ، فَكَانَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الْحَيَاة الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

قَوْلُهُ: « وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ في النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ [(١)]، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله عَارِفِينَ [(٢)]. وَهُمْ في مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِه، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِه، كَمَا ذَكَرَ ﷻ في كِتَابِه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ في النَّارِ بِعَدْلِه، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِه وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِه، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إلى جَنَّتِه.

وَذَلِكَ بِأَنَّ الله تعالى مَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِه، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ في الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نَكِرَتِه، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِه، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وِلَايَتِه. اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِه، مَسِّكْنَا على الْإِسْلَامِ حتى نَلْقَاكَ بِهِ ».

ش: فَقَوْلِهِ: « وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّة ﷺ في النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ » رَدٌّ لِقَوْلِ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَة، الْقَائِلِينَ بِتَخْلِيدِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ في النَّارِ، لَكِنَّ الْخَوَارِجَ تَقُولُ بِتَكْفِيرِهِمْ، وَالْمُعْتَزِلَة بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، لَا بِدُخُولِهِمْ في الْكُفْرِ، بَلْ لَهُمْ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ الْكَلَامِ على قَوْلِ الشَّيْخِ رحمه الله: « وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَة بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّه ».

وَقَوْلُهُ: « وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّة مُحَمَّدٍ » تَخْصِيصُه أُمَّة مُحَمَّدٍ، يُفْهَمُ منه أَنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّة غَيْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ نَسْخِ تِلْكَ الشَّرَائِعِ به، حُكْمُهُمْ مُخَالِفٌ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّة مُحَمَّدٍ، وفي ذَاكَ نَظَرٌ، فَإِنَّ النبي ﷺ أَخْبَرَ أنه: « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ » [(٣)]، وَلَمْ يَخُصَّ أُمَّتَه بِذَلِكَ، بَلْ ذَكَرَ الْإِيمَانَ مُطْلَقًا،

---

(١) ليس معنى ذلك أن غير أمة محمد أهل الكبائر فيها يخلدون؛ بل على ما يبدو أنهم أيضًا واقعون تحت المشيئة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، ثم إن بعض النسخ ليس فيها ذكر (أمة محمد).

(٢) يعني عارفين مؤمنين، وإلا فالعارف بلا إيمان لا تنفعه معرفته.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

فَتَأَمَّله ، وَلَيْسَ فِي بَعْضِ النُّسَخِ ذِكْرُ الْأُمَّة .

وَقَوْلُهُ : « فِي النَّارِ » مَعْمُولٌ لقوله : « لَا يُخَلَّدُونَ ». وَإِنَّمَا قَدَّمَه لِأَجْلِ السَّجْعَة ، لَا أَنْ يَكُونَ « فِي النَّارِ » خَبَرَ لقوله : « وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ » ، كَمَا ظَنَّه بَعْضُ الشَّارِحِينَ .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْكَبَائِرِ على أقْوَالٍ :

فَقِيلَ : سَبْعة .

وَقِيلَ : سَبْعَة عَشَرَ .

وَقِيلَ : مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ على تَحْرِيمِه .

وَقِيلَ : مَا يَسُدُّ بَابَ الْـمَعْرِفَة بالله .

وَقِيلَ : ذَهَابُ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ .

وَقِيلَ : سُمِّيَتْ « كَبَائِرَ » بِالنِّسْبَة وَالْإِضَافَة إلى مَا دُونَهَا .

وَقِيلَ : لَا تُعْلَمُ أَصْلًا ، أَوْ : أَنَّهَا أُخْفِيَتْ كَلَيْلَة الْقَدْرِ .

وَقِيلَ : إِنَّهَا إلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ .

وَقِيلَ : كُلُّ مَا نَهَى الله عنه ، فَهُوَ كَبِيرَة .

وَقِيلَ : إِنَّهَا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حَدٌّ ، أَوْ تُوُعِّدَ عَلَيْهَا بِالنَّارِ ، أَوِ اللَّعْنَة ، أَوِ الْغَضَبِ ، وَهَذَا أَمْثَلُ الْأَقْوَالِ .

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَة قائليه :

مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الصَّغِيرَة مَا دُونَ الْحَدَّيْنِ : حَدِّ الدُّنْيَا وَحَدِّ الْآخِرَة .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : كُلُّ ذَنْبٍ لَمْ يُخْتَمْ بِلَعْنَة ، أَوْ غَضَبٍ ، أَوْ نَارٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الصَّغِيرَة مَا لَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا وَلَا وَعِيدٌ فِي الْآخِرَة ،

وَالْمُرَادُ بِالْوَعِيدِ: الْوَعِيدُ الْخَاصُّ بِالنَّارِ، أَوِ اللَّعْنَة، أَوِ الْغَضَبُ، فَإِنَّ الْوَعِيدَ الْخَاصَّ فِي الْآخِرَةِ كَالْعُقُوبَةِ الْخَاصَّةِ فِي الدُّنْيَا، أَعْنِي الْمَقْدِرَة، فَالتَّعْزِيرُ فِي الدُّنْيَا نَظِيرُ الْوَعِيدِ بِغَيْرِ النَّارِ أَوِ اللَّعْنَةِ أَوِ الْغَضَبِ.

وَهَذَا الضَّابِطُ يَسْلَمُ مِنَ الْقَوَادِحِ الْوَارِدَة على غيره، فإنه يَدْخُلُ فيه كُلُّ مَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ أنه كَبِيرَة، كَالشِّرْكِ، وَالْقَتْلِ، وَالزِّنَى، وَالسِّحْرِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلِ الرِّبَا، وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَتَرْجِيحُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ وُجُوه:

أَحَدُهَا: أنه هُوَ الْمَأْثُورُ عَنِ السَّلَفِ، كَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُيَيْنَة، وَابْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ.

الثاني: أَنَّ الله تعالى قَالَ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١]. فَلَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْوَعْدَ الْكَرِيمَ مَنْ أُوعِدَ بِغَضَبِ الله وَلَعْنَتِه وَنَارِه، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُقَامَ عليه الْحَدُّ لَمْ تَكُنْ سَيِّئَاتُه مُكَفَّرَة عنه بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ مَرْجِعُه إِلى مَا ذكره الله ورسوله مِنَ الذُّنُوبِ، فَهُوَ حَدٌّ مُتَلَقًّى مِنْ خِطَابِ الشَّارِعِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ يُمْكِنُ الْفَرْقُ به بَيْنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، بِخِلَافِ تِلْكَ الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: سَبْعٌ، أَوْ سَبْعَ عَشْرَ، أَوْ إِلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ، مُجَرَّدُ دَعْوَى.

وَمَنْ قَالَ: مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ على تَحْرِيمِه دُونَ مَا اخْتَلَفَتْ فيه: يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ، وَالتَّزَوُّجَ بِبَعْضِ الْمَحَارِمِ، وَالْمُحَرَّمَ

بِالرَّضَاعَةِ وَالصِّهْرِيَّةِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ ! وَأَنَّ الْحَبَّةَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالسَّرِقَةَ لَهَا ، وَالْكِذْبَةَ الْوَاحِدَةَ الْخَفِيفَةَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْكَبَائِرِ ! وَهَذَا فَاسِدٌ .

وَمَنْ قَالَ : مَا سَدَّ بَابَ الْمَعْرِفَةِ بالله ، أَوْ ذَهَابَ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ ، يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ ، وَأَكْلَ الْخِنْزِيرِ وَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ ، وَقَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ ، لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ ! وَهَذَا فَاسِدٌ .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّهَا سُمِّيَتْ كَبَائِرَ بِالنِّسْبَةِ إِلى مَا دُونَهَا ، أَوْ كُلُّ مَا نَهَى الله عنه فَهُوَ كَبِيرَة ، يَقْتَضِي أَنَّ الذُّنُوبَ في نَفْسِهَا لَا تَنْقَسِمُ إِلى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ ! وَهَذَا فَاسِدٌ ؛ لأنه خِلَافُ النُّصُوصِ الدَّالَّة على تَقْسِيمِ الذُّنُوبِ إِلى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّهَا لَا تُعْلَمُ أَصْلًا ، أَوْ إِنَّهَا مُبْهَمَة ، فَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِه أنه لَا يَعْلَمُهَا ، فَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَهَا غيره . والله أَعْلَمُ .

وقوله : « وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ » لِأَنَّ التَّوْبَةَ لَا خِلَافَ أَنَّهَا تَمْحُو الذُّنُوبَ ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ في غَيْرِ التَّائِبِ .

وَقَوْلُهُ : «بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله تعالى عَارِفِينَ» لَوْ قَالَ : «مُؤْمِنِينَ» بَدَلَ قوله : «عَارِفِينَ» ، كَانَ أولى ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ الله وَلَمْ يُؤْمِنْ به فَهُوَ كَافِرٌ . وَإِنَّمَا اكْتَفَى بِالْمَعْرِفَةِ وَحْدَهَا الْجَهْمُ ، وقوله مَرْدُودٌ بَاطِلٌ ، كَمَا تَقَدَّمَ . فَإِنَّ إِبْلِيسَ عَارِفٌ بِرَبِّه :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦] .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾

[ص:٨٢، ٨٣]

وَكَذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَأَكْثَرُ الْكَافِرِينَ ، قَالَ تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون:٨٤، ٨٥] . إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ

الْآيَاتِ الدَّالَّة على هَذَا المعنى .

وَكَأَنَّ الشَّيْخَ رحمه الله أَرَادَ الْـمَعْرِفَة الْكَامِلَة الْـمُسْتَلْزِمَة لِلاهْتِدَاءِ ، التي يُشِيرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الطَّرِيقَة ، وَحَاشَا أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ ، بَلْ هُمْ سَادَةُ النَّاسِ وَخَاصَّتُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : « **وَهُمْ فِي مَشِيئَةِ الله وَحُكْمِهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ** » إلى آخِرِ كَلَامِه، فَصَلَ الله تعالى بَيْنَ الشِّرْكِ وغيره ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ ، كَمَا قَالَ ﷺ ، وَأَخْبَرَ الله تعالى أَنَّ الشِّرْكَ غَيْرُ مَغْفُورٍ ، وَعَلَّقَ غُفْرَانَ مَا دُونَه بِالْـمَشِيئَة ، وَالْجَائِزُ يُعَلَّقُ بِالْـمَشِيئَة دُونَ الْـمُمْتَنِعِ ، وَلَوْ كَانَ الْكُلُّ سَوَاءً لَمَا كَانَ لِلتَّفْصِيلِ معنى ، ولأنه عَلَّقَ هَذَا الْغُفْرَانَ بِالْـمَشِيئَة ، وَغُفْرَانُ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ بَعْدَ التَّوْبَة مَقْطُوعٌ به ، غَيْرُ مُعَلَّقٍ بِالْـمَشِيئَة ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] . فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغُفْرَانُ الْـمُعَلَّقُ بِالْـمَشِيئَة هُوَ غُفْرَانَ الذُّنُوبِ سِوَى الشِّرْكِ بالله قَبْلَ التَّوْبَة .

وقوله : « ذَلِكَ أَنَّ الله مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِه » فيه مُؤَاخَذَة لَطِيفَة ، كَمَا تَقَدَّمَ .

وقوله : « اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِه مَسِّكْنَا بِالْإِسْلَامِ» وفي نُسْخَة : « ثَبِّتْنَا على الْإِسْلَامِ حتى نَلْقَاكَ به » مُنَاسِبَة خَتْمِ الْكَلَامِ الْـمُتَقَدِّمِ بِهَذَا الدُّعَاءِ ظَاهِرَة . وَبِمِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ دَعَا يُوسُفُ الصِّدِّيقُ ـ صَلَوَاتُ الله عليه ـ حَيْثُ قَالَ : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١] . وبه دَعَا السَّحَرَة الَّذِينَ كَانُوا أَوَّلَ من آمن بِمُوسَى ـ صَلَوَاتُ الله على نَبِيِّنَا وعليه ـ

حَيْثُ قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦] . وَمَنِ اسْتَدَلَّ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ على جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ ، فَلَا دَلِيلَ له فيه ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ إِنَّمَا هُوَ بِالْمَوْتِ على الْإِسْلَامِ ، لَا بِمُطْلَقِ الْمَوْتِ ، وَلَا بِالْمَوْتِ الْآنَ ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ .

*****

قَوْلُهُ : « وَنَرَى الصلاة خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وعلى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ » .

وفي «صَحِيحِ البخاري» : أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما كَانَ يُصَلِّي خَلْفَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِي ، وَكَذَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَكَانَ الْحَجَّاجُ فَاسِقًا ظَالِمًا .

وفي «صَحِيحِه» أَيْضًا ، أَنَّ النبي ﷺ قَالَ : « **يُصَلُّونَ لَكُمْ ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ** »(١) .

اعْلَمْ ، رَحِمَكَ الله وَإِيَّانَا : أنه يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ منه بِدْعَة وَلَا فِسْقًا ، بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّة ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الِائْتِمَامِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُومُ اعْتِقَادَ إِمَامِه ، وَلَا أَنْ يَمْتَحِنَه ، فَيَقُولُ : مَاذَا تَعْتَقِدُ ؟ ! بَلْ يُصَلِّي خَلْفَ الْمَسْتُورِ الْحَالِ .

وَلَوْ صلى خَلْفَ مُبْتَدِعٍ يدعو إلى بدعته ، أو فاسق ظاهر الفسق ، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إِلَّا خَلْفَه ، كَإِمَامِ الْجُمُعَة وَالْعِيدَيْنِ ، وَالْإِمَامِ في صلاة الْحَجِّ بِعَرَفَة ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْمَأْمُومَ يُصَلِّي خَلْفَه ، عِنْدَ عَامَّة السَّلَفِ وَالْخَلَفِ .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **يُصَلُّونَ لَكُمْ ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ ، وَإِنْ أَخْطأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ** » .
قال الحافظ في «الفتح» : زاد أحمد عن الحسن بن موسى بهذا السند «أولهم» أي ثواب صلاتهم .
قلت : وهي عند أحمد (٢/ ٣٥٥).

وَمَنْ تَرَكَ الْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة خَلْفَ الإِمَامِ الْفَاجِرِ ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ ، وَالصَّحِيحُ : أنه يُصَلِّيهَا وَلَا يُعِيدُهَا ، فَإِنَّ الصَّحَابَة ﷺ كَانُوا يُصَلُّونَ الْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة خَلْفَ الْأَئِمَّة الْفُجَّارِ ، وَلَا يُعِيدُونَ ، كَمَا كَانَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي خَلْفَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ ، وَكَذَلِكَ أَنَسٌ ﷺ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، وَكَذَلِكَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ وغيرهُ يُصَلُّونَ خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَة بْنِ أَبي مُعَيْطٍ ، وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ ، حتى إنه صلى بِهِمُ الصُّبْحَ مَرَّة أَرْبَعًا ، ثُمَّ قَالَ : أَزِيدُكُمْ ؟ ! فَقَالَ له ابْنُ مَسْعُودٍ : مَا زِلْنَا مَعَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ في زِيَادَة ! !

وفي «الصَّحِيح» : أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ لَمَّا حُصِرَ صلى بِالنَّاسِ شَخْصٌ ، فَسَأَلَ سَائِلٌ عُثْمَانَ : إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّة ، وَهَذَا الذي صلى بِالنَّاسِ إِمَامُ فِتْنَة ؟

فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، إِنَّ الصلاة مِنْ أَحْسَنِ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ ، فَإِذَا أَحْسَنُوا فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ (١) .

وَالْفَاسِقُ وَالْمُبْتَدِعُ صَلَاتُه في نَفْسِهَا صَحِيحَةٌ ، فَإِذَا صلى الْمَأْمُومُ خَلْفَه لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُه ، لَكِنْ إِنَّمَا كَرِه مَنْ كَرِه الصلاة خَلْفَه ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ .

وَمِنْ ذَلِكَ : أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ بِدْعَة وَفُجُورًا لَا يُرَتَّبُ إِمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ ، فإنه يَسْتَحِقُّ التَّعْزِيرَ حتى يَتُوبَ ، فَإِذَا أَمْكَنَ هَجْرُه حتى يَتُوبَ كَانَ حَسَنًا ، وَإِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه وصلى خَلْفَ غيره ، أَثَّرَ ذَلِكَ في إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ حتى يَتُوبَ أَوْ يُعْزَلَ ، أَوْ يَنْتَهِي النَّاسُ عَنْ مِثْلِ ذَنْبِه فَمِثْلُ هَذَا إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه ، كَانَ في ذَلِكَ مَصْلَحَة شَرْعِيَّة ، وَلَمْ تَفُتِ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَة وَلَا الْجَمَاعَة .

وَأَمَّا إِذَا كَانَ تَرْكُ الصلاة خَلْفَه يُفَوِّتُ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة ، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٦٩٥) .

الصلاة خَلْفَه إِلَّا مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلصَّحَابَة رضي الله عنهم.

وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْإِمَامُ قَدْ رَتَّبَه وُلَاةُ الْأُمُورِ ، لَيْسَ فِي تَرْكِ الصلاة خَلْفَه مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّة ، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصَّلاةَ خَلْفَه ، بَلِ الصلاة خَلْفَ الأفضل أَفْضَلُ ، فَإِذَا أَمْكَنَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَا يُقَدِّمَ مظهرًا لِلْمُنْكَرِ فِي الْإِمَامَة ، وَجَبَ عليه ذَلِكَ ، لَكِنْ إِذَا وَلَّاه غَيْرُهُ ، وَلَمْ يُمْكِنْه صَرْفُه عَنِ الْإِمَامَة ، أَوْ كَانَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَرْفِه عَنِ الْإِمَامَة إِلَّا بِشَرٍّ أَعْظَمَ ضَرَرًا مِنْ ضَرَرِ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ ، فَلَا يَجُوزُ دَفْعُ الْفَسَادِ الْقَلِيلِ بِالْفَسَادِ الْكَثِيرِ ، وَلَا دَفْعُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بِحُصُولِ أَعْظَمِهِمَا ، فَإِنَّ الشَّرَائِعَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا ، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا ، بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ . فتَفْوِيتُ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنَ الِاقْتِدَاءِ فِيهِمَا بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ التَّخَلُّفُ عَنْهَا لَا يَدْفَعُ فُجُورًا ، فَيَبْقَى تَعْطِيلُ الْمَصْلَحَة الشَّرْعِيَّة بِدُونِ دَفْعِ تِلْكَ الْمَفْسَدَة .

وَأَمَّا إِذَا أَمْكَنَ فِعْلُ الْجُمُعَة وَالْجَمَاعَة خَلْفَ الْبَرِّ ، فَهَذَا أولى مِنْ فِعْلِهَا خَلْفَ الْفَاجِرِ ، وَحِينَئِذٍ ، فَإِذَا صلى خَلْفَ الْفَاجِرِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، فَهُوَ مَوْضِعُ اجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ : مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : يُعِيدُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا يُعِيدُ ، وَمَوْضِعُ بَسْطِ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ .

وَأَمَّا الْإِمَامُ إِذَا نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ ، وَلَمْ يَعْلَمِ الْمَأْمُومُ بِحَالِه ، فَلَا إِعَادَة عَلَى الْمَأْمُومِ ، لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ . وَقَدْ صلى عُمَرُ رضي الله عنه وَغَيْرُهُ وَهُوَ جُنُبٌ نَاسِيًا لِلْجَنَابَة ، فَأَعَادَ الصلاة ، وَلَمْ يَأْمُرِ الْمَأْمُومِينَ بِالْإِعَادَة (١) .

---

(١) لذلك أسانيد عند عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٣٤٦-٣٤٩) ، وعند ابن أبي شيبة في المصنف أيضًا (١/ ٣٩٣) ، وأمثلها سندًا ما أخرجه عبد الرزاق من طريق زبيد بن الصلت قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى الجرف فنظر فإذا هو قد احتلم فصلى ولم يغتسل فقال : والله ما أراني إلا وقد احتلمت وما شعرت وصليت وما شعرت ، قال : فاغتسل وغسل ما رأى في ثوبه ، ونضح ما لم ير ، ثم أذن وأقام ، ثم صلى بعد ما ارتفع الضحى متمكنًا . =

وَلَوْ عَلِمَ بَعْدَ فَرَاغِه أَنَّ إِمَامَه كَانَ على غَيْرِ طَهَارَة ، أَعَادَ عِنْدَ أبي حنيفة ، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِي وَأَحْمَدَ في الْمَشْهُورِ عنه .

وَكَذَلِكَ لَوْ فَعَلَ الْإِمَامُ مَا لَا يَسُوغُ عِنْدَ الْمَأْمُوم ، وفيه تَفَاصِيلُ مَوْضِعُهَا كُتُبُ الْفُرُوعِ . وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ إِمَامَه يُصَلِّي على غَيْرِ وُضُوءٍ ! ! فَلَيْسَ له أَنْ يُصَلِّي خَلْفَه ، لأنه لَاعِبٌ ، وَلَيْسَ بِمُصَلٍّ .

وَقَدْ دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ والسنة وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّة أَنَّ وَلِي الْأَمْرِ ، وَإِمَامَ الصلاة ، وَالْحَاكِمَ ، وَأَمِيرَ الْحَرْبِ ، وَعَامِلَ الصَّدَقَة : يُطَاعُ في مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ ، وَلَيْسَ عليه أَنْ يُطِيعَ أَتْبَاعَه في مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ ، بَلْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُه في ذَلِكَ ، وَتَرْكُ رَأْيِهِمْ لِرَأْيِه ، فَإِنَّ مَصْلَحَةَ الْجَمَاعَة وَالِائْتِلَافِ ، وَمَفْسَدَةَ الْفُرْقَة وَالِاخْتِلَافِ ، أَعْظَمُ مِنْ أَمْرِ الْمَسَائِلِ الْجُزْئِيَّة .

وَلِهَذَا لَمْ يَجُزْ لِلْحُكَّامِ أَنْ يَنْقُضَ بَعْضُهُمْ حُكْمَ بَعْضٍ . وَالصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ به صِحَّة صلاة بَعْضِ هَؤُلَاءِ خَلْفَ بَعْضٍ .

ويُرْوَى عَنْ أَبي يُوسُفَ : أنه لَمَّا حَجَّ مَعَ هَارُونَ الرَّشِيدِ ، فَاحْتَجَمَ الْخَلِيفَة ، وَأَفْتَاه مَالِكٌ بِأَنَّه لَا يَتَوَضَّأُ ، وصلى بِالنَّاسِ ، فَقِيلَ لأبي يُوسُفَ : أَصَلَّيْتَ خَلْفَه ؟ قَالَ : سُبْحَانَ الله ! أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ تَرْكَ الصلاة خَلْفَ وُلَاة الْأُمُورِ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ .

وَحَدِيثُ أبي هريرة الذي رواه البخاري ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **يُصَلُّونَ لَكُمْ ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ ، وَإِنْ أَخْطَؤوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ** » (١) : نَصٌّ صَحِيحٌ

= وأخرج عبد الرزاق (٣٦٥٠) بسند صحيح أن ابن عمر صلى بأصحابه صلاة العصر وهو على غير وضوء فأعاد ولم يُعد أصحابُه .

(١) صحيح : وقد تقدم قريبًا .

صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا أَخْطَأَ فَخَطَؤُه عليه ، لَا على الْـمَأْمُومِ .

وَالْـمُجْتَهِدُ غَايَتُه أنه أَخْطَأَ بِتَرْكِ وَاجِبٍ اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ وَاجِبًا ، أَوْ فَعَلَ مَحْظُورًا اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ مَحْظُورًا .

وَلَا يَحِلُّ لِمَن يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُخَالِفَ هَذَا الْحَدِيثَ الصَّرِيحَ الصَّحِيحَ بَعْدَ أَنْ يَبْلُغَه ، وَهُوَ حُجَّة على مَنْ يُطْلِقُ مِنَ الْحَنَفِيَّة وَالشَّافِعِيَّة وَالْحَنْبَلِيَّة أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا تَرَكَ مَا يَعْتَقِدُ الْـمَأْمُومُ وَجُوبَه لَمْ يَصِحَّ اقْتِدَاؤُه به ! ! فَإِنَّ الِاجْتِمَاعَ وَالِائْتِلَافَ مِمَّا يَجِبُ رِعَايَتُه وَتَرْكُ الْخِلَافِ الْـمُفْضِي إلى الْفَسَادِ .

وَقَوْلُهُ : « وعلى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ »أي : وَنَرَى الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ ، وَإِنْ كَانَ يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الْعُمُومِ الْبُغَاة وَقُطَّاعُ الطَّرِيقِ ، وَكَذَا قَاتِلُ نَفْسِه ، خِلَافًا لأبي يُوسُفَ ، لَا الشَّهِيدُ ، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِي - رَحِمَهُمَا الله - على مَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِه ، لَكِنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا سَاقَ هَذَا الكَلَام لِبَيَانِ أَنَّا لَا نَتْرُكُ الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ ، لَا لِلْعُمُومِ الْكُلِّي .

وَلَكِنِ **الْـمُظْهِرُونَ لِلْإِسْلَامِ قِسْمَانِ** : إِمَّا مُؤْمِنٌ ، وَإِمَّا مُنَافِقٌ ، فَمِنْ عُلِمَ نِفَاقُه ، لَمْ تَجُزِ الصلاةُ عليه وَالِاسْتِغْفَارُ له ، وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ ذَلِكَ منه صُلِّي عليه ، فَإِذَا عَلِمَ شَخْصٌ نِفَاقَ شَخْصٍ لَمْ يُصَلِّ هُوَ عليه ، وصلى عليه مَنْ لَمْ يَعْلَمْ نِفَاقَه ، وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه لَا يُصَلِّي على مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليه حُذَيْفَة ؛ لأنه كَانَ فِي غَزْوَة تَبُوكَ قَدْ عَرَفَ الْـمُنَافِقِينَ ، وَقَدْ نَهَى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عَنِ الصلاة على الْـمُنَافِقِينَ ، وَأَخْبَرَ أنه لَا يَغْفِرُ لَهُمْ بِاسْتِغْفَارِه ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ بالله ورسوله ، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بالله ورسوله لَمْ يُنْهَ عَنِ الصلاة عليه ، وَلَوْ كَانَ له مِنَ الذُّنُوبِ الِاعْتِقَادِيَّة الْبِدْعِيَّة ، أَوِ الْعَمَلِيَّة الْفُجُورِيَّة مَا له ، بَلْ قَدْ أَمَرَه الله تعالى بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩] ، فَأَمَرَه سبحانه بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ

لِنَفْسِه وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ ، فَالتَّوْحِيدُ أَصْلُ الدِّينِ ، وَالِاسْتِغْفَارُ له وَلِلْمُؤْمِنِينَ كَمَالُه . فَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِالْـمَغْفِرَة ، وَالرَّحْمَة ، وَسَائِرِ الْخَيْرَاتِ ، إِمَّا وَاجِبٌ وَإِمَّا مُسْتَحَبٌّ ، وَهُوَ على نَوْعَيْنِ : عَامٌّ وَخَاصٌّ ، أَمَّا الْعَامُّ فَظَاهِرٌ ، كَمَا في هذه الآية ، وَأَمَّا الدُّعَاءُ الْخَاصُّ ، فَالصَّلَاة على الْـمَيِّتِ ، فَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ إِلَّا وَقَدْ أُمِرَ الْـمُؤْمِنُونَ أَنْ يُصَلُّوا عليه صلاة الْجِنَازَة ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ في صَلَاتِهِمْ عليه أَنْ يَدْعُوا له ، كَمَا روى أَبُو دَاوُدَ ، وَابْنُ مَاجَه عَنْ أَبِي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **إِذَا صَلَّيْتُمْ على الْـمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا له الدُّعَاءَ** » (١) .

قَوْلُهُ : « وَلَا نُنْزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا » (٢) .

ش : يُرِيدُ : أَنَّا لَا نَقُولُ عَنْ أَحَدٍ مُعَيَّنٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَة إنه مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة ، أَوْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، إِلَّا مَنْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ أنه مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة ، كَالْعَشَرَة رضي الله عنهم ، وَإِنْ كُنَّا نَقُولُ : إنه لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مَنْ يَشَاءُ الله إِدْخَالَه النَّارَ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا بِشَفَاعَة الشَّافِعِينَ ، وَلَكِنَّا نَقِفُ في الشَّخْصِ الْـمُعَيَّنِ ، فَلَا نَشْهَدُ له بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ ؛ لِأَنَّ الْحَقِيقة بَاطِنَة ، وَمَا مَاتَ عليه لَا نُحِيطُ به ، لَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ ، وَنَخَافُ على الْـمُسِيءِ .

وَلِلسَّلَفِ في الشَّهَادَة بِالْجَنَّة ثَلَاثَة أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا : أَنْ لَا يُشْهَدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ ، وَهَذَا يُنْقَلُ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّة ، وَالْأَوْزَاعِي .

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود (حديث ٣١٩٩) ، وابن ماجه (١٤٩٧) ، والبيهقي (٤/ ٤٠) وغيرهم .

(٢) إلا من شهد له الله ورسوله ،كالعشرة المبشرين بالجنة وكالحسن والحسين ، وبلال ، وحمزة ، وجعفر ، وعمير بن الحمام وغير هؤلاء كعبد الله بن سلام .

والثاني : أنه يُشْهَدُ بِالجَنَّة لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فيه النَّصُّ ، وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الحَدِيثِ .

وَالثَّالِثُ : أنه يُشْهَدُ بالجَنَّة لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ له الْمُؤْمِنُونَ ، كَمَا في «الصَّحِيحَيْنِ» : أنه مُرَّ بِجِنَازَة ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا بِخَيْرٍ ، فَقَالَ النبي ﷺ : « وَجَبَتْ » ، وَمُرَّ بِأُخْرَى ، فَأُثْنِي عَلَيْهَا بِشَرٍّ ، فَقَالَ : « وَجَبَتْ » .

وفي رِوَايَة : كَرَّرَ : « وَجَبَتْ » ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ الله ، مَا وَجَبَتْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **هَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه خَيْرًا وَجَبَتْ له الجَنَّة ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه شَرًّا وَجَبَتْ له النَّارُ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله في الْأَرْضِ** » (١) .

قَوْلُهُ : « وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكٍ وَلَا بِنِفَاقٍ ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إلى الله تعالى » .

ش : لِأَنَّا قَدْ أُمِرْنَا بِالحُكْمِ بِالظَّاهِرِ ، وَنُهِينَا عَنِ الظَّنِّ وَاتِّبَاعِ مَا لَيْسَ لَنَا به عِلْمٌ . قَالَ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ الآية [الحجرات:١١] .

وَقَالَ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢] .

وَقَالَ تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ

(١) أخرج البخاري (حديث ١٣٦٧) ، ومسلم (حديث ٩٤٩) من حديث أنس ﷺ قَالَ: مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خيرًا فَقَالَ نَبِيُّ الله ﷺ : « وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ »، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا ، فَقَالَ نَبِيُّ الله ﷺ : « وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ ». قَالَ عُمَرُ : فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي! مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتَ : وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ. وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا فَقُلْتَ : وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ** ».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ الآية [الإسراء:٣٦].

*****

قوله: « وَلَا نَرَى السَّيْفَ على أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ ».

ش: في «الصَّحِيحِ» عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: « **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، إِلَّا بإحدى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِه الْـمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ** »(١).

*****

قوله: « وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ على أَئِمَّتِنَا وَوُلَاة أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ الله ﷻ فَرِيضَة، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَة، وَنَدْعُوا لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْـمُعَافَاة ».

ش: قَالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩].

وفي «الصَّحِيحِ» عَنِ النبي ﷺ، أنه قَالَ: « **مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِي الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي** »(٢).

وَعَنْ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: « **إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ** »(٣).

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (حديث ٦٨٧٨)، ومسلم (حديث ١٦٧٦) وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) صحيح: أخرج البخاري (حديث ٧١٣٧)، ومسلم (حديث ١٨٣٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) صحيح: أخرج مسلم (حديث ١٨٣٧).

وَعِنْدَ البخاري : « **وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَنَّ رَأْسَه زَبِيبَة** »(١) .

وَفي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا : « **على الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَة فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِه ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَة ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَة فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَة** »(٢) .

وَعَنْ حُذَيْفَة بْنِ الْيَمانِ ، قَالَ : « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُه عَنِ الشَّرِّ ، مَخَافَة أَنْ يُدْرِكَنِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا كُنَّا في جَاهِلِيَّة وَشَرٍّ ، فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ فَقَالَ : « **نَعَمْ** » ، فَقُلْتُ : هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، وَفِيهِ دَخَنٌ** » ، قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ : « **قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي ، وَيَهْتَدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ** » ، فَقُلْتُ : هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، دُعَاةٌ على أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوه فِيهَا** » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، صِفْهُمْ لَنَا ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا ، يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا** » ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : « **تَلْزَمُ جَمَاعَة الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ** » ، قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَة وَلَا إِمَامٌ ؟ قَالَ : « **فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ** »(٣) .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَنْ رأى مِنْ أَمِيره شَيْئًا يَكْرَهُه فَلْيَصْبِرْ ، فإنه مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَة شِبْرًا فَمَاتَ ، إِلا مَاتَ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّة** »(٤) .

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (حديث ٦٩٦) ، وفي غير مواطن من صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ لأبي ذر : « **اسمع وأطع وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَنَّ رَأْسَه زَبِيبَة** » .

(٢) صحيح: أخرج البخاري (٧١٤٤) ، (٢٩٥٥) ، ومسلم (حديث ١٨٣٩) ، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا .

(٣) صحيح: أخرج البخاري (٧٠٨٤) ، و (٣٦٠٦) ، ومسلم (١٨٤٧) وغيرهم .

(٤) صحيح: أخرج البخاري (حديث ٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣) ، ومسلم (حديث ١٨٤٩) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

وفي رِوَايَة : « **فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِه** » (١).

وَعَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ ، فَاقْتُلُوا الْآخرَ مِنْهُمَا** » (٢).

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ : « **خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونكُمْ ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونكُمْ ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونكُمْ** » فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « **لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة ، أَلَا مَنْ وَلِي عليه وَالٍ ، فَرَآه يأتي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَة الله ، فَلْيَكْرَه مَا يأتي مِنْ مَعْصِيَة الله ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَة** » (٣).

فَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ والسنة على وُجُوبِ طَاعَة أُولِي الْأَمْرِ ، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَة ، فَتَأَمَّلْ قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[النساء:٥٩] . كَيْفَ قَالَ : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾، وَلَمْ يَقُلْ : وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ؟ لِأَنَّ أُولِي الْأَمْرِ لَا يُفْرَدُونَ بِالطَّاعَة ، بَلْ يُطَاعُونَ فِيمَا هُوَ طَاعَة لله ورسوله . وَأَعَادَ الْفِعْلَ مَعَ الرَّسُولِ لأنه مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَة الله ، بَلْ هُوَ مَعْصُومٌ فِي ذَلِكَ ، وَأَمَّا وَلِي الْأَمْرِ فَقَدْ يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَة الله ، فَلَا يُطَاعُ إِلَّا فِيمَا هُوَ طَاعَة لله ورسوله .

---

(١) صحيح:أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠) ، والترمذي (٢٨٦٣) ، وغيرهما من حديث الحارث الأشعري ﷺأن نبي الله ﷺقال : « **إن الله ﷻأمر يحيى بن زكريا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ...** » فذكر الحديث ، وفيه : « **وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ الله أَمَرَنِي بِهِنَّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ ...** » الحديث ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) صحيح:أخرجه مسلم (حديث ١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺمرفوعًا .

(٣) صحيح:أخرجه مسلم (حديث ١٨٥٥) .

وَأَمَّا لُزُومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا ، فلأنه يَتَرَتَّبُ على الْخُرُوجِ عَنْ طَاعَتِهِمْ مِنَ الْـمَفَاسِدِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ مِنْ جَوْرِهِمْ ، بَلْ فِي الصَّبْرِ على جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ ، وَمُضَاعَفَةُ الْأُجُورِ ، فَإِنَّ الله تعالى مَا سَلَّطَهُمْ عَلَيْنَا إِلَّا لِفَسَادِ أَعْمَالِنَا ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَعَلَيْنَا الِاجْتِهَادُ فِي الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَإِصْلَاحِ الْعَمَلِ ، قَالَ تعالى :﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]

وَقَالَ تعالى :﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥] .

وَقَالَ تعالى :﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] .

وَقَالَ تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٩]

فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ ، فَلْيَتْرُكُوا الظُّلْمَ .

قوله : « وَنَتَّبِعُ السنة وَالْجَمَاعَة ، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالْخِلَافَ وَالْفُرْقَة » .

ش : السنة : طَرِيقَةُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَالْجَمَاعَةُ : جَمَاعَةُ الْـمُسْلِمِينَ ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلى يَوْمِ الدِّينِ . فَاتِّبَاعُهُمْ هُدًى . وَخِلَافُهُمْ ضَلَالٌ . قَالَ الله تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ :﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] .

وَقَالَ تعالى :﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥] .

وَقَالَ تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[النور:٥٤] .

وَقَالَ تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:١٥٣]

وَقَالَ تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران:١٠٥] .

وَقَالَ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[الأنعام:١٥٩] .

وَثَبَتَ في «السُّنَنِ» الْحَدِيثُ الذي صَحَّحَه الترمذي ، عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَة ، قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَة ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ الله ، كَأَنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ؟ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ فَقَالَ : « **أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَة ، فإنه مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسنة الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَة ضَلَالَة** »(١) .

وَقَالَ ﷺ : « **إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا في دِينِهِمْ على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّة ، وَإِنَّ هذه الْأُمَّة سَتَفْتَرِقُ على ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّة - يعني : الْأَهْوَاءَ - كُلُّهَا في النَّارِ إِلَّا وَاحِدَة ، وهي الْجَمَاعَة** »(٢) .

---

(١) صحيح:أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (حديث ٤٢، ٤٣) ، وأحمد (٤/ ١٢٦) وغيرهم .

(٢)قد تقدم الكلام عليه .

وفي رِوَايَة : قَالُوا : مَنْ هي يَا رَسُولَ الله ؟قَالَ : « **مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي** » .

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ عَامَّة الْمُخْتَلِفِينَ هَالِكُونَ مِنَ الجَانِبَيْنِ ، إِلَّا أَهْلَ السنة وَالجَمَاعَة .

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، حَيْثُ قَالَ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا ، فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ فَإِنَّ الحَي لَا تُؤْمَنُ عليه الْفِتْنَة ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَانُوا أَفْضَلَ هذه الْأُمَّة ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا ، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا ، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا ، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ الله لِصُحْبَة نَبِيِّه ، وَإِقَامَة دِينِه ، فَاعْرَفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ ، وَاتَّبِعُوهُمْ في آثَارِهِمْ ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا على الْهُدَى الْمُسْتَقِيم .

وَسَيَأْتِي لِهَذَا المعنى بَيَانٌ إِنْ شَاءَ الله تعالى ، عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ : « وَنَرَى الجَمَاعَة حَقًّا وَصَوَابًا ، وَالْفُرْقَة زَيْغًا وَعَذَابًا » .

*****

قوله : « **وَنُحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ ، وَنُبْغِضُ أَهْلَ الجَوْرِ وَالخِيَانَةِ** » .

ش : وَهَذَا مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَتَمَامِ الْعُبُودِيَّة ، فَإِنَّ الْعِبَادَة تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمَحَبَّة وَنِهَايَتَهَا ، وَكَمَالَ الذُّلِّ وَنِهَايَتَه ، فَمَحَبَّة رُسُلِ الله وَأَنْبِيَائِه وَعِبَادِه الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَحَبَّة الله ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَحَبَّةُ الَّتِي لله لَا يَسْتَحِقُّهَا غَيْرُهُ ، فَغَيْرُ الله يُحَبُّ في الله ، لَا مَعَ الله ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ يُحِبُّ مَا يُحِبُّ مَحْبُوبُه ، وَيُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِيه ، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِيه ، وَيَرْضَى لِرِضَائِه ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِه ، وَيَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ به ، وَيَنْهَى عَمَّا يَنْهَى عنه ، فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَحْبُوبِه في كُلِّ حَالٍ .

والله تعالى يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ، وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، وَنَحْنُ نُحِبُّ مَنْ أَحَبَّه الله .

والله لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ، وَلَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ، وَلَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، وَنَحْنُ

لَا نُحِبُّهُمْ أَيْضًا ، وَنُبْغِضُهُمْ ، مُوَافَقَة له سبحانه وتعالى .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النبي ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ ورسوله أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْـمَرْءَ لَا يُحِبُّه إِلَّا لله ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَه أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَه الله منه ، كَمَا يَكْرَه أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ »(١) .

فَالْـمَحَبَّة التَّامَّةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِمُوَافَقَة الْـمَحْبُوبِ فِي مَحْبُوبِه وَمَكْرُوهِه ، وَوِلَايَتِه وَعَدَاوَتِه .

وَمِنَ الْـمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ الله الْـمَحَبَّة الْوَاجِبَة فَلَا بُدَّ أَنْ يُبْغِضَ أَعْدَاءَه ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّه مِنْ جِهَادِهِمْ ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف:٤] .

وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَجْتَمِعُ فيه سَبَبُ الْوِلَايَة وَسَبَبُ الْعَدَاوَة ، وَالْحُبُّ وَالْبُغْض ، فَيَكُونُ مَحْبُوبًا مِنْ وَجْه مَبْغُوضًا مِنْ وَجْه ، وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ . وَكَذَلِكَ حُكْمُ الْعَبْدِ عِنْدَ الله ، فَإِنَّ الله قَدْ يُحِبُّ الشَّيْءَ مِنْ وَجْه وَيَكْرَهُه مِنْ وَجْه آخَرَ ، كَمَا قَالَ ﷺ ، فِيمَا يروي عَنْ رَبِّه ﷻ : «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْـمُؤْمِنِ ، يَكْرَه الْـمَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَه مَسَاءَتَه ، وَلَا بُدَّ له منه »(٢) .

فَبَيَّنَ أنه يَتَرَدَّدُ ؛ لِأَنَّ التَّرَدُّدَ تَعَارُض إِرَادَتَيْنِ ، وَهُوَ سبحانه يُحِبُّ مَا يُحِبُّ عَبْدُه الْـمُؤْمِنُ ، وَيَكْرَه مَا يَكْرَهُه ، وَهُوَ يَكْرَه الْـمَوْتَ فَهُوَ يَكْرَهُه ، كَمَا قَالَ : « وَأَنَا أَكْرَه مَسَاءَتَه » ، وَهُوَ سبحانه قَضَى بِالْـمَوْتِ ، فَهُوَ يُرِيدُ كَوْنَه ، فَسَمَّي ذَلِكَ تَرَدُّدًا ، ثُمَّ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث رقم ١٦) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٤٣) ، وغيرهما من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا .

(٢) أخرجه البخاري ، وقد تقدم .

بَيَّنَ أنه لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ ذَلِكَ ، إِذْ هُوَ مُفْضٍ إِلى مَا هُوَ أَحَبُّ منه .

✻✻✻✻✻

قوله : « وَنَقُولُ : الله أَعْلَمُ ، فِيمَا اشْتبَه عَلَيْنَا عِلْمُه » .

ش : تَقَدَّمَ في كَلَامِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ الله تَعَالَى ـ أنه مَا سَلِمَ في دِينِه إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لله عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِه ﷺ ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتبَه عليه إلى عَالِمِه .

وَمَنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ هَوَاه ، وَقَدْ قَالَ تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

[الحج:٣، ٤]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

[غافر:٣٥]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣] .

وَقَدْ أَمَرَ الله نَبِيَّه ﷺ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ إليه ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف:٢٦] . ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف:٢٢] . وَقَدْ قَالَ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ : « الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا

عَامِلِينَ »[(١)].

قوله : « وَنَرَى الْـمَسْحَ على الْخُفَّيْنِ ، في السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ » .

ش : تَوَاتَرَتِ السنة عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِالْـمَسْحِ على الْخُفَّيْنِ وَبِغَسْلِ الرِّجْلَيْنِ ، وَالرَّافِضَة تُخَالِفُ هذه السنة الْـمُتَوَاتِرَة ، فَيُقَالُ لَهُمْ : الَّذِينَ نَقَلُوا عَنِ النبي ﷺ الْوُضُوءَ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَالَّذِينَ تَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ منه ، وَتَوَضَّؤوا على عهده وَهُوَ يَرَاهُمْ وَيُقِرُّهُمْ ، وَنَقَلُوه إلى مَنْ بَعْدَهُمْ ، أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الَّذِينَ نَقَلُوا لَفْظَ هذه الآية . فَإِنَّ جَمِيعَ الْـمُسْلِمِينَ كَانُوا يَتَوَضَّؤُونَ على عَهْدِه ، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ إِلَّا منه ، فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَمْ يَكُنْ مَعْهُودًا عِنْدَهُمْ في الْجَاهِلِيَّة ، وَهُمْ قَدْ رَأَوْه يَتَوَضَّأُ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَه إِلَّا الله تعالى : وَنَقَلُوا عنه ذِكْرَ غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ في مَا شَاءَ الله مِنَ الْحَدِيثِ ، حتى نَقَلُوا عنه مِنْ غَيْرِ وَجْه في كُتُبِ الصَّحِيحِ ، وَغَيْرِهَا أنه قَالَ : « وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ »[(٢)].

مَعَ أَنَّ الْفَرْضَ إِذَا كَانَ مَسْحَ ظَاهِرِ الْقَدَمِ كَانَ غَسْلُ الْجَمِيعِ كُلْفَة لَا تَدْعُو إِلَيْهَا الطِّبَاعُ ، كَمَا تَدْعُو الطِّبَاعُ إلى طَلَبِ الرِّيَاسَة وَالْـمَالِ ، فَلَوْ جَازَ الطَّعْنُ في تَوَاتُرِ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ١٣٨٣، ١٣٨٤) وفي غير موضع من صحيحه ، مسلم (حديث ٢٦٥٩، ٢٦٦٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعًا .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٦٥) ، ومسلم (حديث ٢٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ » ، وأخرج البخاري أيضًا (حديث ١٦٣) ، وكذلك مسلم (حديث ٢٤١) من حديث عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما قال :رَجَعْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِمَاءٍ بِالطَّرِيقِ تَعَجَّلَ قَوْمٌ عِنْدَ الْعَصْرِ فَتَوَضَّئُوا وَهُمْ عِجَالٌ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ وَأَعْقَابُهُمْ تَلُوحُ لَمْ يَمَسَّهَا الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ »، أما بلفظ : « وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ » فهو عند ابن خزيمة (حديث ١٦٣) ، والدارقطني (١/ ٩٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٧٠) من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدي رضي الله عنه مرفوعًا .

صِفَة الْوُضُوءِ ، لَكَانَ فِي نَقْلِ لَفْظِ آية الْوُضُوءِ أَقْرَبَ إلى الْجَوَازِ .

وَإِذَا قَالُوا : لَفظُ الآيَةِ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ الذي لَا يُمْكِنُ فيه الْكَذِبُ وَلَا الْخَطَأُ ، فَثُبُوتُ التَّوَاتُرِ فِي نَقْلِ الْوُضُوءِ عنه أولى وَأَكْمَلُ ، وَلَفْظُ الآية لَا يُخَالِفُ مَا تَوَاتَرَ مِنَ السنة ، فَإِنَّ الْـمَسْحَ كَمَا يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِصَابَة ، كَذَلِكَ يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِسَالَة ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : تَمَسَّحْتُ لِلصَّلَاة ، وفي الآية مَا يَدُلُّ على أنه لَمْ يُرِدْ بِمَسْحِ الرِّجْلَيْنِ الْـمَسْحَ الذي هُوَ قَسِيمُ الْغَسْلِ ، بَلِ الْـمَسْحُ الذي الْغَسْلُ قِسْمٌ منه ، فإنه قَالَ : ﴿ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : إلى الْكِعَابِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ ، فَدَلَّ على أنه لَيْسَ فِي كُلِّ رِجْلٍ كَعْبٌ وَاحِدٌ ، كَمَا فِي كُلِّ يَدٍ مِرْفَقٌ وَاحِدٌ ، بَلْ فِي كُلِّ رِجْلٍ كَعْبَانِ ، فَيَكُونُ تعالى قَدْ أَمَرَ بِالْـمَسْحِ إلى الْعَظْمَيْنِ النَّاتِئَيْنِ ، وَهَذَا هُوَ الْغَسْلُ ، فَإِنَّ مَنْ يَمْسَحُ الْـمَسْحَ الْخَاصَّ يَجْعَلُ الْـمَسْحَ لِظُهُورِ الْقَدَمَيْنِ ، وَجَعْلُ الْكَعْبَيْنِ فِي الآيَة غَايَة يَرُدُّ قَوْلَهُمْ . فَدَعْوَاهُمْ أَنَّ الْفَرْضَ مَسْحُ الرِّجْلَيْنِ إلى الْكَعْبَيْنِ ، اللَّذَيْنِ هُمَا مُجْتَمَعُ السَّاقِ وَالْقَدَمِ عِنْدَ مَعْقِدِ الشِّرَاكِ ، مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ والسنة .

وفي الآية قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ : النَّصْبُ وَالْخَفْضُ ، وَتَوْجِيه إِعْرَابِهِمَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِه . وَقِرَاءَة النَّصْبِ نَصٌّ فِي وُجُوبِ الْغَسْلِ ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ على الْـمَحَلِّ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ المعنى وَاحِدًا ، كَقَوْلِه :

فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا

وَلَيْسَ معنى : مَسَحْتُ بِرَأْسِي وَرِجْلِي هُوَ معنى : مَسَحْتُ رَأْسِي وَرِجْلِي ، بَلْ ذِكْرُ الْبَاءِ يُفِيدُ معنى زَائِدًا على مُجَرَّدِ الْـمَسْحِ ، وَهُوَ إِلْصَاقُ شَيْءٍ مِنَ الْـمَاءِ بِالرَّأْسِ ، فَتَعَيَّنَ الْعَطْفُ على قوله : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾.

فَالسُّنَّةُ الْـمُتَوَاتِرَة تَقْضِي على مَا يَفْهَمُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ الرَّسُولَ بَيَّنَ لِلنَّاسِ لَفْظَ الْقُرْآنِ ومعناه ، كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي : حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا

يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ : عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَعَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ، وَغَيْرُهُمْ : أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النبي ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُتجَاوِزُوهَا حتى يَتَعَلَّمُوا مَعْنَاهَا .

وفي ذِكْرِ الْـمَسْحِ في الرِّجْلَيْنِ تَنْبِيه على قِلَّة الصَّبِّ في الرِّجْلَيْنِ ، فَإِنَّ السَّرَفَ يُعْتَادُ فِيهِمَا كَثِيرًا ، وَالْـمَسْأَلَة مَعْرُوفَة ، وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا في كُتُبِ الْفُرُوعِ .

*****

قوله: «وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْـمُسْلِمِينَ ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، إلى قِيَامِ السَّاعَة ، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا » .

ش : يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ الله تَعَالَى ـ إلى الرَّدِّ على الرَّافِضَة ، حَيْثُ قَالُوا : لَا جِهَادَ في سَبِيلِ الله حتى يَخْرُجَ الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : اتَّبِعُوهُ ! ! وَبُطْلَانُ هَذَا الْقَوْلِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عليه بِدَلِيلٍ . وَهُمْ شَرَطُوا في الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا ، اشْتِرَاطًا بغَيْرِ دَلِيلٍ ! بَلْ في «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِي ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونكُمْ ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونكُمْ ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونكُمْ** » ، قَالَ : قُلْنا : يَا رَسُولَ الله ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « **لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة ، أَلَا مَنْ وَلِي عليه وَالٍ فَرَآه يأتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَة الله فَلْيَكْرَه مَا يأتِي مِنْ مَعْصِيَة الله وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِه** » [(١)] .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ نَظَائِرِ هَذَا الْحَدِيثِ في الْإِمَامَة . وَلَمْ يَقُلْ : إِنَّ الْإِمَامَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا . وَالرَّافِضَة أَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَة في هذه المسألة ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْإِمَامَ الْـمَعْصُومَ هُوَ الْإِمَامَ الْـمَعْدُومَ ، الذي لَمْ يَنْفَعْهُمْ في دِينٍ وَلَا دُنْيَا ! ! فَإِنَّهُمْ

(١) صحيح : وقد تقدم .

يَدَّعُونَ أَنَّ الْإِمَامَ الْـمُنْتَظَرَ ، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِي ، الذي دَخَلَ السِّرْدَابَ في زَعْمِهِمْ سنة سِتِّينَ وَمِئَتَيْنِ ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ بِسَامَرَّا ! وَقَدْ يُقِيمُونَ هُنَاكَ دَابَّة ، إِمَّا بَغْلَة ، وَإِمَّا فَرَسًا ، لِيَرْكَبَهَا إِذَا خَرَجَ ! وَيُقِيمُونَ هُنَاكَ في أَوْقَاتٍ عَيَّنُوها لَمَنْ يُنَادِي عليه بِالْخُرُوجِ : يَا مَوْلَانَا ، اخْرُجْ ! يَا مَوْلَانَا ، اخْرُجْ ! وَيُشْهِرُونَ السِّلَاحَ ؛ وَلَا أَحَدَ هُنَاكَ يُقَاتِلُهُمْ ! إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ التي يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ مِنهَا الْعُقَلَاءُ ! !

وقوله : « مَعَ أُولِي الْأَمْرِ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ » لِأَنَّ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ فَرْضَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِالسَّفَرِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ سَائِسٍ يَسُوسُ النَّاسَ فِيهِمَا ، وَيُقَاوِمُ فيها الْعَدُوَّ ، وَهَذَا المعنى كَمَا يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْبَرِّ يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ .

*****

قوله : « وَنُؤْمِنُ بِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ ، فَإِنَّ الله قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ » .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠ـ ١٢]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٧، ١٨].

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴾[الجاثية:٢٩] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[يونس:٢١] .

وفي «الصَّحِيحِ» عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ : « **يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ في صلاة الصُّبْحِ وَصَلَاة الْعَصْرِ ، فَيَصْعَدُ إليه الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ والله أَعْلَمُ بِهِمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ** »(١) .

وفي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : « **إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الْخَلَاءِ وَعِنْدَ الْجِمَاعِ ، فَاسْتَحْيُوهُمْ ، وَأَكْرِمُوهُمْ** »(٢) .

جَاءَ في التَّفْسِيرِ : اثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ، يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ : صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِه وَيَحْرُسَانِه ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِه ، وَوَاحِدٌ أَمَامَه ، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَة أَمْلَاكٍ بِالنَّهَارِ ، وَأَرْبَعَة آخَرِينَ بِاللَّيْلِ ، بَدَلًا ، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ .

وَقَالَ عِكْرِمَة ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[الرعد:١١] ، قَالَ : مَلَائِكَة يَحْفَظُونَه مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَمِنْ خَلْفِه ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ الله خَلَّوْا عنه .

وروى مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الله ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ به قَرِينُه مِنَ الْجِنِّ ، وَقَرِينُه مِنَ الْمَلَائِكَة** » قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) سنده ضعيف : أخرجه الترمذي (حديث ٢٨٠٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « **إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّي فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لاَ يُفَارِقُكُمْ إِلاَّ عِنْدَ الْغَائِطِ وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ** » قلت : وفيه ليث ، وهو ابن أبي سليم ، وهو ضعيف ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **وَإِيَّاي ، وَلَكِن أَعَانَنِي اللهُ عَلَيْه ، فَأَسْلَمَ ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ** »[(١)] .

الرِّوَايَة بِفَتْحِ المِيمِ مِنْ « **فَأَسْلَمَ** » وَمَنْ رواه : « **فَأَسْلَمُ** » بِرَفْعِ المِيمِ ، فَقَدْ حَرَّفَ لَفْظَه . ومعنى : « **فَأَسْلَمَ** » ، أي : فَاسْتَسْلَمَ وَانْقَادَ لِي ، فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ ، وَلِهَذَا قَالَ : « **فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ** » ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّ الشَّيْطَانَ صَارَ مُؤْمِنًا ، فَقَدْ حَرَّفَ معناه ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا .

ومعنى : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١] .

قِيلَ : حِفْظُهُمْ له مِنْ أَمْرِ الله ، أي الله أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ : يَحْفَظُونَه بِأَمْرِ الله .

ثُمَّ قَدْ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الْمَذْكُورَة أَنَّ الْمَلَائِكَة تَكْتُبُ الْقَوْلَ وَالْفِعْلَ .

وَكَذَلِكَ النِّيَّة ؛ لِأَنَّهَا فِعْلُ الْقَلْبِ ، فَدَخَلَتْ فِي عُمُومِ : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الأنفطار:١٢] . وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قوله ﷺ : « **قَالَ الله ﷻ : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَة فَلَا تَكْتُبُوهَا عليه ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عليه سَيِّئَة ، وَإِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا له حَسَنَة ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبوهَا عَشْرًا** »[(٢)] .

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **قَالَتِ الْمَلَائِكَة : ذَاكَ عَبْدٌ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَة ــ وَهُوَ**

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٨١٤) من حديث ابن مسعود مرفوعًا ،وعند مسلم من حديث عائشة ﵂ (حديث ٢٨١٥) أن رسول الله ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلاً ، قَالَتْ : فَغِرْتُ عَلَيْه ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : « **مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ أَغِرْتِ** » . فَقُلْتُ : وَمَا لِي لاَ يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ** » ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله أَوَ مَعِيَ شَيْطَانٌ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » قُلْتُ : وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » . قُلْتُ : وَمَعَكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **نَعَمْ وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ** » .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٧٥٠١) ، ومسلم (حديث ١٢٨) من حديث أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « **قَالَ الله ﷻ : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَة فَلَا تَكْتُبُوهَا عليه ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عليه سَيِّئَة ، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَة ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا** »

أَبْصَرُ به - فَقَالَ : ارْقُبُوه ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لـه حَسَنَة ، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّاي » (١) ، خَرَّجَاهُمَا في «الصَّحِيحَيْنِ» ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ .

قوله : « وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ ، الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالَمِينَ » .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة:١١] . وَلَا تُعَارِضُ هذه الآيَةُ قَوْلَه تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام:٦١] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢] ؛ لِأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَتَوَلَّى قَبْضَهَا وَاسْتِخْرَاجَهَا ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا منه مَلَائِكَة الرَّحْمَة ، أَوْ مَلَائِكَة الْعَذَابِ ، وَيَتَوَلَّوْنَهَا بعده ، كُلُّ ذَلِكَ بِإِذْنِ الله وَقَضَائِه وَقَدَرِه ، وَحُكْمِهِ ، فَصَحَّتْ إِضَافَةُ التَّوَفِّي إلى كُلٍّ بِحَسَبِه .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢] ، فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّيهَا وَإِمْسَاكِهَا وَإِرْسَالِهَا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام:٩٣] ، فَفِيهَا بَسْطُ الْمَلَائِكَة أَيْدِيَهُمْ لِتَنَاوُلِهَا ، وَوَصْفُهَا بِالْإِخْرَاجِ وَالْخُرُوجِ ، وَالْإِخْبَارُ بِعَذَابِهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ مَجِيئِهَا إلى رَبِّهَا .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٢٩) من حديث أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ الله ﷻ : إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا ».

وقولـــه تعـــالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام:٦٠] . فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّي النَّفْسِ بِاللَّيْلِ ، وَبَعْثِهَا إِلى أَجْسَادِهَا بِالنَّهَارِ ، وَتَوَفِّي الْمَلَائِكَة لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠] . فَفِيهَا وَصْفُهَا بِالرُّجُوعِ وَالدُّخُولِ وَالرِّضَا .

وَقَالَ ﷺ : « إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَه الْبَصَرُ » [(١)] . ففيه وَصْفُه بِالْقَبْضِ ، وَأَنَّ الْبَصَرَ يَرَاه . وَقَالَ ﷺ في حَدِيثِ بِلَالٍ : « قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ وَرَدَّهَا عَلَيْكُم حِينَ شَاءَ » [(٢)] .

وَقَالَ ﷺ : « نَسَمَة الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّة » [(٣)] .

وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ على عَذَابِ الْقَبْرِ أَدِلَّة كثيرةٌ مِنْ خِطَابِ مَلَكِ الْمَوْتِ لَهَا ، وَأَنَّهَا تَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَة مِنْ فِي السِّقَاءِ ، وَأَنَّهَا تَصْعَدُ وَيُوجَدُ مِنْهَا مِنَ الْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ ، وَمِنَ الْكَافِرِ كَأَنْتَنِ رِيحٍ ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ ، وعلى ذَلِكَ أَجْمَعَ السَّلَفُ ، وَدَلَّ الْعَقْلُ ، وَلَيْسَ مَعَ مَنْ خَالَفَ سِوَى الظُّنُونِ الْكَاذِبَة ، وَالشُّبَهِ الْفَاسِدَة ، التي لَا يُعَارَضُ بِهَا مَا دَلَّ عليه نُصُوصُ الْوَحْي وَالْأَدِلَّة الْعَقْلِيَّة .

وَأَمَّا اخْتِلَافُ النَّاسِ في مسمى النَّفْسِ وَالرُّوحِ : هَلْ هُمَا مُتَغَايِرَانِ ، أَوْ مُسَمَّاهُمَا وَاحِدٌ ؟ فَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ النَّفْسَ تُطْلَقُ على أُمُورٍ ، وَكَذَلِكَ الرُّوحُ ، فَيَتَّحِدُ مَدْلُولُهُمَا

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٩٢٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٥٩٥) من حديث أَبِي قَتَادَةَ .
(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٥) ، والنسائي (٤/ ١٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٧١) .

تَارَة ، وَيَخْتَلِفُ تَارَة .

فَالنَّفْسُ تُطْلَقُ على الرُّوحِ ، وَلَكِنْ غَالِبُ مَا تُسَمَّى نَفْسًا إِذَا كَانَتْ مُتَّصِلَة بِالْبَدَنِ ، وَأَمَّا إِذَا أُخِذَتْ مُجَرَّدَة فَتَسْمِيَة الرُّوحِ أَغْلَبُ عَلَيْهَا .

وَالنَّفْسُ : الْعَيْنُ ، يُقَالُ : أَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ ، أي عَيْنٌ .

وَالنَّفْسُ : الذَّاتُ ، كقولِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور:٦١] ، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء:٢٩] ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَأَمَّا الرُّوحُ فَلَا تُطْلَقُ على الْبَدَنِ ، لَا بِانْفِرَادِه ، وَلَا مَعَ النَّفْسِ ، وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على الْقُرْآنِ وعلى جِبْرِيلَ ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء:١٩٣] .

وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على الْهَوَاءِ الْـمُتَرَدِّدِ في بَدَنِ الْإِنْسَانِ أَيْضًا .

وَأَمَّا مَا يُؤَيِّدُ الله به أَوْلِيَاءَه ، فهي رُوحٌ أخرى ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة:٢٢] .

وَكَذَلِكَ الْقُوَى التي في الْبَدَنِ ، فَإِنَّهَا أَيْضًا تُسَمَّى أَرْوَاحًا ، فَيُقَالُ : الرُّوحُ الْبَاصِرُ ، وَالرُّوحُ السَّامِعُ ، وَالرُّوحُ الشَّامُّ .

وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على أَخَصَّ مِنْ هَذَا كُلِّه ، وَهُوَ : قُوَّة الْـمَعْرِفَة بالله وَالْإِنَابَة إليه وَمَحَبَّتِه ، وَانْبِعَاثُ الْهِمَّة إلى طَلَبِه وَإِرَادَتِه ، وَنِسْبَة هذه الرُّوحِ إلى الرُّوحِ ، كَنِسْبَة الرُّوحِ إلى الْبَدَنِ ، فَلِلْعِلْمِ رُوحٌ ، وَلِلْإِحْسَانِ رُوحٌ ، وَلِلْمَحَبَّة رُوحٌ ، وَلِلتَّوَكُّلِ رُوحٌ ، وَلِلصِّدْقِ رُوحٌ .

وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ في هذه الْأَرْوَاحِ : فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه الْأَرْوَاحُ فَيَصِيرُ رُوحَانِيًّا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْقِدُهَا أَوْ أَكْثَرَهَا ، فَيَصِيرُ أَرْضِيًّا بَهِيمِيًّا .

وَقَدْ وَقَعَ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ : مُطْمَئِنَّة ، وَلَوَّامَة ، وَأَمَّارَة ، قَالُوا : وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر:٢٧] ، ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة:٢] ، ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣] .

وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّهَا نَفْسٌ وَاحِدَة ، لَهَا صِفَاتٌ ، فهي أَمَّارَة بِالسُّوءِ ، فَإِذَا عَارَضَهَا الْإِيمَانُ صَارَتْ لَوَّامَة ، تَفْعَلُ الذَّنْبَ ، ثُمَّ تَلُومُ صَاحِبَهَا ، وَتَلُومُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ ، فَإِذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ ، صَارَتْ مُطْمَئِنَّة .

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ سَرَّتْه حَسَنَتُه وَسَاءَتْه سَيِّئَتُه فَهُوَ مُؤْمِنٌ » [(١)] .

وقوله : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [(٢)] الْحَدِيثَ .

قوله : « وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ لِمَنْ كَانَ له أَهْلًا ، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فِي قَبْرِه عَنْ رَبِّه وَدِينِه وَنَبِيِّه ، على مَا جَاءَتْ به الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ، وَعَنِ الصَّحَابَة ـ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ . وَالْقَبْرُ رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّة ، أَوْ حُفْرَة مِنْ حُفَرِ النِّيرَانِ » .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥، ٤٦]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور:٤٥ـ٤٧].

---

(١) صحيح بمجموع طرقه : وقد أخرجه أحمد (١ / ٢٦) ، وعبد بن حميد في (المنتخب بتحقيقي حديث رقم ٢٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعًا .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ به عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وغيره في الدُّنْيَا ، وَأَنْ يُرَادَ به عَذَابُهُمْ في الْبَرْزَخِ ، وَهُوَ أَظْهَرُ ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ في الدُّنْيَا ، أَوِ الْمُرَادُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ .

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ، قَالَ : كُنَّا في جِنَازَةٍ في بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَانَا النبي ﷺ ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَه ، كَأَنَّ على رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ ، وَهُوَ يُلْحَدُ له ، فَقَالَ : « أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ في إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، نَزَلَتْ إليه الْمَلَائِكَة ، كَأَنَّ على وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّة ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّة ، فَجَلَسُوا منه مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه ، فَيَقُولُ : يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة ، اخْرُجِي إلى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ » ، قَالَ : « فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَة مِنْ في السِّقَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِه طَرْفَة عَيْنٍ ، حتى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحَنُوطِ ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَة مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْه الْأَرْضِ ، قَالَ : فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يعني على مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَة - إِلَّا قَالُوا : مَا هذه الرُّوحُ الطَّيِّبَة ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِه التي كَانُوا يُسَمُّونَه بِهَا في الدُّنْيَا ، حتى يَنْتَهُوا بِهَا إلى السَّمَاءِ ، فَيَسْتَفْتِحُونَ له ، فَيُفْتَحُ له ، فَيُشَيِّعُه مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا ، إلى السَّمَاءِ التي تَلِيهَا ، حتى يُنْتَهَى بِهَا إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي في عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوه إلى الْأَرْضِ ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَة أخرى .

قَالَ : فَتُعَادُ رُوحُهُ في جَسَدِه ، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِه ، فَيَقُولَانِ له : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ الله ، فَيَقُولَانِ له : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ له : مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ الله ، فَيَقُولَانِ له : مَا عِلْمُكَ ؟

فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ به وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوه مِنَ الْجَنَّة ، وَافْتَحُوا لـه بَابًا إلى الْجَنَّة ، قَالَ : فَيَأْتِيه مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْسَحُ له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه ، قَالَ : وَيَأْتِيه رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْه ، حَسَنُ الثِّيَابِ ، طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ له : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْه الذي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ ، فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبُّ ، أَقِمِ السَّاعَةَ حتى أَرْجِعَ إلى أَهْلِي وَمَالِي .

قَالَ : وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ في انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَة ، نَزَلَ إليه مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوه ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مَنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَة ، اخْرُجِي إلى سَخَطٍ مِنَ الله وَغَضَبٍ ، قَالَ : فَتَتَفَرَّقُ في جَسَدِه ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السُّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِه طَرْفَة عَيْنٍ ، حتى يَجْعَلُوهَا في تِلْكَ الْمُسُوحِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ خَبِيثَةٍ وُجِدَتْ على وَجْه الْأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا على مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَة إِلَّا قَالُوا : مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِه التي كَانُ يُسَمَّى بِهَا في الدُّنْيَا ، حتى يُنْتَهَى بِهَا إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُسْتَفْتَحُ له ، فَلَا يُفْتَحُ له ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠] ، فَيَقُولُ الله ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَه في سِجِّينٍ ، في الْأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُه طَرْحًا ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج:٣١] ، فَتُعَادُ رُوحُه في جَسَدِه ، وَيَأْتِيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِه ، فَيَقُولَانِ له : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاه ، هَاه ، لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ له : مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ ، فَيَقُولُ : هَاه ، هَاه ، لَا أَدْرِي ،

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ : أَنْ كَذَبَ ، فَافرِشُوه مِنَ النَّارِ ، وَافتَحُوا له بَابًا إلى النَّارِ ، فَيأتِيه مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، وَيَضِيقُ عليه قَبْرُه ، حتى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلَاعُه ، وَيَأْتِيه رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْه ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ ، فيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ ، فَوَجْهُكَ الْوَجْه الذي يَجِيءُ بِالشَّرِّ ، فيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ ، فيَقُولُ : رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَة »(١) .

رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ ، وروى النسائيُّ وَابْنُ مَاجه أَوَّلَه ، ورواه الْحَاكِمُ ، وَأَبُو عَوَانَة الْإِسْفِرَائِينِي في «صَحِيحَيْهِمَا» ، وَابْنُ حِبَّانَ .

وَذَهَبَ إلى مُوجَبِ هَذَا الْحَدِيثِ جَمِيعُ أَهْلِ السنة وَالْحَدِيثِ ، وله شَوَاهِدُ مِنَ الصَّحِيحِ .فَذَكَرَ البخاري رحمه الله عَنْ سَعِيدٍ ، عَنْ قَتَادَة ، عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ في قَبْرِه وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُه ، أنه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ ، فيَأْتِيه مَلَكَانِ ، فيُقْعِدَانِه ، فيَقُولَانِ له : مَا كُنْتَ تَقُولُ في هَذَا الرَّجُلِ ﷺ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ ، فيَقُولُ : أَشْهَدُ أنه عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، فيَقُولُ لَهُ : انْظُرْ إلى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ الله به مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّة ، فيَرَاهُمَا جَمِيعًا »(٢) .

قَالَ قَتَادَة : وَرُوِيَ لَنَا : أنه يُفْسَحُ له في قَبْرِه ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما :أَنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ ، فَقَالَ : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا : فكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَة » ، فَدَعَا بِجَرِيدَة رَطْبَة ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ ، وَقَالَ : « لَعَلَّه

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥، ٢٩٦) ، وأبو داود (حديث ٤٧٥٣) وغيرهما .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٣٣٨) ، (١٣٧٤) ، ومسلم (حديث ٢٨٧٠) وغيرهما .

يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا »[١].

وفي «صَحِيحِ أبي حَاتِم» عَنْ أبي هريرة ، قَالَ : قَالَ النَّبِيّ ﷺ : « **إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ ، أَوِ الْإِنْسَانُ ، أَتَاه مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا : الْـمُنْكَرُ ، وَلِلْآخَرِ : النَّكِيرُ** »[٢] ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .... إِلَخ .

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ في ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِه لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا ، وَسُؤَالِ الْـمَلَكَيْنِ ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ وَالْإِيمَانُ به ، وَلَا نَتَكَلَّمُ في كَيْفِيَّتِه ، إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وُقُوفٌ على كَيْفِيَّتِه ، لِكَوْنِه لَا عَهْدَ له به في هذه الدَّارِ ، وَالشَّرْعُ لَا يأتي بِمَا يُحِيلُه الْعُقُولُ ، وَلَكِنَّه قَدْ يأتي بِمَا تَحَارُ فيه الْعُقُولُ ، فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إلى الْجَسَدِ لَيْسَ على الْوَجْه الْـمَعْهُودِ في الدُّنْيَا ، بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إليه إِعَادَةَ غَيْرَ الْإِعَادَة الْـمَأْلُوفَة في الدُّنْيَا .

فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ التَّعَلُّقِ ، مُتَغَايِرَة الْأَحْكَامِ :

أَحَدُهَا : تَعَلُّقُهَا به في بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا .

الثاني : تَعَلُّقُهَا به بَعْدَ خُرُوجِه إلى وَجْه الْأَرْضِ .

الثَّالِثُ : تَعَلُّقُهَا به في حَالِ النَّوْمِ ، فَلَهَا به تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْه ، وَمُفَارَقَة مِنْ وَجْه .

الرَّابِعُ : تَعَلُّقُهَا به في الْبَرْزَخِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ فَارَقَتْه وَتَجَرَّدَتْ عنه فَإِنَّهَا لَمْ تُفَارِقْه فِرَاقًا كُلِّيًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إليه الْتِفَاتٌ أَلْبَتَّة ، فإنه وَرَدَ رَدُّهَا إليه وَقْتَ سَلَامِ الْـمُسَلِّمِ ، وَوَرَدَ أنه يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عنه ، وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَة خَاصَّة ، لَا

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٢١٦) وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٩٢) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا .

(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن حبان (موارد الظمآن ٧٨٠) ، والترمذي (حديث ١٠٧١) ، وابن أبي عاصم (حديث ٨٦٤) وغيرهم .

يُوجِبُ حَيَاةَ الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة .

الخَامِسُ : تَعَلُّقُهَا به يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ ، وَلَا نِسْبَةَ لِمَا قبله مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إليه ، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ معه مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا ، فَالنَّوْمُ أَخُو الْـمَوْتِ . فَتَأَمُّلُ هَذَا يُزِحُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كثيرة .

وَلَيْسَ السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وغيره ، وَأَفْسَدُ منه قَوْلُ مَنْ قَالَ : أنه لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ ! وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَة تَرُدُّ الْقَوْلَيْنِ .

وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السنة وَالْجَمَاعَة ، تَنْعَمُ النَّفْسُ ، وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَة عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَة به .

وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَه نَصِيبُه منه ، قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ ، أَكَلَتْه السِّبَاعُ أَوِ احْتَرَقَ حتى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ ، أَوْ صُلِبَ أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ وَصَلَ إِلى رُوحِه وَبَدَنِه مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إِلى الْـمَقْبُورِ .

وَمَا وَرَدَ مِنْ إِجْلَاسِه وَاخْتِلَافِ أَضْلَاعِه وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُه مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ ، فَلَا يُحَمَّلُ كَلَامُه مَا لَا يَحْتَمِلُه ، وَلَا يُقَصَّرُ به عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَه مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ ، فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عنه مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُه إِلَّا الله ، بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ الله ورسوله أَصْلُ كُلِّ بِدْعَة وَضَلَالَة نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَأٍ فِي الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ أُضِيفَ إليه سُوءُ الْقَصْدِ . والله الْـمُسْتَعَانُ .

فَالْحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَة : دَارُ الدُّنْيَا ، وَدَارُ الْبَرْزَخِ ، وَدَارُ الْقَرَارِ ، وَقَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصُّهَا ، وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا على الْأَبْدَانِ ، وَالْأَرْوَاحُ تَبَعٌ لَهَا ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ على الْأَرْوَاحِ ،

وَالْأَبْدَانُ تَبَعٌ لَهَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ ، صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ على الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا . فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا المعنى حَقَّ التَّأَمُّلِ ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ ، وأنه حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فيه ، وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ التي في الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ ، لَيْسَت مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا ، وَإِنْ كَانَ الله تعالى يَحْمِي عليه التُّرَابَ وَالْحِجَارَةَ التي فَوْقَه وَتَحْتَه حتى يَكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا ، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحِسُّوا بِهَا ، بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنانُ أَحَدُهُمَا إلى جَنْبِ صَاحِبِه ، وَهَذَا في حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، وَهَذَا في رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِه ، وَلَا مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِه . وَقُدْرَة الله أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مُولَعَةٌ بِالتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ به عِلْمًا ، وَقَدْ أَرَانَا الله في هذه الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِه مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ ، وَإِذَا شَاءَ الله أَنْ يُطْلِعَ على ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِهِ أَطْلَعَه وَغَيَّبَه عَنْ غيره ، وَلَوْ أَطْلَعَ الله على ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَةُ التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ ، وَلَمَا تَدَافَنَ النَّاسُ ، كَمَا في «**الصَّحِيح**» عنه ﷺ : « **لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ** » [1] . وَلَمَّا كَانَتْ هذه الْحِكْمَةُ مُنْتَفِيَةً في حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ ذلك وَأَدْرَكَتْ .

وَلِلنَّاسِ في سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ : هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِه الْأُمَّة أَمْ لَا ؟ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الثَّالِثُ : **التَّوَقُّفُ** : وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَة ، مِنْهُمْ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ، فَقَالَ : وفي حَدِيثِ

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه مرفوعًا ، ونحوه عند مسلم أيضًا (٢٨٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا ، لكن ليس في رواية أنس : « الذي أسمع » وإنما هي في حديث زيد بن ثابت مرفوعًا .

زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النبي ﷺ ، أنه قَالَ : « **إِنَّ هذه الْأُمَّة تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا** »[(١)] مِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيه :« تُسْأَلُ » ، وعلى هَذَا اللَّفْظِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هذه الْأُمَّة قَدْ خُصَّتْ بِذَلِكَ ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُقْطَعُ عليه ، وَيَظْهَرُ عَدَمُ الِاخْتِصَاصِ ، والله أَعْلَمُ .

وَكَذَلِكَ اخْتُلِفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا .

وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟ جَوَابُه أنه نَوْعَانِ : منه مَا هُوَ دَائِمٌ ، كَمَا قَالَ تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦] . وَكَذَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي قِصَّة الْكَافِرِ : « **ثُمَّ يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِه فِيهَا حتى تَقُومَ السَّاعَة** »[(٢)] ، رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي بَعْضِ طُرُقِه .

وَالنَّوْعُ الثاني : أنه مُدَّة ثُمَّ يَنْقَطِعُ ، وَهُوَ عَذَابُ بَعْضِ الْعُصَاة الَّذِينَ خَفَّتْ جَرَائِمُهُمْ ، فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِه ، ثُمَّ يُخَفَّفُ عنه ، كَمَا تَقَدَّمَ ذكره فِي الْـمُمَحِّصَاتِ الْعَشْرة .

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي مُسْتَقَرِّ الْأَرْوَاحِ مَا بَيْنَ الْـمَوْتِ إلى قِيَامِ السَّاعَة :

فَقِيلَ : أَرْوَاحُ الْـمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّة ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ .

وَقِيلَ : إِنَّ أَرْوَاحَ الْـمُؤْمِنِينَ بِفِنَاءِ الْجَنَّة على بَابِهَا ، يَأْتِيهِمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا وَرِزْقِهَا .

وَقِيلَ : على أَفْنِيَة قُبُورِهِمْ .

وَقَالَ مَالِكٌ : بَلَغَنِي أَنَّ الرُّوحَ مُرْسَلَةٌ ، تَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَتْ .

---

(١) صحيح : وهو جزء من حديث زيد ثابت المتقدم .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

وَقَالَتْ طَائِفَة : بَلْ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الله ﷻ، وَلَمْ يَزِيدُوا على ذَلِكَ .

وَقِيلَ : إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَابِيَة مِنْ دِمَشْق ، وَأَرْوَاح الْكَافِرِينَ بِبَرَهُوت بِئْرٍ بِحَضْرَمَوْتَ !

وَقَالَ كَعْبٌ : أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَة ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي سِجِّينَ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَة تَحْتَ خَدِّ إِبْلِيسَ !

وَقِيلَ : أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ بِبِئْرِ زَمْزَمَ ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ بِبِئْرِ بَرَهُوتَ .

وَقِيلَ : أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ يَمِينِ آدَمَ ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ عَنْ شِمَالِه .

وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ وغيره : مُسْتَقَرُّهَا حَيْثُ كَانَتْ قَبْلَ خَلْقِ أَجْسَادِهَا .

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّة ، وَأَرْوَاحُ عَامَّة الْمُؤْمِنِينَ على أَفْنِيَة قُبُورِهِمْ . وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أنه قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ كَطَيْرٍ خُضْرٍ مُعَلَّقَة بِالْعَرْشِ ، تَغْدُو وَتَرُوحُ إلى رِيَاضِ الْجَنَّة ، تَأْتِي رَبَّهَا كُلَّ يَوْمٍ تُسَلِّمُ عليه .

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : مُسْتَقَرُّهَا الْعَدَمُ الْمَحْض ، وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ النَّفْسَ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِ الْبَدَنِ ، كَحَيَاتِه وَإِدْرَاكِهِ ! وَقَوْلُهُمْ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ والسنة .

وَقَالَتْ فِرْقَة : مُسْتَقَرُّهَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَبْدَانٌ أُخَرُ تُنَاسِبُ أَخْلَاقَهَا وَصِفَاتِهَا التي اكْتَسَبَتْهَا فِي حَالِ حَيَاتِهَا ، فَتَصِيرُ كُلُّ رُوحٍ إلى بَدَنِ حَيَوَانٍ يُشَاكِلُ تِلْكَ الرُّوحَ ! وَهَذَا قَوْلُ التَّنَاسُخِيَّة مُنْكِرِي الْمَعَادِ ، وَهُوَ قَوْلٌ خَارِجٌ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ كُلِّهِمْ . وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِ أَدِلَّة هذه الْأَقْوَالِ وَالْكَلَامِ عَلَيْهَا .

وَيَتَلَخَّصُ مِنْ أَدِلَّتِهَا : أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْبَرْزَخِ مُتَفَاوِتَة أَعْظَمَ تَفَاوُتٍ .

فَمِنْهَا : أَرْوَاحٌ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وهي أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ ـ

صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ وَسَلَامُه - وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ .

وَمِنْهَا : أَرْوَاحٌ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ ، وهي أَرْوَاحُ بَعْضِ الشُّهَدَاءِ ، لَا كُلِّهِمْ ، بَلْ مِنَ الشُّهَدَاءِ مَنْ تُحْبَسُ رُوحُه عَنْ دُخُولِ الْجَنَّة لِدَيْنٍ عليه ، كَمَا فِي «الْمُسْنَدِ» عَنْ محمد بن عَبْدِ الله بْنِ جَحْشٍ : أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، مَا لِي إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله ؟ قَالَ : « **الْجَنَّة** » ، فَلَمَّا وَلَّى ، قَالَ : « **إِلَّا الدَّيْنَ ، سَارَّنِي به جِبْرِيلُ آنفا** » (١) .

وَمِنَ الْأَرْوَاحِ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا على بَابِ الْجَنَّة ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الذي قَالَ فيه رَسُولُ الله ﷺ : « **رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسًا على بَابِ الْجَنَّة** » (٢) .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا فِي قَبْرِه ، وَمِنْهُمْ مَنْ يكون مَحْبُوسًا فِي الْأَرْضِ ، وَمِنْهَا أَرْوَاحٌ تكون فِي تَنُّورِ الزُّنَاة وَالزَّوَانِي ، وَأَرْوَاحٌ فِي نَهْرِ الدَّمِ تَسْبَحُ فيه ، وَتُلْقَمُ الْحِجَارَة ، كُلُّ ذَلِكَ تَشْهَدُ له السنة (٣) ، والله أَعْلَمُ .

وَأَمَّا الْحَيَاةُ التي اخْتُصَّ بِهَا الشَّهِيدُ ، وَامْتَازَ بِهَا عَنْ غيره ، فِي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٠) ، والنسائي (٧/ ٣١٤) ، وغيرهما وله شاهد أيضًا عند مسلم من حديث أبي قتادة ﷺ عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ : « **أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله ، وَالإِيمَانَ بِالله أَفْضَلُ الأَعْمَالِ** » . فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، أَرَأَيتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « **نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ الله وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ** » . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **كَيْفَ قُلْتَ ؟** » . قَالَ : أَرَأَيتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **نَعَمْ ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ إِلَّا الدَّيْنَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ** عليه السلام **قَالَ لِي ذَلِكَ** » .

(٢) في سنده مقال : أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٣٦ ، ٥/ ٧) ، وابن ماجه (٢٤٣٣) وغيرهم ، وفي سنده عبد الملك أبي جعفر وهو مجهول .

(٣) ورد ذلك في حديث سمرة بن جندب عند البخاري (حديث ٧٠٤٧) .

[آل عمران:١٦٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٥٤] ، فهي: أَنَّ الله تعالى جَعَلَ أَرْوَاحَهُمْ في أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، كَمَا في حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، أنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ - يعني يَوْمَ أُحُدٍ - جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ في أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّة ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وَتَأْوِي إلى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُظَلَّلَة في ظِلِّ الْعَرْشِ** » (١) ، الْحَدِيثَ رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ ، وَبِمَعْنَاه في حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، رواه مُسْلِمٌ (٢).

فَإِنَّهُمْ لَمَّا بَذَلُوا أَبْدَانَهَمْ لله ﷻ حتى أَتْلَفَهَا أَعْدَاؤُه فيه ، أَعَاضَهُمْ مِنْهَا في الْبَرْزَخِ أَبْدَانًا خَيْرًا مِنْهَا ، تَكُونُ فِيهَا إلى يَوْمِ الْقِيَامَة ، وَيَكُونُ تنعُّمُهَا بِوَاسِطَة تِلْكَ الْأَبْدَانِ ، أَكْمَلَ مِنْ تَنَعُّمِ الْأَرْوَاحِ الْمُجَرَّدَة عَنْهَا .

وَلِهَذَا كَانَتْ نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ في صُورَة طَيْرٍ، أَوْ كَطَيْرٍ، وَنَسَمَةُ الشَّهِيدِ في جَوْفِ طَيْرٍ. وَتَأَمَّلْ لَفظَ الْحَدِيثَيْنِ ، ففي «**الْمُوَطَّأِ**» أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٍ يَعْلَقُ في شَجَرِ الْجَنَّة ، حتى يُرْجِعَه الله إلى جَسَدِه يَوْمَ**

---

(١) صحيح لشواهده : وقد أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٦٦) ،وأبوداود (حديث ٢٥٢٠) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٨٨) ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٢) حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه مسلم (١٨٨٧) من طريق مسروق قال : سألنا عبد الله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩] ، قَالَ : أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : « **أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ؟ ! فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا** ».

يَبْعَثُه »(١) .

فقوله : «نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ» تَعُمُّ الشَّهِيدَ وغيره ، ثُمَّ خَصَّ الشَّهِيدَ بِأَنْ قَالَ : « هي في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ » ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ في جَوْفِ طَيْرٍ ، صَدَقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا طَيْرٌ ، فَتَدْخُلُ في عُمُومِ الْحَدِيثِ الْآخَرِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ، فَنَصِيبُهُمْ مِنَ النَّعِيمِ في الْبَرْزَخِ أَكْمَلُ مِنْ نَصِيبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ على فُرُشِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ الْـمَيِّتُ على فراشه أَعْلَى دَرَجَة مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، فله نَعِيمٌ يَخْتَصُّ به لَا يُشَارِكُه فيه مَنْ هُوَ دُونَه ، والله أَعْلَمُ .

وَحَرَّمَ الله على الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا رُوِيَ في « السُّنَنِ »(٢) . وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ ، فَقَدْ شُوهِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ مُدَدٍ مِنْ دَفْنِه كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ ، فَيُحْتَمَلُ بَقَاؤُه كَذَلِكَ في تُرْبَتِه إلى يَوْمِ مَحْشَرِه ، وَيُحْتَمَلُ أنه يَبْلَى مَعَ طُولِ الْـمُدَّة ، والله أَعْلَمُ . وَكَأَنَّه والله أَعْلَمُ كُلَّمَا كَانَتِ الشَّهَادَة أَكْمَلَ ، وَالشَّهِيدُ أَفْضَلَ ، كَانَ بَقَاءُ جَسَدِه أَطْوَلَ .

قوله : « وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَة ، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ ، وَقِرَاءَة الْكِتَابِ ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ » .

ش : الْإِيمَانُ بِالْـمَعَادِ مِمَّا دَلَّ عليه الْكِتَابُ والسُّنَّةُ ، وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ . فَأَخْبَرَ الله سبحانه عنه في كِتَابِه الْعَزِيزِ ، وَأَقَامَ الدَّلِيلَ عليه ، وَرَدَّ على منكريه ، في غَالِبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ .

وَذَلِكَ : أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ على الْإِيمَانِ بالآخرة ، فَإِنَّ الْإِقْرَارَ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : أخرج ذلك أحمد في المسند (٤/ ٨) ، وأبو داود (٢/ ١٨٤) ، والنسائي (٣/ ٩١) ، وابن ماجه (١٦٣٦) وغيرهم من حديث أوس بن أبي أوس رضي الله عنه مرفوعًا .

بِالرَّبِّ عَامٌّ فِي بني آدَمَ ، وَهُوَ فِطْرِي ، كُلُّهُمْ يُقِرُّ بِالرَّبِّ ، إِلَّا مَنْ عَانَدَ ، كَفِرْعَوْنَ ، بِخِلَافِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَإِنَّ مُنْكِرِيه كَثِيرُونَ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَمَّا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَانَ قَدْ بُعِثَ هُوَ وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ ، وَكَانَ هُوَ الْحَاشِرُ الْمُقَفِّي بَيَّنَ تَفْصِيلَ الْآخِرَة بَيَانًا لَا يُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ . وَلِهَذَا ظَنَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَة وَنَحْوِهِمْ ، أنه لَمْ يُفْصِحْ بِمَعَادِ الْأَبْدَانِ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَجَعَلُوا هَذَا حُجَّة لَهُمْ فِي أنه مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ وَالْخِطَابِ الْجُمْهُورِي !

وَالْقُرْآنُ بَيَّنَ مَعَادَ النَّفْسِ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَمَعَادَ الْبَدَنِ عِنْدَ الْقِيَامَة الْكُبْرَى ، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ الْقِيَامَة الْكُبْرَى ، وَيُنْكِرُونَ مَعَادَ الْأَبْدَانِ ، وَيَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ : أنه لَمْ يُخْبِرْ به إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ على طَرِيقِ التَّخْيِيلِ ! ! وَهَذَا كَذِبٌ ، فَإِنَّ الْقِيَامَة الْكُبْرَى هي مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْ آدَمَ إِلى نُوحٍ ، إِلى إِبْرَاهِيمَ وموسى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ عليهم السلام .

وَقَدْ أَخْبَرَ الله بِهَا مِنْ حِينِ أُهْبِطَ آدَمُ ، فَقَالَ تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف:٢٤، ٢٥] .

وَلَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [ص:٧٩ـ ٨١] .

وَأَمَّا نُوحٌ عليه السلام فَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح:١٧، ١٨] .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء:٨٢] . إِلى آخِرِ الْقِصَّة .

وَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١] .

وَقَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ الآية [البقرة:٢٦٠] .

وَأَمَّا موسى عليه السلام ، فَقَالَ الله تعالى لَمَّا نَاجَاه : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه:١٥، ١٦] .

بَلْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْلَمُ الْمَعَادَ ، وَإِنَّمَا آمَنَ بِمُوسَى ، قَالَ تعالى حِكَايَة عنه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر:٣٢، ٣٣] ، إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر:٣٩] ، إلى قوله : ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦] .

وَقَالَ موسى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] .

وَقَدْ أَخْبَرَ الله في قِصَّة الْبَقَرَة : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٧٣] .

وَقَدْ أَخْبَرَ الله أنه أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، في آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٧١] .

وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ الدَّاخِلِينَ جَهَنَّمَ أَنَّ الرُّسُلَ أَنْذَرَتْهُمْ لِقَاءَ

يَوْمِهِمْ هَذَا ، فَجَمِيعُ الرُّسُلِ أَنْذَرُوا بِمَا أَنْذَرَ به خَاتَمُهُمْ ، مِنْ عُقُوبَاتِ الْمُذْنِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ، فَعَامَّةُ سُوَرِ الْقُرْآنِ التي فِيهَا ذِكْرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، يُذْكَرُ ذَلِكَ فِيهَا : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة .

وَأَمَرَ نَبِيَّه أَنْ يُقْسِمَ به على الْمَعَادِ ، فَقَالَ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ الآية [سبأ:٣] .

وَقَالَ تعالى : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس:٥٣] .

وَقَالَ تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧].

وَأَخْبَرَ عَنِ اقْتِرَابِهَا ، فَقَالَ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر:١] .

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١] .

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المعارج:١، ٢] إلى أَنْ قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج:٦، ٧] .

وَذَمَّ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمَعَادِ ، فَقَالَ : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس:٤٥] .

﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى:١٨] .

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾

[النمل:٦٦]

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾

إلى أَنْ قَالَ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾[النحل:٣٨، ٣٩] .

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[غافر:٥٩] .

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الإسراء:٩٧-٩٩] .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٤٩، ٥٢] .

فَتَأَمَّلْ مَا أُجِيبُوا به عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ على التَّفْصِيلِ : فَإِنَّهُمْ قَالُوا أَوَّلًا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[الإسراء:٤٩]، فَقِيلَ لَهُمْ في جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ : إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنه لَا خَالِقَ لَكُمْ وَلَا رَبَّ ، فَهَلَّا كُنْتُمْ خَلْقًا لَا يُفْنِيه الْمَوْتُ ، كَالْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ ذَلِكَ ؟ ! فَإِنْ قُلْتُمْ : كُنَّا خَلْقًا على هذه الصِّفَة التي لَا تَقْبَلُ الْبَقَاءَ ، فَمَا الذي يَحُولُ بَيْنَ خَالِقِكُمْ وَمُنْشِئِكُمْ وَبَيْنَ إِعَادَتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا ؟ !

وَلِلْحُجَّة تَقْرِيرٌ آخَرُ ، وَهُوَ : لَوْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَةٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ خَلْقٍ أَكْبَرَ مِنْهُمَا ، فإنه قَادِرٌ على أَنْ يُفْنِيَكُمْ وَيُحِيلَ ذَوَاتَكُمْ ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ ، وَمَنْ يَقْدِرُ

على التَّصَرُّفِ في هذه الْأَجْسَامِ ، مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا ، بِالْإِفْنَاءِ وَالْإِحَالَة ، فَمَا الذي يُعْجِزُه فِيمَا دُونَهَا ؟ ثُمَّ أَخبَرَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سُؤَالًا آخَرَ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ مَن يُعِيدُنَا ﴾ إِذَا اسْتَحَالَتْ جُسُومُنَا وَفَنِيَتْ ؟ فَأَجَابَهُمْ بقوله : ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء:٥١] . فلَمَّا أَخذَتْهُمُ الْحُجَّة ، وَلَزِمَهُمْ حُكْمُهَا ، انْتَقَلُوا إلى سُؤَالٍ آخَرَ يَتَعَلَّلُونَ به بِعِلَلِ الْمُنْقَطِعِ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : ﴿ مَتَىٰ هُوَ ﴾ فَأُجِيبُوا بقوله : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ .

وَمِنْ هَذَا قوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس:٧٨] إلى آخِرِ السورة .

فَلَوْ رَامَ أَعْلَمُ الْبَشَرِ وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ على الْبيَانِ ، أَنْ يأتي بِأَحْسَنَ مِنْ هذه الْحُجَّة ، أَوْ بِمِثْلِهَا ، فِي أَلْفَاظٍ تُشَابِه هذه الْأَلْفَاظَ في الْإِيجَازِ وَوَضعِ الْأَدِلَّة ، وَصِحَّة الْبُرْهَانِ ، لَمَا قَدَرَ . فإنه سبحانه افْتَتَحَ هذه الْحُجَّة بِسُؤَالٍ أَوْرَدَه مُلْحِدٌ ، اقْتَضَى جَوَابًا ، فَكَانَ في قوله : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ مَا وَفَى بِالْجَوَابِ ، وَأَقَامَ الْحُجَّة ، وَأَزَالَ الشُّبْهَة ، ولما أَرَادَ سبحانه مِنْ تَأْكِيدِ الْحُجَّة وَزِيَادَة تَقْرِيرِهَا ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فَاحْتَجَّ بِالْإِبْدَاءِ على الْإِعَادَة ، وَبِالنَّشْأَة الأولى على النَّشْأَة الأخرى ، إِذْ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ علما ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قَدَرَ على هذه ، قَدَرَ على هذه ، وأنه لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الثَّانِيَة لَكَانَ عَنِ الأولى أَعْجَزَ وَأَعْجَزَ. وَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَة الْخَالِقِ على الْمَخْلُوقِ ، وَعِلْمَه بِتَفَاصِيلِ خَلْقِه ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٩] . فَهُوَ عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَجُزْئِيَّاتِه ، وَمَوَادِّه وَصُورَتِه ، فَكَذَلِكَ الثاني . فَإِذَا كَانَ تَامَّ الْعِلْمِ ، كَامِلَ الْقُدْرَة ، كَيْفَ يَتَعَذَّرُ عليه أَنْ يُحْيِيَ الْعِظَامَ وهي رَمِيمٌ ؟

ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِحُجَّةٍ قَاهِرَة ، وَبُرْهَانٍ ظَاهِرٍ ، يَتَضَمَّنُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِ مُلْحِدٍ آخَرَ يَقُولُ : الْعِظَامُ إِذَا صَارَتْ رَمِيمًا عَادَتْ طَبِيعَتُهَا بَارِدَةً يَابِسَة ، وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَادَّتُهَا وَحَامِلُهَا طَبِيعَتُه حَارَّة رَطْبَة بِمَا يَدُلُّ على أَمْرِ الْبَعْثِ ، ففيه الدَّلِيلُ وَالْجَوَابُ ، فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[يس:٨٠] . فَأَخْبَرَ سُبحانه بِإِخْرَاجِ هَذَا الْعُنْصُرِ ، الذي هُوَ في غَايَة الْحَرَارَة وَالْيُبُوسَةِ ، مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الْـمُمْتَلِئِ بِالرُّطُوبَةِ وَالْبُرُودَة ، فالذي يُخْرِجُ الشَّيْءَ مِنْ ضِدِّه ، وَتَنْقَادُ له مَوَادُّ الْـمَخْلُوقَاتِ وَعَنَاصِرُهَا وَلَا تَسْتَعْصِي عليه ، هُوَ الذي يَفْعَلُ مَا أَنْكَرَه الْـمُلْحِدُ وَدَفَعَه ، مِنْ إِحْيَاءِ الْعِظَامِ وهي رَمِيمٌ .

ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا بِأَخْذِ الدِّلَالَةِ مِنَ الشَّيْءِ الْأَجَلِّ الْأَعْظَمِ ، على الْأَيْسَرِ الْأَصْغَرِ ، فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ قَدَرَ على الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ ، فَهُوَ على مَا دُونَه بِكَثِيرٍ أَقْدَرُ وَأَقْدَرُ ، فَمَنْ قَدَرَ على حَمْلِ قِنْطَارٍ ، فهو على حَمْلِ أُوقِيَّة أَشَدُّ اقْتِدَارًا ، فَقَالَ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾[يس:٨١] ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الذي أَبْدَعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، على جَلَالَتِهِمَا ، وَعِظَمِ شَأْنِهِمَا ، وَكِبَرِ أَجْسَامِهِمَا ، وَسَعَتِهِمَا ، وَعَجِيبِ خَلْقِهِمَا ، أَقْدِرُ على أَنْ يُحْيِي عِظَامًا قَدْ صَارَتْ رَمِيمًا ، فَيَرُدَّهَا إِلى حَالَتِهَا الأولى ، كَمَا قَالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر:٥٧] ، وَقَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[الأحقاف:٣٣] . ثُمَّ أَكَّدَ سبحانه ذَلِكَ ، وَبَيَّنَه بِبَيَانٍ آخَرَ ، وَهُوَ أنه لَيْسَ فِعْلُه بِمَنْزِلَة غيره ، الذي يَفْعَلُ بِالْآلَاتِ وَالْكُلْفَة ، وَالتَّعَبِ وَالْـمَشَقَّة ، وَلَا يُمْكِنُه الِاسْتِقْلَالُ بِالْفِعْلِ ، بَلْ لَا بُدَّ معه مِنْ آلَة وَمُعِينٍ ، بَلْ يَكْفِي في خَلْقِه لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَه وَيُكَوِّنه نَفْسُ إِرَادَتِه ، وقوله لِلْمُكَوَّنِ : « كُنْ » ، فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ كَمَا شَاءَه وَأَرَادَه .

ثُمَّ خَتَمَ هذه الْحُجَّة بِإِخْبَارِه أَنَّ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِه ، فَيَتَصَرَّفُ فيه بِفِعْلِه وقوله ،﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٨٣] .

وَمِنْ هَذَا قوله سبحانه :﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:٣٦-٤٠] . فَاحْتَجَّ سبحانه على أنه لَا يَتْرُكُهُ مُهْمَلًا عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، أَنَّ حِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ، كَمَا قَالَ تعالى :﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥] ، إلى آخِرِ السورة . فَإِنَّ مَنْ نَقَلَهُ مِنَ النُّطْفَة إلى الْعَلَقَة ، ثُمَّ إلى الْمُضْغَة ، ثُمَّ شَقَّ سَمْعَه وَبَصَرَه ، وَرَكَّبَ فيه الْحَوَاسَّ وَالْقُوَى ، وَالْعِظَامَ وَالْمَنَافِعَ ، وَالْأَعْصَابَ وَالرِّبَاطَاتِ التي هي أَشَدُّه ، وَأَحْكَمَ خَلْقَه غَايَةَ الْإِحْكَامِ ، وَأَخْرَجَه على هَذَا الشَّكْلِ وَالصُّورَة ، التي هي أَتَمُّ الصُّوَرِ وَأَحْسَنُ الْأَشْكَالِ كَيْفَ يَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِه وَإِنْشَائِه مَرَّة ثَانِيَة ؟ أَمْ كَيْفَ تَقْتَضِي حِكْمَتُه وَعِنَايَتُه بِهِ أَنْ يَتْرُكَه سُدًى ؟ فَلَا يَلِيقُ ذَلِكَ بِحِكْمَتِه ، وَلَا تَعْجِزُ عنه قُدْرَتُه .

فَانْظُرْ إلى هَذَا الِاحْتِجَاجِ الْعَجِيبِ ، بِالْقَوْلِ الْوَجِيزِ ، الذي لَا يَكُونُ أَوْجَزَ منه ، وَالْبَيَانِ الْجَلِيلِ ، الذي لَا يُتَوَهَّمُ أَوْضَحُ منه ، وَمَأْخَذه الْقَرِيبِ ، الذي لَا تَقَعُ الظُّنُونُ على أَقْرَبَ منه .

وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الِاحْتِجَاجِ ، كَمَا في قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الحج:٥] ، إلى أَنْ قَالَ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج:٧] . وقوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾[المؤمنون:١٢] ، إلى أَنْ قَالَ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾[المؤمنون:١٦] .

وَذَكَرَ قِصَّة أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، وَكَيْفَ أَبْقَاهُمْ مَوْتَى ثَلَاثَ مِئَة سنة شَمْسِيَّة ، وهي ثَلَاثُ مِئَة وَتِسْعُ سِنِينَ قَمَرِيَّة ، وَقَالَ فِيهَا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ ﴾[الكهف:٢١] .

وَالْقَوْلُ الذي عليه السَّلَفُ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ : أَنَّ الْأَجْسَامَ تَنْقَلِبُ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ ، فَتَسْتَحِيلُ تُرَابًا ، ثُمَّ يُنْشِئُهَاالله نَشْأَة أخرى ، كَمَا اسْتَحَالَ في النَّشْأَة الأولى : فإنه كَانَ نُطْفَة ، ثُمَّ صَارَ عَلَقَة ، ثُمَّ صَارَ مُضْغَة ، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا وَلَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأَه خَلْقًا سَوِيًّا . كَذَلِكَ الْإِعَادَةُ : يُعِيدُهُ الله بَعْدَ أَنْ يَبْلَى كُلُّه إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ ، كَمَا ثَبَتَ في «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أنه قَالَ : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ ، منه خُلِقَ ابْنُ آدَمَ ، ومنه يُرَكَّبُ » [(١)].

فَالنَّشْأَتَانِ نَوْعَانِ تَحْتَ جِنْسٍ ، يَتَّفِقَانِ وَيَتَمَاثَلَانِ مِنْ وَجْه ، وَيَفْتَرِقَانِ وَيَتَنَوَّعَانِ مِنْ وَجْه ، وَالْـمُعَادُ هُوَ الْأَوَّلُ بِعَيْنِه ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ لَوَازِمِ الْإِعَادَة وَلَوَازِمِ الْبَدَاءَة فَرْقٌ ، فَعَجْبُ الذَّنَبِ هُوَ الذي يَبْقَى ، وَأَمَّا سَائِرُه فَيَسْتَحِيلُ ، فَيُعَادُ مِنَ الْـمَادَّة التي اسْتَحَالَ إِلَيْهَا . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ رأى شَخْصًا وَهُوَ صَغِيرٌ ، ثُمَّ رَآه وَقَدْ صَارَ شَيْخًا ، عَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَاكَ ، مَعَ أنه دَائِمًا في تَحَلُّلٍ وَاسْتِحَالَة . وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتُ ، فَمَنْ رأى شَجَرَة وهي صَغِيرَة ، ثُمَّ رَآهَا كَبِيرَة ، قَالَ : هذه تِلْكَ .

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٤٨١٤، ٤٩٣٥) ،ومسلم (حديث ٢٢٧١) عقب حديث (٢٩٥٥) وله ألفاظ منها : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنَّ فِي الإِنْسَانِ عَظْمًا لاَ تَأْكُلُهُ الأَرْض أَبَدًا ، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». قَالُوا : أَيُّ عَظْم هُوَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « عَجْبُ الذَّنَبِ » ، وآخر عند مسلم أيضًا : عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺقَالَ : « كُلُّ بَنِى آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلاَّ عَجبَ الذَّنَبِ ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ ».

وَلَيْسَتْ صِفَةَ تِلْكَ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ مُمَاثِلَةً لِصِفَةِ هذه النَّشْأَةِ ، حتى يُقَالَ : إنَّ الصِّفَاتِ هي الْمُغَيَّرَةِ ، لَا سِيَّمَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا ، فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا على صُورَةِ آدَمَ ، طُولُه سِتُّونَ ذِرَاعًا ، كَمَا ثَبَتَ في «الصَّحِيحَيْنِ»(١) وَغَيْرِهِمَا ، وَتِلْكَ نَشْأَةٌ بَاقِيَةٌ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لِلْآفَاتِ ، وهذه النَّشْأَةُ فَاسِدَةٌ مُعَرَّضَةٌ لِلْآفَاتِ .

وقوله : «وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ »قَالَ تعالى :﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٣] .

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٢٥] .

وَالدِّينُ : الْجَزَاءُ ، يُقَالُ : كَمَا تَدِينُ تُدَانُ ، أي كَمَا تُجَازِي تُجَازَى .

وَقَالَ تعالى : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧] و[الأحقاف:١٤] و[الواقعة:٢٤].

﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٦] .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٠].

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل:٨٩، ٩٠] .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص:٨٤] . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

وَقَالَ ﷺ ، فِيمَا يروي عَنْ رَبِّه ﷻ : مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه : « **يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا**

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (مع الفتح ٦/ ٣٦٢) ، ومسلم (مع النووي ١٧/ ١٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَه » [١] .

وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَة بَيَانٍ عَنْ قَرِيبٍ ، إِنْ شَاءَ الله تعالى .

وقوله : « وَالْعرْضِ وَالْحِسَابِ ، وَقِرَاءَة الْكِتَابِ ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ » .

ش : **قَالَ تعالى :** ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ **[الحاقة:١٥-١٨] ، إلى آخرِ السورة .**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾

[الانشقاق:٤٨]

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ **[الكهف:٤٨] .**

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ **[الكهف:٤٩] .**

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

---

(١) صحيح :أخرجه مسلم (حديث ٢٥٧٧) مطولاً من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي ... » الحديث .

[إبراهيم:٤٨]، إلى آخرِ السورة .

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ ، الآية إلى قوله :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

[غافر:١٥ـ١٧]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨١] .

وروى البخاريُّ رحمه الله في «صَحِيحِه» ، عَنْ عَائِشَة ، أَنَّ النبي ﷺ قَالَ : « **لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَة إِلَّا هَلَكَ** » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق:٧، ٨] ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّما ذَلِكَ الْعَرْضُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَة إِلَّا عُذِّبَ** » (١) .

يعني أنه لَوْ نَاقَشَ في حِسَابِه لِعَبِيدِه ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَكِنَّه تعالى يَعْفُو وَيَصْفَحُ ، وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَة بَيَانٍ ، إِنْ شَاءَ الله تعالى .

وفي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، أنه قَالَ : « **إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا موسى آخِذٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي ، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَة يَوْمِ الطُّورِ ؟** » (٢) .

وَهَذَا صَعْقٌ في مَوْقِفِ الْقِيَامَة ، إِذَا جَاءَ الله لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِه ، فَحِينَئِذٍ يَصْعَقُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٠٣) وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ تَصْنَعُونَ بقوله في الْحَدِيثِ : « **إِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأَرْضُ ، فَأَجِدُ موسى بَاطِشًا بِقَائِمَة الْعَرْشِ** »[(١)] .

قِيلَ : لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ قَدْ وَرَدَ هَكَذَا ، ومنه نَشَأَ الْإِشْكَالُ . وَلَكِنَّه دَخَلَ منه على الراوي حَدِيثٌ في حَدِيثٍ ، فَرَكَّبَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ ، فَجَاءَ هَذَانِ الْحَدِيثَانِ هَكَذَا : **أَحَدُهُمَا** : « **أَنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ** » ، كَمَا تَقَدَّمَ ، **والثاني** : « **أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَة** »[(٢)] ، فَدَخَلَ على الراوي هَذَا الْحَدِيثُ في الْآخَرِ . وَمِمَّنْ نَبَّه على هَذَا أَبُو الْحَجَّاجِ الْمِزِّي ، وبعده الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيِّمِ ، وَشَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُمُ الله . وَكَذَلِكَ اشْتَبَه على بَعْضِ الرُّوَاة ، فَقَالَ : « فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى الله ﷻ؟ »[(٣)] وَالْـمَحْفُوظُ الذي تَوَاطَأَتْ عليه الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَة هُوَ الْأَوَّلُ ، وعليه المعنى الصَّحِيحُ ، فَإِنَّ الصَّعْقَ يَوْمَ الْقِيَامَة لِتَجَلِّي الله لِعِبَادِه إِذَا جَاءَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، فَمُوسَى ﷺ إِنْ كَانَ لَمْ يُصْعَقْ مَعَهُمْ ، فَيَكُونُ قَدْ جُوزِي بِصَعْقَة يَوْمَ تَجَلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ فَجَعَلَه دَكًّا ، فَجُعِلَتْ صَعْقَة هَذَا التَّجَلِّي عِوَضًا عَنْ صَعْقَة الْخَلَائِقِ لِتَجَلِّي رَبِّه يَوْمَ الْقِيَامَة . فَتَأَمَّلْ هَذَا المعنى الْعَظِيمَ وَلَا تُهْمِلْهُ .

وقوله : «وَالصِّرَاطُ» أي : وَنُؤْمِنُ بِالصِّرَاطِ ، وَهُوَ جِسْرٌ على جَهَنَّمَ ، إِذَا انتهى النَّاسُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ مَكَانَ الْـمَوْقِفِ إلى الظُّلْمَةِ التي دُونَ الصِّرَاطِ ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَة

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٢٤١٢) وفي جملة مواطن من صحيحه ، من حديث أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : « **لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الْأُولَى** »، وأخرجه أيضًا مسلم (بدون ذكر لفظه ، حديث ٢٣٤٧) .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ** ».

(٣) وانظر - أيضًا : صحيح مسلم (ص١٨٤٤) .

رضي الله عنه: « إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ : أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ؟ فَقَالَ : « هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ » [(١)] .

وفي هَذَا الْمَوْضِعِ يَفْتَرِقُ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَتَخَلَّفُونَ عَنْهُمْ ، وَيَسْبِقُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَيُحَالُ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ .

وروى البيهقي بِسَنَدِه ، عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ عَبْدِ الله ، قَالَ : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، إلى أَنْ قَالَ : « فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ على قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ ، قَالَ : فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَه مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْه ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَه فَوْقَ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَه مِثْلَ النَّخلَة بِيَمِينِهِ ، وَمِنْهُم مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بيمينه ، حَتَّى يَكُونَ آخرُ [ذلك] مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إبهامِ قَدَمِهِ ، يُضِيءُ مَرَّةً ويُطفأُ مَرَّةً ، إذا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ ، وَإِذَا طَفِئَ قَامَ ، قَالَ : فيمر ويمرون عَلَى الصِّرَاطِ ، والصِّرَاطُ كَحَدِّ السِّيفِ ، دَحْضٍ ، مزلة ، فَيُقَالُ لَهُم : امضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُم ، فَمِنْهم مِنْ يَمُرُّ كانقضاض الكَوْكَبِ ، وَمِنْهُم مِنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرفِ ، وَمِنهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ ، وَيَرْمُلُ رَمَلاً ، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ ، تَجُرُّ يَدٌ ، وَتَعْلَقُ يَدٌ ، وتَجُرُّ رِجْلٌ ، وَتَعْلَقُ رِجْلٌ ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ ، قَالَ : فَيَخْلُصُونَ ، فإذا خَلَصُوا قَالُوا : الحَمْدُ لله الذي نَجَّانا مِنْك بِعْدَ أَنْ أَرَانَاكِ ، لَقَدْ أَعْطَانا الله مَا لَمْ يُعْطِ أَحدً » [(٢)] ، الحديث .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم:٧١] ، ما هو ؟ والأَظْهَرُ والأقوى أنه المُرُورُ على الصراط ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢] .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم ضمن حديث طويل (٣١٥) ، ولكنه من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) صحيح : وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ٤١٦ فما بعدها) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٦) ، و (٤/ ٥٩٠، ٥٩٢) .

وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»، قَالَتْ حَفْصَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَيْسَ الله يَقُولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]؟ فَقَالَ: «**أَلَمْ تَسْمَعِيه قَالَ**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢]»(١).

أشار ﷺ إلى أن ورودَ النار لا يستلزمِ دخولَها، وأن النجاةَ مِنَ الشَّرِّ لا تستلزِمُ حصولَه، بل يستلزم انعقادُ سببه، فمن طلبه عدوُّه لِيُهْلِكُوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود:٥٨]. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ [هود:٦٦].

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود:٩٤].

ولم يَكُنِ العَذَابُ أصابهم، ولكن أَصَابَ غَيْرَهُم، ولولا مَا خَصَّهُمُ الله به من أسبابِ النجاة، لأصابهم ما أصابَ أولئك.

وكذلك حَالُ الوَارِدِينَ النَّارَ، يَمُرُّونَ فَوْقَهَا على الصراط، ثم يُنَجِّي الله الذين اتَّقَوْا، ويَذَرُ الظالمين فيها جِثيًا، فقد بَيَّنَ ﷺ في حديثِ جابر المذكور: أن الوُرُودَ هو المرورُ على الصِّراطِ.

---

(١) أخرج مسلم (حديث ٢٤٩٦) من طريق جَابِرَ بْنَ عَبْدِ عَنِ أُمُّ مُبَشِّرٍ رضي الله عنها أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**». قَالَتْ: بَلَى، يَا رَسُولَ الله، فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ قَالَ الله** عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢].

وأخرج أحمد (٦/ ٢٨٥) من طريق أُمِّ مُبَشِّرٍ عَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لاَ يَدْخُلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله أَحَدٌ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَلَيْسَ الله عز وجل يَقُولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قَالَ: «**فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾».

وقوله : «والميزان» أي : ونُؤمنُ بالميزان . قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

[المؤمنون:١٠٢، ١٠٣]

قال القرطبي : قال العلماءُ : إذا انقضى الحسابُ كان بَعْدَهُ وَزْنَ الأعمالِ ؛ لأن الوزنَ للجزاء ، فينبغي أن يَكُونَ بَعْدَ المحاسَبَة ، فإنَّ المحاسبةَ لِتقريرِ الأعمالِ ، والوزن لإظهارِ مقاديرها ليكون الجزاءُ بحسبها .

قال : وقوله : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون ثَمَّ موازينُ متعددةُ تُوزَنُ فيها الأعمالُ ، وَيَحْتَمِلُ أن يَكُونَ المُرادُ الموزونات ، فجمع باعتبار تنوعِ الأعمالِ الموزونة ، والله أعلم .

والذي دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ : أن ميزانَ الأعمال لَهُ كِفتان حِسِّيتان مشاهدتان . روى الإمامُ أحمد ، من حديث أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنه يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ قَالَ : لاَ ، يَا رَبِّ . فَيَقُولُ : أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ ، فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً ،لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتَخْرُجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، فَيَقُولُ : احْضُرْهُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، مَا هَذِهِ

الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ ؟ فيقول : إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، قال : فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ ، وَلاَ يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »(١).

وهكذا رواه الترمذيُّ ، وابنُ ماجه ، وابن أبي الدنيا ، من حديث الليث ، زاد الترمذيُّ : «وَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ ».

وفي سياق آخر : « تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ » الحديث .

وفي هذا السياق فائدةٌ جليلةٌ ، وهي : أن العامِلَ يُوزَنُ مع عمله ، وَيشْهَدُ له ما روى البخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وَقَالَ : اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُم : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾[الكهف:١٠٥] »(٢).

وروى الإمامُ أحمد ، عن ابن مسعودٍ : أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكاً مِنَ الأَرَاكِ وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟ »قَالُوا : يَا نَبِيَّ الله ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ، فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ »(٣).

وقد وردت الأحاديثُ أيضًا بوَزْنِ الأعمال أَنْفُسِهَا ، كما في «صحيح مسلم» ،

---

(١) صحيح :وأخرجه أحمد (٢/ ٢١٣) ،والترمذي (٢٦٣٩) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) ، والحاكم (١/ ٦، ٥٢٩) ، وغيرهم .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٤٧٢٩) ، ومسلم (٢٧٨٥) .

(٣) صحيح بمجموع طرقه :أخرجه أحمد (في المسند ١/ ٤٢٠، ٤٢١) ، وفي فضائل الصحابة (١٥٥٢) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/ ١/ ١١٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٢٧٩) وهو عنده مرسل فلعله سقط مطبعي ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٧٥) وغيرهم.

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ »(١) الحديث.

وفي «الصحيحين» ، وهو خاتمة كتاب البخاري ، قولُه ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ »(٢) .

فلا يُلْتَفَتُ إلى ملحد مُعَانِد يقول : الأعمالُ أعراضٌ لا تَقْبَلُ الوَزْنَ ، وإنما يقبل الوَزْنَ الأَجْسَامُ !! فإن الله يَقْلِبُ الأعراضَ أجسامًا ، كما تقدم ، وكما روى الإمام أحمد ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يُؤتى بِالْمَوْتِ كَبْشًا أَغْبَرَ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، وَيُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، وَيَرَونَ أَنْ قَدْ جَاءَ الفَرَجَ ، فَيُذْبَحُ وَيقَالَ : خُلودٌ لاَ مَوْتَ »(٣) . ورواه البخاريُّ بمعناه . فثبت وَزْنُ الأعمالِ والعاملِ وصَحائفِ الأعمال ، وثبت أن الميزان له كفَّتَانِ . والله تعالى أعلمُ بما وراء ذلك من الكيفيات .

فعلينا الإيمَانُ بالغَيْبِ ، كَمَا أخبرنا الصَّادقُ ﷺ ، من غير زيادةٍ ولا نقصان .

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٢٣) .

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٦٤٠٦) ، ومسلم (حديث ٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) حسن : أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٣) ، والدرامي (٢/ ٣٢٩) بسند حسن ،وله شاهد ، وأخرج البخاري (حديث ٤٧٣٠) ، ومسلم (حديث ٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ (زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ : فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الْحَدِيثِ) فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ ، قَالَ : وَيُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، قَالَ : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ ، قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ » ، قَالَتْ : ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ :﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم:٣٩] ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا.

ويا خيبةَ مَنْ ينفي وضعَ الموازين القسطَ ليومِ القيامة كما أخبر الشَّارعُ ، لخفاء الحكمة عليه ، وَيَقْدَحُ في النصوص بقوله : لا يحتاج إلى الميزان إلا البقَّالُ والفوَّالُ !! وما أحرَاهُ بأن يكونَ من الذين لا يُقيمُ الله لهم يوم القيامة وزنًا . ولو لم يَكُنْ مِن الحكْمَةِ في وزن الأعمال إلا ظهورُ عدله سبحانه لجميع عباده ، فلا أَحَدَ أَحَبُّ إليه العُذْرُ من الله ، من أجل ذلك أرسل الرُّسُلَ مبشرين ومنذرين ، فكيف ووراءَ ذلك من الحِكَمِ ما لا اطِّلاعَ لنا عليه . فتأمل قولَ الملائكة ، لما قال الله لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥] .

وقد تقدَّم عند ذكرِ الحَوْضِ كَلَامُ القُرطبي رحمه الله ، أن الحوض قَبْلَ الميزان ، والصِّراطَ بَعْدَ الميزانِ .

ففي «الصحيحين» : «أنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا ، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ »(١) .

وجعل القرطبيُّ في « التذكرة » هذه القنطرةَ صِرَاطًا ثانيًا للمؤمنين خاصة ، وليس يسقط منه أحدٌ في النار . والله تعالى أعلم .

*****

قوله : « والجَنَّةَ والنَّارُ مَخْلُوقَتَان ، لا تَفْنَيان أَبَدًا وَلاَ تَبِيدَان ، فَإِنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٠) و (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَتَقَاصُّون مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِ محمد بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ بِمسكنه فِي الْجَنَّةِ أدل بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا ».

الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ ، وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلاً ، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الجَنَّةِ فَضْلاً مِنْهُ ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَدْلاً مِنْهُ ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ لَهُ ، وَصَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ ، وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلَى العِبَادِ » .

أما قوله : « إن الجَنَّةَ والنَّارُ مَخْلُوقَتَان » اتَّفق أهلُ السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يَزَلْ على ذلك أهلُ السنة ، حتى نبغت نَابِغَةٌ مِن المعتزلة والقَدَرِيّة ، فأنكرت ذلك ، وقالت : بل يُنشِئُهما الله يَوْمَ القيامة!! وحملهم على ذلك أصلُهم الفاسد الذي وضعوا به شريعةً لما يَفْعَلُهُ الله ، وأنه ينبغي أن يَفْعَلَ كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسُوه على خَلْقِه في أفعالهم ، فهم مُشَبِّهَةٌ في الأفعالِ ، ودخل التجهُّمُ فيهم ، فَصَارُوا مع ذلك مُعَطِّلَة ! وقالُوا : خَلْقُ الجنةِ قَبْلَ الجزاء عَبَثٌ ! لأنها تَصِيرُ معطلةً مُدَدًا متطاولة !! فردوا مِنَ النصوصِ ما خالفَ هذه الشريعة الباطِلَةَ التي وضعوها للرب تعالى ، وحرَّفوا النُّصُوصَ عن مواضعها ، وضلَّلوا وبدَّعوا مَنْ خالف شَرِيعَتَهُم .

فَمِنْ نُصوصِ الكِتَابِ : قَوْلُهُ تعالى عن الجَنَّةِ: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:١٣٣]. ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾[الحديد:٢١] .

وعن النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[آل عمران:١٣١] . ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ ﴾[النبأ:٢١، ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النجم:١٣ـ ١٥].

وقد رأى النبيُّ ﷺ سِدْرَةَ المنتهى ، ورأى عندَها جَنَّةَ المأوى . كما في **«الصحيحين»** ، من حديث أنسٍ ﷺ، في قصة الإسراء ، وفي آخِرِه : « **ثُمَّ انْطَلَقَ**

بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ ؟ قَالَ : ثُمَّ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ »[١] .

وفي «الصحيحين» مِن حديث عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ ﷺ ، أن رسولَ الله ﷺ قال : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، يُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٢] .

وتقَدَّمَ حديثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ وفيه : « يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ ، قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا .... »[٣] .

وتَقَدَّمَ حَدِيثُ أنسٍ بمعنى حديث البَراء .

وفي «صحيح مسلم» ، عن عائشة ﷺ قَالَتْ : خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حياة رَسُولِ الله ﷺ ، فذكرت الحَديثَ ، وَفيه : وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُم بِهِ ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي آخُذُ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي أَقَدَّمُ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ »[٤] .

وفي «الصحيحين» ، واللفظ للبخاري ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : انْخَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فذكر الحديثَ ، وفيه : فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ؟ فَقَالَ : « إِنِّي

---

(١) صحيح: وقد تقدم .
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ١٣٧٩) ، ومسلم (حديث ٢٨٦٦) وغيرهما .
(٣) صحيح: وقد تقدم .
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (ص ٦١٩) .

رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا ، وَلَوْ أَصَبْتُهُ ، لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا ، وَأُرِيتُ النَّارَ ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ »، قَالُوا : بِمَ ، يَا رَسُولَ الله قَالَ « يَكْفُرِنَ ». قِيلَ : أيَكْفُرْنَ بِالله ؟ قَالَ : « يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا ، قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ »(١).

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس : « وايمُ الذي نَفْسي بِيَده ، لَوْ رَأَيتُم ما رَأَيتُ ، لَضَحِكتُمُ قليلاً وَبَكَيْتُم كثيرًا » قَالُوا : وما رَأَيتَ يا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « رَأَيتُ الجَنَّةَ والنَّارِ »(٢).

وفي « الموطأ » و« السنن » ، مِنْ حديثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّمَا نَسِيمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَرْجِعَهَا الله إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٣).

وهذا صَرِيحٌ فِي دخول الرُّوحِ الجنةَ قَبْلَ يَوْمِ القيامة .

وفي «صحيح مسلم» و«السنن» و«المسند» . من حديث أبي هريرة ﷺ، أن رَسولَ الله ﷺقَالَ : « لَمَّا خَلَقَ الله الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : اذْهَبْ ، فانْظُرْ إِلَيْهَا ، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا ، فَقَالَ : فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ الله لأَهْلِهَا فِيهَا ، فَرَجَعَ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بالجَنَّة ، فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ ، فَقَالَ : ارْجِعْ ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا ، قَالَ : فَنَظَرَ إِلَيْهَا ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ ، قَالَ :

---

(١) صحيح:أخرجه البخاري (حديث ١٠٥٢) ،ومسلم (حديث ٩٠٧).

(٢) صحيح:أخرجه مسلم (حديث ٤٢٦) .

(٣) صحيح:وقد تقدم .

أرسلَهُ إلى النَّار ، قَالَ : اذْهَبْ ، فانْظُرْ إِلَيْهَا ، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا ، قَالَ : فَنَظَرَ إِلَيْهَا ، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لاَ يَدخُلُها أَحَدٌ سمعَ بِهَا ، فَأَمَرَ بِهَا ، فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ ، فانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا ، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا »(١) .ونظائر ذلك في السنة كثيرة .

وأما على قولِ مَنْ قَالَ : إنَّ الجنةَ الموعودَ بها هي الجنةُ التي كان فيها آدم ثم أخرج منها ، فالقَوْلُ بوجودها الآن ظَاهِرٌ ، والخلافُ في ذلك معروف .

وأما شُبهةُ مَنْ قال : إنها لم تُخْلَقْ بَعْدُ ، وهي : أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أن تفنى يَوْمَ القيامةَ ، وأن يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ فيها ويموت ، لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] ، و﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥]

قالوا : وكذا قَوْلُهُ تعالى عن امرأةِ فرعون أنها قالت :﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم:١١] .

فالجواب : إنكم إن أردتم بقولكم إنَّها الآن مَعْدُومَةٌ بمنزلة النفخ في الصُّورِ ، وقيام الناس من القبور ، فهذا باطل ، يَرُدُّهُ ما تَقَدَّمَ مِن الأدلة وأمثالها مما لم يُذْكَر ، وإن أردتُم أنها لم يكمل خَلْقُ جميع ما أعدَّ الله فيها لأهلها ، وأنها لا يَزَالُ الله يُحدثُ فيها شيئًا بعد شيء ، وإذا دَخَلَها المؤمنونَ ، أحدث الله فيها عِنْدَ دخولهم

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (حديث ٢٨٢٢) من حديث أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ».أما الحديث المطوّل الذي أورده المصنف فهو عند أبي داود (٤٧٤٤) ، والترمذي (حديث ٢٥٦٠) ، والنسائي (٧/ ٣، ٤) وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا بسندٍ حسنٍ .

أمورًا أخر فهذا حقٌّ لا يُمكن رَدُّهُ ، وأدلتُكم هذه إنما تدل على هذا القدر .

وأما احتجاجُكم بقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨] ، فأُتِيتُم مِن سُوءِ فهمكم معنى الآية ، واحتجاجُكُم بها على عدم وجود الجنةِ والنار الآن نظيرُ احتجاجِ إخوانِكم بها على فنائِهما وخرابهما ومَوْتِ أهلهما !! فلم تُوفَّقوا أَنْتُمْ ولا إخوانُكم لِفهم معنى الآية ، وإنما وُفِّقَ لذلك أئمةُ الإسلام ، فَمِنْ كلامهم : أن المرادَ كُلُّ شيءٍ مما كَتبَ الله عليه الفَناء والهلاك ، هالك ، والجَنَّةُ والنارُ خُلقَتَا للبقاء لا للفناء ، وكذلك العَرْشُ ، فإنه سَقْفُ الجنةِ ، وقيل : المُرَادُ إلا مُلْكَهُ ، وقيل : إلا ما أُرِيدَ به وَجْهُه . وقيل : إنَّ الله تعالى أنزلَ : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن:٢٦] ، فقالت الملائِكَةُ : هَلَكَ أَهْلُ الأرضِ ، وَطَمعُوا في البقاء ، فأخبر تعالى عن أَهْلِ السَّماءِ والأرضِ أنهم يموتون ، فقال : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨]، لأنه حيٌّ لا يموتُ ، فأَيْقَنَتِ الملائكةُ عند ذلك بالمَوْتِ . وإنما قالُوا ذلك توفيقًا بَيْنَها وبَيْنَ النصوصِ المحكمة ، الدالةِ على بَقَاءِ الجنة ، وعلى بَقَاءِ النار أيضًا ، على ما يُذْكَرُ عن قريب ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : « لا تَفْنَيان أَبدًا وَلاَ تَبيدَان » ، هذا قولُ جمهور الأئمة مِن السَّلف والخلف .

وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النَّارِ جماعة من السلف والخلف ، والقولان مذكوران في كثيرٍ من كُتُبِ التفسيرِ وغَيْرِها .

وقال بفناءِ الجنةِ والنَّارِ الجَهْمُ بنُ صفوان إمامُ المعطِّلَةِ ، وليس له سَلَفٌ قَطُّ ، لا مِن الصحابة ولا منَ التابعينَ لهم بإحسانٍ ، ولا مِنْ أئمة المسلمين ، ولا مِن أهلِ السنة ، وأنكره عليه عَامَّةُ أهل السنة ، وكفَّرُوهُ به ، وصاحوا به وبأتباعه مِن أقطارِ الأرض ، وهذا قاله لأصله الفاسِدِ الذي اعتقده ، وهو امتِنَاعُ وجودِ ما لا

يتناهى مِنَ الحوادث ! وهو عُمْدَةُ أهلِ الكلامِ المذمومِ ، التي استدلُّوا بها على حدوثِ الأجسامِ ، وحدوثِ ما لم يَخْلُ مِنَ الحوادث ، وجعلُوا ذلك عُمْدَتَهُمْ في حدوثِ العالم ، فرأى الجهم أن ما يمنَعُ من حَوَادِثَ لا أَوَّلَ لها في الماضي يمنعه في المستقبل !! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع ، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي !! وأبو الهُذَيْلِ العَلاَّف شيخُ المعتزلة ، وافقه على هذا الأصل ، لكن قال : إن هذا يقتضي فَنَاءَ الحركات ، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار ، حتى يصيروا في سُكُونٍ دائم ، لا يَقْدِرُ أحدٌ منهم على حركة !! وَقَدْ تَقَدَّم الإشارةُ إلى اختلافِ النَّاسِ فِي تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل ، وهي مسألةُ دوامِ فَاعِلِيَّةِ الربِّ تعالى ، وهو لم يَزَلْ ربًا قادرًا فعالاً لما يُرِيدُ ، فإنَّه لم يزل حيًا عليمًا قديرًا . وَمِنَ المحال أن يَكُونَ الفِعْلُ ممتنعًا عليه لذاته ، ثم يَنْقَلِبُ فيصير ممكنًا لذاته ، من غير تَجَدُّدِ شيءٍ ، وليس للأول حَدٌّ محدود حتى يَصِيرَ الفِعْلُ ممكنًا له عند ذلك الحد ، ويكون قَبْلَهُ ممتنعًا عليه . فهذا القَوْلُ تصوُّره كافٍ في الجزم بفساده .

فأما أَبَدِيَّةُ الجنة ، وأنها لا تفنى ولا تَبِيدُ ، فهذا مما يُعْلَمُ بالضرورة أنَّ الرسولَ ﷺ أخبر به ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] ، أي : غير مقطوع ، ولا ينافي ذلك قوله : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ .

واختلف السَّلَفُ في هذا الاستثناء : فقيل : معناه إلا مدةَ مُكثهم في النار ، وهذا يكونُ لمن دخل منهم إلى النار ثم أُخْرِجَ منها ، لا لِكُلِّهم .

وقيل : إلا مدةَ مقامِهِمْ في الموقف ، **وقيل :** إلا مدةَ مقامِهِمْ فِي القبور والموقف .

وقيل : هو استثناءٌ استثناه الربُّ ولا يَفْعَلُه ، كما تَقُولُ : والله لأضربنَّك إلا أن

أرى غَيْرَ ذلك ، وأنت لا تراه ، بل تَجْزِمُ بضربه .

وقيل : « إلا » بمعنى الواو ، وهذا على قولِ بعضِ النحاة ، وهو ضعيف ، وسيبويه يجعل « إلا » بمعنى « لكن » ، فيكون الاستثناءُ منقطعًا ، ورجَّحَهُ ابنُ جرير ، وقال : إنَّ الله تعالى لا خُلْفَ لوعده ، وقد وَصَلَ الاستثناء بقوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾، قالوا : ونظيرُه أن تقولَ : أسكنتُك داري حولاً إلا ما شِئْتُ ، أي : سوى ما شئت ،أو لكن ما شئت مِن الزيادة عليه .

وقيل : الاستثناءُ لإعلامهم ، بأنَّهم مع خُلُودِهِم في مشيئةِ الله ، لا أنهم يخرجون عن مشيئته ، ولا يُنَافي ذلك عزيمَته وجزمَه لهم بالخُلُود ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾[الإسراء:٨٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[الشورى:٢٤] .

وقوله : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾[يونس:١٦] .

وَنَظَائِرُهُ كثيرةٌ ، يُخْبِرُ عبادَه سبحانه أن الأُمُورَ كُلَّها بمشيئته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يَكُنْ .

وقيل : إن « ما » بمعنى « مَنْ » أي : إلا مَنْ شاء الله دخولَه النار بذنوبه من السعداء . وقيل غَيْرُ ذلك ، وعلى كل تقدير ، فهذا الاستثناء منَ المتشابه ، وقوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ، مُحْكَمٌ ، وكذلك قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص:٥٤] ، وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد:٣٥] ، وقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر:٤٨]

وقد أكَّد الله خُلُودَ أهلِ الجنة بالتأبيد في عِدَّةِ مواضعَ من القرآن ، وأخبر أنهم :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان:٥٦] ، وهذا الاستثناءُ منقطعٌ ، وإذا ضَمَمْتَه إلى الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ تبين أن المُراد من الآيتين ، واستثناءُ الوقتِ الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود ، كاستثناء الموتة الأولى من جملةِ الموت ، فهذه موتة تقدَّمت على حياتهم الأبَدِيَّةِ ، وذاك . مفارقةٌ للجنة تقدمت على خلودهم فيها .

والأَدلَّةُ من السنة على أبديَّةِ الجنة ودوامها كثيرةٌ : كقوله ﷺ : « **مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ ، وَيَخْلُدُ وَلا يَمُوتُ** »(١) .

وَقوله : « **يُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الجَنَّة ، إنَّ لَكُم أَنْ تَصِحُّوا ، فَلاَ تَسْقَمُوا أَبداً ، وَأَنَّ تَشُبُّوا ، فَلاَ تَهْرَمُوا أَبداً ، وَأَنَّ تَحْيَوْا ، فَلاَ تَمُوتُوا أَبداً** »(٢) .

وتقدم ذكْرُ ذبحِ الموتَ بَيْنَ الجنة والنار ، ويقال : « **يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ** »(٣) .

وأما أَبدِيَّةُ النَّارِ ودوامُها ، فللناس في ذلك ثمانيةُ أقوالٍ :

أَحَدُهَا : أن مَنْ دخلها لا يَخْرُجُ منها أبدَ الآباد ، وهذا قولُ الخوارج والمعتزلة .

والثاني : أن أَهْلَهَا يعذَّبون فيها ، ثم تَنْقَلِبُ طبيعتُهم وتبقى طبيعةً نارية يتلذَّذُونَ بها لموافقتها لِطبعهم ! وهذا قَوْلُ إمامِ الاتحادية ابن عَرَبِيٍّ الطائي !!

الثالث : أن أَهْلَها يُعذَّبُونَ فيها إلى وَقْتٍ محدود ، ثم يُخْرَجُونَ منها ، ويَخْلُفُهم فيها قومٌ آخرُونَ ، وهذا القوْلُ حكاه اليَهُودُ للنبيِّ ﷺ ، وأَكْذَبَهم فيه ، وقد أكذبهم

---

(١) أخرج مسلم (حديث ٢٨٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : « **مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ** » .

(٢) صحيح : أخرج مسلم (حديث ٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعًا .

(٣) صحيح : وقد تقدم .

الله تعالى ، فقال عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٨٠، ٨١] .

الرابع : يَخْرُجُونَ منها ، وتَبْقَى على حالِها ليس فيها أحد .

الخامس : أنَّها تفنى بنفسها ؛ لأنها حادثة وما ثَبَتَ حُدُوثُه استحال بَقَاؤُهُ !! وهذا قَوْلُ الجهمِ وشيعته ، ولا فَرْقَ عندَه في ذلك بَيْنَ الجنة والنار ، كما تقدم .

السادس : تَفْنَى حَرَكَاتُ أهلها ويصيرون جمادًا ، لا يُحِسُّون بألمٍ ، وهذا قولُ أبي الهُذيل العلاَّف كما تقدم .

السابع : أن الله يُخْرِجُ منها مَنْ يَشَاءُ ، كما ورد في الحديث ، ثم يُبْقِيهَا ما يشاء ، ثم يُفنيها ، فإنَّه جعل لها أمدًا تنتهي إليه .

الثامن : أن الله تعالى يُخْرِجُ منها من شاء ، كما ورد في السنة ، ويبقى فيها الكفارُ ، بقاءً لا انقضاء له ، كما قال الشيخ رحمه الله.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهرُ البطلان .

وهذان القولان لأهل السنة ينظر في دليلهما :

فَمِنْ أَدلَّة القولِ الأول منهما : قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٢٨] .

وقولُه تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

[هود:١٠٦، ١٠٧] ، ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة ، وهو قوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[هود:١٠٨] . وقوله تعالى : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾[النبأ:٢٣] .

وهذا القول أعني القول بفناء النار دون الجنة منقولٌ عن عُمَرَ ، وابنِ مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وغيرهم .

قالوا : والنار موجَب غضبه ، والجنة موجَب رحمته . وقد قال ﷺ : « **لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ ، كَتَبَ كِتَابًا ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَت غَضَبِي** »[١] . وفي رواية : « **تَغْلِبُ غَضَبِي** » ، رواه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة ﷺ .

قالوا : والله سبحانه يُخْبِرُ عن العذاب أنه : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام:١٥] . و﴿ أَلِيمٍ ﴾ [هود:٢٦] . و ﴿ عَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٥] . ولم يخبر ولا في موضعٍ واحد عن النعيم أنه نعيمُ يومٍ ، وقد قال تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] ، وقال تعالى حِكَايةً عن الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر:٧] . فلا بُدَّ أن تَسَعَ رحمتُه هؤلاء المعذَّبين ، فلو بَقُوا في العذابِ لا إلى غاية لم تَسَعْهُمْ رَحْمَتُه . وقد ثبت في « الصحيح » تَقْدِيرُ يَوْمِ القِيَامَةِ بخمسينَ ألف سنة [٢]، والمعذَّبون فيها متفاوتون في مدة لُبْثِهِمْ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : أخرج مسلم (حديث ٩٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، إلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ... » الحديث .

في العذاب بحسبِ جرائمهم ، وليس في حكمة أَحْكَمِ الحاكِمِين ورحمةِ أرحم الراحمين أن يَخْلُقَ خلقًا يُعَذِّبُهم أبَدَ الآبادِ عذابًا سرمدًا لا نهايةَ له . وأما أنه يخلق خلقًا يُنْعِمُ عليهم ، ويُحْسِنُ إليهم نعيمًا سَرْمدًا ، فمن مقتضى الحكمة . والإِحْسَانُ مرادٌ لذاته ، والانتقامُ مُرَادُ بالعرض .

قالوا : وما وَرَدَ من الخُلُودِ فيها ، والتأبيد ، وعدم الخروج ، وأن عذابَها مقيم ، وأنه غرام ، كُلُّهُ حق مسلَّم ، لا نِزَّاعَ فيه ، وذلك يقتضي الخُلُودَ في دارِ العذاب ما دامت باقيةً ، وإنما يخرج منها في حال بقائها أَهْلُ التوحيد . فَفَرْقٌ بين من يَخْرُجُ من الحبس وهو حَبْسٌ على حاله ، وبين مَنْ يَبْطُلُ حبسُه بخراب الحبس وانتقاضه .

وَمنْ أدلة القائلين ببقائها وعَدَمِ فنائها : قوله : ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٧]

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ [الزخرف:٧٥] .

﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ:٣٠] .

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [البينة:٨] .

﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ [الحجر:٤٨] .

﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٧] .

﴿ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠] .

﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر:٣٦] .

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان:٦٥] ، أي : مقيمًا لازمًا .

وقد دلَّتِ السُّنَّةُ المستفيضةُ أنه يَخْرُجُ من النار مَنْ قال : لا إله إلا الله ،

وأحاديثُ الشفاعة صريحةٌ في خُرُوجِ عُصاةِ الموحِّدينَ من النار ، وأن هذا حُكْمٌ مختصٌّ بهم ، فلو خرج الكُفَّارُ منها ، لكانوا بمنزلتهم ، ولم يَخْتصَّ الخُرُوجُ بأهلِ الإيمان ، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما ، بل بإبقاء الله لهما .

وقوله : « وَخَلَقَ لَهُما أَهْلاً » قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ الآية [الأعراف:١٧٩] . وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ : دُعِيَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، طُوبَى لِهَذَا عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ ، فَقَالَ : « **أَوَغَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ الله خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً ، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلاً ، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ** »(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٢، ٣] . والمراد : الهدايةُ العامة ، وأعمُّ منها الهدايةُ المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠] .

وقوله : « فَمَنْ شَاءَ منْهُمْ إِلَى الجَنَّة فَضْلاً مِنْهُ ، وَمَنْ شَاءَ منْهُم إلى النَّار عَدْلاً منْهُ » إلخ مما يجبُ أن يُعْلَمَ : أن الله تعالى لا يَمْنَعُ الثوابَ إلا إذا منع سَبَبَه ، وهو العَمَلُ الصالح ، فإنه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢] . وكذلك لا يُعاقِبُ أحدًا إلا بعدَ حصولِ سببِ العقاب ، فإنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٦٦٢، ص٢٠٥٠) ، وأبو داود (٤٧١٣) ، والنسائي (٤/ ٥٧) وغيرهم .

كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] .

وهُوَ سُبْحَانه المُعطي المانِعُ ، لا مانعَ لما أعطى ، ولا مُعْطِيَ لما منع . لكن إذا مَنَّ على الإنسان بالإيمانِ والعملِ الصالح ، لا يمنعُه موجبُ ذلك أصلاً ، بل يُعطِيه من الثوابِ والقُرْبِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطر على قلبِ بشرٍ . وحيث منعه ذلك فلانتفاءِ سببه ، وهو العملُ الصالحِ .

ولا ريبَ أنه يهدي مَنْ يشاء ، ويُضِلُّ مَنْ يشاء ، لكنَّ ذلك كُلَّه حِكْمَةٌ منه وعَدْلٌ ، فمنعُه للأسباب التي هي الأعمالُ الصالحة من حكمته وعدله . وأما المسبَّباتُ بعد وجودِ أسبابها ، فلا يمنعُها بحال ، إذا لم تكن أسبابًا صالحة ، إما لفسادٍ في العمل ، وإما لسببٍ يُعارض موجبه ومقتضاه ، فيكون ذلك لعدم المقتضي ، أو لوجود المانع ، وإذا كان منعُه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح ، وهو لم يُعْط ذلك ابتداء حكمةً منه وعدلاً ، فله الحمدُ في الحالين ، وهو المحمودُ على كُلِّ حِال ، كُلُّ عطاء منه فضل ، وكُلُّ عقوبة منه عدل ، فإنَّه الله تعالى حكيم يَضَعُ الأشياءَ في مواضعها التي تَصْلُحُ لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

وكما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] .

ونحو ذلك . وسيأتي لهذا زيادةُ بيانٍ إن شاء الله تعالى .

قوله : « والاستطَاعَةُ الَّتي يَجِبُ بِهَا الفِعْلُ ، مِنْ نَحْو التَّوْفِيقِ الَّذي لا يُوصَفُ المَخْلُوقُ به [تَكُونُ] مَعَ الفِعْلِ ، وأَمَّا الاسْتِطَاعَةُ مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوُسْعِ ،

(شرح العقيدة الطحاوية)

والتمكين وسَلاَمَة الآلات ، فَهي قَبْلَ الفَعْلَ ، وَبِهَا يَتَعَلَّقُ الخِطَابُ ، وهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

ش : الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع ، ألفاظٌ متقاربة ، وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين ، كما ذكره الشيخ رحمه الله هو قولُ عامة أهلِ السنة ، وهو الوسط ، وقالت القدرية والمعتزلة : لا تكونُ القدرة إلا قَبْلَ الفعل . وقابلهم طائفةٌ من أهلِ السنة ، فقالوا : لا تكون إلا مع الفعل .

والذي قاله عامةُ أهلِ السنة : أن للعبدِ قُدْرَةً هي مناطُ الأمرِ والنهي ، وهذه قد تكون قَبله ، لا يجبُ أن تكونَ معه ، والقدرة التي يكون بها الفعلُ لا بُدَّ أن تكون مع الفعل ، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة .

وأما القُدْرَةُ التي من جهة الصحّة والوسع ، والتَّمكن وسلامةِ الآلات ، فقد تتقدم الأفعال ، وهذه القدرةُ المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[آل عمران:٩٧]. فأوجب الحَجَّ على المستطيع ، فلو لم يستطع إلا مَنْ حَجَّ لم يَكُنِ الحجُّ قد وَجَبَ إلا على مَنْ حج ، ولم يُعاقب أحدا على ترك الحج ! وهذا خلافُ المعلوم بالضرورة مِن دين الإِسلام .

وكذلك قولهُ تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن:١٦] . فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة ، فلو كان مَنْ لم يتَّقِ الله لم يستطع التقوى ، لم يَكُنْ قد أوجب التقوى إلا على مَنِ اتقى ، ولم يُعاقبْ من لم يتق ! وهذا معلومُ الفساد .

وكذلك قولُه تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾[المجادلة:٤]. والمرادُ منه استطاعة الأسبابِ والآلات .

وكذا ما حكاه سبحانه مِنْ قولِ المنافقين : ﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ [التوبة:٤٣] . وكذَّبهم في ذلك القَوْل ، ولو كانوا أرادوا الاستطاعةَ التي هي حَقِيقَةُ قدرةِ الفعل ، ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين ، وحيث كذَّبهم دل أنَّهم أرادوا بذلك المرضَ ، أو فَقْدَ المال ، على ما بين تعالى بقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾[التوبة:٩١] ، إلى أن قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾[التوبة:٩٣] .

وكذلك قَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[النساء:٢٥] .

والمرادُ : استطاعَةُ الآلات والأسباب .

ومن ذلك قوله ﷺ لعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: « **صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ** » (١). وإنما نفى استطاعة الفعلَ مَعَها .

وأما دليل ثبوت الاستطاعة التي هي حَقِيقَةُ القُدْرَةِ ، فقد ذكروا فيها قَوْلَه تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾[هود:٢٠] . والمرادُ نَفْيُ حقيقةِ القُدرة ، لا نَفْيُ الأسبابِ والآلات ، لأنَّها كانت ثابتةً . وسيأتي لذلك زِيَادَةُ بيانٍ عندَ قوله : « ولا يُطِيقُونَ إلا ما كلَّفهم » إن شاء الله تعالى .

وما قالته القَدَرِيَّةُ بناءً على أصلهم الفاسد ، وهو إقْدَارُ الله للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر سواءً ، فلا يَقُولُون : إنَّ الله خَصَّ المؤمِنَ المطيع بإعانة حصَّل بها الإيمانَ ، بل هذا بنفسه رجَّح الطَّاعَةَ ، وهذا بنفسه رجَّحَ المعصية ! كالوالد الذي

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١١١٧) من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ : كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الصَّلاَةِ فَقَالَ : « **صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ** ».

أعطى كُلَّ واحدٍ من بنيه سيفًا ، فهذا جاهد به في سبيل الله ، وهذا قطع به الطريق .

وهذا القَوْلُ فاسِدٌ باتفاقِ أهلِ السُّنة والجماعة المثبتين للقدر ، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نِعْمَةً دينيةً ، خصَّه بها دُونَ الكافر ، وأنه أعانَه على الطاعة إعانةً لم يُعن بها الكَافِر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧]

فالقدرية يقولون : إن هذا التَّحْبِيبُ والتزيينُ عَامٌّ في كُلِّ الخلق ، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائلِ الحَقِّ . والآية تقتضي أن هذا خاصٌّ بالمؤمن ، ولهذا قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧] . والكُفَّارُ ليسوا راشدين .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام:١٢٥] .

وأمثالُ هذه الآية في القرآن كثير ، يُبَيِّنُ أنه سبحانه هدى هذَا وأضلَّ هذا . قال تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف:١٧] . وسيأتي لهذه المسألة زِيَادَةُ بيانٍ ، إن شاء الله تعالى .

وأيضًا فَقَوْلُ القائلِ : يُرَجِّحُ بلا مُرَجِّح . إن كان لِقوله : « يرجح » معنى زائد على الفعل ، فذاك هو السببُ المرجِّحُ ، وإن لم يكن له معنى زائد ، كان حالُ الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عندَ الفعل ، ثم الفعلُ حَصَلَ في إحدى الحالتين دُونَ الأُخرى بلا مرجِّحٍ ! وهذا مكابرةٌ للعقل !! فلما كان أَصْلُ قَوْلِ القَدَرِيَّةِ : إن فاعلَ الطاعات وتارِكَها كلاهما في الإِعانة والإِقدار سواء امتنع على أصلهم أَنْ

تَكُونَ مع الفِعل قدرةٌ تَخُصُّه ؛ لأن القُدْرَة التي تَخُصُّ الفعلَ لا تكُونُ للتارك ، وإنما تَكُونُ للفاعل ، ولا تَكُونُ القُدْرَةُ إلا مِنَ الله تعالى ، وهم لما رأوا أنَّ القدرة لا بُدَّ أن تَكُونَ قَبْلَ الفعلِ ، قالوا : لا تَكُونُ مع الفعل ، لأن القُدرة هي التي يَكُونُ بها الفعلُ والتركُ ، وحَالَ وجودِ الفعلِ يمتنعُ التَّرْكُ ، فلهذا قالوا : القُدْرَةُ لا تكونُ إلا قَبْلَ الفعل ! وهذا باطلِ قطعًا ، فإنَّ وُجُودَ الأمرِ مع عدمِ بعض شروطه الوجودية ممتنع ، بل لا بُدَّ أن يكونَ جَميعُ ما يَتَوقَّفُ عليه الفِعْلُ من الأمور الوجودية موجودًا عندَ الفعل . فَنَقِيضُ قولهم حَقٌّ ، وهو : أن الفعل لا بُدَّ أن يكون معه قُدرة .

لكن صار أهلُ الإثبات هنا حِزبين : حزبٌ قالوا : لا تكونُ القدرة إلا معه ، ظنًّا منهم أن القُدْرَةَ نَوْعٌ واحد لا يصلحُ للضدين ، وظنًّا من بعضهم أن القدرة عَرَض ، فلا تبقى زمانين ، فَيَمْتَنِعُ وُجُودُهَا قبل الفعل .

والصوابُ : أن القدرةَ نوعانِ كما تقدم : نوعٌ مصحح للفعل ، يُمكن معه الفعلُ والتركُ ، وهذه هي التي يتعلَّق بها الأمرُ والنهي ، وهذه تحصل للمطيع والعاصي ، وتكون قبلَ الفعل ، وهذه تبقى إلى حين الفعل ، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض ، وإما بتجددِ أمثالها عند من يقول إن الأعراض لا تبقى زمانين ، وهذه قد تصلُح للضِّدَّين ، وأمر الله مشروطٌ بهذه الطاقة ، فلا يُكلف الله مَنْ ليس معه هذه الطاقة ، وضِدُّ هذه العجز ، كما تقدم .

وأيضًا : فالاسْتِطَاعةُ المشْروطَةُ في الشرع أخَصُّ مِن الاستطاعة التي يَمْتَنِعُ الفِعْلُ مع عدمها ، فإنَّ الاستطاعةَ الشرعيةَ قد تكون ما يُتَصَوَّرُ الفِعْلُ مع عدمها وإن لم يعجز عنه ، فالشارعُ يُيَسِّرُ على عباده ، ويُرِيدُ بهم اليُسْرَ ، ولا يُرِيدُ بهم العُسْرَ ، وما جعل عليكم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، والمَرِيضُ قد يستطيعُ القِيامَ مع

زيادةِ المرض وتأخُّر بُرئه ، فهذا في الشرع غَيْرُ مستطيع ، لأَجْلِ حُصُولِ الضرر عليه ، وإن كان قد يُسمَّى مستطيعًا ، فالشَّارعُ لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكانِ الفِعْلِ ، بل يَنْظُرُ إلى لوازم ذلك ، فإن كَانَ الفِعْلُ ممكنًا مع المفسدةِ الراجحة لم تكن هذه استطاعةً شرعيةً ، كالذي يَقْدرُ على الحجِّ مع ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ في بدنه أو ماله ، أو يُصَلِّي قائمًا مع زيادة مرضه ، أو يَصُومُ الشهرين مع انقطاعه عن معيشته ، ونحو ذلك . فإن كان الشَّارعُ قد اعتبر في المكنة عَدَمَ المفسدة الراجحة ، فكيف يُكلِّف مَعَ العجز ؟ !

ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفي في وجود الفعل ، ولو كانت كافيةً لكان التاركُ كالفاعل ، بل لا بُدَّ من إحداثِ إعانةٍ أخرى تُقارِنُ ، مثل جَعْلِ الفاعلِ مريدًا ، فإن الفعل لا يَتِمُّ إلا بقُدرة وإرادة ، والاستطاعة المقارنة يَدْخُلُ فيها الإرَادَةُ الجازمة ، بخلاف المشروطةِ في التكليف ، فإنَّه لا يُشْتَرطُ فيها الإرادَةُ ، فالله تعالى يأمر بالفِعْلِ من لا يُريدُه ، لكن لا يأمر به مَنْ لو أراده لَعَجزَ عنه . وهكذا أمرُ الناسِ بعضهم لِبعض ، فالإنسانُ يأمر عبده بما لا يريده العبد ، لكن لا يأمره بما يعجِزُ عنه العبد ، وإذا اجتمعت الإرادةُ الجازمةُ والقُوَّةُ التامةُ ، لَزِمَ وُجُودُ الفعل ، وعلى هذا ينبني تكليفُ ما لا يُطَاقُ ، فإن من قال : القُدْرَةُ لا تكونُ إلا مع الفعل ، يقول : كُلُّ كافر وفاسق قد كُلِّف ما لا يُطِيقُ ، وما لا يُطاق يُفَسَّر بشيئين : بما لا يُطاقُ للعجز عنه ، فهذا لم يُكلِّفه الله أحدًا ، ويفسَّر بما لا يُطاق للاشتغال بضدِّه ، فهذا هو الذي وقع فيه التَّكْلِيفُ ، كما في أمر العباد بعضِهم بعضًا ، فإنهم يُفَرِّقُونَ بَين هذا وهذا ، فلا يأمر السيد عبدَه الأعمى بنقط المصاحف ! ويأمره إذا كان قاعدًا أن يَقُومَ ، ويُعْلَمُ الفرقُ بينَ الأمرين بالضرورة .

*****

قوله : « وَأَفْعَالُ العِبَادِ خَلْقُ الله وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ » .

ش : اختلف النَّاسُ في أفعال العبادِ الاختيارية .

فزعمت الجبريةُ رئيسُهم الجهمُ بن صفوان الترمذي : أن التدبيرَ في أفعالِ الخلق كُلِّها لله تعالى ، وهي كُلُّها اضطرارية ، كحركاتِ المرتعِش ، والعروق النابضة ، وحَرَكَاتِ الأشجار ، وإضافتُها إلى الخلق مجاز ! وهي على حَسَبِ ما يُضَافُ الشيءُ إلى محله دُونَ ما يُضافُ إلى مُحَصِّلِهِ !.

وقابلتهم المعتزلة ، فقالوا : إن جَميعَ الأفعالِ الاختيارية مِنْ جميع الحيوانات بخلقها ، لا تعلق لها بِخَلْقِ الله تعالى ! واختلفوا فيما بَيْنَهُمْ : أن الله تعالى يَقْدِرُ على أفعالِ العباد أم لا ؟ !

وقَال أهلُ الحقِّ : أَفْعَالُ العباد بها صاروا مطيعين وعصاةً ، وهي مخلوقة لله تعالى ، والحقُّ سبحانه وتعالى مُنْفَردٌ بخلق المخلوقات ، لا خَالِقَ لها سواه . فالجبرية غَلَوْا في إثبات القدر ، فَنَفَوْا صُنْعَ العبد أصلاً ، كما غَلَتِ المشبِّهةُ في إثباتِ الصفات ، فشبَّهوا . والقدرية نُفَاةُ القدر جعلوا العِبَادَ خالقِينَ مع الله تعالى . ولهذا كانوا مجوسَ هذه الأمة ، بل أردأَ من المجوسِ ، من حيث أن المجوس أَثْبَتَتْ خالِقَيْن ، وهم أثبتوا خالِقِينَ ! !

وهدى الله المؤمنين أهلَ السنة لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه ، والله يَهْدِي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم . فكلُّ دليلٍ صحيح يُقيمهُ الجبريُّ ، فإنما يَدُلُّ على أن الله خَالِقُ كُلِّ شيءٍ ، وأنه على كُلِّ شيء قدير ، وأن أفعالَ العبادِ من جُملة مخلوقاته ، وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يَدُلُّ على أن العَبْدَ ليسَ بفاعلٍ في الحقيقة ولا مُريدٍ ولا مختار ، وأن حركاتِه الاختياريَة بمنزلة حركةِ المرتعش وهُبوب الرياح وحركات الأشجار .

وكُلّ دليلٍ صحيح يقيمه القَدَرِيُّ ، فإنما يَدُلُّ على أن العبدَ فاعلٌ لفعله حقيقةً ، وأنه مريدٌ له مختارٌ له حقيقةً ، وأن إضافته ونِسبته إليه إضافةُ حَقٍّ ، ولا يَـدُلُّ على أنه غَيْرُ مقدورٍ لله تعالى وأنه واقعٌ بغير مشيئته وقدرته .

فإذا ضممتَ ما مَعَ كُلِّ طائفةٍ منهما من الحق إلى حَقِّ الأخرى ، فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة ، من عُمُومِ قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيانِ والأفعالِ ، وأنَّ العباد فاعلون لأفعالهم حَقِيقَةً ، وأنهم يستوجبون عليها المدحَ والذَّمَّ .

وهذا هو الواقعُ في نفس الأمر ، فإن أدلةَ الحق لا تتعارضُ ، والحقُّ يُصَدِّق بعضُه بعضًا . ويضيقُ هذا المختصر عن ذكر أدِلَّة الفريقين ، ولكنها تتكافأ وتتساقط ، ويُستفاد مِن دليلِ كُلِّ فريق بطلانُ قولِ الآخرين . ولكن أذكرُ شيئًا مما استدل به كُلٌّ من الفريقين ، ثم أُبيِّن أنه لا يَدُلُّ على ما استُدِلَّ عليه مِن الباطل :

فمما استدلَّت به الجبريةُ ، قولُه تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧] . فنفى الله عن نبيه الرمي ، وأثبته لنفسه سبحانه ، فَدَلَّ على أنه لا صُنْعَ للعبد . قالوا : والجزاء غَيْرُ مرتبٍ على الأعمال ، بدليل قوله ﷺ : « **لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ** » قالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** » (١) .

---

(١) صحيح بلفظ قريب : أخرجه البخاري (حديث ٥٦٧٣) ، ومسلم (حديث ٢٨١٦ ص ٢١٦٩ـ ٢١٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ ، وأخرجه أيضًا أحمد في المسند (حديث ٢/ ٢٥٦) وغيرهم ، واللفظ المذكور لأحمد من طريق زياد المخزومي عن أبي هريرة مرفوعًا ،وزياد المخزومي متكلم فيه أما لفظ البخاري فهو من طريق أبي عبيد مولى عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ : « **لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ** » قالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **لاَ ، وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ** »

ومما استدل به القدريةُ ، قولُه تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] . قالوا : والجزاءُ مرتَّب على الأعمال ترتيبَ العِوَضِ ، كما قال تعالى : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٤، والواقعة:٢٤] .﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢]. ونحو ذلك .

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى :﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧] . فهو دليلٌ عليهم ؛ لأنه تعالى أثبت لرسولهﷺ رميًا ، بقوله : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ ، فعلم أن المثبتَ غيرُ المنفي ، وذلك أن الرمي له ابتداءٌ وانتهاء : فابتداؤه الحذفُ ، وانتهاؤه الإصابةُ ، وكُلٌّ منهما يُسَمَّى رميًا ، فالمعنى حينئذ والله تعالى أعلم : وما أصبتَ إذْ حذفتَ ولكنَّ الله أصاب . وإلا فطرْدُ قولِهم : وما صليتَ إذْ صليت ولكن الله صلَّى ! وما صُمْتَ إذ صمتَ ! وما زنيت إذ زنيتَ ! وما سَرَقْتَ إذ سَرَقْتَ ! ! وفسادُ هذا ظاهر .

وأما ترتُّبُ الجزاءِ على الأعمال ، فقد ضَلَّت فيه الجبريةُ والقدريةُ ، وهَدَى الله أهل السنة ، وله الحمد والمنة . فإن الباءَ التي في النفي غيرُ الباء التي في الإثْبات ، فالمنفيُّ في قولهﷺ : « **لَنْ يُدْخِلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ** » باءُ العِوَض ، وهو أن يكونَ العملُ كالثمن لدخول الرجلِ إلى الجنة ، كما زَعَمَتِ المعتزلةُ أن العامِلَ يستحِقُّ دخولَ الجنة على ربِّه بعمله ! بل ذلك برحمة الله وفضله . والباء التي في قوله تعالى : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٤] ، ونحوها ، باء السبب ، أي : بسببِ عملكم ، والله تعالى هو خالق الأسبابِ والمسببات ، فرجع الكُلُّ إلى محضِ فضل الله ورحمته .

وأما استدلالُ المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] ، فمعنى الآية : أحسن المصوَّرين المقدِّرين ، و « الخَلْقُ » يُذْكَرُ ويُرَادُ

به التقدير ، وهو المُرَادُ هنا ، بدليلِ قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[الرعد:١٦، والزمر:٦٢] ، أي : الله خَالِقُ كل شيء مخلوق ، فدخلت أَفْعَالُ العبادِ في عموم : « كل » . وما أفسد قولَهم في إدخَال كلامِ الله تعالى في عموم : « كل » ، الذي هو صفةٌ مِن صفاته ، يَسْتَحِيلُ عليه أن يكون مخلوقًا ! وأخرجوا أفعالَهم التي هي مخلوقة من عموم « كل » ! ! وهل يَدْخُلُ في عموم : « كل » إلا ما هو مخلوق ؟ ! فذاتُه المُقَدَّسَةُ وصفاتُه غيرُ داخلة في هذا العموم ، ودخل سائرُ المخلوقات في عمومها . وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات:٩٦] . ولا نقول : لأن « ما » مصدرية ، أي : خلقكم وعملكم ؛ إذ سياقُ الآية يأباه ؛ لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عِبَادَةَ المنحوت ، لا النحتَ ، والآيَةُ تدل على أن المنحوت مخلوقٌ لله تعالى ، وهو ما صار منحوتًا إلا بفعلهم ، فيكون ما هو مِنْ آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى ، ولو لم يكن النَّحْتُ مخلوقًا لله تعالى ، لم يكن المنحوتُ مخلوقًا له ، بل الخشبُ أو الحجرُ لا غير .

وذكر أبو الحسين البصري إمامُ المتأخرين من المعتزلة : أن العلمَ بأن العبدَ يُحدِثُ فِعْلَهُ ضروري ، وذكر الرازي أن افتِقَارَ الفعلِ المحدَث الممكن إلى مرجّح يجب وجُودُهُ عنده ويمتنعُ عند عدمه ضَرُورِيٌّ ، وكلاهما صَادِقٌ فيما ذكره من العلم الضروري ، ثم ادعاءُ كُلٍّ منهما أن هذا العلم الضروريَّ يُبْطِلُ ما ادعاه الآخر من الضرورة ، غَيْرُ مُسَلَّم ، بل كلاهما صادقٌ فيما ادَّعاه من العلم الضروري ، وإنما وقع غلطُه في إنكاره ما مع الآخر مِنَ الحقِّ . فإنه لا منافاةَ بَيْنَ كون العبد محدثًا لفعلِهِ وكون هذا الإحداث وَجَبَ وجُودُه بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[الشمس:٧،٨] . فقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ إثباتٌ للقدَر بقوله : فألهمها ، وإثباتٌ لفعل العبد بإضافة الفجور

والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وقوله بعد ذلك: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩، ١٠] إثباتٌ أيضًا لفعل العبد، ونظائرُ ذلك كثيرة.

وهذه شُبْهَةٌ أخرى من شُبَهِ القوم التي فرَّقتهم، بل مزَّقتهم كُلَّ ممزَّق، وهي: أنهم قالُوا؟ كيف يستقيمُ الحُكْمُ على قولكم بأن الله يُعَذِّبُ المكلفينَ على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين العَدْلُ في تعذيبهم على ما هو خَالِقُهُ وفَاعِلُهُ فيهم؟ وهذا السؤالُ لم يزل مطروقًا في العالم على ألسنةِ الناس، وكل منهم يَتكَلَّمُ في جوابه بحسب علمه ومعرفته، وعنه تَفَرَّقت بهم الطُّرُقُ: فطائفةٌ أخرجت أفعالَهم عن قُدرةِ الله تعالى، وطائفةٌ أنكرت الحُكْمَ والتعليلَ، وسدَّت بابَ السُّؤَالِ، وطائفة أثبتت كَسْبًا لا يُعقل! جعلت الثوابَ والعقابَ عليه. وطائفةٌ التزمت لأجله وُقُوعَ مقدورٍ بين قادِرَيْن، ومفعولٍ بين فاعِلَيْن! وطائفةٌ التزمت الجَبْرَ، وأن الله يُعذِّبهم على ما لا يقدرون عليه! وهذا السؤالُ هو الذي أوجب هذا التفرُّقَ والاختلافَ.

والجوابُ الصحيحُ عنه، أن يقال: إن ما يُبتلى به العبدُ من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقًا لله تعالى، فهي عقوبةٌ له على ذنوب قبلَها، فالذنب يُكْسِبُ الذنبَ، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها، فالذنوبُ كالأمراض التي يُورِثُ بعضُها بعضًا.

يبقى أن يُقَالَ: فالكَلامُ في الذنب الأول الجالبِ لما بَعْدَهُ من الذنوب؟ يقال: هو عُقُوبَةٌ أيضًا على عدم فعل ما خُلِقَ له وفُطِرَ عليه، فإنَّ الله سبحانه خلقه لعبادته وَحْدَهُ لا شريكَ له، وفَطَرَهُ على محبته، وتألهه، والإنابةِ إليه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]. فلما لم يَفْعَلْ

ما خُلِقَ له وفُطرَ عليه ، من محبة الله وعبوديته ، والإنابةِ إليه ، عُوقِبَ على ذلك بأن زَيَّنَ له الشَّيْطَانُ ما يَفْعَلُهُ من الشرك والمعاصي ، فإنَّه صادف قلبًا خاليًا قابلاً للخير والشَّرِّ ، ولو كان فيه الخَيْرُ الذي يمنع ضِدَّه لم يتمكن منه الشَّرُّ ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤] . وقال إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣] . وقال الله ﷻ : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر:٤١، ٤٢] .

والإخلاصُ : خلوصُ القلب من تألُّهِ ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته ، فخلص لله ، فلم يَتَمَكَّنْ منه الشَّيْطَانُ . وأما إذا صادَفَه فارغًا من ذلك ، تَمَكَّن منه بحسب فراغه ، فيكون جعله مذنبًا مسيئًا في هذه الحال عقوبةً له على عَدَمِ هذا الإخلاص . وهي مَحْضُ العدل .

فإن قلتَ : فذلك العدمُ مَنْ خلقه فيه ؟ قيل : هذا سُؤَالٌ فاسدٌ ، فإن العَدَمُ كاسمه ، لا يَفْتَقِرُ إلى تعلق التكوين والإحداثِ به ، فإن عَدَمَ الفعل ليس أمرًا وجوديًا حتى يُضَافَ إلى الفاعل ، بل هو شَرٌّ محض ، والشَّرُّ ليس إلى الله سبحانه ، كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح : « **لَبَّيكَ وَسَعْدَيْكَ ، والخَيْرُ كُلُّهُ في بيديك ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ** » (١) .

وكذا في حديث الشفاعة يومَ القيامة ، « حين يقول الله له : يا محمد . فيقول : « **لَبَّيكَ وَسَعْدَيْكَ ، والخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ** » (٢) .

---

(١) صحيح :وقد تقدم .

(٢) صحيح موقوفًا على حذيفة :أخرجه البزار (٣٤٦٢) ،وقد ورد شيء من هذا مرفوعًا عند الحاكم (٤/ ٥٧٣) بسند ضعيف فيه ليث بن أبي سليم ، ولفظه : « **أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ تَبَارَكْتَ لبيك وحنانيك**...» الحديث ، وليس فيه القدر المشار إليه من المصنف

وقد أخبر الله تعالى أن تسليطَ الشيطان إنما هو على الذين يتولَّونَهُ والذين هُمْ به مشركون ، فلما تَوَلَّوه دونَ الله وأشركوا به معه عُوقِبوا على ذلك بتسليطه عليهم ، وكانت هذه الولايةُ والإشراك عقوبةَ خُلُوِّ القلب وفراغه مِن الإخلاص . فإلهامُه البِرَّ والتقوى ثمرةُ هذا الإخلاصِ ونتيجتُه ، وإلهامُ الفجور عقوبةٌ على خُلُوِّه من الإخلاص .

فإن قلت : إن كان هذا التركُ أمرًا وجوديًا عاد السُّؤالُ جذعًا ، وإن كان أمرًا عدميًا ، فكيف يُعَاقَبُ على العَدَمِ المحض ؟

قيل : ليس هنا تركٌ هو كفُّ النفسِ ومنعها عما تُريدُه وتُحِبُّه ، فهذا قد يُقالُ : إنه أمر وجوديٌّ ، وإنما هنا عدمٌ وخُلُوٌّ مِن أسبابِ الخير ، وهذا العَدَمُ هو محضُ خُلُوِّها مما هو أنفعُ شيءٍ لها ، والعقوبةُ على الأمر العدمي هي بفعل السيئات ، لا بالعقوبات التي تَنَالُه بَعْدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليه بالرسل . فلله فيه عقوبتان :

إحداهما : جَعْلُه مذنبًا خاطئا ، وهذه عقوبةُ عدمِ إخلاصه وإنابتِه وإقبالِهِ على الله ، وهذه العقوبة قد لا يُحِسُّ بألمها ومضرَّتها ، لموافقتها شهوتَه وإرادتَه ، وهي في الحقيقة مِن أعظمِ العقوبات .

والثانية : العقوباتُ المؤلمة بَعْدَ فعله للسيئات . وقد قَرَنَ الله تعالى بَيْنَ هاتين العقوبتين في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤] . فهذه العقوبةُ الأولى ، ثم قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام:٤٤] ، فهذه العقوبة الثانية .

فإن قيل : فهل كان يُمكِنُهُمْ أن يأتوا بالإخلاصِ والإنابة والمحبةِ له وَحْدَهُ من غير أن يَخْلُقَ ذلك في قلوبهم ويَجْعَلَهم مخلصينَ له ، منيبين له محبين له وحدَه ؟ أم ذلك مَحْضُ جعلِه في قلوبهم وإلقائه فيها ؟ قيل : لا ، بل هُوَ مَحْضُ مِنَّتِه وفضله ،

وهو مِنْ أعظمِ الخير الذي هو بيده ، والخَيْرُ كُلُّه فِي يديه ، ولا يَقْدِرُ أحد أن يأْخُذَ من الخير إلا ما أعطاه ، ولا يَتَّقي مِن الشَّرِّ إلا ما وَقاه .

فإن قيل : فإذا لم يُخْلَق ذلك في قلوبهم ولم يُوفَّقُوا له ، ولا سَبيلَ لهم إليه بأنفسهم ، عاد السُّؤالُ وكان منْعهم منه ظلمًا ، ولزمكم القولُ بأن العدلَ هو تصرُّفُ المالك في ملكه بما يشاء ، لا يُسأل عما يفعل وهُمْ يُسألون .

قيل : لا يكونُ سبحانه بمنعهم من ذلك ظالمًا ، وإنما يكون المانعُ ظالمًا إذا منع غيرَه حقًا لذلك الغير عليه ، وهذا هو الذي حَرَّمَهُ الربُّ على نفسه ، وأوجبَ على نفسه خلافه ، وأما إذا منع غَيْرَه ما ليس بحقٍّ له ، بل هو محضُ فضلِهِ ومنته عليه ، لم يكن ظالمًا بمنعه ، فَمَنْعُ الحقِّ ظلم ، ومَنْعُ الفضل والإحسان عَدْلٌ . وهو سبحانه العدل في منعه ، كما هو المحسنُ المنَّانُ بعطائه .

فإن قيل : فإذا كان العطاءُ والتوفيق إحسانًا ورحمةً ، فهلا كان العَمَلُ له والغلبةُ ، كما أن رحمته تَغْلِبُ غَضَبَه ؟

قيل : المَقْصودُ في هذا المقام بَيَانُ أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع ، والمنع المستلزمُ للعقوبة ليس بظلمٍ ، بل هو مَحْضُ العدل .

وهذا سؤالٌ عن الحكمة التي أوجبت تقديمَ العَدْلِ على الفضل في بعض المَحَالِّ ؟ وهلاَّ سوَّى بَيْنَ العباد في الفضل ؟ وهذا السؤالُ حَاصِلُهُ : لِمَ تَفَضَّلَ على هذا ولَمْ يتفضَّلْ على الآخر ؟ وقد تولَّى الله سبحانه الجوابَ عنه بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١] .

وقوله : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢٩] .

ولمَّا سأله اليهودُ والنصارى عن تخصيصِ هذه الأمة بأجرَيْن وإعطائهم هُمْ أجرًا أجرًا قال : « **هَلْ ظَلَمْتُكُم مِنْ حَقّكُم شَيْئًا ؟** » قَالُوا : لا ، قَالَ : « **فَذلكَ فَضْلِي أُوتيهِ مَنْ أَشَاءُ** » (١) .

وليس في الحِكمة إطلاعُ كُلِّ فردٍ من أفرادِ الناسِ على كمال حَكمته في عطائه ومنعه ، بل إذا كشفَ الله عن بصيرةِ العبد ، حتى أبصر طَرَفًا يسيرًا مِن حكمته في خلقه ، وأمره وثوابه وعقابه ، وتخصيصه وحرمانِه ، وتأمَّل أحوالَ مَحَالِّ ذلك استدلَّ بما علمه على ما لم يعلمه .

ولما استشكل أعداؤُه المشركون هذا التخصيصَ ، قالوا : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾ ؟ قال تعالى مجيبًا لهم : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] . فتأمل هذا الجوابَ ، تَرَى في ضمنه أنَّه سبحانه أَعْلَمُ بالمحلِّ الذي يَصْلحُ لغرْسِ شجرة النعمة ، فتثمرُ بالشكر ، من المحل الذي لا يَصْلُحُ لِغرسها ، فلو غُرِستْ فيه لم تُثْمِرْ ، فكان غرسها هناك ضائعًا لا يليقُ بالحِكمة ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

فإن قيل : إذا حَكَمْتُم باستحالة الإيجادِ من العبد ، فإذًا لا فِعْل للعبد أصلاً ؟ قيل : العبدُ فاعل لفعله حقيقةً ، وله قُدْرَةٌ حقيقةً . قال تعالى : ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٍ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٥٥٧) وفي عدة مواطن من صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا ، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ ، فَعَمِلُوا إِلَى صَلاَةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا ، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ، ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ فَقَالَ : أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ : أَيْ رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هَؤُلاَءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلاً ؟! قَالَ : قَالَ الله ﷻ : هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لاَ ، قَالَ : فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ** » .

يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[البقرة:١٩٧] ، ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[هود:٣٦] ، وأمثال ذلك .

وإذا ثبت كونُ العبد فاعلاً ، فأفعالُه نوعان :

نوعٌ يكون منه مِن غير اقترانِ قدرته وإرادته ، فيكون صِفَةً له ، ولا يكون فعلاً ، كحركات المرتعش .

نوعٌ يكون منه مِن مقارنًا لإيجادِ قدرته واختياره ، فيُوصَفُ بكونه صفَةً وفعلاً وكسبًا للعبد ، كالحركات الاختيارية . والله تعالى هو الذي جَعَلَ العَبْدَ فاعلاً مختارًا ، وهو الذي يَقْدِرُ على ذلك وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له . ولهذا أنكر السَّلفُ الجَبْرَ ، فإن الجبرَ لا يكون إلا مِن عاجزٍ ، فلا يكون إلا مَعَ الإكراه ، يقال : للأب ولايةُ إجبارِ البكْرِ الصغيرة على النكاح ، وليس له إجبار الثيب البالغ ، أي : ليس له أن يُزوِّجها مكرهة .

والله تعالى لا يُوصَفُ بالإجبارِ بهذا الاعتبارِ ، لأنه سبحانه خَالِقُ الإرادة والمراد ، قادِرٌ أن يجعله مختارًا بخلاف غيره ، ولهذا جاء في ألفاظ الشارع : « الجبْل » دون « الجبر » ، كما قال ﷺ لأشجّ عبد القيس : « **إنَّ فيْكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُما الله : الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ** » فَقَالَ : أَخُلُقَين تَخَلَّقتُ بهما ؟ أَمْ خُلُقَين جُبِلْتُ عَلَيْهِمَا ؟ فَقَالَ : « **بَلْ خُلُقَيْنِ جُبِلْتَ عَلَيهما** »[1] فَقَالَ : الحَمْدُ الله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله وَرَسُولُهُ

---

(١) أخرج مسلم (حديث١٧) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله ؛ الحِلْمُ وَالأَنَاةُ** » ونحوه عند مسلم (حديث ١٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا أيضًا ، والحديث بالطول الذي أشار إليه المصنف أخرجه أبو داود (حديث ٥٢٢٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (حديث ٥٣١٣) ، والحديث بهذا الطول في سنده عند المذكورين ضعف ففيه أم أبان بنت الوازع بن زارع لم يوثقها معتبر ، وقول الحافظ ابن حجر فيها مقبولة يعني مقبولة عند المتابعة وإلا فلينة .

والله تعالى إنما يُعذِّبُ عَبْدَه على فعلِهِ الاختياري ، والفَرْقُ بَيْنَ العقابِ على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطَرِ والعقول . وإذا قيل : خَلْقُ الفعل مع العقوبة عليه ظلم ! كان بمنزلة أن يُقَالَ : خَلْقُ أكلِ السُّمِّ ، ثم حصولُ الموت بِهِ ظُلْمٌ ! ! فكما أن هذا سببٌ للموت ، فهذا سببٌ للعقوبة ، ولا ظُلْمَ فيهما .

فالحاصلُ : أن فعلَ العبدِ فعْلٌ له حقيقةً ، ولكنه مَخْلُوقٌ لله تعالى ، ومفعولٌ لله تعالى ، ليس هو نفسَ فعلِ الله . ففرْقٌ بَيْنَ الفعل والمفعول ، والخَلْقِ والمَخْلُوقِ ، وإلى هذا المعنى أشار الشَّيْخُ رَحِمَهُ الله تَعَالَى بقوله : « وأفعالُ العباد خلقُ الله وكسبٌ مِن العباد » أثبتَ للعباد فعلاً وكسبًا ، وأضاف الخلق إلى الله تعالى . والكسب : هو الفِعْلُ الذي يَعُودُ على فاعله منه نَفْعٌ أو ضرر ، كما قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

قوله : « وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ الله تَعَالَى إلاَّ مَا يُطيقُونَ ، وَلاَ يُطيقُونَ إلاَّ مَا كَلَّفَهُمْ »[1] . وَهُوَ تَفْسيرُ «لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله » ، نَقُولُ : لا حيلَةَ لأحدَ ، وَلاَ تَحَوُّلَ لأحد ، وَلاَ حَرَكَةَ لأحَد عَنْ مَعْصيةِ الله ، إلاَّ بِمَعُونَةِ الله ، وَلاَ قُوَّةِ لأحد على إقامة طَاعةِ الله والثَّبَاتِ عَلَيْهَا إلا بتَوْفيقِ الله ، وَكُلُّ شَيء يَجْرِي بِمَشيئة الله تَعَالَى وعلْمه وَقَضَائِهِ وَقَدره . غَلَبَتْ مَشيئَتُهُ المشيئَات كُلَّها ، وَغَلَبَ قَضَاؤُه الحيَلَ كُلَّها ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ غَيرَ ظَالِمٍ أَبَدًا : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] .

ش : فقوله : « وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ الله تَعَالَى إلاَّ مَا يُطيقُونَ » قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] . ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام:١٥٢، الأعراف:٤٢، المؤمنون:٦٢] .

---

(١) هذا فيه نظر فقد يطيق العبد أكثر مما كلفه الله فكلفنا الله بالحج مرة ، وقد يطيق الشخص الحج مرات ومرات ، وكذا عموم النوافل وغيرها أيضًا .

وعن أبي الحسن الأشعري أن تكليفَ ما لا يُطَاقُ جَائِزٌ عقلاً ، ثم تَرَدَّدَ أصحابُه أنه : هل ورد به الشرعُ أم لا ؟ واحتجَّ مَنْ قَالَ بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان ، فإنه تعالى أخبر بأنه لا يُؤْمِنُ ، وأنه سيصلى نارًا ذاتَ لهب ، فكان مأمورًا بأن يُؤْمِنَ بأنه لا يُؤْمِنْ . وهذا تكليفٌ بالجمع بين الضدين ، وهو محال .

والجوابُ عن هذا بالمنع : فلا نُسَلِّمُ أنَّه مأمورٌ بأن يُؤمِنَ بأنَّه لا يُؤمن ، والاستطاعة التي بها يَقْدرُ على الإيمان كانت حَاصِلَةً ، فهو غَيْرُ عاجز عن تحصيل الإيمان ، فما كُلِّف إلا ما يُطِيقُهُ كما تقدَّم في تفسيرِ الاستطاعة . ولا يَلْزَمُ قولُه تعالى للملائكة : ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ [البقرة:٣١] . مع عَدَمِ علمهم بذلك ، ولا للمصورين يومَ القيامة : « أحيوا ما خلقتم » ، وأمثال ذلك ؛ لأنَّه ليس بتكليف طَلَبِ فعلٍ يُثَابُ فاعِلُهُ ويُعاقَبُ تاركُه ، بل هو خطابُ تعجيز .

وكذا لا يَلْزَمُ دُعَاءُ المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٦] لأن تَحْمِيلَ مَا لا يُطاقُ ليس تكليفًا ، بل يَجُوزُ أن يُحمِّلَه جبلاً لا يُطِيقُهُ فيموت . وقال ابنُ الأنباري : أي : لا تُحَمِّلْنَا ما يَثْقُلُ علينا أداؤه وإنْ كنا مطيقين له على تَجَشُّم وتَحَمُّلِ مكروه ، قال : فخاطَبَ العَرَبَ على حسب ما تَعْقِلُ ، فإنَّ الرجلَ منهم يقول للرجل يُبْغِضُهُ : ما أُطِيقُ النَّظَرَ إليكَ ، وهو مُطيق لِذلك ، لكنه يَثْقُلُ عليه . ولا يجوزُ في الحكمة أن يُكَلِّفَه بحمل جبلٍ بحيث لو فَعَلَ يُثَابُ ، ولو امتنع يُعَاقَبُ ، كما أخبر سبحانه عن نفسه ، أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

ومنهم من يقول : يجوز تَكْلِيفُ الممتنِعِ عَادَةً ، دونَ الممتنعِ لذاته ؛ لأن ذلك لا يُتَصَوَّرُ وجودُه ، فلا يُعْقَلُ الأمرُ به ، بخلافِ هذا .

ومنهم من يقول : ما لا يُطَاقُ للعجز عنه لا يَجُوزُ تكليفُه ، بخلاف ما لا يُطاق للاشتغال بِضِدِّه ، فإنَّه يجوز تَكْلِيفُه . وهؤلاء موافقون للسَّلَفِ والأئمة في المعنى ،

لكن كونهم جعلوا ما يتركه العَبْدُ لا يُطاقُ لكونه تاركًا له مشتغلاً بضده ، بدعةٌ في الشرع واللغة ، فإن مضمونَه أنَّ فِعْلَ ما لا يفعلُه العبدُ لا يُطِيقُه ! وهم التزموا هذا ، لقولهم : إن الطاقة التي هي الاستطاعة وهي القدرة لا تكونُ إلا مع الفعل ! فقالُوا : كُلُّ من لم يفعل فعلاً ، فإنَّه لا يُطِيقُه ! وهذا خلافُ الكتابِ والسنة وإجماعِ السلف ، وخلافُ ما عليه عامة العقلاء ، كما تَقَدَّمَتِ الإشارةُ إليه عند ذكرِ الاستطاعة .

وأما ما لا يَكُونُ إلا مقارنًا للفعل ، فذاك ليس شرطًا في التكليف ، مع أنَّه في الحقيقة إنما هناك إرادةُ الفعل . وقد يحتجُّون بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ [هود:٢٠] . ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٦٧، ٧٢، ٧٥] . وليس في ذلك إرادة ما سمَّوه استطاعةً ، وهو ما لا يَكُونُ إلا مَعَ الفعلِ ، فإنَّ الله ذَمَّ هؤلاء على كونهم لا يستطيعونَ السَّمْعَ ، ولو أراد بذلك المقارنَ لكانَ جَميعُ الخَلْقِ لا يستطيعون السَّمْعَ قبلَ السَّمْعَ ! فلم يَكُنْ لتخصيصِ هؤلاء بذلك معنى ، ولكن هؤلاء لبغضهم الحَقَّ وثقَلِهِ عليهم ، إما حَسَدًا لصاحبه ، وإما اتباعًا للهوى لا يستطيعونَ السَّمْعَ . وموسى عليه السلام لا يستطيع الصَّبْرَ ، لمخالفة ما يراه لِظاهِرِ الشرعِ ، وليس عنده منه عِلمٌ[1] . وهذه لغةُ العربِ وسائرِ الأمم ، فمن يُبْغِضُ غيره يقال : إنه لا يَسْتَطِيعُ الإحسانَ إليه ، ومن يحبُّه يقال : إنَّه لا يستطيعُ عُقُوبَته ، لشدَّةِ محبته له ، لا لِعجزه عن عقوبته ، فيقال ذلك للمبالغة ، كما تَقُولُ : لأَضْرِبَنَّهُ حتى يموت ، والمرادُ الضرب الشديدُ ، وليس هذا عذرًا ، فلو لم يأمر العبادَ إلا بما يهوونه لَفَسَدت السَّماواتُ والأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون:٧١] .

---

(١) يعني : قول الخضر لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

وقوله : « وَلاَ يُطيقُونَ إلاَّ مَا كَلَّفَهُمْ » ، إلى آخر كلامه . أي : ولا يُطيقُون إلا ما أَقْدَرَهُمْ عليه . وهذه الطاقة هي التي مِنْ نحو التوفيق ، لا التي مِنْ جهة الصحة والوُسْعِ والتَّمَكُّنِ وسلامةِ الآلات ، و « لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله » دليلٌ على إثبات القَدَرِ . وقد فسَّرهَا الشيخ بعدهَا . ولكن في كلام الشيخ إشكالٌ : فإن التكليفَ لا يُسْتَعْمَلُ بمعنى الإقدار ، وإنما يُسْتَعْمَلُ بمعنى الأمر والنهي ، وهو قال : « لاَ يُكَلِّفْهُمْ إلاَّ مَا يُطيقُونَ ، وَلاَ يُطيقُونَ إلاَّ مَا كَلَّفَهُمْ » وظاهِرُه أنه يرجع إلى معنى واحدٍ ، ولا يَصحُّ ذلك ، لأنهم يُطيقون فَوْقَ مَا كلَّفهم به ، لكنه سُبْحَانه يُريدُ بعباده اليُسْرَ والتَّخْفِيفَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] . وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء:٢٨] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨] . فلو زاد فيما كلَّفنا به لأطقناه ، وَلكِنَّهُ تَفَضَّل علينا ورحِمَنَا ، وخفَّفَ عنا ، ولم يجعل علينا في الدين مِنْ حرج . ففي العِبَارِة قلق ، فتأمله .

القضاء الكوني القدري ، والقضاء الديني الشرعي :

وقوله : « وَكُلُّ شَيء يجْرِيَ بِمَشيئة الله وعَلْمه وَقَضَائِهِ وَقَدره » يُريدُ بقضائه القضاءَ الكونيِّ لا الشرعيِّ ، فإنَّ القضاءَ يَكُونُ كونيًا وشرعيًا ، وكذلك الإرادةُ والأمر والإذن والكِتابُ والحُكْمُ والتحريمُ والكَلِمَاتُ ، ونحو ذلك .

أما القضاءُ الكونيُّ ، ففي قولِه تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:١٢]

والقضاء الديني الشَّرعي ، فِي قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]

وأما الإرادةُ الكونية والدينية ، فقد تقدم ذِكْرُها عند قول الشيخ : « ولا يكون إلا

ما يريد » .

وأما الأَمْرُ الكونيُّ ، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] . وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦] ، **في أَحَدِ الأقوالِ** ، وهو أقواها ، **والأمر الشَّرْعِيُّ** ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ ، الآية [النحل:٩٠] .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] .

وأما الإذن الكونيُّ ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٠٢] .

والإذن الشرعي ، في قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٥].

وأمّا الكِتَابُ الكَوْنِيُّ ، ففي قَوْلِه تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:١١] . **وقوله تعالى :** ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾

[الأنبياء:١٠٥]

والكِتاب الشرعي الديني ، في قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة:٤٥] . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

[البقرة:١٨٣]

وأما الحُكْمُ الكَوْنِيُّ ، ففي قوله تعالى عن ابنِ يعقوب عليه السلام: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ

حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يوسف:٨٠] ، وقوله تعالى : ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١١٢] .

والحُكْمُ الشرعي ، في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الأنبياء:١١٢] . وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة:١٠] .

وأما التَّحْرِيمُ الكَوْنِيُّ ، ففي قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٢٦] . ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٥] .

والتحـريم الشرعـي ، في قولـه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ [المائـدة:٣] . و﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ ، الآية [النساء:٢٣].

وأما الكلمات الكونية ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعـراف:١٣٧]. وفي قولـه ﷺ : « **أَعُـوذُ بِكَلِـمَاتِ الله التَّامَّاتِ اللاَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ** »(١) .

والكلمات الشرعيـة الدينيـة ، في قولـه تعـالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٢٤] .

وقوله : « يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ غَيرَ ظَالِمٍ أَبَدًا » الذي دَلَّ عليه القُرْآنُ من تنزيه الله نفسَه عن ظُلْمِ العباد ، يقتضي قولاً وسطًا بيْنَ قولي القدرية والجبرية ، فليس ما كان من بني آدم ظلمًا وقبيحًا يَكُونُ منه ظلمًا وقبيحًا ، كما تَقُولُه القدرية والمعتزلةُ

---

(١) تقدم .

ونحوهم ! فإن ذلك تمثيلٌ لله بخلقه ! وقياسٌ له عليهم ! هو الرَّبُّ الغنيُّ القادرُ ، وهُمُ العِبَادُ الفقراء المقهورون . وليس الظُّلْمُ عبارةً عن الممتنع الذي لا يَدْخُلُ تحت القدرة ، كما يقولُهُ مَنْ يقولُه من المتكلمين وغيرهم ، يقولون : إنه يمتنع أن يكونَ في الممكن المقدورِ ظلم ! بل كل ما كان ممكنًا فهو منه لو فعله عَدْلٌ ، إذ الظُّلْمُ لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي ، والله ليس كذلك . فإنَّ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[طه:١١٢] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف:٧٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر:١٧] ، وذلك يَدُلُّ على نقيض هذا القول .

ومنه قولُه الذي رواه عنه رسولُه : « **يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلاَ تَظَالَمُوا** »(١) . فهذَا دلَّ على شيئين :

أحدهما : أنه حرَّم على نفسه الظُّلْمَ ، والممتنعُ لا يُوصَفُ بذلك .

الثاني : أنه أخبر أنه حرمَّه على نفسه ، كما أخبر أنَّه كَتَبَ على نفسه الرحمة ، وهذا يُبْطِلُ احتجاجَهم بأنَّ الظلمَ لا يكونُ إلا مِنْ مأمور منهيٍّ ، والله ليسَ كذلك . فَيُقالُ لهم : هو سبحانه كَتَبَ على نفسه الرحمةَ ، وحَرَّمَ على نفسه الظَّلْمَ ، وإنما كتب على نفسه وحرَّمَ على نفسه ما هُوَ قَادِرٌ عليه ، لا ما هو ممتنع عليه .

وأيضًا : فإن قولَه : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[طه:١١٢] ، قد فسَّرَهُ السلفُ ،

---

(١) صحيح :وقد تقدم .

بأن الظلم : أن تُوضَعَ عليه سيئاتُ غيره ، والهضمُ : أن ينقص من حسناته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء:١٥] .

وأيضًا : فإنَّ الإنسانَ لا يَخَافُ الممتَنعَ الذي لا يدخل تحْتَ القدرة حتى يُؤَمَّنَ من ذلك ، وإنما يُؤَمَّنُ مما يُمْكِنُ ، فلمَّا آمنه من الظلم بقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ [طه:١١٢] ، عُلِمَ أنه ممكنٌ مقدور عليه . وكذا قولُه : ﴿ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ [ق:٢٨] ، إلى قوله : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩] ، لم يَعْنِ بها نفي ما لا يُقْدَرُ عليه ، ولا يُمكن منه ، وإنما نفي ما هو مقدورٌ عليه ممكن ، وهو أن يُجْزَوْا بغير أعمالهم ، فعلى قول هؤلاء : ليس الله منزهًا عن شيءٍ من الأفعال أصلاً ، ولا مقدسًا عن أن يَفْعَله ، بل كُلُّ ممكن فإنَّه لا يُنَزَّهُ عن فعله ، بل فِعْلُهُ حسن ، ولا حقيقة للفعل السُّوء ، بل ذلك ممتنع ، والممتنعُ لا حقيقةَ له ! !

والقرآنُ يَدُلُّ على نقيض هذا القول في مواضعَ ، نزَّه الله نفسَه فيها عن فعلِ ما لا يَصْلُحُ له ، ولا ينبغي له ، فَعُلِمَ أنه مُنَزَّهٌ مقدَّس عن فعلِ السوء ، والفعلِ المعيب المذموم ، كما أنه مُنَزَّهٌ مقدَّس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم ، وذلك كقوْلِه تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥] . فإنه نزَّه نفسه عن خلق الخلق عَبَثًا ، وأنكر على مَنْ حَسِبَ ذلك ، وهذا فعل ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم:٣٥] . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨] ، إنكارٌ منه على من جَوَّزَ أن يُسَوِّي الله بين هذا وهذا ، وكذا قوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] ، إنْكَارٌ على من حَسِبَ أنه يفعل هذا ، وإخبارٌ أن هذا حكمٌ سيء قبيح ، وهو مما يُنَزَّهُ

الربُّ عنه .

وروى أبو داود ، والحاكم في «المستدرك» ، مِنْ حَديث ابن عباس ، وعبَادةَ بن الصامت ، وزيدِ بنِ ثابت ، عن النبيِّ ﷺ : « **لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَماوَاتِهِ ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمالِهِمْ** » [(١)] .

وهذا الحديثُ مما يحتج به الجبرية ، وأما القدرية فلا يتأتَّى على أُصولهم الفاسدة ! ولهذا قابلوه إما بالتكذيبِ أو بالتأويل ! !

وأَسْعَدُ الناسِ به أهل السنة ، الذين قابلوه بالتصديق ، وعَلِمُوا من عظمة الله تعالى وجلالِه ، قَدْرِ نِعَمِ الله على خلقه ، وعَدَم قيام الخلق بحقوقَ نعمه عليهم ، إما عجزًا ، وإما جهلاً ، وإما تفريطًا وإضاعةً ، وإما تقصيرًا في المقدور من الشكر ، ولو مِنْ بعض الوجوهِ ، فإن حقَّه على أهل السماوات والأرض أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى ، ويُذْكَرَ فلا يُنْسَى ، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ ، وتكونَ قُوَّةُ الحبِّ والإنابة ، والتوكل والخشيةِ والمراقبة والخوفِ والرجاء ، جمِيعُها متوجهةً إليه ، ومتعلِّقةً به ، بحيث يكون القَلْبُ عاكفًا على محبته وتألهه ، بل على إفراده بذلك ، واللسان محبوسًا على ذكره ، والجوارح وقفًا على طاعته .

ولا ريبَ أن هذا مقدورٌ في الجملة ، ولكن النفوس تَشحُّ به ، وهي في الشُّحّ على مراتب لا يُحْصِيها إلا الله تعالى ، وأَكْثَرُ المُطيعين تَشحُّ بِهِ نَفْسُه مِنْ وجه ، وإن أتى به مِنْ وَجْهٍ آخر . فأينَ الذي لا تَقَعُ منه إرَادَةٌ تُزَاحِمُ مُرَادَ الله وما يُحبُّه منه ؟ ومن الذين لم يَصْدُرْ منه خلافُ ما خُلِقَ له ، ولو في وَقْتٍ من الأوقات ؟ فلو وَضَعَ الربُّ سبحانه عَدْلَه على أَهْلِ سماواته وأرضه ، لَعَذَّبَهُمْ بعدله ، ولم يكن

(١) حسن : أخرج أبو داود (حديث ٤٦٩٩) ،وابن ماجه (حديث ٧٧) ، وأحمد (٥/ ١٨٢) وغيرهم.

ظالمًا لهم .

وغاية ما يُقدَّرُ ، توبةُ العبد من ذلك واعترافُه ، وقبولُ التوبة محضُ فضله وإحسانه ، وإلا فلو عذَّب عبدَه على جنايته لم يكن ظالمًا ، ولو قُدِّرَ أنه تابَ منها ، لكن أَوْجَبَ على نفسه ، بمقتضى فضله ورحمته أنه لا يُعذِّبُ مَنْ تاب ، وقد كَتَبَ على نفسه الرحمةَ ، فلا يَسَعُ الخلائقَ إلا رحمتُه وعفوُه ، ولا يَبْلُغُ عَمَلُ أحدٍ منهم أن يَنْجُوَ به مِنَ النارِ ، أو يدخل به الجنةَ ، كما قال أَطْوَعُ الناس لِربه ، وأفضلُهم عملاً ، وأشدُّهم تعظيمًا لربه وإجلالاً : «**لَنْ يُنْجيَ أَحَدًا مِنْكُم عَمَلُهُ**» ، قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **وَلاَ أَنا ، إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** »(١) .

وسأله الصِّدّيقُ دعاءً يدعو به في صلاتِه ، فَقَالَ : « **قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** »(٢) .

فإذا كان هذا حالَ الصِّدِّيق ، الذي هو أَفْضَلُ الناس بعدَ الأنبياء والمرسلين فما الظنُّ بسواه ؟ بل إنما صار صِدِّيقًا بتوفيته هذا المقام حقَّه ، الذي يتضمَّنُ معرفةَ ربه ، وحقَّه وعظمتَه ، وما ينبغي له ، وما يستحقُّه على عبده ، ومعرفَةَ تقصيره . فَسُحْقًا وبُعْدًا لمن زَعَمَ أن المخلوقَ يستغني عن مغفرة ربه ، ولا يكونُ به حاجةٌ إليها ! وليس وراءَ هذا الجهلِ بالله وحقه غاية ! ! فإن لم يتَّسعْ فهمُك لهذا ، فانزل إلى وطأة النِّعَمِ ، وما عليها من الحقوق ، ووازِنْ بَيْنَ شُكْرِها وكُفرِها ، فحينئذ تَعْلَمُ أنه سبحانه لو عذَّب أهل سَماوَاتِهِ ، وأرضه ، لعذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهم .

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٧٠٥) من حديث أبي بكر ﷺ أنه قال : عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي ، قَالَ : « **قُلِ : اللَّهُمَّ** ... » فذكر الحديث .

قوله : « وَفِي دُعَاءِ الأَحْيَاءِ ، وَصَدَقَاتِهِم منفعة للأَمْوَاتِ » .

ش : اتفق أهلُ السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين :

أحدهما : ما تسبب إليه الميتُ في حياته .

والثاني : دُعَاءُ المسلمين واستغفارُهُم له ، والصدقةُ والحجُّ ، على نزاعٍ فيما يصل إليه من ثواب الحج : فعن محمد بن الحسن رحمه الله : أنه إنما يَصِلُ إلى الميت ثَوابُ النفقة ، والحَجُّ للحَاجِّ ، وعند عامة العلماء : ثَوَابُ الحجِّ للمحجوج عنه ، وهو الصحيح .

واختُلِفَ في العبادات البدنية ، كالصَّوْمِ والصلاة [1] ، وقراءةِ القرآن والذكر ، فذهب أبو حنيفة ، وأحمد وجُمْهُورُ السلف إلى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعي ، ومالك عَدَمُ وصولها .

وذهب بَعْضُ أهلِ البدع مِنْ أهل الكلام إلى عَدَمِ وصول شيء البتة ، لا الدعاء ولا غيره . وقَوْلُهُمْ مردودٌ بالكتاب ، والسنة ، لكنهم استدلُّوا بالمتشابه من قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم:٣٩] .

وقوله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[يس:٥٤] .

وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[البقرة:٢٨٦] .

وقد ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قَالَ : « **إِذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ من بعده** » [2] .

---

(١) لا أعلم دليلاً على وصول ثواب الصلاة ، ولا قراءة القرآن ولا الذكر ، ثم إن العزو إلى جمهور السلف فيه نظر شديد .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٦٣١) من حديث أبي هريرة مرفوعًا ، وليس عنده : « من بعده » .

فأَخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة ، وما لم يكنَ تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه .

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة ، كالصدقة والحجِّ بأن النوع الذي لا تدخله النيابةُ بحال ، كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن ، يختص ثوابه بفاعله لا يتعدَّاه ، كما أنه في الحياة لا يفعلُه أحدٌ عن أحد ، ولا ينوبُ فيه عن فاعله غيرهُ ، وقد روى النسائي بسنده ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « **لا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَلاَ يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَلكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًا مِنْ حِنْطَةٍ** »[١] .

أدلة على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه :

والدليلُ على انتفاعِ الميت بغير ما تسبِّب فيه ، الكتابُ والسُّنة والإجماعُ ، والقياسُ الصحيح .

أما الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[الحشر:١٠] . فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فَدَلَّ على انتفاعهم باستغفار الأحياءِ ، وقد دَلَّ على انتفاع الميت بالدُّعاءِ إجماعُ الأمة على الدُّعاء له في صلاة الجنازة ، والأدعيةُ التي وَرَدَتْ بها السُّنةُ في صلاةِ الجنازة مستفيضة . وكذا الدُّعَاءُ له بَعْدَ الدفن ، ففي « سنن أبي داود » ، من حديث عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه ، قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْـمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ « **اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ** »[٢] .

وكذلك الدعاءُ لهم عند زيارة قبورهم ، كما في « **صحيح مسلم** » ، من حديث

---

(١) موقوف صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما :أخرجه النسائي في « السنن الكبرى » (٢/ ١٧٥) .
(٢) حسن :أخرجه أبو داود (٣/ ٥٥٠) .

بُريدة بنِ الحصيب ، قال : رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ أن يَقُولُ : « السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُم لاَحِقُونَ ، نَسْأَلُ الله لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ »(١).

وفي «صحيحه» أيضًا ، عن عائشة رضي الله عنها : سَأَلت النَّبِيَّ ﷺ : كَيْفَ تقولُ إذا استغفرتْ لأهْلِ القُبورِ ؟ قَالَ : « قُولِي : السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَيَرْحَمُ الله الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَلاَحِقُونَ »(٢).

وأما وُصُولُ ثوابِ الصدقة ، ففي «الصحيحين» ، عن عائشة رضي الله عنها : « أَنَّ رجُلاً أتى النَّبيَّ ﷺ ، فَقَالَ : يا رَسُولَ الله ، إنَّ أُمِّي افتُلِتَتْ نَفْسُهَا ، وَلَمْ تُوصِ ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عنها ؟ قال : « نَعَم » (٣).

وفي «صحيح البخاري» ، عن عَبْدِ الله بنِ عباسٍ رضي الله عنهما : أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ وَهْوَ غَائِبٌ عَنْهَا ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا ، فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي الْمِخْرَافَ صَدَقَةٌ عَلَيْهَا(٤). وأمثالُ ذلك كثيرةٌ في السنة .

وأمَّا وُصُولُ ثوابِ الصومِ ، ففي «الصحيحين» ، عن عائشة رضي الله عنها أن رَسُولُ الله ﷺ قال : « مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيامٌ صَامَ عَنْهُ ولِيُّهُ » (٥). وله نَظَائِرٌ في « الصحيح ».

ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميتِ دُونَ الصيامِ عنه ، لحديث ابنِ

---

(١) صحيح :أخرجه مسلم في صحيحه (مع النووي ٧/ ٤٤) .
(٢) صحيح :أخرجه مسلم (ص٦٧١) .
(٣) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ١٣٨٨) ،ومسلم (حديث ١٠٠٤).
(٤) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٢٧٥٦) .
(٥) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ١٩٥٢) ، ومسلم (حديث ١١٤٧) .

عباس المتقدم . والكَلامُ على ذلك معروفٌ في كتب الفروع .

وأما وصولُ ثواب الحَجِّ ، ففي «صحيح البخاري» ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: **أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَتْ : إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، حُجِّي عَنْهَا ، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ ، أَكُنْتِ قَاضِيَتَه ؟ اقْضُوا الله ، فَالله أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ »**[(١)]. ونظائره أيضًا كثيرة .

وأَجْمَعَ المسلمون على أن قضاء الدَّيْنِ يُسْقِطُه من ذِمَّةِ الميت ، ولو كان من أجنبيٍ ، ومِنْ غير تركته .

وكُلُّ ذلك جارٍ على قواعد الشرع . وهو مَحْضُ القياسِ ، فإنَّ الثوابَ حقُّ العامِلِ ، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يُمْنَعْ من ذلك ، كما لم يُمْنَعْ من هبة ماله له في حياته ، وإبرائه له منه بعد وفاته .

وقد نبَّه الشَّارعُ بوصولِ ثواب الصوم على وصولِ ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية ، يُوضِّحُهُ : أن الصومَ كَفُّ النفس عن المفطرات بالنية ، وقد نصَّ الشَّارعُ على وصول ثوابِه إلى الميت ، فكيف بالقراءة التي هي عَمَلٌ ونية ؟ !

إجابة المصنف على قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]:

والجوابُ عما استدلوا به مِنْ قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩] قد أَجَابَ العلماءُ بأجوبة : أصحُّها جوابان :

أحدُهما : أن الإنسانَ بسعيه وحُسْنِ عشرته اكتسبَ الأصدقاءَ ، وأولدَ الأولادَ ، ونكحَ الأزواجَ ، وأسدى الخيرَ ، وتودَّد إلى الناس ، فتَرَحَّمُوا عليه ، وَدَعْوا له ، وأَهْدَوْا له ثوابَ الطاعات ، فكان ذلك أَثَرَ سعيه ، بل دُخُولُ المسلم مع جملةِ

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ١٨٥٢) .

المسلمين في عَقْدِ الإسلامِ من أعظم الأسبابِ في وصولِ نفع كلٍّ مِنَ المسلمين إلى صاحبه، في حياته وبَعْدَ مماته، ودَعْوَةُ المسلمين تُحيطُ مِنْ ورائهم.

يُوضِّحه: أن الله تعالى جَعَلَ الإيمانَ سببًا لانتفاعِ صاحبه بدُعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به، فقد سعى في السَّبَبِ الذي يُوصِلُ إليه ذلك.

الثاني: وهو أقوى منه أنَّ القرآنَ لم يَنْفِ انتفاعَ الرَّجُلِ بسعي غيرِهِ، وإنما نفى مِلْكَه لغيرِ سعيه، وبينَ الأمرين من الفرق مَا لا يخفى. فأخبر تعالى أنه لا يَمْلِكُ إلا سعيه، وأما سَعْيُ غيره فهو مُلْكٌ لساعيه، فإن شاء أن يَبْذُلَه لغيره، وإن شاء أن يُبْقِيَهُ لنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٨، ٣٩] آيتان محكمتان، مقتضيتان عدل الرب تعالى:

فالأولى: تقتضي أنه لا يُعاقِبُ أحدًا بجُرْمِ غيرِه، ولا يُؤاخِذُه بجريرة غيرِه، كما يَفْعَلُهُ ملوكُ الدنيا.

والثانية: تقتضي أنه لا يُفْلِحُ إلا بعمله، لِيَقْطَعَ طَمَعه مِنْ نجاته بعمل آبائه وسَلَفِه ومشايخه، كما عليه أَصْحَابُ الطَّمَعِ الكاذب، وهو سبحانه لم يقل: لا ينتفع إلا بما سعى.

وكذلك قَوْلُهُ تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾[البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[يس:٥٤]. على أنَّ سِيَاقَ هذه الآية يدل على أن المنفي عُقُوبَةُ العبدِ بعمل غيره، فإنَّهُ تعالى قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[يس:٥٤].

وأما استدلالُهُم بقوله ﷺ: « **إِذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ** »[1] فاستدلالٌ

---

(١) صحيح: وقد تقدم قريبًا.

ساقط ، فإنه لم يقل انقطع انتفاعُه ، وإنما أخبر نانقطاعِ عمله ، وأما عَمَلُ غيره ، فهو لعامله ، فإن وهبه له وَصَلَ إليه ثوابُ عمل العامل ، لا ثوابُ عمله هو ، وهذا كالدِّين يُوفيه الإنْسَانُ عن غيره ، فتبرأ ذِمَّتُه ، لكن ليس له ما وفَّى به الدَّين .

وأما تفريقُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ العباداتِ المالية والبدنية ، فقد شَرَعَ النبيُّ ﷺ الصومَ عن الميت ، كما تقدم ، مع أن الصَّوْمَ لا تجزي فيه النِّيَابَةُ ، وكذلك حديثُ جابر رضي الله عنه ، قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عِيدَ الأَضْحَى ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ، أُتِيَ بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ ، فَقَالَ : « **بِسْمِ الله وَالله أَكْبَرُ ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي** »[(١)]، رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وحديث الكبشين اللَّذَيْنِ قال في أحدهما : « **اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعاً** »[(٢)]، وفي الآخر : « **اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ** »[(٣)]، رواه أحمد ، والقُرَبة في الأضحية إراقةُ الدم ، وقد جعلها لغيره .

وكذلك عبادةُ الحج بدنية ، ولَيْسَ المَالُ ركنًا فيه ، وإنما هو وَسِيلَةٌ ، ألا ترى أن المكِّيَّ يجبُ عليه الحَجُّ إذا قَدَرَ على المشي إلى عرفات ، من غير شرط المال ، وهذا هو الأظهرُ ، أعني أن الحجَّ غَيْرُ مركب مِن مال وبَدَنٍ ، بل بدني محضٌ ، كما قد نَصَّ عليه جماعةُ من أصحاب أبي حنيفة المتأخرين .

وانظر إلى فروضِ الكفايات : كيف قام فيها البعضُ عن الباقين ؟

---

(١) صحيح لشواهده : أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٥٦ ، ٣٦٢) ، وأبو داود (٢٨١٠) ، والترمذي (١٥٢١) وغيرهم . وللحديث شواهد .

أخرج مسلم في صحيحه (مع النووي ٣/ ١٢١) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ .. فذكرت الحديث وفيه : ثُمَّ ذَبَحَهُ وَقَالَ : « **بِسْمِ الله اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَآلِ مُحَمَّدٍ وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ** » . وعدة شواهد أخر انظرها في شرح معاني الآثار للطحاوي (٤/ ١٧٧ ، ١٧٨) .

(٢) صحيح لشواهده : أخرجه الطحاوي (شرح معاني الآثار ٤/ ١٧٧) وغيره ، وانظر ـ للشواهد ـ ما تقدم .

(٣) صحيح : وانظر المصادر المتقدمة .

ولأن هذا إهداءُ ثواب ، وليس مِن باب النيابة ، كما أن الأجيرَ الخاصَّ ليس له أن يستنيبَ عنه ، وله أن يُعْطِيَ أجرتَه لمن شاء .

وأما استئجارُ قَوْم يقرءون القرآن ، ويُهْدُونَه للميت ! ! فهذا لم يَفْعَلْهُ أحد من السلف ، ولا أمر به أَحَدٌ من أئمة الدين ، ولا رَخَّصَ فيه ، والاستئجارُ على نفس التلاوة غَيْرُ جائز بلا خلاف . وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه ، مما فيه منفعة تَصِلُ إلى الغير ، والثوابُ لا يَصِلُ إلى الميت إلا إذا كان العَمَلُ لله ، وهذا لم يقع عبادةً خالصة ، فلا يكونُ ثوابُه ما يُهدى إلى الموتى ولهذا لم يَقُلْ أحد أنه يكتري مَنْ يَصُومُ ويُصَلِّي ويُهدي ثوابَ ذلك إلى الميت ، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويُعَلِّمُهُ ويتعلمه معونةً لأهلِ القرآن على ذلك ، كان هذا من جنس الصدقة عنه ، فيجوز .

وفي « الاختيار » : لو أوصى بأن يُعْطَى شيءٌ من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره ، فالوصيةُ باطلة ، لأنه في معنى الأجرة ، انتهى .

قوله : « والله تَعَالَى يَسْتَجِيبُ الدَّعَوات ، ويَقضِي الحَاجَاتِ » .

ش : قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] . ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] . والذي عليه أكثرُ الخَلَق من المسلمين وسائرِ أهل المِلَل وغيرهم : أن الدعاءَ من أقوى الأسباب في جلب المنافعِ ، ودفعِ المضار ، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مَسَّهم الضُّرَّ في البحر دَعَوا الله مخلصين له الدينَ ، وأن الإنسانَ إذا مَسَّهُ الضُّرُّ ، دعاه لجنبه أو قاعدًا ، أو قائمًا . وإجابةُ الله لِدُعَاءِ العبد ، مسلمًا كان أو كافرًا ، وإعطاؤه سُؤْلَه ، مِن جنس رِزْقِه لهم ، ونصرِه لهم . وهو مما تُوجِبُهُ الربوبيةُ للعبد مطلقًا . ثم قد يكون ذلك فتنةً في حقِّهِ ومضرةً عليه ، إذْ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك .

وهنا سؤال معروف ، وهو : أن مِنَ الناس مَنْ قد يسأل الله فلا يعطَى ، أو يُعْطَى غيرَ ما سأل ؟ وقد أجيب عنه بأجوبة (١) ، فيها ثلاثةُ أجوبة محققة :

أحدُها : أنَّ الآيةَ لم تَتَضَمَّنْ عَطِيَّةَ السؤالِ مطلقًا ، وإنَّما تضمنت إجابَةَ الدّاعي ، والدَّاعي أَعَمُّ من السائل ، وإجابة الداعي أعمُّ من إعطاء السائل ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ » (٢) .

فَفَرق بَيْنَ الدَّاعي والسائل ، وبَيْنَ الإجابَة والإعطاء ، وهو فرقٌ بالعموم والخُصوص ، كما أَتْبع ذلك بالمستغفر ، وهو نَوْعٌ من السائلِ ، فذكر العامَّ ، ثمَّ الخاصَّ ، ثم الأخصَّ . وإذا عَلِمَ العبادُ أنه قريبٌ ، يُجيبُ دَعْوَةَ الداعي ، وعلموا قُرْبَه منهم ، وتَمَكُّنَهُمْ مِنْ سؤاله، علموا عِلْمَهُ ورحمتَه وقُدْرَتَهُ ، فَدَعَوْهُ دُعَاءَ العبادة في حال ، ودُعَاءَ المسألة في حال ، وجمعوا بَيْنَهُما في حال ، إذ الدُّعَاءُ اسمٌ يجمع العبادةَ والاستعانةَ ، وقد فَسَّر قَوْلَهُ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] بالدُّعَاء ، الذي هو العبادةُ ، والدعاء الذي هو الطلبُ ، وقوله بعد ذلك : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ [غافر : ٦٠] يؤيدُ المعنى الأول .

الجواب الثاني : أنَّ إجابةَ دعاء السؤال أَعَمُّ من إعطاء عين المسئول ، كما فسره النبيُّ ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاَثِ خصال : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، أو يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مِثْلَهَا ، أَو يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا »

---

(١) وصلت الأجوبة إلى أكثر من عشرة وكلها مدلل عليها بأدلة ، وقد بسطتها في كتابي (فقه الدعاء) .

(٢) صحيح . وقد تقدم .

قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، إذاً نُكْثِرُ ، قَالَ : «اللهُ أَكْثَرُ» (١) .

فقد أخبر الصَّادقُ المصدوقُ أنه لا بُدَّ في الدَّعوةِ الخالية عن العُدْوانِ من إعطاء السؤْل مُعَجَّلاً ، أو مثله من الخير مُؤَجَّلاً ، أو يُصْرَفُ عنه مِن السّوء مثله .

الجواب الثالث : أنَّ الدعَاء سببٌ مقتضٍ لنيلِ المطلوب ، والسببُ له شروط وموانع ، فإذا حصلت شروطُه وانتفت موانُعه حَصَلَ المطلوبُ ، وإلا فلا يَحْصُلُ ذلك المطلوب ، بل قد يَحْصُلُ غَيْرُهُ . وهكذا سَائِرُ الكلمات الطيبات ، من الأذكار المأثورة المعلَّق عليها جَلْبُ منافعَ أو دَفْعُ مَضَارَّ ، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يدِ الفاعل ، تَخْتَلِفُ باختلاف قوَّتِهِ وما يُعينها ، وقد يُعارِضُها مانعٌ من الموانع . ونُصُوصُ الوعدِ والوعيدِ المتعارضة في الظاهر: من هذا الباب . وكثيرًا ما تَجِدُ أدعيةً دعا بها قَوْمٌ فَاستُجِيبَ لهم ، ويَكُونُ قد اقترن بالدُّعاء ضرورةُ صاحبه وإقبالُه على الله ، أو حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ منه ، جعل الله سبحانه إجابةَ دعوته شكرًا لحسنته ، أو صَادَفَ وقت إجابة ، ونحو ذلك فأُجِيبَتْ دَعْوَتُه ، فيظن أن السِّر في ذلك الدُّعاء ، فيأخذه مجردًا عن تلك الأمورِ التي قارنته من ذلك الداعي .

وهذا كما إذا استعمل رَجُلٌ دواءً نافعًا في الوقت الذي ينبغي ، فانتفع به ، فظنَّ آخرُ أن استعمالَ هذا الدواءِ بمُجَرَّدِهِ كافٍ في حُصولِ المطلوب ، وكان غالطًا .

وكذا قد يدعو باضطرارٍ عند قبر، فَيُجَابُ ، فيظنُّ أنَّ السِّرَّ للقبر، ولم يَدْرِ أن

---

(١) حسن : أخرجه أحمد في « المسند » (٣/ ١٨) من حديث أَبِى سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « ما مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ... » الحديث .
أما الذي أخرجه مسلم فهو بلفظ آخر ، فعند مسلم (٢٠٩٦) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، مَا الاِسْتِعْجَالُ ؟ قَالَ : « يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ ، وَقَدْ دَعَوْتُ ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ ».

السِّرَّ للاضطرار وصِدْقِ اللَّجأ إلى الله تعالى ، فإذا حَصَلَ ذلك في بيتٍ من بيوت الله تعالى كان أَفْضَلَ وأحبَّ إلى الله تعالى .

فالأدعيةُ والتعوُّذات والرُّقى بمنزلة السِّلاحِ ، والسِّلاحُ بِضَارِبِهِ ، لا بِحَدِّه فقط ، فمتى كان السِّلاحُ سلاحًا تامًا ، والسَّاعدُ ساعدًا قويًا ، والمَحَلُّ قابلاً ، والمانعُ مفقودًا : حصلت به النِّكَايَةُ في العدو ، ومتى تَخَلَّف وَاحِدٌ من هذه الثلاثة تَخَلَّف التأثيرُ .

فإذا كان الدُّعَاءُ في نفسه غَيْرَ صالح ، أو الدَّاعي لم يجمع بَيْنَ قلبهِ ولِسانِه في الدُّعاء ، أو كان ثَمَّ مانعٌ مِن الإجابة : لم يَحْصُلِ الأثر .

*****

قوله : « وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيء ، وَلاَ يَمْلِكُهُ شَيْءٍ . وَلا غنى عَنِ الله تَعَالى طَرْفَةَ عَينٍ ، وَمَن اسْتَغْنَى عَنِ الله طَرْفَةَ عَينٍ ، فَقَدْ كَفَرَ ، وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الحَيْنِ » .

ش : كلامٌ حق ظاهرٌ لا خفاءَ فيه . والحَيْنُ ، بالفتح : الهلاك .

*****

قوله : « والله يَغْضَبُ ويَرْضَى ، لا كَأَحدٍ من الوَرَى » .

ش : قال تعالى : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة:١١٩، المجادلة:٢٢، البينة:٨] . ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨] ، وقال تعالى : ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٦٠] ، ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ [النساء:٩٣] ، ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٦١] . ونظائر ذلك كثيرة .

ومذهبُ السَّلَفِ وسائر الأئِمَّة إثباتُ صِفَةِ الغَضَبِ ، والرِّضَى ، والعَدَاوةَ ، والوَلاَيَةِ ، والحُبِّ ، والبُغْضِ ، ونحوِ ذلك من الصِّفَاتَ ، التي وَرَدَ بها الكِتَابُ

والسُّنة ، وَمَنْعُ التأويل الذي يَصْرِفُها عن حقائِقها اللائقةِ بالله تعالى . كما يقولون مثلَ ذلك في السَّمْعِ والبَصَرِ والكلام وسائرِ الصِّفَاتِ ، كما أشار إليه الشَّيْخُ فيما تقدم بقوله : « إذ كان تأويلُ الرؤية وتأويلُ كُلِّ معنى يُضَافُ إلى الربوبية ، تَرْكَ التأويل ، ولُزُومَ التسليمِ ، وعليه دينُ المرسلين » .

وانظر إلى جَوابِ الإمامِ مالك رضي الله عنه في صِفَةِ الاستواء كَيْفَ ؟ قَالَ : الاستواءُ معلومٌ ، والكَيْفُ مجهولٌ . ورُوِيَ أيضًا عن أمِّ سلمة رضي الله عنها موقوفًا عليها ، ومرفوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ (١) .

وكذلك قال الشَّيخُ رحمه الله فيما تقدم : « من لم يَتَوَقَّ النَّفِيَ والتشبيهَ ، زَلَّ ولم يُصب التَّنزيهَ » . ويأتي في كلامه : « أن الإسلام بين الغُلُوِّ والتقصير ، وبين التَّشبيه والتَّعطيل » .

فقول الشَّيخِ رحمه الله: « لا كَأَحد من الوَرَى » نفي التَّشبيه ، ولا يقال : إن الرضى إرادةُ الإحسانِ ، والغضبَ إرادةُ الانتقامِ فإنَّ هذا نفيٌ للصفة . وقد اتفق أهلُ السُّنَّة على أن الله يَأْمُرُ بما يُحِبُّهُ ويرضاه ، وإن كان لا يُريدُهُ ولا يشاؤه ، وينهى عما يَسْخَطُه ويكرهه ، ويُبْغِضُهُ ويَغْضَبُ على فاعله ، وإن كان قد شاءه وأراده . فقد يُحْبُّ عندهم ويرضى ما لا يُريدُه ، ويكره وَيَسْخَطُ ويَغْضَبُ لما أراده .

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : « **إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ ؟ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ**

---

(١) لا يصح مرفوعًا : وقد تقدم الكلام عليه .

أَبَدًا »[(١)].

فيستدل به على أنه يُحِلُّ رِضْوَانَه في وقتٍ دُونَ وقتٍ ، وأنه قد يُحِلُّ رضوانَه ثمَّ يَسْخَطُ ، كما يُحِلُّ السخط ثمَّ يرضى ، لكن هؤلاء أحلَّ عليهم رضوانًا لا يتعقَّبُه سخطٌ .

وَالشَّيخ رحمه الله لم يَجْمَعِ الكلامَ فِي الصِّفات فِي المختصر في مكانٍ واحد ، وكذلك الكَلامُ في القدر ونحو ذلك ، ولم يعتن فيه بترتيب .

وأحسن ما يُرَتَّبُ عليه كتابُ أصول الدِّين تَرْتِيبُ جواب النَّبِيِّ ﷺ لجبريل عليه السلام ، حين سأله عن الإيمان ، فقال : « أَنْ تُؤْمِنُ بالله وَمَلائِكَتِه وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ والقَدَرِ »[(٢)] ، الحديث ، فيبدأُ بالكلام على التوحيد وَالصِّفات وما يتعلَّقَ بذلك ، ثم بالكلام على الملائكةِ ، ثم ، وثم ، إلى آخره .

وقوله : « وَنُحِبُّ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ ، وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا نَتبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ. ونُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُم ، وَبِغَير الخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ . ولاَ نَذْكُرُهُمْ إلا بخَيْرٍ . وحُبُّهُمْ دِينٌ وإيمانٌ وَإِحْسَانٌ ، وَبُغْضُهُم كُفْرٌ ونِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ »

ش :يُشير الشَّيخُ رحمه الله إلى الرَّدِّ على الرَّوافضِ والنَّواصبِ . وقد أثنى اللهُ على الصحابةِ هو وَرَسُولُهُ ، ورَّضِيَ عَنْهُمْ ، ووعدهم الحُسنى .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٦٥٤٩)، و (حديث ٧٥١٨) ، ومسلم (حديث ٢٨٢٩) وغيرهما .

(٢) صحيح :وقد تقدم .

وَقَالَ تعَالَى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح:٢٩] إلى آخر السورة .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال:٧٢] إلى آخر السورة .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد:١٠] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:٨ـ١٠] .

وهذه الآياتُ تتضمَّنُ الثَّناءَ على المهاجرين والأنصار ، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم ، يَسْتَغْفِرُونَ لهم ، ويسألون الله أنْ لا يَجْعَلَ فِي قلوبهم غلاً لهم ، وتتضمَّنُ أنَّ هؤلاء هُمُ المستحِقُّونَ للفيءِ . فمن كان في قلبه غِلٌّ للذين آمنوا ولم يَسْتَغْفِر

لهم ، لا يستحق في الفيءِ نصيبًا ، بنصِّ القرآن .

وفي «**الصحيحين**» عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قَالَ : كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لاَ تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي ، فَلَوْ إِنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ** »(١) . انفرد مسلمٌ بذكر سبِّ خالد لعبد الرحمن ، دون البخاري .

فَالنَّبِيُّ ﷺيقول لخالد ونحوه : « **لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي** » ، يعني عَبْدِ الرَّحْمَنِ وأمثالَه ، لأنَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ونحوه هُمُ السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا مِن قبل الفتح وقاتلوا ، وهُمْ أَهْلُ بيعةِ الرِّضوان ، فهم أَفْضَلُ وأَخَصُّ بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان ، وهم الذين أسلموا بعد الحُدَيْبِيَةِ ، وبَعْدَ مصالحة النَّبِيِّ ﷺأهل مكة ، ومنهم خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وهؤلاء أسبقُ مِمَّن تَأَخَّر إسلامُهم إلى فتح مكة ، وسُمُّوا الطُّلَقَاء ، منهم أبو سفيان وابناه يزيدُ ومعاوية .

والمقصودُ : أنه نهى مَنْ له صحبةٌ أخرًا أن يَسُبَّ من له صحبةٌ أولاً ، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يُمْكِنُ أن يَشْرَكُوهم فيه ، حتى لو أنفق أَحَدُهُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَهُ .

فإذا كان هذا حالَ الذين أسلموا بعد الحُدَيبِيَةِ ، وإن كان قبل فتح مكة فكيفَ حَالُ مَنْ ليس مِنَ الصحابة بحالٍ مع الصحابة ؟! رضي الله عنهم أجمعين .

والسابقون الأوَّلون ، من المهاجرين والأنصار ، هم الذين أنفقوا مِنْ قَبْلِ الفتحِ وقاتَلُوا ، وأَهْلُ بيعة الرضوان كُلُّهُم منهم ، وكانوا أَكْثَرَ من ألفٍ وأربع مئة .

وقيل : إنَّ السابقين الأوَّلين من صَلَّى إلى القبلتين ، وهذا ضعيفٌ ، فإنَّ الصَّلاة

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٧٣) ، ومسلم (ص ١٩٦٧ ، ١٩٦٨) وغيرهما ، وذكر خالدٍ مع عبد الرحمن بن عوف إنما هو عند مسلم .

إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلةً ، لأنَّ النسخ ليس مِنْ فعلهم ، ولم يَدُلَّ على التفضيل به دليلٌ شرعي ، كما دَلَّ على التفضيل بالسَّبْقِ إلى الإنفاق والجهادِ والمبايعة التي كانت تَحْتَ الشجرة .

وفي «صحيح مسلم» عن جابر ، قال : قيل لعائشة ﷺ : إنَّ ناسًا يَتَنَاوَلُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حتَّى أبا بَكْرٍ وعُمَرَ ! فَقَالَتْ : وما تَعْجَبُون مِنْ هذا ! انقطَعَ عَنْهُم العَمَلُ ، فأَحَبَّ الله أن لا يَقْطَعَ عَنْهُم الأَجْرَ[(١)] .

وفي «الصحيحين» من حديث عمْرَانَ بن حصين وغيره ، أن رسول الله ﷺ قال : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » قَالَ عِمْرَانُ : فَلا أَدْرِي : أَذكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنين أَوْ ثَلاثَةً »[(٢)] ، الحديث .

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر ﷺ ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **لا يَدْخُلُ النَّارُ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** »[(٣)] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة :١١٧] .

ولقد صَدَقَ عبدُ الله بنُ مسعود ﷺ في وصفهم ، حيث قال : « إنَّ الله تَعَالَى

---

(١) هذا من أوهام المصنف ، فالحديث لا يوجد في صحيح مسلم ، ولم أقف عليه عند غير مسلم أيضًا .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٥٠) وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (٢٥٣٥)، ولفظ البخاري في المصدر المشار إلية : « خير أمتي قرني ... » .

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (حديث ٢٤٩٦) من حديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ : « **لا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا** » .

نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ ، فَوَجَدَ قَلْبَ محمدٍ خَيْرَ قلوبِ العِبَادِ ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ محمدٍ ﷺ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ ، وَمَا رَأَوْهُ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ (١) .

فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ لِخِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ ؟ بَلْ قَدْ فَضَلَتْهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِخَصْلَةٍ ، قِيلَ لِلْيَهُودِ : مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ ؟ قَالُوا : أَصْحَابُ مُوسَى ، وَقِيلَ لِلنَّصَارَى : مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ ؟ قَالُوا : أَصْحَابُ عِيسَى ، وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ : مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ ؟ قَالُوا : أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ !! لَمْ يَسْتَثْنُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلَ ، وَفِيمَنْ سَبُّوهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِمَّنِ اسْتَثْنَوْهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ .

وَقَوْلُهُ : « وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ » أَيْ : لَا نَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، كَمَا تَفْعَلُ الشِّيعَةُ ، فَنَكُونُ مِنَ الْمُعْتَدِينَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾[النساء:١٧١].

وَقَوْلُهُ : « وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَتِ الرَّافِضَةُ » ! فَعِنْدَهُمْ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِبَرَاءٍ ، أَيْ : لَا يَتَوَلَّى أَهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما ! وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُوَالُونَهُمْ كُلَّهُمْ ، وَيُنْزِلُونَهُمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَهَا ، بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، لَا بِالْهَوَى وَالتَّعَصُّبِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْبَغْيِ الَّذِي هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [الجاثية:١٧] .

وَقَوْلُهُ : « وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ » لِأَنَّهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللهِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ

(١) حسن موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه :أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) من طريق عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود .

النُّصُوصِ .

وَتَسْمِيَةُ حُبِّ الصَّحَابَةِ إِيمَانًا مُشْكِلٌ عَلَى الشَّيْخِ رحمه الله ، لِأَنَّ الْحُبَّ عَمَلُ الْقَلْبِ ، وَلَيْسَ هُوَ التَّصْدِيقَ ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كَلَامِهِ : « أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ » ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْعَمَلَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَذْهَبِ أبي حنيفة ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ مَجَازًا .

وَقَوْلُهُ : « وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ » : تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ ، وَهَذَا الْكُفْرُ نَظِيرُ الْكُفْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ .

*****

قَوْلُهُ : « وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه ، تَفْضِيلًا لَهُ وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ » .

ش : اخْتَلَفَ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه : هَلْ كَانَتْ بِالنَّصِّ ، أَوْ بِالِاخْتِيَارِ ؟ فَذَهَبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّهَا ثَبَتَتْ بِالنَّصِّ الْخَفِيِّ وَالْإِشَارَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالنَّصِّ الْجَلِيِّ . وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ إِلَى أَنَّهَا ثَبَتَتْ بِالِاخْتِيَارِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى إِثْبَاتِهَا بِالنَّصِّ أَخْبَارٌ :

مِنْ ذَلِكَ مَا أَسْنَدَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه ، قَالَ : أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ ، قَالَتْ : أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ ؟ كَأَنَّهَا تُرِيدُ الْمَوْتَ ، قَالَ : « إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ » . وَذَكَرَ لَهُ سِيَاقًا آخَرَ ، وَأَحَادِيثَ أُخَرَ . وَذَلِكَ نَصٌّ عَلَى

إِمَامَتِهِ (١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها وَعَنْ أَبِيهَا، قَالَتْ: « دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بُدِئَ فِيهِ، فَقَالَ: « **ادْعِي لِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا** »، ثُمَّ قَالَ: « **يَأْبَى اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ** » (٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: « ادْعِي لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، لِأَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا لَا يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمُؤْمِنُونَ فِي أَبِي بَكْرٍ » (٣).

وَأَحَادِيثُ تَقْدِيمِهِ فِي الصَّلَاةِ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَهُوَ يَقُولُ: « **مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ** » (٤).

وَقَدْ رُوجِعَ فِي ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَصَلَّى بِهِمْ مُدَّةَ مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « **بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ، عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ مِنْهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦) وغيرهما.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري بنحوه (حديث ٥٦٦٦) وانظره في كتابي «الصحيح المسند من فضائل الصحابة» (ص٥٥)، وأخرجه مسلم (حديث ٢٣٨٧) ولفظه عند مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ فِي مَرَضِهِ: « **ادْعِ لِي أَبَا بَكْرٍ، وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ** ».

(٣) انظر كل ذلك في كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٦٧٩)، ومسلم (حديث ٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا ونحوه عند البخاري (حديث ٦٧٨)، ومسلم (حديث ٤٢٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا وله طرق متعددة عن النبي ﷺ، انظرها في كتابنا « الصحيح المسند في فضائل الصحابة».

بِعَطَنٍ »(١) .

وَفِي «الصَّحِيحِ» أَنَّهُ ﷺ قَالَ عَلَى مِنْبَرِهِ : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ ، إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ »(٢) .

وَفِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» وَغَيْرِهِ ، مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ عَنِ الْحَسَنِ ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا ؟ » فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَوُزِنْتَ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ ، فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ وُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ ، فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ ، فَرَجَحَ عُمَرُ ، ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ ، فَرَأَيْتُ الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ(٣) .

وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ : لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِالْخَبَرِ الْمَأْثُورِ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه ، أَنَّهُ قَالَ : إِنْ أَسْتَخْلِفْ ، فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ، وَإِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قال عبد الله : فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف(٤) .

وَالظَّاهِرُ واللهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِعَهْدٍ مَكْتُوبٍ ، وَلَوْ كَتَبَ عَهْدًا ،

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦٤، ٧٠٢١) ، ومسلم (حديث ٢٣٩٢) وغيرهما .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٤٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

(٣) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه أبو داود (٤٦٣٤، ٤٦٣٥) ، والترمذي (حديث ٢٢٨٧) وقال هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد (٥/ ٤٤) ، وابن أبي عاصم (١١٣٥) وغيرهم .

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٧٢١٨) ،ومسلم (حديث ١٨٢٣) وغيرهما ،ولفظ مسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: حَضَرْتُ أَبِي حِينَ أُصِيبَ فَأَثْنَوْا عَلَيْهِ وَقَالُوا : جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا ، فَقَالَ : رَاغِبٌ وَرَاهِبٌ قَالُوا : اسْتَخْلِفْ فَقَالَ : أَتَحَمَّلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا ؟ لَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الْكَفَافُ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِي فَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي (يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ) وَإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي رَسُولُ ﷺ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حِينَ ذَكَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ.

لَكَتَبَهُ لِأَبِي بَكْرٍ ، بَلْ قَدْ أَرَادَ كِتَابَتَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ ، وَقَالَ : « يَأْبَى اللهُ وَالْـمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ »(١) .

فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ مِنْ مُجَرَّدِ الْعَهْدِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَلَّ الْـمُسْلِمِينَ عَلَى اسْتِخْلَافِ أَبِي بَكْرٍ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِأُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَأَخْبَرَ بِخِلَافَتِهِ إِخْبَارَ رَاضٍ بِذَلِكَ ، حَامِدٍ لَهُ ، وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ بِذَلِكَ عَهْدًا ، ثُمَّ عَلِمَ أَنَّ الْـمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ، فَتَرَكَ الْكِتَابَ اكْتِفَاءً بِذَلِكَ ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ لِبَعْضِهِمْ شَكٌّ : هَلْ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْ جِهَةِ الْـمَرَضِ ؟ أَوْ هُوَ قَوْلٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ ؟ تَرَكَ الْكِتَابَةَ ، اكْتِفَاءً بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَخْتَارُهُ وَالْـمُؤْمِنُونَ مِنْ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ .

فَلَوْ كَانَ التَّعْيِينُ مِمَّا يَشْتَبِهُ عَلَى الْأُمَّةِ لَبَيَّنَهُ بَيَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ ، لَكِنْ لَمَّا دَلَّهُمْ دَلَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْـمُتَعَيِّنُ ، وَفَهِمُوا ذَلِكَ ، حَصَلَ الْـمَقْصُودُ ، وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي خَطَبَهَا بِمَحْضَرٍ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ : أَنْتَ خَيْرُنَا وَسَيِّدُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ : إِنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ أَحقُّ بالخلافة منه ، ولم يُنازِعْ أحدٌ في خلافته إلا بعضُ الأنصار ، طمعًا في أن يكونَ من الأنصار أَمِيرٌ ، ومِنَ الْـمُهَاجِرِينَ أَمِيرٌ ، وَهَذَا مِمَّا ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الْـمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بُطْلَانُهُ .

ثُمَّ الْأَنْصَارُ كُلُّهُمْ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ ، إِلَّا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، لِكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ يَطْلُبُ الْوِلَايَةَ ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ قَطُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَصَّ عَلَى غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ ، لَا عَلِيٍّ ، وَلَا الْعَبَّاسُ ، وَلَا غَيْرُهُمَا ، كَمَا قَدْ قَالَ أَهْلُ الْبِدَعِ !

وَفِي الْجُمْلَةِ : فَجَمِيعُ مَنْ نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ تَوْلِيَةَ غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ ، لَمْ يَذْكُرْ حُجَّةً

(١) صحيح : وقد تقدم .

دِينِيَّةً شَرْعِيَّةً ، وَلَا ذَكَرَ أَنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُ ، أَوْ أَحَقُّ بِهَا ، وَإِنَّمَا نَشَأَ مِنْ حُبِّ قَبِيلَتِهِ وَقَوْمِهِ فَقَطْ ، وَهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَحُبَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ . فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ ، فَأَتَيْتُهُ ، فَقُلْتُ : أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : « **عَائِشَةُ** » ، قُلْتُ : مِنَ الرِّجَالِ ؟ قَالَ : « **أَبُوهَا** » ، قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « **عُمَرُ** » ، وَعَدَّ رِجَالًا [(١)] .

وَفِيهِمَا أَيْضًا ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَمَّا صَاحِبُكُمْ ، فَقَدْ غَامَرَ** » ، فَسَلَّمَ ، وَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ نَدِمْتُ ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي ، فَأَبَى عَلَيَّ ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ ، فَقَالَ : « **يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ** » ثَلَاثًا ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ ، فَسَأَلَ : أَثَمَّ هُوَ ؟ فَقَالُوا : لَا ، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ ، مَرَّتَيْنِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي ؟** » مَرَّتَيْنِ ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا [(٢)] .

وَمَعْنَى : غَامَرَ : غَاضَبَ وَخَاصَمَ . وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ ذِكْرِ فَضَائِلِهِ .

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا ، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ فَذَكَرَتِ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَتْ : وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ ، فَقَالُوا : مِنَّا أَمِيرٌ ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ! فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ ، فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ ،

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦٢) ، ومسلم (حديث ٢٣٨٤) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦١، ٤٦٤٠) ، وأحمد في فضائل الصحابة (٢٩٧).

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ : وَالله مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي هَيَّأْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي ، خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ ! ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ، فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ : نَحْنُ الْأُمَرَاءُ ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ ، فَقَالَ حُبَابُ ابْنُ الْمُنْذِرِ : لَا وَالله لَا نَفْعَلُ ، مِنَّا أَمِيرٌ ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ ، وَأَعَزُّهُمْ أَحْسَابًا ، فَبَايِعُوا عُمَرَ ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ، فَقَالَ عُمَرُ : بَلْ نُبَايِعُكَ ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا ، وَخَيْرُنَا ، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ ، فَبَايَعَهُ ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : قَتَلْتُمْ سَعْدًا ، فَقَالَ عُمَرُ : قَتَلَهُ الله » (١) .

وَالسُّنْحُ : الْعَالِيَةُ ، وَهِيَ حَدِيقَةٌ بِالْمَدِينَةِ مَعْرُوفَةٌ بِهَا .

*****

قَوْلُهُ : « ثُمَّ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ » .

ش : أَيْ وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ ، لِعُمَرَ ﷺ . وَذَلِكَ بِتَفْوِيضِ أَبِي بَكْرٍ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ ، وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ بَعْدَهُ عَلَيْهِ ، وَفَضَائِلُهُ ﷺ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُنْكَرَ ، وَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ . فَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ لِأَبِي : يَا أَبَتِ ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ ؟ فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، أَوَمَا تَعْرِفُ ؟ فَقُلْتُ : لَا ، قَالَ : أَبُو بَكْرٍ ، قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : عُمَرُ ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ : ثُمَّ عُثْمَانُ ! فَقُلْتُ : ثُمَّ أَنْتَ ؟ فَقَالَ . مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢) .

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ ، قَالَ : وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ ، فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ ، وَيُثْنُونَ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ ، وَأَنَا فِيهِمْ ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ أَخَذَ بِمَنْكِبِي مِنْ وَرَائِي ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ عَلِيٌّ ، فَتَرَحَّمَ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٦٨) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٣٦٧١) .

عَلَى عُمَرَ ، وَقَالَ : مَا خَلَّفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ ، وَايْمُ اللهِ ، إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو ، أَوْ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُمَا** »(١) .

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، فِي رُؤْيَا رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَنَزْعِهِ مِنَ الْقَلِيبِ ، ثُمَّ نَزْعِ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ اسْتَحَالَتِ الدَّلْوُ غَرْبًا ، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ(٢) .

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» ، مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ : قَالَ : اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، يُكَلِّمْنَهُ ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ ، الْحَدِيثَ ... وَفِيهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ** »(٣) .

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « **قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ** »(٤) .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : تَفْسِيرُ « مُحَدَّثُونَ » : مُلْهَمُونَ .

*****

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٨٥) ،وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٣٨٩) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٨٣) وفي غير موطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٢٣٩٦) .

(٤) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ،وأخرجه مسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا .

قَوْلُهُ : « ثُمَّ لِعُثْمَانَ رضي الله عنه » .

ش : أَيْ : وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُمَرَ لِعُثْمَانَ رضي الله عنه، وَقَدْ سَاقَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله قِصَّةَ قَتْلِ عُمَرَ رضي الله عنه، وَأَمْرَ الشُّورَى وَالْمُبَايَعَةِ لِعُثْمَانَ فِي «صَحِيحِهِ» (١) ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْرُدَهَا ، كَمَا رَوَاهَا بِسَنَدِهِ : عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ ، قَالَ : رَأَيْتُ عُمَرَ رضي الله عنه قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِالْمَدِينَةِ بِأَيَّامٍ ، وَوَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ، وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ ، فَقَالَ : كَيْفَ فَعَلْتُمَا ؟ أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ ؟ قَالَا : حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ ، مَا فِيهَا كَثِيرُ فَضْلٍ ، قَالَ : انْظُرَا أَنْ تَكُونَا حَمَّلْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ ؟ قَالَا : لَا ، فَقَالَ عُمَرُ : لَئِنْ سَلَّمَنِي اللهُ ، لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لَا يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا ، قَالَ : فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ .

قَالَ : إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ : اسْتَوُوا ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ ، أَوِ النَّحْلِ ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى ، حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : قَتَلَنِي ، أَوْ أَكَلَنِي الْكَلْبُ ، حِينَ طَعَنَهُ ، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ ، لَا يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا طَعَنَهُ ، حَتَّى طَعَنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا ، فَلَمَّا ظَنَّ العلج أَنَّهُ مَأْخُوذٌ ، نَحَرَ نَفْسَهُ ، وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، فَقَدَّمَهُ ، فَمَنْ يَلِي عُمَرُ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى ، وَأَمَّا نَوَاحِي الْمَسْجِدِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : سُبْحَانَ اللهِ ، سُبْحَانَ اللهِ ، فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلَاةً خَفِيفَةً ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا ، قَالَ : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي ؟ فَجَالَ سَاعَةً ، ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ : غُلَامُ الْمُغِيرَةِ ، قَالَ : الصَّنَعُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ،

(١) صحيحة : وهي عند البخاري (٣٧٠٠) .

قَالَ : قَاتَلَهُ اللهُ ! لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا ! الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مَنِيَّتِي عَلَى يَدِ رَجُلٍ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ ، قَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَأَبُوكَ تُحِبَّانِ أَنْ تَكْثُرَ الْعُلُوجُ بِالْـمَدِينَةِ ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ أَكْثَرَهُمْ رَقِيقًا ، فَقَالَ : إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ ؟ أَيْ : إِنْ شِئْتَ ، قَتَلْنَا ؟ فَقَالَ : كَذَبْتَ ! بَعْدَ مَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِكُمْ ، وَصَلُّوا قِبْلَتَكُمْ ، وَحَجُّوا حَجَّكُمْ ؟ فَاحْتُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ ، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ ، وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ ، فَقَائِلٌ يَقُولُ : لَا بَأْسَ عَلَيْهِ ، وَقَائِلٌ يَقُولُ : أَخَافُ عَلَيْهِ ، فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَهُ ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ ، ثُمَّ أُتِيَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ ، وَجَاءَ النَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهِ ، وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ ، فَقَالَ : أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ لَكَ ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَقَدَمٍ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ ، ثُمَّ شَهَادَةٌ ، قَالَ : وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ ، لَا عَلَيَّ وَلَا لِي ، فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الْأَرْضَ ، قَالَ : رُدُّوا عَلَيَّ الْغُلَامَ ، قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، ارْفَعْ ثَوْبَكَ ، فَإِنَّهُ أَنْقَى لِثَوْبِكَ ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ ، يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ ، انْظُرْ مَا عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ ؟ فَحَسَبُوهُ ، فَوَجَدُوهُ سِتَّةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَنَحْوَهُ ، قَالَ : إِنْ وَفَى لَهُ مَالُ آلِ عُمَرَ ، فَأَدِّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَإِلَّا فَسَلْ فِي بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ ، فَإِنْ لَمْ تَفِ أَمْوَالُهُمْ ، فَسَلْ فِي قُرَيْشٍ ، وَلَا تَعْدُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، فَأَدِّ عَنِّي هَذَا الْمَالَ ، انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْـمُؤْمِنِينَ ، فَقُلْ : يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلَامَ ، وَلَا تَقُلْ : أَمِيرُ الْـمُؤْمِنِينَ ، فَإِنِّي لَسْتُ الْيَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا ، وَقُلْ : يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ ، فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا ، فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي ، فَقَالَ : يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ السَّلَامَ ، وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ ، فَقَالَتْ : كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي ، وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي ، فَلَمَّا أَقْبَلَ ، قِيلَ : هَذَا عَبْدُ اللهِ قَدْ جَاءَ ، قَالَ : ارْفَعُونِي ، فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ ، قَالَ : مَا لَدَيْكَ ؟ قَالَ : الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ ،

قَالَ : الْحَمْدُ لله ، مَا كَانَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي ، ثُمَّ سَلِّمْ ، فَقُلْ : يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي ، وَإِنْ رَدَّتْنِي ، فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْـمُسْلِمِينَ ، وَجَاءَتْ أُمُّ الْـمُؤْمِنِينَ حَفْصَةُ وَالنِّسَاءُ تَسْرُبُ معها ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهَا قُمْنَا ، فَوَلَجَتْ عَلَيْهِ ، فَبَكَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً ، وَاسْتَأْذَنَ الرِّجَالُ ، فَوَلَجَتْ دَاخِلًا لَهُمْ ، فَسَمِعْنَا بُكَاءَهَا مِنَ الدَّاخِلِ ، فَقَالُوا : أَوْصِ يَا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ ، اسْتَخْلِفْ ؟ قَالَ : مَا أَجِدُ أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ أَوِ الرَّهْطِ ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ ، فَسَمَّى عَلِيًّا ، وَعُثْمَانَ ، وَالزُّبَيْرَ ، وَطَلْحَةَ ، وَسَعْدًا ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ ، وَقَالَ : يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ ، فَإِنْ أَصَابَتِ الْإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ مِنْ عَجْزٍ وَلَا خِيَانَةٍ .

وَقَالَ : أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْـمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ ، وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ ، وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا ، الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، ويتجاوز عَنْ مُسِيئِهِمْ ، وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ رِدْءُ الْإِسْلَامِ ، وَجُبَاةُ الْأَمْوَالِ ، وَغَيْظُ الْعَدُوِّ ، أَنْ لَا يُؤْخَذَ مِنْهُمْ إِلَّا فَضْلُهُمْ عَنْ رِضَاهُمْ ، وَأُوصِيهِ بِالْأَعْرَابِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ ، أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ ، وَتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ الله وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ، أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَلَا يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ .

فَلَمَّا قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي ، فَسَلَّمَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ، قَالَ : يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ ؟ قَالَتْ : أَدْخِلُوهُ ، فَأُدْخِلَ ، فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبَيْهِ ، فَلَمَّا فُرِغَ مِنْ دَفْنِهِ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ إِلَى ،

ثَلاثَةٍ مِنكُمْ ، قَالَ الزُّبَيْرُ : قَدْ جعلْتُ أَمْرِي إِلَى عَلِيٍّ ، وَقَالَ طَلْحَةُ : قَدْ جَعلْتُ أَمْرِي إِلَى عُثْمانَ ، وَقَالَ سَعْدٌ : قَدْ جَعلْتُ أَمْرِي إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَيُّكُما تَبَرَّأَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فَنجْعَلَهُ إِلَيْهِ ؟ وَاللهُ عَلَيْهِ وَالْإِسْلَامُ لَيَنْظُرَنَّ أَفْضَلَهُمْ فِي نَفْسِهِ ، فَأُسْكِتَ الشَّيْخَانُ ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَفَتَجْعَلُونَهُ إِلَيَّ ؟ وَاللهُ عَلَيَّ أَنْ لَا آلُوَ عَنْ أَفْضَلِكُمْ ؟ قَالَا : نَعَمْ ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَحَدِهِمَا ، فَقَالَ : لَكَ قَرَابَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْقَدَمُ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ ، فَبِاللهِ عَلَيْكَ ، لَئِنْ أَمَّرْتُكَ لَتَعْدِلَنَّ ؟ وَلَئِنْ أَمَّرْتُ عُثْمانَ لَتَسْمَعَنَّ وَلَتُطِيعَنَّ ؟ ثُمَّ خَلَا بِالْآخَرِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا أَخَذَ الْمِيثَاقَ ، قَالَ : ارْفَعْ يَدَكَ يَا عُثْمانُ ، فَبَايَعَهُ ، وَبَايَعَ لَهُ عَلِيٌّ ، وَوَلَجَ أَهْلُ الدَّارِ فَبَايَعُوهُ [(١)] .

وَعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ : أَنَّ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ عُمَرُ اجْتَمَعُوا وَتَشَاوَرُوا ، قَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : لَسْتُ الَّذِي أُنَافِسُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمُ اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنْكُمْ ؟ فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَمْرَهُمْ ، مَالَ النَّاسُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتْبَعُ أُولَئِكَ الرَّهْطَ وَلَا يَطَأُ عَقِبَهُ ، وَمَالَ النَّاسُ إِلى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِيَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا فِيهَا ، فَبَايَعْنَا عُثْمانَ ، قَالَ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ : طَرَقَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَ هَجْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، فَضَرَبَ الْبَابَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ ، فَقَالَ : أَرَاكَ نَائِمًا ؟! فَوَاللهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ الثَّلَاثَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ ، انْطَلِقْ ، فَادْعُ لِي الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا ، فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ ، فَشَاوَرَهُمَا ثُمَّ دَعَانِي ، فَقَالَ : ادْعُ لِي عَلِيًّا ، فَدَعَوْتُهُ ، فَنَاجَاهُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ ، ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي عُثْمانَ ، فَدَعَوْتُهُ ، فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٣٧٠٠) .

بَيْنَهُمَا الْـمُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ ، فَلَمَّا صَلَّى النَّاسُ الصُّبْحَ ، وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ، أَرْسَلَ إِلَى مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ ، وَكَانُوا وَافَقُوْا تِلْكَ الْحَجَّةَ مَعَ عُمَرَ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، يَا عَلِيُّ ، إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ ، فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ ، فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا ، فَقَالَ لِعثمان : أُبَايِعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللهِ وَسنة رَسُولِهِ ، وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ وَالْـمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَأُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ وَالْـمُسْلِمُونَ(١) .

وَمِنْ فَضَائِلِ عُثْمَانَ رضي الله عنه الْخَاصَّةِ : كَوْنُهُ خَتَنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ابْنَتَيْهِ .

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِهِ ، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ تلك الحال ، فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ ، فَلَمَّا خَرَجَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهَشَّ لَهُ ، وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهَشَّ ، وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ ، فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ ؟ فَقَالَ : « **أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْـمَلَائِكَةُ** »(٢) .

وَفِي «الصَّحِيحِ» : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ رضي الله عنه كَانَ قَدْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى : « **هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ** » فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ ، فَقَالَ : « **هَذِهِ لِعُثْمَانَ** »(٣) .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٧٢٠٧) .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه (حديث ٢٤٠١) .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٩٨) في ثنايا حديث طويل شيئًا ما .

قَوْلُهُ : « ثُمَّ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ » .

ش :أَيْ : وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُثْمَانَ لِعَلِيٍّ ﷺ. لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ وَبَايَعَ النَّاسُ عَلِيًّا ، صَارَ إِمَامًا حَقًّا ، وَاجِبَ الطَّاعَةِ ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ فِي زَمَانِهِ خِلَافَةَ نُبُوَّةٍ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ سَفِينَةَ الْمُقَدَّمُ ذِكْرُهُ ، أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ** » (١) .

وَكَانَتْ خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ سَنَتَيْنِ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَخِلَافَةُ عُمَرَ عَشْرَ سِنِينَ وَنِصْفًا ، وَخِلَافَةُ عُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَخِلَافَةُ عَلِيٍّ أَرْبَعَ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، وَخِلَافَةُ الْحَسَنِ ابْنه سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

وَأَوَّلُ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ مُعَاوِيَةُ ﷺ وَهُوَ خَيْرُ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ ، لَكِنَّهُ إِنَّمَا صَارَ إِمَامًا حَقًّا لَمَّا فَوَّضَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ﷺ الْخِلَافَةَ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ ﷺ بَايَعَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، ثُمَّ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ فَوَّضَ الْأَمْرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَظَهَرَ صِدْقُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « **إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** » (٢). وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ فِي مَوْضِعِهَا .

فَالْخِلَافَةُ ثَبَتَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بَعْدَ عُثْمَانَ ﷺ بِمُبَايَعَةِ الصَّحَابَةِ ، سِوَى مُعَاوِيَةَ مَعَ أَهْلِ الشَّامِ .

وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ ﷺ ، فَإِنَّ عُثْمَانَ ﷺ لَمَّا قُتِلَ ، كَثُرَ الْكَذِبُ وَالِافْتِرَاءُ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى مَنْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ كَعَلِيٍّ ، وَطَلْحَةَ ، وَالزُّبَيْرِ ، وَعَظُمَتِ الشُّبْهَةُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَالَ ، وَقَوِيَتِ الشَّهْوَةُ فِي نُفُوسِ ذَوِي الْأَهْوَاءِ وَالْأَغْرَاضِ ، مِمَّنْ بَعُدَتْ دَارُهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَمُحِبِّي عُثْمَانَ تَظُنَّ بِالْأَكَابِرِ ظُنُونَ

---

(١) تقدم قريبًا .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٣٧٤٦) .

سُوءٍ ، وَيَبْلُغَهُ عَنْهُمْ أَخْبَارًا ، مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَرَّفٌ ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يُعْرَفْ وَجْهُهُ ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ أَهْوَاءُ قَوْمٍ يُحِبُّونَ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ . وَكَانَ فِي عَسْكَرِ عَلِيٍّ ﷺ مِنْ أُولَئِكَ الطُّغَاةِ الْخَوَارِجِ ، الَّذِينَ قَتَلُوا عُثْمَانَ مَنْ لَمْ يُعْرَفْ بِعَيْنِهِ ، وَمَنْ تَنْتَصِرُ لَهُ قَبِيلَتُهُ ، وَمَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ بِمَا فَعَلَهُ ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ نِفَاقٌ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ إِظْهَارِهِ كُلِّهِ ، وَرَأَى طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَنْتَصِرْ لِلشَّهِيدِ الْمَظْلُومِ ، وَيُقْمَعْ أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِلَّا اسْتَوْجَبُوا غَضَبَ اللهِ وَعِقَابَهُ . فَجَرَتْ فِتْنَةُ الْجَمَلِ عَلَى غَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْ عَلِيٍّ ، وَلَا مِنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ، وَإِنَّمَا أَثَارَهَا الْمُفْسِدُونَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِ السَّابِقِينَ ، ثُمَّ جَرَتْ فِتْنَةُ صِفِّينَ لِرَأْيٍ ، وَهُوَ أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَمْ يُعْدَلْ عَلَيْهِمْ ، أَوْ لَا يُتَمَكَّنْ مِنَ الْعَدْلِ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ كَافُّونَ ، حَتَّى يَجْتَمِعَ الأمرُ الأُمَّةُ ، وَأَنَّهُمْ يَخَافُونَ طُغْيَانَ مَنْ فِي الْعَسْكَرِ ، كَمَا طَغَوْا عَلَى الشَّهِيدِ الْمَظْلُومِ ، وَعَلِيٌّ ﷺ هُوَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ ، اعْتَقَدَ أَنَّ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ الْوَاجِبَتَيْنِ عَلَيْهِمْ تَحْصُلُ بِقِتَالِهِمْ ، بطَلَبُ إِمَامٌ أن لو أصر عليهم بما اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ أَدَاءُ الْوَاجِبِ ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ التَّأْلِيفَ لَهُمْ كَتَأْلِيفِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ مِمَّا يَسُوغُ ، فَحَمَلَهُ مَا رَآهُ مِنْ أَنَّ الدِّينَ إِقَامَةُ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ وَمَنْعُهُمْ مِنَ الْإِثَارَةِ ، دُونَ تَأْلِيفِهِمْ : عَلَى الْقِتَالِ ، وَقَعَدَ عَنِ الْقِتَالِ أَكْثَرُ الْأَكَابِرِ ، لِمَا سَمِعُوهُ مِنَ النُّصُوصِ فِي الْأَمْرِ بِالْقُعُودِ فِي الْفِتْنَةِ ، وَلِمَا رَأَوْهُ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَرْبُو مَفْسَدَتُهَا عَلَى مَصْلَحَتِهَا وَالقَوْلُ فِي الْجَمِيعِ بِالْحُسْنَى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠] .

وَالْفِتَنُ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِهِ قَدْ صَانَ اللهُ عَنْهَا أَيْدِينَا ، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَصُونَ عَنْهَا أَلْسِنَتَنَا ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَمِنْ فَضَائِلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: مَا فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» ، عَنْ سَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَلِيٍّ : « **أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي** » .

وَقَالَ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ : « **لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ** » ، قَالَ : فَتَطَاوَلْنَا لَهَا ، فَقَالَ : « **ادْعُوا لِي عَلِيًّا ، فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ ، فَفَتَحَ الله عَلَيْهِ** » .

وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦١] ، دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا ، فَقَالَ : « **اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي** » (١).

قَوْلُهُ : « **وَهُمُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ، وَالْأَئِمَّةُ الْمَهْدِيُّونَ** » .

ش : تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي «السُّنَنِ» ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ ، عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ، قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ

---

(١) كل ذلك في حديث واحد عند مسلم (ص ١٨٧١ في طرق حديث ٢٤٠٤) من طريق عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَمَرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ سَعْدًا فَقَالَ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسُبَّ أَبَا التُّرَابِ ؟ فَقَالَ :أَمَّا مَا ذَكَرْتُ ثَلَاثًا قَالَهُنَّ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَلَنْ أَسُبَّهُ لأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لَهُ : خَلَّفَهُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ الله ، خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نُبُوَّةَ بَعْدِي** ». وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: « **لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ** » قَالَ : فَتَطَاوَلْنَا لَهَا فَقَالَ : « **ادْعُوا لِي عَلِيًّا** » فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ فَفَتَحَ الله عَلَيْهِ ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦١] ، دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ : « **اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي** » .

وبعض أجزاء هذا الحديث في «**الصحيحين**» أيضًا : من طريق صحابة آخرين انظر كل ذلك في كتابنا الصحيح المسند من فضائل الصحابة .

مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ الله ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ فَقَالَ : « أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ »(١) .

وَتَرْتِيبُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ - رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - فِي الْفَضْلِ ، كَتَرْتِيبِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ تَقْدِيمُ عَلِيٍّ عَلَى عُثْمَانَ ، وَلَكِنْ ظَاهِرُ مَذْهَبِهِ تَقْدِيمُ عُثْمَانَ ، وَعَلَى هَذَا عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ لِعَلِيٍّ ﷺ : إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ .

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ : مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ ، فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ الله ﷺ حَيٌّ : أَفْضَلُ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ : أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَرُ ، ثُمَّ عُثْمَانُ »(٢) .

*****

قَوْلُهُ : « وَأَنَّ الْعَشَرَةَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ وَبَشَّرَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، عَلَى مَا شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَهُمْ : أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَطَلْحَةُ ، وَالزُّبَيْرُ ، وَسَعْدٌ ، وَسَعِيدٌ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَأَبُو

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٦٥٥) ، وأحمد في فضائل الصحابة (٥٣) ،وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٩٢) وغيرهم ، والأثر ليس في صحيح مسلم .

عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، ﷺ أَجْمَعِينَ».

ش : تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِ فَضَائِلِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ . وَمِنْ فَضَائِلِ السِّتَّةِ الْبَاقِينَ مِنَ الْعَشَرَةِ ـ ﷺ أَجْمَعِينَ ـ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ : عَنْ عَائِشَةَ ﷺ: أَرِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ: « **لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ** » ، قَالَتْ : وَسَمِعْنَا صَوْتَ السِّلَاحِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **مَنْ هَذَا ؟** » فَقَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ : يَا رَسُولَ اللهِ ، جِئْتُ أَحْرُسُكَ . وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : « وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ نَامَ » (١) .

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَمَعَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَقَالَ : « **ارْمِ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي** » (٢) .

وَفِي «**صَحِيحِ مُسْلِمٍ**» ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ ، قَالَ : « **رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ الَّتِي وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ قَدْ شُلَّتْ** » (٣) .

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ ، قَالَ : « **لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ غَيْرُ طَلْحَةَ وَسَعْدٍ** » (٤) .

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : نَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ ،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٢٨٨٥) ، ومسلم (٢٤١٠) وله عنده ألفاظ متقاربة .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٥٩) ، ومسلم (٢٤١١) ، من حديث علي ﷺ قَالَ : مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لأَحَدٍ إِلاَّ لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ : « **يَا سَعْدُ ، ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي** »، وعند البخاري أيضًا (٤٠٥٦) ، ومسلم (٢٤١٢) من حديث سعد قال : «جَمَعَ لِي النَّبِيُّ ﷺ أَبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ » .

(٣) صحيح: ولكنه عند البخاري (حديث ٣٧٢٤ ، ٤٠٦٣) ، ولم يخرجه مسلم .

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٧٢٢، ٣٧٢٣) ، ومسلم (حديث ٢٤١٤) .

فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ »(١) .

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : « مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ ؟ » فَانْطَلَقْتُ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَوَيْهِ ، فَقَالَ : « فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي »(٢) .

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا ، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ : أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ »(٣) .

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ، قَالَ . جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا أَمِينًا ، فَقَالَ : « لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ » فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ ، قَالَ : فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ(٤) .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه ، قَالَ : أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ : « عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ : النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ » ، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ ، قَالَ : فَقَالُوا : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : « سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ »(٥) ، قَالَ . لَمَشْهَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، يَغْبَرُّ مِنْهُ وَجْهُهُ ، خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ ، وَلَوْ عُمِّرَ عُمُرَ نُوحٍ »(٦) .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٤١١٣) ، ومسلم (حديث ٢٤١٤) وغيرهما.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٧٢٠) ، ومسلم (حديث ٢٤١٦) وغيرهما .

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٧٤٤) ، ومسلم (حديث ٢٤١٩) وغيرهما .

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٨١) ، ومسلم (٢٤٢٠) وغيرهما .

(٥) صحيح لشواهده : أخرجه أبو داود (حديث ٤٦٧٨، ٤٦٥٠) ، والترمذي (حديث ٣٧٤٨) ، وابن ماجه (حديث ١٣٣، ١٣٤) وغيرهم .
وله شواهد انظرها في كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة» .

(٦) قوله : « لمشهد رجل منهم ... » إلى آخره عند أبي داود (حديث ٤٦٥٠) ، وفي سنده رياح ابن الحارث وثقه ابن حبان والعجلي وروى عنه جماعة ،وهو من التابعين كما هو واضح ، فمثل هذا يحسن حديثه ، بل يصح عند فريق من أهل العلم .
وبقية رجال الإسناد ثقات .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى حِرَاءٍ ، هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **اهْدَأْ ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ** »(١) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا وَرُوِيَ مِنْ طُرُقٍ .

وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى تَعْظِيمِ هَؤُلَاءِ الْعَشَرَةِ وَتَقْدِيمِهِمْ ، لِمَا اشْتُهِرَ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ ، وَمَنْ أَجْهَلُ مِمَّنْ يَكْرَهُ التَّكَلُّمَ بِلَفْظِ الْعَشَرَةِ ، أَوْ فِعْلَ شَيْءٍ يَكُونُ عَشَرَةً !! لِكَوْنِهِمْ يُبْغِضُونَ خِيَارَ الصَّحَابَةِ ، وَهُمُ الْعَشَرَةُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، وَهُمْ يَسْتَثْنُونَ مِنْهُمْ عَلِيًّا ﷺ ! فَمِنَ الْعَجَبِ : أَنَّهُمْ يُوَالُونَ لَفْظَ التِّسْعَةِ ! وَهُمْ يُبْغِضُونَ التِّسْعَةَ مِنَ الْعَشَرَةِ ! وَيُبْغِضُونَ سَائِرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ الله ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، وَقَدْ كَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ ، ﷺ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾

[الفتح:١٨]

وَثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» ، عَنْ جَابِرٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهُ قَالَ : « **لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** »(٢) .

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَيْضًا ، عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ غُلَامَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **كَذَبْتَ ،لَا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ** »(٣) .

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٤١٧) ، والترمذي (حديث ٣٦٩٦) وقال : وهذا حديث صحيح .

(٢) صحيح: وقد تقدم .

(٣) صحيح: وقد تقدم .

وَالرَّافِضَةُ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ جُمْهُورِ هَؤُلَاءِ ، بَلْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ سَائِرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إِلَّا مِنْ نَفَرٍ قَلِيلٍ ، نَحْوَ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا !! وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ فِي الْعَالَمِ عَشَرَةٌ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ ، لَمْ يجب هَجْرُ هَذَا الِاسْمُ لِذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا قَالَ : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل:٤٨] ، لَمْ يَجِبْ هَجْرُ اسْمِ التِّسْعَةِ مُطْلَقًا ، بَلِ اسْمُ الْعَشَرَةِ قَدْ مَدَحَ اللهُ مُسَمَّاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة:١٩٦] . ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾[الأعراف:١٤٢] . ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر:١، ٢]

وَكَانَ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ (١) .

وَقَالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ: « الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » (٢) .

وَقَالَ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ أَيَّامِ الْعَشْرِ » (٣) .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٢٠٢٦) ، ومسلم (حديث ١١٧٢) وغيرهما ،وله عدة طرق عن النبي ﷺ .

(٢) صحيح:أخرجه البخاري (حديث ٢٠٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا ، وأخرجه البخاري (حديث ٢٠١٧_٢٠١٩) ، ومسلم (١١٦٧) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا .

وله عدة طرق عن النبي ﷺ .

(٣) صحيح: وهو عند البخاري (في بعض النسخ كما أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح (٢/ ٤٥٩ط. دار المعرفة) والحديث موجود في البخاري (مع الفتح ط. دار المعرفة) بلفظ : « مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ ....»(حديث ٩٦٩) .

قال الحافظ : والسياق الذي وقع في رواية كريمة شاذ مخالف لما رواه أبو ذر ،وهو من الحفاظ عن الكشميهني ـ شيخ كريمة ـ بلفظ : « مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذَا الْعَشْرِ » ، وكذا أخرجه أحمد وغيره عن غندر عن شعبة بالإسناد المذكور .

قلت (مصطفى) : والحديث عند أبي داود أيضًا بلفظ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ » يَعْنِي : أَيَّامَ الْعَشْرِ ، (حديث ٢٤٣٨) ، والترمذي (حديث ٧٥٧) وغيرهما .

يَعْنِي عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ .

وَالرَّافِضَةُ تُوَالِي بَدَلَ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ ، الِاثْنَيْ عَشَرَ إِمَامًا ، وهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُ وَصِيُّ النَّبِيِّ ﷺ ، دَعْوَى مُجَرَّدَةً عَنِ الدَّلِيلِ ، ثُمَّ الْحَسَنُ ﷺ ، ثُمَّ الْحُسَيْنُ ﷺ ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ ، ثُمَّ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاظِمُ ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضِيُّ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَوَادُ ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَادِي ، ثُمَّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْعَسْكَرِيُّ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ ، وَيَتَغَالُونَ فِي مَحَبَّتِهِمْ ، وَيَتَجَاوَزُونَ الْحَدَّ !! وَلَمْ يَأْتِ ذِكْرُ الْأَئِمَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرَ ، إِلَّا عَلَى صِفَةٍ تَرُدُّ قَوْلَهُمْ وَتُبْطِلُهُ ، وَهُوَ مَا خَرَّجَاهُ فِي « الصَّحِيحَيْنِ » ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ، قَالَ : دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : « **لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا** » ، ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَةٍ خَفِيَتْ عَنِّي ، فَسَأَلْتُ أَبِي : مَاذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ؟ قَالَ : « **كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ** »(١) .

وَفِي لَفْظٍ : « **لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً** »(٢) .

وَفِي لَفْظٍ : « **لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً** »(٣) .

وَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَالِاثْنَا عَشَرَ : الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْأَرْبَعَةُ ، وَمُعَاوِيَةُ ، وَابْنُهُ يَزِيدُ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ، وَأَوْلَادُهُ الْأَرْبَعَةُ ، وَبَيْنَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، ثُمَّ أَخَذَ الْأَمْرُ فِي الِانْحِلَالِ .

وَعِنْدَ الرَّافِضَةِ أَنَّ أَمْرَ الْأُمَّةِ لَمْ يَزَلْ فِي أَيَّامِ هَؤُلَاءِ فَاسِدًا مُنَغَّصًا ، يَتَوَلَّى عَلَيْهِمُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ ، بَلِ الْمُنَافِقُونَ الْكَافِرُونَ ، وَأَهْلُ الْحَقِّ أَذَلُّ مِنَ الْيَهُودِ ! وَقَوْلُهُمْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٧٢٢٢، ٧٢٢٣) ، ومسلم (ص١٤٥٢) .

(٢، ٣) صحيحان : وهما عند مسلم (ص ١٤٥٣) .

ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ ، بَلْ لَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا فِي ازْدِيَادٍ فِي أَيَّامِ هَؤُلَاءِ الاثني عشر.

*****

قَوْلُهُ : « وَمَنْ أَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ ، وَذُرِّيَّاتِهِ الْمُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ » .

ش : تَقَدَّمَ بَعْضُ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ ﷺ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ، قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا ، بِمَاءٍ يُدْعَى : خُمًّا ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي ، فَأُجِيبَ رَبِّي ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ : أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ » ، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : « وَأَهْلُ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، ثَلَاثًا »(١) .

وَخَرَّجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، قَالَ : ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ(٢) .

وَإِنَّمَا قَالَ الشَّيْخُ ﷺ: « فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ » لِأَنَّ أَصْلَ الرَّفْضِ إِنَّمَا أَحْدَثَهُ مُنَافِقٌ زِنْدِيقٌ ، قَصْدُهُ إِبْطَالُ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَالْقَدْحُ فِي الرَّسُولِ ﷺ ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ ، فَإِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَبَأٍ لَمَّا أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ ، أَرَادَ أَنْ يُفْسِدَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِمَكْرِهِ وَخُبْثِهِ ، كَمَا فَعَلَ بُولِصُ بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، فَأَظْهَرَ التَّنَسُّكَ ، ثُمَّ أَظْهَرَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى سَعَى فِي فِتْنَةِ عُثْمَانَ وَقَتْلِهِ ، ثُمَّ لَمَّا قَدِمَ عَلَى الْكُوفَةِ أَظْهَرَ الْغُلُوَّ فِي عَلِيٍّ وَالنَّصْرَ لَهُ ، لِيَتَمَكَّنَ بِذَلِكَ مِنْ أَغْرَاضِهِ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا ، فَطَلَبَ قَتْلَهُ ، فَهَرَبَ مِنْهُ إِلَى قرقيسيا . وَخَبَرُهُ مَعْرُوفٌ فِي التَّارِيخِ . وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ مَنْ فَضَّلَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ جَلَدَهُ جَلْدَ الْمُفْتَرِي . وَبَقِيَتْ فِي نُفُوسِ الْمُبْطِلِينَ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٤٠٨) .

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٧١٣، ٣٧٥١) .

خَمَائِرُ بِدْعَةِ الْخَوَارِجِ ، مِنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالشِّيعَةِ ، وَلِهَذَا كَانَ الرَّفْضُ بَابُ الزَّنْدَقَةِ ، كَمَا حَكَاهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الطَّيِّبِ عَنِ الْبَاطِنِيَّةِ وَكَيْفِيَّةِ إِفْسَادِهِمْ لِدِينِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ : فَقَالُوا لِلدَّاعِي : يَجِبُ عَلَيْكَ إِذَا وَجَدْتَ مَنْ تَدْعُوهُ مُسْلِمًا أَنْ تَجْعَلَ التَّشَيُّعَ عِنْدَهُ دِينَكَ وَشِعَارَكَ ، وَاجْعَلِ الْمَدْخَلَ مِنْ جِهَةِ ظُلْمِ السَّلَفِ لِعَلِيٍّ وَقَتْلِهِمُ الْحُسَيْنَ ، وَالتَّبَرِّي مِنْ تَيْمٍ وَعَدِيٍّ ، وَبَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ ، وَأَنَّ عَلِيًّا يَعْلَمُ الْغَيْبَ ! يُفَوَّضُ إِلَيْهِ خَلْقُ الْعَالَمِ !! وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ أَعَاجِيبِ الشِّيعَةِ وجهلهم ، إِلَى أَنْ قَالَ : فإذا أَنِسْتَ مِن بعضِ الشيعة عِنْدَ الدَّعْوَةِ إِجَابَةً وَرَشَدًا ، أَوْقَفْتَهُ عَلَى مَثَالِبِ عَلِيٍّ وَوَلَدِهِ ﷺ . انْتَهَى .

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَتَطَرَّقُ مِنْ سَبِّ الصَّحَابَةِ إِلَى سَبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ إِلَى سَبِّ الرَّسُولِ ﷺ ، إِذْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَصْحَابُهُ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْفَاعِلِينَ الصانعين .

*****

قَوْلُهُ : «وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ - أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْأَثَرِ ، وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَالنَّظَرِ - لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالْجَمِيلِ ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ» .

ش : قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] .

فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَعْدَ مُوَالَاةِ الله وَرَسُولِهِ مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ ، خُصُوصًا الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، الَّذِينَ جَعَلَهُمُ الله بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ ، يُهْدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ ، إِذْ كُلُّ أُمَّةٍ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ عُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ مِنْ أُمَّتِهِ ، وَالْمُحْيُونَ لِمَا مَاتَ مِنْ سُنَّتِهِ ، بِهِمْ قَامَ

الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا ، وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا ، وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ اتِّفَاقًا يَقِينِيًا عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ . وَلَكِنْ إِذَا وُجِدَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلٌ قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِخِلَافِهِ : فَلَا بُدَّ لَهُ فِي تَرْكِهِ مِنْ عُذْرٍ .

وَجِمَاعُ الْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ :

أَحَدُهَا : عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ .

وَالثَّانِي : عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ أَرَادَ تِلْكَ الْـمَسْأَلَةَ بِذَلِكَ الْقَوْلِ .

وَالثَّالِثُ : اعْتِقَادُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ .

فَلَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا وَالْمِنَّةُ بِالسَّبْقِ ، وَتَبْلِيغِ مَا أُرْسِلَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَيْنَا ، وَإِيضَاحِ مَا كَانَ مِنْهُ يَخْفَى عَلَيْنَا - فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠] .

*****

قَوْلُهُ : « وَلَا نُفَضِّلُ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام ، وَنَقُولُ : نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ » .

ش : يُشِيرُ الشَّيْخُ رحمه الله إِلَى الرَّدِّ عَلَى الِاتِّحَادِيَّةِ وَجَهَلَةِ الْـمُتَصَوِّفَةِ ، وَإِلَّا فَأَهْلُ الِاسْتِقَامَةِ يُوصُونَ بِمُتَابَعَةِ الْعِلْمِ ، وَمُتَابَعَةِ الشَّرْعِ ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مُتَابَعَةَ الرُّسُلِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ [النساء:٦٤] ، إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ : مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ ، نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا تَرَكَ بَعْضُهُمْ شَيْئًا مِنَ السُّنَّةِ إِلَّا لِكِبْرٍ فِي نَفْسِهِ .

وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِلْأَمْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، كَانَ يَعْمَلُ بِإِرَادَةِ نَفْسِهِ ، فَيَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ ، بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، وَهَذَا غِشُّ النَّفْسِ ، وَهُوَ مِنَ الْكِبْرِ ، فَإِنَّهُ شَبِيهٌ من قَوْلِ الَّذِينَ قَالُوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَظُنُّ أَنَّهُ يَصِلُ بِرِيَاسَتِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي الْعِبَادَةِ ،وَتَصْفِيَةِ نَفْسِهِ ، إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعٍ لِطَرِيقَتِهِمْ ! .

وَمِنْهُمْ : مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ صَارَ أَفْضَلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ !!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ الْعِلْمَ بِاللهِ مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ !! وَيَدَّعِي لِنَفْسِهِ أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ !! وَيَكُونُ ذَلِكَ الْعِلْمُ هُوَ حَقِيقَةُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ الْمَشْهُودَ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ ، لَيْسَ لَهُ صَانِعٌ مُبَايِنٌ لَهُ ، لَكِنَّ هَذَا يَقُولُ : هُوَ اللهُ ! وَفِرْعَوْنُ أَظْهَرَ الْإِنْكَارَ بِالْكُلِّيَّةِ ، لَكِنْ كَانَ فِرْعَوْنُ فِي الْبَاطِنِ أَعْرَفَ بِاللهِ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ كَانَ مُثْبِتًا لِلصَّانِعِ ، وَهَؤُلَاءِ ظَنُّوا أَنَّ الْوُجُودَ الْمَخْلُوقَ هُوَ الْوُجُودُ الْخَالِقُ ، كَابْنِ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالِهِ !! وَهُوَ لَمَّا رَأَى أَنَّ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ لَا سَبِيلَ إِلَى تَغْيِيرِهِ قَالَ : النُّبُوَّةُ خُتِمَتْ ، لَكِنَّ الْوِلَايَةَ لَمْ تُخْتَمْ ! وَادَّعَى مِنَ الْوِلَايَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَمَا يَكُونُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُسْتَفِيدُونَ مِنْهَا ! كَمَا قَالَ :

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ !

وَهَذَا قَلْبٌ لِلشَّرِيعَةِ ، فَإِنَّ الْوِلَايَةَ ثَابِتَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْـمُتَّقِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣] . وَالنُّبُوَّةُ أَخَصُّ مِنَ الْوِلَايَةِ ، وَالرِّسَالَةُ أَخَصُّ مِنَ النُّبُوَّةِ ، كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ أَيْضًا فِي «فُصُوصِهِ» : وَلَمَّا مَثَّلَ النَّبِيُّ ﷺ النُّبُوَّةَ بِالْحَائِطِ مِنَ اللَّبِنِ فَرَآهَا قَدْ كَمُلَتْ إِلَّا لَبِنَةً ، فَكَانَ هُوَ ﷺ مَوْضِعَ اللَّبِنَةِ ، وَأَمَّا خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَةِ ، فَيَرَى مَا مَثَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَيَرَى نَفْسَهُ فِي الْحَائِطِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَتَيْنِ !! وَيَرَى نَفْسَهُ تَنْطَبِعُ فِي مَوْضِعِ تينك اللَّبِنَتَيْنِ ، فَيُكْمِلُ الْحَائِطَ !! وَالسَّبَبُ الْـمُوجِبُ لِكَوْنِهِ يَرَاهَا لَبِنَتَيْنِ : أَنَّ الْحَائِطَ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَاللَّبِنَةُ الْفِضَّةُ هِيَ ظَاهِرُهُ وَمَا يَتْبَعُهُ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ، كَمَا هُوَ أَخْذٌ عَنِ اللهِ فِي الشَّرْعِ مَا هُوَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ مُتَّبَعٌ فِيهِ ، لِأَنَّهُ يَرَى الْأَمْرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَرَاهُ هَكَذَا ، وَهُوَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ الذَّهَبِيَّةِ فِي الْبَاطِنِ ! فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الْـمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْـمَلَكُ الَّذِي يُوحِي إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ ، قَالَ : فَإِنْ فَهِمْتَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فَقَدْ حَصَلَ لَكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ !!

فَمَنْ أَكْفَرُ مِمَّنْ ضَرَبَ لِنَفْسِهِ الْـمَثَلَ بِلَبِنَةِ ذَهَبٍ ، وَلِلرُّسُلِ الْـمَثَلَ بِلَبِنَةِ فِضَّةٍ ، فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ مِنَ الرَّسُولِ ؟! تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر:٥٦]. وَكَيْفَ يَخْفَى كُفْرُ مَنْ هَذَا كَلَامُهُ ؟ وَلَهُ مِنَ الْكَلَامِ أَمْثَالُ هَذَا ، وَفِيهِ مَا يَخْفَى مِنْهُ الْكُفْرُ ، وَمِنْهُ مَا يَظْهَرُ ، فَلِهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى نَاقِدٍ جَيِّدٍ ، لِيُظْهِرَ زَيْفَهُ ، فَإِنَّ مِنَ الزَّغَلِ مَا يَظْهَرُ لِكُلِّ نَاقِدٍ ، وَمِنْهُ مَا لَا يَظْهَرُ إِلَّا لِلنَّاقِدِ الْحَاذِقِ الْبَصِيرِ ، وَكُفْرُ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالِهِ فَوْقَ كُفْرِ الْقَائِلِينَ : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١٢٤] . وَلَكِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالَهُ مُنَافِقُونَ زَنَادِقَةٌ ،

اتِّحَادِيَّةٌ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَالْـمُنَافِقُونَ يُعَامَلُونَ مُعَامَلَةَ الْـمُسْلِمِينَ ، لِإِظْهَارِهِمُ الْإِسْلَامَ ، كَمَا كَانَ يُظْهِرُهُ الْـمُنَافِقُونَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ ، وَهُوَ يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْـمُسْلِمِينَ لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ ، فَلَوْ أَنَّهُ ظَهَرَ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا يُبْطِنُهُ مِنَ الْكُفْرِ ، لَأَجْرَى عَلَيْهِ حُكْمَ الْـمُرْتَدِّ ، وَلَكِنْ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِ خِلَافٌ ، وَالصَّحِيحُ عَدَمُ قَبُولِهَا ، وَهِيَ رِوَايَةُ مُعَلَّى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رضي الله عنه . وَاللهُ الْـمُسْتَعَانُ .

*****

قَوْلُهُ : « وَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ ، وَصَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ » .

ش : فالْـمُعْجِزَةُ فِي اللُّغَةِ تَعُمُّ كُلَّ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ ، وَفِي عُرْفِ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْـمُتَقَدِّمِينَ ، كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسمونها الآيات وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنَ الْـمُتَأَخِّرِينَ يُفَرِّقُونَ فِي اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا ، فَيَجْعَلُونَ الْـمُعْجِزَةَ لِلنَّبِيِّ وَالْكَرَامَةَ لِلْوَلِيِّ ، وَجِمَاعُهُمَا الْأَمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ .

فصفَاتُ الْكَمَالِ تَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةٍ : الْعِلْمِ ، وَالْقُدْرَةِ ، وَالْغِنَى ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَا تَصْلُحُ عَلَى وجه الْكَمَالِ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ ، فَإِنَّهُ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دَعْوَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام:٥٠] .

وَكَذَلِكَ قَالَ نُوحٌ عليه السلام ، فَهَذَا أَوَّلُ أُولِي الْعَزْمِ ، وَأَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَهَذَا خَاتَمُ الرُّسُلِ ، وَخَاتَمُ أُولِي الْعَزْمِ ، وَكِلَاهُمَا تَبَرَّأَ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا لِأَنَّهُمْ يُطَالِبُونَهُمْ : تَارَةً بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٢] .

وَتَارَةً بِالتَّأْثِيرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ الْآيَاتِ [الإسراء:٩٠] .

وَتَارَةً يَعِيبُونَ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةَ الْبَشَرِيَّةَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ الْآيَةَ [الفرقان:٧] .

فَأُمِرَ الرَّسُولُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يَنَالُ مِنْ تِلْكَ الثَّلَاثَةِ بِقَدْرِ مَا يُعْطِيهِ اللهُ ، فَيَعْلَمُ مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاهُ ، وَيَقْدِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغْنِي عَمَّا أَغْنَاهُ عَنْهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِلْعَادَةِ الْمُطَّرِدَةِ ، أَوْ لِعَادَةِ أَغْلَبِ النَّاسِ ، فَجَمِيعُ الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ مَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ .

ثُمَّ الْخَارِقُ : إِنْ حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ مَطْلُوبَةٌ فِي الدِّينِ ، كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا دِينًا وَشَرْعًا ، إِمَّا وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ ، وَإِنْ حَصَلَ بِهِ أَمْرٌ مُبَاحٌ ، كَانَ مِنْ نِعَمِ اللهِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي شُكْرًا ، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهٍ يَتَضَمَّنُ مَا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ نَهْيَ تَنْزِيهٍ ، كَانَ سَبَبًا لِلْعَذَابِ أَوِ الْبُغْضِ ، كَالَّذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا : بَلْعَامُ بْنُ بَاعُورَا [(١)] ، لِاجْتِهَادٍ أَوْ تَقْلِيدٍ ، أَوْ نَقْصِ عَقْلٍ أَوْ عِلْمٍ ، أَوْ غَلَبَةِ حَالٍ ، أَوْ عَجْزٍ أَوْ ضَرُورَةٍ .

فَالْخَارِقُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ : مَحْمُودٌ فِي الدِّينِ ، وَمَذْمُومٌ ، وَمُبَاحٌ ، فَإِنْ كَانَ الْمُبَاحُ فِيهِ مَنْفَعَةٌ كَانَ نِعْمَةً ، وَإِلَّا فَهُوَ كَسَائِرِ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا . قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْجَوْزَجَانِيُّ : كُنْ طَالِبًا لِلِاسْتِقَامَةِ ، لَا طَالِبًا لِلْكَرَامَةِ ، فَإِنَّ نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الْكَرَامَةِ ، وَرَبُّكَ يَطْلُبُ مِنْكَ الِاسْتِقَامَةَ .

قَالَ الشَّيْخُ السُّهْرَوَرْدِيُّ فِي « عَوَارِفِهِ » : وَهَذَا أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي الْبَابِ ، فَإِنَّ كَثِيرًا

---

(١) لم أقف على خبر صحيح عن رسول الله ﷺ في تسميته بلعام بن باعوراء.

مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُتَعَبِّدِينَ سَمِعُوا سَلَفِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَمَا مُنِحُوا بِهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، فَنُفُوسُهُمْ لَا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُرْزَقُوا شَيْئًا مِنْهُ ، وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَبْقَى مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ ، مُتَّهِمًا لِنَفْسِهِ فِي صِحَّةِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ خَارِقٌ ، وَلَوْ عَلِمُوا بِسِرِّ ذَلِكَ ، لَهَانَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ ، فَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَفْتَحُ عَلَى بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ ذَلِكَ بَابًا ، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنْ يَزْدَادَ بِمَا يَرَى مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَأَمَارَةِ الْقُدْرَةِ يَقِينًا ، فَيَقْوَى عَزْمُهُ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالْخُرُوجِ عَنْ دَوَاعِي الْهَوَى ، فَسَبِيلُ الصَّادِقِ مُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِالِاسْتِقَامَةِ ، فَهِيَ كُلُّ الْكَرَامَةِ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ لِلْقُلُوبِ مِنَ التَّأْثِيرِ أَعْظَمَ مِمَّا لِلْأَبْدَانِ ، لَكِنْ إِنْ كَانَتْ صَالِحَةً كَانَ تَأْثِيرُهَا صَالِحًا ، وَإِنْ كَانَتْ فَاسِدَةً كَانَ تَأْثِيرُهَا فَاسِدًا . فَالْأَحْوَالُ يَكُونُ تَأْثِيرُهَا مَحْبُوبًا للهِ تَعَالَى تَارَةً ، وَمَكْرُوهًا للهِ أُخْرَى .

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ الْقَوَدِ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ غَيْرَهُ فِي الْبَاطِنِ ، وَهَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ بِبَوَاطِنِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ الْأَمْرَ الْكَوْنِيَّ ، وَيَعُدُّونَ مُجَرَّدَ خَرْقِ الْعَادَةِ لِأَحَدِهِمْ أَنَّهُ كَرَامَةٌ مِنَ اللهِ لَهُ ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا الْكَرَامَةُ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُكْرِمْ عَبْدًا بِكَرَامَةٍ أَعْظَمَ مِنْ مُوَافَقَتِهِ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَمُوَالَاةُ أَوْلِيَائِهِ ، وَمُعَادَاةُ أَعْدَائِهِ . وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الذين قَالَ فيهم : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢] .

وَأَمَّا مَا يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عَبْدَهُ ، مِنَ السَّرِّ بِخَرْقِ الْعَادَةِ أَوْ بِغَيْرِهَا أَوْ بِالضَّرَّاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَجْلِ كَرَامَةِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَلَا هَوَانِهِ عَلَيْهِ ، بَلْ قَدْ سَعِدَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا أَطَاعُوهُ ، وَشَقِيَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا عَصَوْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ

﴿ كَلَّا ﴾[الفجر:١٥-١٧].

وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ تَرْتَفِعُ دَرَجَتُهُمْ بِخَرْقِ الْعَادَةِ ، وَقِسْمٌ يَتَعَرَّضُونَ بِهَا لِعَذَابِ الله ، وَقِسْمٌ يَكُونُ فِي حَقِّهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاحَاتِ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

وَتَنَوُّعُ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ بِاعْتِبَارِ تَنَوُّعِ كَلِمَاتِ الله ، وَكَلِمَاتُ الله نَوْعَانِ : كَوْنِيَّةٌ ، وَدِينِيَّةٌ :

فَكَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ : هِيَ الَّتِي اسْتَعَاذَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : « **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ** »(١). قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام:١١٥] . وَالْكَوْنُ كُلُّهُ دَاخِلٌ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي : الْكَلِمَاتُ الدِّينِيَّةُ ، وَهِيَ الْقُرْآنُ وَشَرْعُ الله الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ، وَهِيَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَخَبَرُهُ ، وَحَظُّ الْعَبْدِ مِنْهَا الْعِلْمُ بِهَا ، وَالْعَمَلُ ، وَالْأَمْرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، كَمَا أَنَّ حَظَّ الْعِبَادِ عُمُومًا وَخُصُوصًا الْعِلْمُ بِالْكَوْنِيَّاتِ وَالتَّأْثِيرُ فِيهَا ، أَيْ بِمُوجَبِهَا . فَالْأُولَى تَدْبِيرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ ، وَالثَّانِيَةُ شَرْعِيَّةٌ دِينِيَّةٌ . فَكَشْفُ الْأُولَى الْعِلْمُ بِالْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَكَشْفُ الثَّانِيَةِ الْعِلْمُ بِالْمَأْمُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ .

وَقُدْرَةُ الْأُولَى التَّأْثِيرُ فِي الْكَوْنِيَّاتِ ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ ، كَمَشْيِهِ عَلَى الْمَاءِ وَطَيَرَانِهِ فِي الْهَوَاءِ ، وَجُلُوسِهِ فِي النَّارِ ، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ ، بِإِصْحَاحٍ وَإِهْلَاكٍ ، وَإِغْنَاءٍ وَإِفْقَارٍ .

وَقُدْرَةُ الثَّانِيَةِ التَّأْثِيرُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ بِطَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ ، وَالتَّمَسُّكِ

---

(١) تقدم .

بكتابِ الله وسُنَّةِ رسولِهِ باطنًا وظاهرًا ، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ بأن يأمُرَ بطاعةِ الله ورسوله ، فَيُطَاعُ فِي ذَلِكَ طَاعَةً شَرْعِيَّةً .

فَإِذَا تقرَّرَ ذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ عَدمَ الْخَوَارِقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً لَا تَضُرُّ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ ، فَمَنْ لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ ، وَلَمْ يُسَخَّرْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْكَوْنِيَّاتِ ، لَا يَنْقُصُهُ ذَلِكَ فِي مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ الله ، بَلْ قَدْ يَكُونُ عَدمُ ذَلِكَ أَنْفعَ لَهُ ، فَإِنَّهُ إِنِ اقْتَرَنَ بِهِ الدِّينُ وَإِلَّا هَلَكَ صَاحِبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الْخَارِقَ قَدْ يَكُونُ مَعَ الدِّينِ ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ عَدَمِهِ ، أَوْ فَسَادِهِ ، أَوْ نَقْصِهِ .

فَالْخَوَارِقُ النَّافِعَةُ تَابِعَةٌ لِلدِّينِ ، خَادِمَةٌ لَهُ ، كَمَا أَنَّ الرِّيَاسَةَ النَّافِعَةَ هِيَ التَّابِعَةُ لِلدِّينِ ، وَكَذَلِكَ الْمَالُ النَّافِعُ ، كَمَا كَانَ السُّلْطَانُ وَالْمَالُ النَّافِعُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَمَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمَقْصُودَةَ ، وَجَعَلَ الدِّينَ تَابِعًا لَهَا ، وَوَسِيلَةً إِلَيْهَا ، لَا لِأَجْلِ الدِّينِ فِي الْأَصْلِ ، فَهُوَ شَبِيهٌ بِمَنْ يَأْكُلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، وَلَيْسَتْ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ تَدَيَّنَ خَوْفَ الْعَذَابِ ، أَوْ رَجَاءَ الْجَنَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَأْمُورٌ بِهِ ، وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَشَرِيعَةٍ صَحِيحَةٍ .

وَالْعَجَبُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ هَمَّهُ قَدِ ارْتَفَعَ عَنْ أَنْ يَكُونَ خَوْفًا مِنَ النَّارِ أَوْ طَلَبًا لِلْجَنَّةِ ، يَجْعَلُ هَمَّهُ بِدِينِهِ أَدْنَى خَارِقٍ مِنْ خَوَارِقِ الدُّنْيَا ! ثُمَّ إِنَّ الدِّينَ إِذَا صَحَّ عِلْمًا وَعَمَلًا ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجِبَ خَرْقَ الْعَادَةِ ، إِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ صَاحِبُهُ .

قَالَ تَعَالَى :﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]

وَقَالَ تَعَالَى :﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال:٢٩] .

وَقَالَ تَعَالَى :﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

[النساء:٦٦ـ ٦٨]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[يونس:٦٢، ٦٤] .

وَقَالَ تَعَالَى ، فِيمَا يَرْوِي عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ »(١) . فَظَهَرَ أَنَّ الِاسْتِقَامَةَ حَظُّ الرَّبِّ ، وَطَلَبَ الْكَرَامَةِ حَظُّ النَّفْسِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

قَوْلُهُ : « وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ : مِنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ، وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام مِنَ السَّمَاءِ ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الْأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا » .

ش :عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ ، قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ ، فَقَالَ : « اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ : مَوْتِي ، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ ، فَيَغْدِرُونَ ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً ، تَحْتَ

---

(١) أخرجه البخاري ، وقد تقدم .

كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا »[١]. وَرُوِيَ « رَايَةً »، بِالرَّاءِ وَالْغَيْنِ، وَهُمَا بِمَعْنًى. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَالطَّبَرَانِيُّ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ، قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: « مَا تَذَاكَرُونَ »؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: « إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تُرَى عَشْرُ آيَاتٍ: الدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ »[٢]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: « إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، وإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ »[٣].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ قَوْمَهُ الْأَعْوَرَ الدَّجَّالَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر »[٤]، فَسَّرَهُ فِي رِوَايَةٍ: « أَيْ كَافِرٌ ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٧١٦)، وابن ماجه (حديث ٤٠٤٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٤٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (حديث ٢٩٠١).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٤٣٩، ٧٤٠٧)، وفي عدة مواطن من صحيحه، ومسلم (حديث ١٦٩، ص ٢٢٤٧) وغيرهما.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٧١٣١، ٧٤٠٨)، ومسلم (حديث ٢٩٣٣) وغيرهما.

الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »[١] . ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

[النساء:١٥٩]

وَأَحَادِيثُ الدَّجَّالِ ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَيَقْتُلُهُ ، وَيَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ الدَّجَّالَ ، فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ عَلَيْهِمْ : يَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِهَا .

وَأَمَّا خُرُوجُ الدَّابَّةِ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

[النمل:٨٢]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[الأنعام:١٥٨] .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **« لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ »**[٢] .

وَرَوَى مُسْلِمٌ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : **« إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ**

(١) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٢٢٢٢، ٣٤٤٨) ،ومسلم (حديث ١٥٥) وغيرهما .
(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٤٦٣٥) وفي غير موضع من صحيحه ، ومسلم (حديث ١٥٧) وغيرهما .

الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا » [١] .

أَيْ أَوَّلُ الْآيَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ مَأْلُوفَةً ، وَإِنْ كَانَ الدَّجَّالُ وَنُزُولُ عِيسَى عليه السلام مِنَ السَّمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، كُلُّ ذَلِكَ أُمُورٌ مَأْلُوفَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ ، مُشَاهَدَةُ مِثْلِهِمْ مَأْلُوفَةٌ ، أَمَّا خُرُوجَةُ الدَّابَّةِ على شَكْلٍ غَرِيبٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ ، ثُمَّ مُخَاطَبَتُهَا النَّاسَ ، وَوَسْمُهَا إِيَّاهُمْ بِالْإِيمَانِ أَوِ الْكُفْرِ فَأَمْرٌ خَارِجٌ عَنْ مَجَارِي الْعَادَاتِ ، وَذَلِكَ أَوَّلُ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا عَلَى خِلَافِ عَادَتِهَا الْمَأْلُوفَةِ ، أَوَّلُ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ .

وَقَدْ أَفْرَدَ النَّاسُ فِي أَحَادِيثِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فِي مُصَنَّفَاتٍ مَشْهُورَةٍ ، يَضِيقُ عَلَى بَسْطِهَا هَذَا الْمُخْتَصَرُ .

*****

قَوْلُهُ : « وَلَا نُصَدِّقُ كَاهِنًا وَلَا عَرَّافًا ، وَلَا مَنْ يَدَّعِي شَيْئًا يُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الْأُمَّةِ » .

ش : رَوَى مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ أَبِي عُبَيْدٍ ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : **« مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً »** [٢] .

وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ « الْعَرَّافِ » عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالُ السَّائِلِ ، فَكَيْفَ بِالْمَسْئُولِ ؟

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٩٤١) .
(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٢٣٠) .

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَ«مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ»، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «سأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَاسٌ عَنِ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ فيَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ كَذْبَةٍ»[١].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ»[٢].

وَحُلْوَانُهُ: الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ حَلَاوَتَهُ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطَاهُ الْمُنَجِّمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ الَّتِي يُسْتَقْسَمُ بِهَا، مِثْلُ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا «ا ب ج د» وَالضَّارِبُ بِالْحَصَى، وَالَّذِي يَخُطُّ فِي الرَّمْلِ، وَمَا يَعَاطَاهُ هَؤُلَاءِ حَرَامٌ، وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، كَالْبَغَوِيِّ وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِمَا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٣٢١٠) وفي عدة مواطن من صحيحه، ومسلم في صحيحه (حديث ٢٢٢٨، ص ١٧٥٠)، وأحمد في المسند (٦/ ٨٧) وغيرهم.

(٢) أخرج مسلم (ص ١١٩٩) من حديث رافع بن خديج عن رسول الله ﷺ قال: «ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وكسب الحجام خَبِيثٌ»، وأخرج البخاري (حديث ٢٢٣٧)، ومسلم (حديث ١٥٦٧)، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «نهى عَنِ ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ».

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٨٤٦) وفي عدة مواطن من صحيحه، ومسلم (حديث ٧١).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَ«مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالأنواء ، وَالنِّيَاحَةُ** »(١) .

النُّصُوصُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ ، بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهَا .

وَصِنَاعَةُ التَّنْجِيمِ ، الَّتِي مَضْمُونُهَا الْإِحْكَامُ وَالتَّأْثِيرُ ، وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيَّةِ أَوِ التَّمْزِيجِ بَيْنَ الْقُوَى الْفَلَكِيَّةِ وَالْغَوَائِلِ الْأَرْضِيَّةِ : صِنَاعَةٌ مُحَرَّمَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، بَلْ هِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى لِسَانِ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٥١] .

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه وَغَيْرُهُ : الْجِبْتُ السِّحْرُ .

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ : تَدْرِي مِمَّ هَذَا ؟ قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَا أُحْسِنُ الْكِهَانَةَ ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ ، فَلَقِيَنِي ، فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ(٢) .

وَالْوَاجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ ، وَكُلِّ قَادِرٍ أَنْ يَسْعَى فِي إِزَالَةِ هَؤُلَاءِ الْمُنَجِّمِينَ وَالْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ وَأَصْحَابِ الضَّرْبِ بِالرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالْقَرْعِ وَالْفَالَاتِ ، وَمَنْعِهِمْ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ وَالطُّرُقَاتِ ، أَوْ يَدْخُلُوا عَلَى النَّاسِ فِي مَنَازِلِهِمْ

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٩٦٤) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٣٨٤٢) .

لِذَلِكَ ، وَيَكْفِي مَنْ يَعْلَمُ تَحْرِيمَ ذَلِكَ ، وَلَا يَسْعَى فِي إِزَالَتِهِ ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٩] ، وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينُ يَقُولُونَ الْإِثْمَ ، وَيَأْكُلُونَ السُّحْتَ ، بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَثَبَتَ فِي «السُّنَنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِرِوَايَةِ الصِّدِّيقِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ** » (١) .

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ الْخَارِجَةَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنْوَاعٌ :

نَوْعٌ مِنْهُمْ : أَهْلُ تَلْبِيسٍ وَكَذِبٍ وَخِدَاعٍ ، الَّذِينَ يُظْهِرُ أَحَدُهُمْ طَاعَةَ الْجِنِّ لَهُ ، أَوْ يَدَّعِي الْحَالَ مِنْ أَهْلِ الْمُحَالِ ، مِنَ الْمَشَايِخِ النَّصَّابِينَ ، وَالْفُقَرَاءِ الْكَذَّابِينَ ، وَالطُّرُقِيَّةِ الْمَكَّارِينَ ، فَهَؤُلَاءِ يَسْتَحِقُّونَ الْعُقُوبَةَ الْبَلِيغَةَ الَّتِي تَرْدَعُهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ عَنِ الْكَذِبِ وَالتَّلْبِيسِ . وَقَدْ يَكُونُ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ ، كَمَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُزَعْبَلَاتِ ، أَوْ يَطْلُبُ تَغْيِيرَ شَيْءٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ .

وَنَوْعٌ : يَتَكَلَّمُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى سَبِيلِ الْجِدِّ وَالْحَقِيقَةِ ، بِأَنْوَاعِ السِّحْرِ . وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ يُوجِبُونَ قَتْلَ السَّاحِرِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي الْمَنْصُوصِ عَنْهُ ، وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنِ الصَّحَابَةِ ، كَعُمَرَ وَابْنِهِ وَعُثْمَانَ وَغَيْرِهِمْ ﷺ . ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ : هَلْ يُسْتَتَابُ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يُكَفَّرُ بِالسِّحْرِ ؟ أَمْ يُقْتَلُ لِسَعْيِهِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : إِنْ قَتَلَ بِالسِّحْرِ قُتِلَ ، وَإِلَّا عُوقِبَ بِدُونِ الْقَتْلِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ كُفْرٌ ، وَهَذَا هُوَ الْمَنْقُولُ عَنِ الشَّافِعِيِّ ، وَهُوَ قَوْلٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ ـ رَحِمَهُمَا اللهُ .

---

(١) إسناده صحيح : وقد أُعل بالوقف على أبي بكر ﷺ ولمعناه شواهد صحيحة ،وقد أخرجه عبد ابن حميد في « المنتخب » (بتحقيقي رقم ١) .

وقد استفضت في الكلام عليه هناك ،وقد أخرجه أحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩) ، وأبو داود (٤٣٣٨) ، والترمذي (مع التحفة ٦/ ٣٨٨، ٨ / ٤٤٢) ، وابن ماجه (٤٠٠٥) وغيرهم .

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي حَقِيقَةِ السِّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ : وَالأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ : إِنَّهُ قَدْ يُؤَثِّرُ فِي مَوْتِ الْمَسْحُورِ وَمَرَضِهِ مِنْ غَيْرِ وُصُولِ شَيْءٍ ظَاهِرٍ إِلَيْهِ ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مُجَرَّدُ تَخْيِيلٍ .

وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ : عَلَى أَنَّ مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ، أَوْ غَيْرِهَا ، أَوْ خِطَابِهَا ، أَوِ السُّجُودِ لَهَا ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهَا بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ اللِّبَاسِ وَالْخَوَاتِمِ وَالْبَخُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ كُفْرٌ ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الشِّرْكِ ، فَيَجِبُ غَلْقُهُ ، بَلْ سَدُّهُ ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ فِعْلِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالَ مَا حَكَى اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٨، ٨٩].

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ [الأنعام:٧٦] الْآيَاتِ ، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢]

وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ كُلَّ رُقْيَةٍ وَتَعْزِيمٍ أَوْ قَسَمٍ ، فِيهِ شِرْكٌ بِاللهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّكَلُّمُ بِهِ ، وَإِنْ أَطَاعَتْهُ بِهِ الْجِنُّ أَوْ غَيْرُهُمْ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ كَلَامٍ فِيهِ كُفْرٌ لَا يَجُوزُ التَّكَلُّمُ بِهِ ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ الَّذِي لَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ لَا يُتَكَلَّمُ بِهِ ، لِإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شِرْكٌ لَا يُعْرَفُ ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا** »(١) .

وَلَا يَجُوزُ الِاسْتِعَاذَةُ بِالْجِنِّ ، فَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْكَافِرِينَ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن:٦] .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا نرقى في الجاهلية فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « **اعرضوا على رقاكم لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك** » .

قَالُوا [(١)] : كَانَ الْإِنْسِيُّ إِذَا نَزَلَ بِالْوَادِي يَقُولُ : أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سُفَهَائِهِ ، فَيَبِيتُ فِي أَمْنٍ وَجِوَارٍ حَتَّى يُصْبِحَ ، ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ يَعْنِي : الْإِنْسُ لِلْجِنِّ ، بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ ، رَهَقًا ، أَيْ : إِثْمًا وَطُغْيَانًا وَجَرَاءَةً وَشَرًّا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : قَدْ سُدْنَا الْجِنَّ ، وَالْإِنْسَ ! فَالْجِنُّ تَعَاظَمُ فِي أَنْفُسِهَا ، وَتَزْدَادُ كُفْرًا إِذَا عَامَلَتْهَا الْإِنْسُ بِهَذِهِ الْمُعَامَلَةِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠، ٤١] . فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيُخَاطِبُونَهُمْ بِهَذِهِ الْعَزَائِمِ ، وَأَنَّهَا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ : ضَالُّونَ ، وَإِنَّمَا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٢٨].

فَاسْتِمْتَاعُ الْإِنْسِيِّ بِالْجِنِّيِّ : فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِ ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَإِخْبَارِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَاسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ : تَعْظِيمُهُ إِيَّاهُ ، وَاسْتِعَانَتُهُ بِهِ ، وَاسْتِغَاثَتُهُ وَخُضُوعُهُ لَهُ .

وَنَوْعٌ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، وَالْكُشُوفِ وَمُخَاطَبَةِ رِجَالِ الْغَيْبِ ، وَأَنَّ لَهُمْ خَوَارِقَ تَقْتَضِي أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ ! وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُعِينُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ! وَيَقُولُ : إِنَّ الرَّسُولَ أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، لِكَوْنِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ عَصَوْا !! وَهَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ إِخْوَانُ الْمُشْرِكِينَ .

---

(١) كذا قال المفسرون .

وَالنَّاسُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيهِمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْزَابٍ :

حِزْبٌ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِ رِجَالِ الْغَيْبِ ، وَلَكِنْ قَدْ عَايَنَهُمُ النَّاسُ ، وَثَبَتَ عَمَّنْ عَايَنَهُمْ ، أَوْ حَدَّثَهُ الثِّقَاتُ بِمَا رَأَوْهُ ، وَهَؤُلَاءِ إِذَا رَأَوْهُمْ وَتَيَقَّنُوا وُجُودَهُمْ ، خَضَعُوا لَهُمْ .

وَحِزْبٌ عَرَفُوهُمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْقَدَرِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ثَمَّ فِي الْبَاطِنِ طَرِيقًا إِلَى اللهِ غَيْرَ طَرِيقَةِ الْأَنْبِيَاءِ ! .

وَحِزْبٌ مَا أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا وَلِيًّا خَارِجًا عَنْ دَائِرَةِ الرَّسُولِ ، فَقَالُوا : يَكُونُ الرَّسُولُ هُوَ مُمِدًّا لِلطَّائِفَتَيْنِ . فَهَؤُلَاءِ مُعَظِّمُونَ لِلرَّسُولِ جَاهِلُونَ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ .

وَالْحَقُّ : أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَتْبَاعِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَنَّ رِجَالَ الْغَيْبِ هُمُ الْجِنُّ ، وَيُسَمَّوْنَ رِجَالًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن:٦] . وَإِلَّا فَالْإِنْسُ يُؤْنَسُونَ ، أَيْ يشهدون وَيُرَوْنَ ، وَإِنَّمَا يَحْتَجِبُ الْإِنْسِيُّ أَحْيَانًا ، لَا يَكُونُ دَائِمًا مُحْتَجِبًا عَنْ أَبْصَارِ الْإِنْسِ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُمْ مِنَ «الْإِنْسِ» فَمِنْ غَلَطِهِ وَجَهْلِهِ ، وَسَبَبُ الضَّلَالِ فِيهِمْ ، وَافْتِرَاقِ هَذِهِ الْأَحْزَابِ الثَّلَاثَةِ عَدَمُ الْفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ .

وَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ : الْفُقَرَاءُ يُسَلَّمُ إِلَيْهِمْ حَالُهُمْ ! وَهَذَا كَلَامٌ بَاطِلٌ ، بَلِ الْوَاجِبُ عَرْضُ أَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، فَمَا وَافَقَهَا قُبِلَ ! وَمَا خَالَفَهَا رُدَّ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ** »[١] .

وَفِي رِوَايَةٍ : « **مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** »[٢] .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (ص ١٣٤٤) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٢٦٩٧) ، ومسلم (حديث ١٧١٨) ، من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا .

فَلَا طَرِيقَةَ إِلَّا طَرِيقَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا حَقِيقَةَ إِلَّا حَقِيقَتُهُ، وَلَا شَرِيعَةَ إِلَّا شَرِيعَتُهُ، وَلَا عَقِيدَةَ إِلَّا عَقِيدَتُهُ، وَلَا يَصِلُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ بَعْدَهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ إِلَّا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُصَدِّقًا فِيمَا أَخْبَرَ، مُلْتَزِمًا لِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ، فِي الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي فِي الْقُلُوبِ، وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي عَلَى الْأَبْدَانِ: لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا للهِ تَعَالَى، وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ، وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ، وَأَنْفَقَ مِنَ الْغَيْبِ، وَأَخْرَجَ الذَّهَبَ مِنَ الْجَيْبِ وَلَوْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ مَاذَا عَسَى أَنْ يَحْصُلَ!! فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَعَ تَرْكِهِ الْفِعْلَ الْمَأْمُورَ وَعَزل الْمَحْظُورِ، إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، الْمُبْعِدَةِ لِصَاحِبِهَا عَنِ اللهِ تَعَالَى، الْمُقَرِّبَةِ إِلَى سُخْطِهِ وَعَذَابِهِ، لَكِنْ مَنْ لَيْسَ يُكَلَّفُ مِنَ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينَ، قَدْ رُفِعَ عَنْهُمُ الْقَلَمُ، فَلَا يُعَاقَبُونَ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وتقواه بَاطِنًا وَظَاهِرًا مَا يَكُونُونَ بِهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ، وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ، وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ. لَكِنْ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ تَبَعًا لِآبَائِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور:٢١].

فَمَنِ اعْتَقَدَ فِي بَعْضِ الْبُلْهِ أَوِ الْمُولَعِينَ، مَعَ تَرْكِهِ لِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ ـ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى مُتَّبِعِي طَرِيقَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ، مُخْطِئٌ فِي اعْتِقَادِهِ، فَإِنَّ ذَاكَ الْأَبْلَهَ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا زِنْدِيقًا، أَوْ زُوكَارِيًّا مُتَحَيِّلًا، أَوْ مَجْنُونًا مَعْذُورًا! فَكَيْفَ يُفَضَّلُ عَلَى مَنْ هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، الْمُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ؟! أَوْ يُسَاوَى بِهِ؟! وَلَا يُقَالُ: يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُتَّبِعًا فِي الْبَاطِنِ وَإِنْ كَانَ تَارِكًا لِلاتِّبَاعِ فِي الظَّاهِرِ؟ فَإِنَّ هَذَا خَطَأٌ أَيْضًا، بَلِ الْوَاجِبُ مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

قَالَ يونس بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى الصَّدَفِيُّ : قُلْتُ لِلشَّافِعِيِّ : إِنَّ صَاحِبَنَا اللَّيْثَ كَانَ يَقُولُ : إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فقال الشافعي: قَصَّرَ اللَّيْثُ رحمه الله : بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء ، فلا تعتبروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **اطَّلَعْتُ عَلَى الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْبُلْهَ** »(١) فَهَذَا لا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا يَنْبَغِي نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ إِنَّمَا خُلِقَتْ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ أَرْشَدَتْهُمْ عُقُولُهُمْ وَأَلْبَابُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الله أَهْلَ الْجَنَّةِ بِأَوْصَافِهِمْ فِي كِتَابِهِ ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِي أَوْصَافِهِمُ الْبَلَهَ ، الَّذِي هُوَ ضَعْفُ الْعَقْلِ ، وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ** »(٢) . وَلَمْ يَقُلِ الْبُلْهَ ! .

وَالطَّائِفَةُ الْمُلَامِيَّةُ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مَا يُلَامُونَ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُتَّبِعُونَ فِي الْبَاطِنِ ، وَيَقْصِدُونَ إِخْفَاءَ الْمُرَائِينَ ! رَدُّوا بَاطِلَهُمْ بِبَاطِلٍ آخَرَ !! وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ بَيْنَ ذَلِكَ .

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يُصْعَقُونَ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَنْغَامِ الْحَسَنَةِ ، مُبْتَدِعُونَ ضَالُّونَ ! وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَدْعِيَ مَا يَكُونُ سَبَبَ زَوَالِ عَقْلِهِ ! وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَلَوْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، بَلْ كَانُوا كَمَا وَصَفَهُمُ الله تَعَالَى : ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] . وَكَمَا قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ

---

(١) كل أسانيده تالفة .

(٢) صحيح :أخرجه البخاري (حديث ٣٢٤١) ، وفي غير موطن من صحيحه من حديث عمران ابن حصين رضي الله عنه مرفوعًا ، وأخرجه مسلم (حديث ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

وَأَمَّا الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْعُلَمَاءُ بِخَيْرٍ مِنْ عُقَلَاءِ الْمَجَانِينِ، فَأُولَئِكَ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ، ثُمَّ زَالَتْ عُقُولُهُمْ، وَمِنْ عَلَامَةِ هَؤُلَاءِ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ فِي جُنُونِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الصَّحْوِ، تَكَلَّمُوا بِمَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ. وَيَهْذُونَ بِذَلِكَ فِي حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِمْ، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ يتكَلَّمَ إِذَا حَصَلَ لَهُمْ نَوْعُ إِفَاقَةٍ بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَيَهْذُونَ بِذَلِكَ فِي حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِمْ، وَمَنْ كَانَ قَبْلَ جُنُونِهِ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا، لَمْ يَكُنْ حُدُوثُ جُنُونِهِ مُزِيلًا لِمَا ثَبَتَ مِنْ كُفْرِهِ أَوْ فِسْقِهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ جُنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، يَكُونُ مَحْشُورًا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَزَوَالُ الْعَقْلِ بِجُنُونٍ أَوْ غَيْرِهِ، سَوَاءٌ سُمِّيَ صَاحِبُهُ مُولَهًا أَوْ مُتَوَلِّهًا، لَا يُوجِبُ مَزِيدَ حَال صَاحِبِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، بل يَبْقَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍ، لَا أَنَّهُ يَزِيدُهُ أَوْ يَنْقُصُهُ، وَلَكِنَّ جُنُونَهُ يَحْرِمُهُ الزِّيَادَةَ مِنَ الْخَيْرِ، كَمَا أَنَّهُ يَمْنَعُ عُقُوبَتَهُ عَلَى الشَّرِّ، وَلَا يَمْحُو عَنْهُ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَهُ.

وَمَا يَحْصُلُ لِبَعْضِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَنْغَامِ الْمُطْرِبَةِ، مِنَ الْهَذَيَانِ، وَالتَّكَلُّمِ بِبَعْضِ اللُّغَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلِسَانِهِ الْمَعْرُوفِ مِنْهُ!! فَذَلِكَ شَيْطَانٌ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ، كَمَا يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ! وَكَيْفَ يَكُونُ زَوَالُ الْعَقْلِ سَبَبًا أَوْ شَرْطًا أَوْ تَقَرُّبًا إِلَى وِلَايَةِ الله، كَمَا يَظُنُّهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ؟! حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ:

هُمْ مَعْشَرٌ حَلُّوا النِّظَامَ وَخَرَّقُوا الـ ... سِّيَاجَ فَلَا فَرْضٌ لَدَيْهِمْ وَلَا نَفْلُ

مَجَانِينُ، إِلَّا أَنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ ... عَزِيزٌ عَلَى أَبْوَابِهِ يَسْجُدُ الْعَقْلُ

وَهَذَا كَلَامُ ضَالٍّ ، بَلْ كَافِرٍ ، يَظُنُّ أَنَّ لِلْجُنُونِ سِرًّا يَسْجُدُ الْعَقْلُ عَلَى بَابِهِ !! لِمَا رَآهُ مِنْ بَعْضِ الْـمَجَانِينِ مِنْ نَوْعِ مُكَاشَفَةٍ ، أَوْ تَصَرُّفٍ عَجِيبٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، كَمَا يَكُونُ لِلسَّحَرَةِ ، وَالْكُهَّانِ ! فَيَظُنُّ هَذَا الضَّالُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كاشف أَوْ خَرَقَ عَادَةً كَانَ وَلِيًّا لله !! وَمَنِ اعْتَقَدَ هَذَا ، فَهُوَ كَافِرٌ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء:٢٢١، ٢٢٢] . فَكُلُّ مَنْ تَنزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ كَذِبٌ وَفُجُورٌ .

وَأَمَّا الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ بِالرِّيَاضَاتِ وَالْخَلَوَاتِ ، وَيَتْرُكُونَ الْجُمَعَ وَالْجَمَاعَاتِ ، فَهُمُ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، قَدْ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ ، كَمَا قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، طَبَعَ الله عَلَى قَلْبِهِ » (١) . وَكُلُّ مَنْ عَدَلَ عَنِ اتِّبَاعِ سُنَّةِ الرَّسُولِ ، إِنْ كَانَ عَالِمًا بِهَا ، فَهُوَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ ، وَإِلَّا فَهُوَ ضَالٌّ ، وَلِهَذَا شَرَعَ الله لَنَا أَنْ نَسْأَلَهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ الْـمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ، غَيْرِ الْـمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

وَأَمَّا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِقِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ عليهما السلام ، فِي تَجْوِيزِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْوَحْيِ بِالْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ ، الَّذِي يَدَّعِيهِ بَعْضُ مَنْ عَدِمَ التَّوْفِيقَ : فَهُوَ مُلْحِدٌ زِنْدِيقٌ ، فَإِنَّ مُوسَى عليه السلام لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْخَضِرُ مَأْمُورًا بِمُتَابَعَتِهِ .

---

(١) صحيح لغيره : أخرجه أبو داود (حديث ١٠٥٢) ، والترمذي (حديث ٥٠٠) ، والنسائي (٣/ ٨٨) ، وابن ماجه (١١٢٥) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٤٢٤) ، وغيرهم ، وله شاهد عند ابن ماجه (١١٢٦) وغيره .

وَلِهَذَا قَالَ لَهُ : أَنْتَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ[١] . وَمُحَمَّدٌ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ ، وَلَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ ، لَكَانَا مِنْ أَتْبَاعِهِ ، وَإِذَا نَزَلَ عِيسَى عليه السلام إِلَى الْأَرْضِ ، إِنَّمَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ، فَمَنِ ادَّعَى أَنَّهُ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَالْخَضِرِ مَعَ مُوسَى ، أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ : فَلْيُجَدِّدْ إِسْلَامَهُ ، وَلْيَشْهَدْ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، فَإِنَّهُ مُفَارِقٌ لِدِينِ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ . وَهَذَا الْمَوْضِعُ مُفَرِّقٌ بَيْنَ زَنَادِقَةِ الْقَوْمِ وَأَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ ، فحَرِّكْ تَرَ .

وَكَذَا مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الْكَعْبَةَ تَطُوفُ بِرِجَالٍ مِنْهُمْ حَيْثُ كَانُوا !! فَهَلَّا خَرَجَتِ الْكَعْبَةُ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ فَطَافَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أُحْصِرَ عَنْهَا ، وَهُوَ يَوَدُّ مِنْهَا نَظْرَةً ؟! وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ شَبَهٌ بِالَّذِينِ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر:٥٢] ، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

*****

قَوْلُهُ : « وَنَرَى الْجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا ، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا » .

ش : قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ

---

(١) صحيح : وذلك ضمن حديث أخرجه البخاري في عدة مواطن من صحيحه منها (حديث ٣٤٠١) ، ومسلم (حديث ٢٣٨٠) .

أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام:١٥٩] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود:١١٨، ١١٩] . فَجَعَلَ أَهْلَ الرَّحْمَةِ مُسْتَثْنَيْنَ مِنَ الِاخْتِلَافِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[البقرة:١٧٦] .

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ ﷺ : « **إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ** »(١).

وَفِي رِوَايَةٍ : قَالُوا : مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي** » . فَبَيَّنَ أَنَّ عَامَّةَ الْمُخْتَلِفِينَ هَالِكُونَ إِلَّا أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَأَنَّ الِاخْتِلَافَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ : «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» ، ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ : « **أَعُوذُ بِوَجْهِكَ** » ، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] ، قَالَ : « **هَاتَانِ أَهْوَنُ** »(٢) .

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا ، وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، مَعَ بَرَاءَةِ الرَّسُولِ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ ، وَهُمْ فِيهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ

---

(١) تقدم الكلام مرارًا .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٤٦٢٨) ، وفي غير موضع من صحيحه ، والحديث في صحيح مسلم .

وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُتَوَافِرُونَ ، فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ كُلَّ دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ فرجٍ أُصِيبَ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ : فَهُوَ هَدْرٌ ، أَنْزَلُوهُمْ مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ بِإِسْنَادِهِ الثَّابِتِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ : تَرَكَ النَّاسُ الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات:٩] . فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا اقْتَتَلُوا كَانَ الْوَاجِبُ الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمْ كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى ، فَلَمَّا لَمْ يُعْمَلْ بِذَلِكَ صَارَتْ فِتْنَةٌ وَجَاهِلِيَّةٌ .

وَهَكَذَا مسائل النِّزَاعُ الَّتِي تَتَنَازَعُ فِيهَا الْأُمَّةُ ، فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ - إِذَا لَمْ تُرَدَّ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ - لَمْ يَتَبَيَّنْ فِيهَا الْحَقُّ ، بَلْ يَصِيرُ فِيهَا الْمُتَنَازِعُونَ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَإِنْ رَحِمَهُمُ اللهُ ، أَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَلَمْ يَبْغِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ يَتَنَازَعُونَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ ، فَيُقِرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَلَا يَعْتَدِي وَلَا يُعْتَدَى عَلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يُرْحَمُوا ، وَقَعَ بَيْنَهُمُ الِاخْتِلَافُ الْمَذْمُومُ ، فَبَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِمَّا بِالْقَوْلِ : مِثْلَ تَكْفِيرِهِ وَتَفْسِيقِهِ ، وَإِمَّا بِالْفِعْلِ ، مِثْلَ حَبْسِهِ وَضَرْبِهِ وَقَتْلِهِ ، وَالَّذِينَ امْتَحَنُوا النَّاسَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، كَانُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ، ابْتَدَعُوا بِدْعَةً ، وَكَفَّرُوا مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهَا ، وَاسْتَحَلُّوا مَنْعَ حَقِّهِ وَعُقُوبَتِهِ .

فَالنَّاسُ إِذَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ الرَّسُولَ : إِمَّا عَادِلُونَ وَإِمَّا ظَالِمُونَ ، فَالْعَادِلُ فِيهِمْ : الَّذِي يَعْمَلُ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا يَظْلِمُ غَيْرَهُ ، وَالظَّالِمُ : الَّذِي يَعْتَدِي عَلَى غَيْرِهِ ، وَأَكْثَرُهُمْ إِنَّمَا يَظْلِمُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٩] . وَإِلَّا فَلَوْ سَلَكُوا مَا عَلِمُوهُ مِنَ الْعَدْلِ ، أَقَرَّ بَعْضُهُمْ

بَعْضًا ، كَالْـمُقَلِّدِينَ لِأَئِمَّةِ الْعِلْمِ ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي تِلْكَ الْـمَسَائِلِ ، فَجَعَلُوا أَئِمَّتَهُمْ نُوَّابًا عَنِ الرَّسُولِ ، وَقَالُوا : هَذَا غَايَةُ مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، فَالْعَادِلُ مِنْهُمْ لَا يَظْلِمُ الْآخَرَ ، وَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ، مِثْلَ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ قَوْلَ مُقَلِّدِهِ هُوَ الصَّحِيحُ بِلَا حُجَّةٍ يُبْدِيهَا ، وَيَذُمُّ مَنْ خَالَفَهُ ، مَعَ أَنَّهُ مَعْذُورٌ .

ثُمَّ إِنَّ أَنْوَاعَ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الْأَصْلِ قِسْمَانِ : اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ ، وَاخْتِلَافُ تَضَادٍّ :

وَاخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهُ مَا يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ أَوِ الْفِعْلَيْنِ حَقًّا مَشْرُوعًا ، كَمَا فِي الْقِرَاءَاتِ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا الصَّحَابَةُ ﷺ ، حَتَّى زَجَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَالَ : « **كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ** »(١) .

وَمِثْلُهُ اخْتِلَافُ الْأَنْوَاعِ فِي صِفَةِ الْأَذَانِ ، وَالْإِقَامَةِ ، وَالِاسْتِفْتَاحِ ، وَمَحَلِّ سُجُودِ السَّهْوِ ، وَالتَّشَهُّدِ ، وَصَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَتَكْبِيرَاتِ الْعِيدِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، مِمَّا قَدْ شُرِعَ جَمِيعُهُ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ أَرْجَحَ أَوْ أَفْضَلَ .

ثُمَّ تَجِدُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ مِنَ الِاخْتِلَافِ مَا أَوْجَبَ اقْتِتَالَ طَوَائِفَ مِنْهُمْ عَلَى شَفْعِ الْإِقَامَةِ وَإِيتَارِهِم وَنَحْوِ ذَلِكَ ! وَهَذَا عَيْنُ الْـمُحَرَّمِ ، وَكَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْهَوَى لِأَحَدِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآخَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ : مَا دَخَلَ بِهِ فِيمَا نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ .

وَمِنْهُ مَا يَكُونُ كُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ هُوَ فِي الْـمَعْنَى الْقَوْلَ الْآخَرَ ، لَكِنِ الْعِبَارَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ ، كَمَا قَدْ يَخْتَلِفُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي أَلْفَاظِ الْحُدُودِ ، وَصَوْغِ الْأَدِلَّةِ ، وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الْـمُسَمَّيَاتِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، ثُمَّ الْجَهْلُ أَوِ الظُّلْمُ يَحْمِلُ عَلَى حَمْدِ إِحْدَى

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

الْـمَقَالَتَيْنِ وَذَمِّ الْأُخْرَى وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى قَائِلِهَا ! وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَأَمَّا اخْتِلَافُ التَّضَادِّ : فَهُوَ الْقَوْلَانِ الْـمُتَنَافِيَانِ ، إِمَّا فِي الْأُصُولِ ، وَإِمَّا فِي الْفُرُوعِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْـمُصِيبُ وَاحِدٌ . وَالْخَطْبُ فِي هَذَا أَشَدُّ ، لِأَنَّ الْقَوْلَيْنِ يَتَنَافَيَانِ ، لَكِنْ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَكُونُ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي مَعَ مُنَازِعِهِ فِيهِ حَقٌّ مَا ، أَوْ مَعَهُ دَلِيلٌ يَقْتَضِي حَقًّا مَا ، فَيَرُدُّ الْحَقَّ مَعَ الْبَاطِلِ ، حَتَّى يَبْقَى هَذَا مُبْطِلًا فِي الْبَعْضِ ، كَمَا كَانَ الْأَوَّلُ مُبْطِلًا فِي الْأَصْلِ ، وَهَذَا يَجْرِي كَثِيرًا لِأَهْلِ السُّنَّةِ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ ، فَالْأَمْرُ فِيهِمْ ظَاهِرٌ . وَمَنْ جَعَلَ اللهُ لَهُ هِدَايَةً وَنُورًا رَأَى مِنْ هَذَا مَا يُبَيِّنُ لَهُ مَنْفَعَةَ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ النَّهْيِ عَنْ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُلُوبُ الصَّحِيحَةُ تُنْكِرُ هَذَا ، لَكِنْ نُورٌ عَلَى نُورٍ .

وَالِاخْتِلَافُ الْأَوَّلُ الَّذِي هُوَ اخْتِلَافُ التَّنَوُّعِ : الذَّمُّ فِيهِ وَاقِعٌ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَى الْآخَرِ فِيهِ ، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى حَمْدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، إِذَا لَمْ يَحْصُلْ بَغْيٌ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٥] . وَقَدْ كَانُوا اخْتَلَفُوا فِي قَطْعِ الْأَشْجَارِ ، فَقَطَعَ قَوْمٌ ، وَتَرَكَ آخَرُونَ .

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء:٧٨، ٧٩] ، فَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمَا بِالْحُكْمِ وَالْعِلْمِ .

وَكَمَا فِي إِقْرَارِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ لِمَنْ صَلَّى الْعَصْرَ فِي وَقْتِهَا ، وَلِمَنْ أَخَّرَهَا

إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ (١).

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ : « **إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ ، فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ ، فَلَهُ أَجْرٌ** » (٢). ونظائر ذلك .

وَالِاخْتِلَافُ الثَّانِي : هُوَ مَا حُمِدَ فِيهِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَذُمَّتِ الْأُخْرَى ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة:٢٥٣] .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [الحج:١٩] ، الْآيَاتِ .

وَأَكْثَرُ الِاخْتِلَافِ الَّذِي يَؤُولُ إِلَى الْأَهْوَاءِ بَيْنَ الْأُمَّةِ ، مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ ، وَكَذَلِكَ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَاسْتِبَاحَةِ الْأَمْوَالِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، لِأَنَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لَا تَعْتَرِفُ لِلْأُخْرَى بِمَا مَعَهَا مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا تُنْصِفُهَا ، بَلْ تَزِيدُ عَلَى مَا مَعَ نَفْسِهَا مِنَ الْحَقِّ زِيَادَاتٍ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَالْأُخْرَى كَذَلِكَ . وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللهُ مَصْدَرَهُ الْبَغْيَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة:٢١٣] . لِأَنَّ الْبَغْيَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ ، وَذُكِرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ .

---

(١) انظر : صحيح البخاري (حديث ٩٤٦) ، ومسلم (حديث ١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ : نَادَى فِينَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ انْصَرَفَ عَنِ الْأَحْزَابِ : « **أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ** » فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الْوَقْتِ ، فَصَلُّوا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا نُصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ ، وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ ، قَالَ : « **فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ** » .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٧٣٥٢) ، ومسلم (حديث ١٧١٦) من حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ ، فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ ، فَلَهُ أَجْرٌ** » .

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ مَا خَرَّجَاهُ فِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ ، عَنِ الْأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ : « **ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ ، فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** »(١) .

فَأَمَرَهُمْ بِالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ ، مُعَلِّلًا بِأَنَّ سَبَبَ هَلَاكِ الْأَوَّلِينَ إِنَّمَا كَانَ كَثْرَةَ السُّؤَالِ ثُمَّ الِاخْتِلَافَ عَلَى الرُّسُلِ بِالْمَعْصِيَةِ .

ثُمَّ الِاخْتِلَافُ فِي الْكِتَابِ ، مِنَ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِهِ - عَلَى نَوْعَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : اخْتِلَافٌ فِي تَنْزِيلِهِ .

وَالثَّانِي : اخْتِلَافٌ فِي تَأْوِيلِهِ . وَكِلَاهُمَا فِيهِ إِيمَانٌ بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ .

فَالْأَوَّلُ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي تَكَلُّمِ اللهِ بِالْقُرْآنِ وَتَنْزِيلِهِ ، فَطَائِفَةٌ قَالَتْ : هَذَا الْكَلَامُ حَصَلَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ لِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا فِي غَيْرِهِ لَمْ يَقُمْ بِهِ ، وَطَائِفَةٌ قَالَتْ : بَلْ هُوَ صِفَةٌ لَهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ ، لَكِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَكُلٌّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ جَمَعَتْ فِي كَلَامِهَا بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ ، فَآمَنَتْ بِبَعْضِ الْحَقِّ ، وَكَذَّبَتْ بِمَا تَقُولُهُ الْأُخْرَى مِنَ الْحَقِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ .

وَأَمَّا الِاخْتِلَافُ فِي تَأْوِيلِهِ ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ ، فَكَثِيرٌ ، كَمَا فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ ، هَذَا يَنْزِعُ بِآيَةٍ وَهَذَا يَنْزِعُ بِآيَةٍ ، فَكَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ ، فَقَالَ : « **أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ ؟ أَمْ بِهَذَا وُكِّلْتُمْ ؟ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ؟ انْظُرُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاتَّبِعُوهُ ، وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ**

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (حديث ٧٢٨٨) ،ومسلم (حديث ١٣٣٧ص ١٨٣١، ١٨٣٢ ′

فَانْتَهُوا »[١] .

وَفِي رِوَايَةٍ : « **يَا قَوْمُ بِهَذَا ضَلَّتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمِ الْكِتَابَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِتَضْرِبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ، وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا تَشَابَهَ فَآمِنُوا بِهِ** » .

وَفِي رِوَايَةٍ : « **فَإِنَّ الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى اخْتَلَفُوا ، وَإِنَّ الْمِرَاءَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ** » ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ ، مُخَرَّجٌ فِي «الْمَسَانِدِ» وَ«السُّنَنِ» .

وَقَدْ رَوَى أَصْلَ الْحَدِيثِ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ الْأَنْصَارِيِّ ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ : هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا ، فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ ، فَقَالَ : « **إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ** »[٢] .

وَجَمِيعُ أَهْلِ الْبِدَعِ مُخْتَلِفُونَ فِي تَأْوِيلِهِ ، مُؤْمِنُونَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ ، يُقِرُّونَ بِمَا يُوَافِقُ رَأْيَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ ، وَمَا يُخَالِفُهُ ، إِمَّا أَنْ يَتَأَوَّلُوهُ تَأْوِيلًا يُحَرِّفُونَ فِيهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا : هَذَا مُتَشَابِهٌ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ ، فَيَجْحَدُونَ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الْكُفْرِ بِذَلِكَ ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّفْظِ لَا مَعْنًى هُوَ مِنْ جِنْسِ إِيمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة:٥]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ [البقرة:٧٨] ، أَيْ : إِلَّا تِلَاوَةً مِنْ غَيْرِ فَهْمِ مَعْنَاهُ . وَلَيْسَ هَذَا كَالْمُؤْمِنِ الَّذِي فَهِمَ مَا فَهِمَ مِنَ الْقُرْآنِ فَعَمِلَ بِهِ ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ بَعْضُهُ فَوَكَلَ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ ، كَمَا أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ : « **فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ** ، وَمَا

---

(١) حسن : وقد تقدم .

(٢) صحيح : وأخرجه مسلم (حديث ٢٦٦٦) .

جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ » (١) ، فَامْتَثَلَ مَا أَمَرَ بِهِ ﷺ

*****

قَوْلُهُ : «وَدِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَاحِدٌ ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] .وَهُوَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ ، وَبَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ ، وَبَيْنَ الْأَمْنِ وَالْإِيَاسِ » .

ش : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ » (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران:٨٥] ، عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَلَكِنَّ الشَّرَائِعَ تَتَنَوَّعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] .

فَدِينُ الْإِسْلَامِ : هُوَ مَا شَرَعَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَأُصُولُ هَذَا الدِّينِ وَفُرُوعُهُ مَوْرُوثَةٌ عَنِ الرُّسُلِ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ غَايَةَ الظُّهُورِ ، يُمْكِنُ كُلَّ مُمَيِّزٍ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ، وَفَصِيحٍ وَأَعْجَمِيٍّ ، وَذَكِيٍّ وَبَلِيدٍ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ بِأَقْصَرِ زَمَانٍ ، وَإِنَّ يَقَعُ الْخُرُوجُ مِنْهُ بِأَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ ، مِنْ إِنْكَارِ كَلِمَةٍ ، أَوْ تَكْذِيبٍ ، أَوْ مُعَارَضَةٍ ، أَوْ كَذِبٍ عَلَى اللهِ ، أَوِ ارْتِيَابٍ فِي قَوْلِ اللهِ ، أَوْ رَدٍّ لِمَا أَنْزَلَ ، أَوْ شَكٍّ فِيمَا نَفَى اللهُ عَنْهُ الشَّكَّ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِي مَعْنَاهُ .

---

(١) حسن : أخرجه أحمد(٢/ ١٨١) .

(٢) صحيح : وأخرجه البخاري (حديث ٣٤٤٣) ،ومسلم (حديث ٢٣٦٥) (ص ١٨٣٧) ، من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ بلفظ : « ... وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ » هذا لفظ البخاري .

فَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى ظُهُورِ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَسُهُولَةِ تَعَلُّمِهِ ، وَأَنَّهُ يَتَعَلَّمُهُ الْوَافِدُ ثُمَّ يُوَلِّي فِي وَقْتِهِ ، وَاخْتِلَافُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ بِحَسَبِ مَنْ يَتَعَلَّمُ ، فَإِنْ كَانَ بَعِيدَ الْوَطَنِ ، كَضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ النَّجْدِيِّ ، وَوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ ، عَلَّمَهُمْ مَا لَا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ دِينَهُ سَيَنْتَشِرُ فِي الْآفَاقِ ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ مَنْ يُفَقِّهُهُمْ فِي سَائِرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ قَرِيبَ الْوَطَنِ يُمْكِنُهُ الْإِتْيَانُ كُلَّ وَقْتٍ ، بِحَيْثُ يَتَعَلَّمُ عَلَى التَّدْرِيجِ ، أَوْ كَانَ قَدْ عَلِمَ فِيهِ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ - أَجَابَهُ بِحَسَبِ حَالِهِ وَحَاجَتِهِ ، عَلَى مَا تَدُلُّ قَرِينَةُ حَالِ السَّائِلِ ، كَقَوْلِهِ : « **قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ** » .

وَأَمَّا مَنْ شَرَّعَ دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ أُصُولَهُ الْمُسْتَلْزِمَةَ لَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَنْقُولَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ هُوَ بَاطِلٌ ، وَمَلْزُومُ الْبَاطِلِ بَاطِلٌ ، كَمَا أَنَّ لَازِمَ الْحَقِّ حَقٌّ .

وَقَوْلُهُ : « بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ » قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ [النساء:١٧١] . ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة:٧٧] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة:٨٧، ٨٨] .

وَفِي «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها : أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا آكُلُ اللَّحْمَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ

ﷺ ، فَقَالَ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا ؟! لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ ، وَآكُلُ اللَّحْمَ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[(١)] .

وَفِي غَيْرِ «الصَّحِيحَيْنِ» : سَأَلُوا عَنْ عِبَادَتِهِ فِي السِّرِّ ، فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا .

وَقَوْلُهُ : « وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ » تَقَدَّمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُوصَفَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ ، فَلَا يُقَالُ : سَمْعٌ كَسَمْعِنَا ، وَلَا بَصَرٌ كَبَصَرِنَا ، وَنَحْوُهُ ، وَمِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ ، فَلَا يُنْفَى عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ : رَسُولُهُ ﷺ ، فَإِنَّ ذَلِكَ تَعْطِيلٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْمَعْنَى .

وَنَظِيرُ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ فِيمَا تَقَدَّمَ : « وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ » . وَهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] . فَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ رَدٌّ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ .

وَقَوْلُهُ : « وَبَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ » تَقَدَّمَ الْكَلَامُ أَيْضًا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَأَنَّ الْعَبْدَ غَيْرُ مَجْبُورٍ عَلَى أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَاتِ الْمُرْتَعِشِ ، وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ بِالرِّيَاحِ وَغَيْرِهَا ، وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةً لِلْعَبْدِ ، بَلْ هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ وَكَسْبُهُ وَخَلْقُ اللهِ تَعَالَى .

---

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم (حديث ١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا ، واللفظ لمسلم ، وهو عند البخاري أيضًا بنحوه من حديث أنس أيضًا (٥٠٦٣) .

أما حديث عائشة رضي الله عنها فأخرجه البخاري (حديث ٧٣٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) ولفظه ـــ واللفظ لمسلم : عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرًا فَتَرَخَّصَ فِيهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَكَأَنَّهُمْ كَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ : « **مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ فَكَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً** » .

وَقَوْلُهُ : « وَبَيْنَ الْأَمْنِ وَالْإِيَاسِ » تَقَدَّمَ الْكَلَامُ أَيْضًا عَلَى هَذَا الْـمَعْنَى ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ خَائِفًا مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ ، رَاجِيًا رَحْمَتَهُ ، وَأَنَّ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ بِمَنْزِلَةِ الْجَنَاحَيْنِ لِلْعَبْدِ ، فِي سَيْرِهِ إِلَى الله تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ .

*****

قَوْلُهُ : « فَهَذَا دِينُنَا وَاعْتِقَادُنَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَنَحْنُ بُرَآءُ إِلَى الله تَعَالَى مِنْ كُلِّ مَنْ خَالَفَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ ، وَنَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَيَخْتِمَ لَنَا بِهِ ، وَيَعْصِمَنَا مِنَ الْأَهْوَاءِ الْـمُخْتَلِفَةِ ، وَالْآرَاءِ الْـمُتَفَرِّقَةِ ، وَالْـمَذَاهِبِ الرَّدِيَّةِ ، مِثْلِ الْـمُشَبِّهَةِ ، وَالْـمُعْتَزِلَةِ ، وَالْجَهْمِيَّةِ ، وَالْجَبْرِيَّةِ ، وَالْقَدَرِيَّةِ ، وَغَيْرِهَا ، مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ ، وَحَالَفُوا الضَّلَالَةَ ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بُرَآءُ ، وَهُمْ عِنْدَنَا ضُلَّالٌ وَأَرْدِيَاءُ . وَبِالله الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ » .

ش : الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : « فَهَذَا » إِلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ الْكِتَابِ إِلَى هُنَا .

وَالْـمُشَبِّهَةُ : هُمُ الَّذِينَ شَبَّهُوا الله سُبْحَانَهُ بِالْخَلْقِ فِي صِفَاتِهِ ، وَقَوْلُهُمْ عَكْسُ قَوْلِ النَّصَارَى ، فَإِنَّ النَّصَارَى شَبَّهُوا الْـمَخْلُوقَ - وَهُوَ عِيسَى عليه السلام - بِالْخَالِقِ تَعَالَى ، وَجَعَلُوهُ إِلَهًا ، وَهَؤُلَاءِ شَبَّهُوا الْخَالِقَ بِالْـمَخْلُوقِ ، كَدَاوُدَ الْجَوَارِبِيِّ وَأَشْبَاهِهِ .

وَالْـمُعْتَزِلَةُ : هُمْ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ ، وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ الْغَزَّالُ وَأَصْحَابُهُمَا ، سُمُّوا بِذَلِكَ لَمَّا اعْتَزَلُوا الْجَمَاعَةَ بَعْدَ مَوْتِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ الله تَعَالَى ، فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ ، وَكَانُوا يَجْلِسُونَ مُعْتَزِلِينَ ، فَيَقُولُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ : أُولَئِكَ الْـمُعْتَزِلَةُ .

وَقِيلَ : إِنَّ وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ هُوَ الَّذِي وَضَعَ أُصُولَ مَذْهَبِ الْـمُعْتَزِلَةِ ، وَتَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ تِلْمِيذُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ هَارُونَ الرَّشِيدِ صَنَّفَ لَهُمْ أَبُو

الْهُذَيْلِ كِتَابَيْنِ ، وَبَيَّنَ مَذْهَبَهُمْ ، وَبَنَى مَذْهَبَهُمْ عَلَى الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ ، الَّتِي سَمَّوْهَا : الْعَدْلَ ، وَالتَّوْحِيدَ ، وَإِنْفَاذَ الْوَعِيدِ ، وَالْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ! وَلَبَّسُوا فِيهَا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، إِذْ شَأْنُ الْبِدَعِ هَذَا ، اشْتِمَالُهَا عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ .

وَهُمْ مُشَبِّهَةُ الْأَفْعَالِ ؛ لِأَنَّهُمْ قَاسُوا أَفْعَالَ الله تَعَالَى عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ ، وَجَعَلُوا مَا يَحْسُنُ مِنَ الْعِبَادِ يَحْسُنُ مِنْهُ ، وَمَا يَقْبُحُ مِنَ الْعِبَادِ يَقْبُحُ مِنْهُ ! وَقَالُوا : يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا ، وَلَا يَجُوزَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا ، بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ !! فَإِنَّ السَّيِّدَ مِنْ بَنِي آدَمَ لَوْ رَأَى عَبِيدَهُ تَزْنِي بِإِمَائِهِ وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، لَعُدَّ إِمَّا مُسْتَحْسِنًا لِلْقَبِيحِ ، وَإِمَّا عَاجِزًا ، فَكَيْفَ يَصِحُّ قِيَاسُ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ ؟! وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ .

فَأَمَّا الْعَدْلُ : فَسَتَرُوا تَحْتَهُ نَفْيَ الْقَدَرِ ، وَقَالُوا : إِنَّ الله لَا يَخْلُقُ الشَّرَّ ، وَلَا يَقْضِي بِهِ ، إِذْ لَوْ خَلَقَهُ ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ يَكُونُ ذَلِكَ جَوْرًا !! وَاللهُ تَعَالَى عَادِلٌ لَا يَجُورُ . وَيَلْزَمُهُمْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْفَاسِدِ أَنَّ الله تَعَالَى يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُهُ ، فَيُرِيدُ الشَّيْءَ وَلَا يَكُونُ ، وَلَازِمُهُ وَصْفُهُ بِالْعَجْزِ ! تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ .

وَأَمَّا التَّوْحِيدُ : فَسَتَرُوا تَحْتَهُ الْقَوْلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، إِذْ لَوْ كَانَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ ، لَزِمَ تَعَدُّدُ الْقُدَمَاءِ !! وَيَلْزَمُهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْفَاسِدِ أَنَّ عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسَائِرَ صِفَاتِهِ مَخْلُوقَةٌ ، أَوِ التَّنَاقُضُ !

وَأَمَّا الْوَعِيدُ : فَقَالُوا : إِذَا أَوْعَدَ بَعْضَ عَبِيدِهِ وَعِيدًا فَلَا يَجُوزُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ وَيُخْلِفَ وَعِيدَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، فَلَا يَعْفُو عَمَّنْ يَشَاءُ ، وَلَا يَغْفِرُ لِمَنْ يُرِيدُ ، عِنْدَهُمْ !!

وَأَمَّا الْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ : فَعِنْدَهُمْ أَنَّ مَنِ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ ،

وَلَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ !! .

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ : وَهُوَ أَنَّهُمْ قَالُوا : عَلَيْنَا أَنْ نَأْمُرَ غَيْرَنَا بِمَا أُمِرْنَا بِهِ ، وَأَنْ نُلْزِمَهُ بِمَا يَلْزَمُنَا ، وَذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَضَمَّنُوهُ أَنَّهُ يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْأَئِمَّةِ بِالْقِتَالِ إِذَا جَارُوا !! وَقَدْ تَقَدَّمَ جَوَابُ هَذِهِ الشُّبَهِ الْخَمْسِ فِي مَوَاضِعِهَا .

وَعِنْدَهُمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ مِنَ الْأُصُولِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي لَا يُعْلَمُ صِحَّةُ السَّمْعِ إِلَّا بَعْدَهَا ، وَإِذَا اسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ سَمْعِيَّةٍ ، إِنَّمَا يَذْكُرُونَهَا لِلاعْتِضَادِ بِهَا ، لَا لِلاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ، فَهُمْ يَقُولُونَ : لَا نُثْبِتُ هَذِهِ بِالسَّمْعِ ، بَلِ الْعِلْمُ بِهَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعِلْمِ بِصِحَّةِ النَّقْلِ ! فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَذْكُرُهَا فِي الْأُصُولِ ، إِذْ لَا فَائِدَةَ فِيهَا عِنْدَهُمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُهَا لِيُبَيِّنَ مُوَافَقَةَ السَّمْعِ لِلْعَقْلِ ، وَلِإِينَاسِ النَّاسِ بِهَا ، لَا لِلاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ! وَالْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ فِيهِ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشُّهُودِ الزَّائِدَيْنِ عَلَى النِّصَابِ ! وَالْمَدَدِ اللَّاحِقِ بِعَسْكَرٍ مُسْتَغْنٍ عَنْهُمْ ! وَبِمَنْزِلَةِ مَنْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ الشَّرْعَ مَا يَهْوَاهُ !! كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ إِذَا وَافَقَ هَوَاهُ ، وَيُخَالِفُهُ إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ ، فَإِذَا أَنْتَ لَا تُثَابُ عَلَى مَا وَافَقْتَهُ مِنَ الْحَقِّ ، وَتُعَاقَبُ عَلَى مَا تَرَكْتَهُ مِنْهُ ، لِأَنَّكَ إِنَّمَا اتَّبَعْتَ هَوَاكَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ، وَكَمَا أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، وَالْعَمَلُ يَتْبَعُ قَصْدَ صَاحِبِهِ وَإِرَادَتَهُ ، فَالِاعْتِقَادُ الْقَوِيُّ يَتْبَعُ أَيْضًا عِلْمَ ذَلِكَ وَتَصْدِيقَهُ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَابِعًا لِلْإِيمَانِ ، كَانَ مِنَ الْإِيمَانِ ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ إِذَا كَانَ عَنْ نِيَّةٍ صَالِحَةٍ، كَانَ صَالِحًا ، وَإِلَّا فَلَا ، فَقَوْلُ أَهْلِ الْإِيمَانِ التَّابِعُ لِغَيْرِ الْإِيمَانِ ، كَعَمَلِ أَهْلِ الصَّلَاحِ التَّابِعِ لِغَيْرِ قَصْدِ أَهْلِ الصَّلَاحِ . وَفِي الْمُعْتَزِلَةِ زَنَادِقَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَفِيهِمْ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

وَالْجَهْمِيَّةُ: هُمُ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ الترمذي، وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ نَفْيَ الصِّفَاتِ وَالتَّعْطِيلَ، وَهُوَ أَخَذَ ذَلِكَ عَنِ الْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ [١]، الَّذِي ضَحَّى بِهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْقَسْرِيُّ بِوَاسِطَ، فَإِنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ فِي يَوْمِ عِيدِ الْأَضْحَى، وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، ضَحُّوا، تَقَبَّلَ اللهُ ضَحَايَاكُمْ، فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، فَإِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَعْدُ عُلُوًّا كَبِيرًا! ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ اسْتِفْتَاءِ عُلَمَاءِ زَمَانِهِ، وَهُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وَكَانَ الْجَهْمُ بَعْدَهُ بِخُرَاسَانَ، فَأَظْهَرَ مَقَالَتَهُ هُنَاكَ، وَتَبِعَهُ عَلَيْهَا نَاسٌ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا شَكًّا فِي رَبِّهِ! وَكَانَ ذَلِكَ لِمُنَاظَرَتِهِ قَوْمًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يُقَالُ لَهُمُ السُّمَنِيَّةُ، مِنْ فَلَاسِفَةِ الْهِنْدِ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا سِوَى الْحِسِّيَّاتِ، قَالُوا لَهُ: هَذَا رَبُّكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ، هَلْ يُرَى أَوْ يُشَمُّ أَوْ يُذَاقُ أَوْ يُلْمَسُ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالُوا: هُوَ مَعْدُومٌ!! فَبَقِيَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لَا يَعْبُدُ شَيْئًا، ثُمَّ لَمَّا خَلَا قَلْبُهُ مِنْ مَعْبُودٍ يُؤَلِّهُهُ، نَقَشَ الشَّيْطَانُ اعْتِقَادًا نَحَتَهُ فِكْرُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ!! وَنَفَى جَمِيعَ الصِّفَاتِ، وَاتَّصَلَ بِالْجَعْدِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْجَعْدَ كَانَ قَدِ اتَّصَلَ بِالصَّابِئَةِ الْفَلَاسِفَةِ مِنْ أَهْلِ حَرَّانَ، وَأَنَّهُ أَيْضًا أَخَذَ شَيْئًا عَنْ بَعْضِ الْيَهُودِ الْمُحَرِّفِينَ لِدِينِهِمْ، الْمُتَّصِلِينَ بِلَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ السَّاحِرِ الَّذِي سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ. فَقُتِلَ جَهْمٌ بِخُرَاسَانَ، قَتَلَهُ سَلْمُ بْنُ أَحْوَزَ، وَلَكِنْ كَانَتْ قَدْ فَشَتْ مَقَالَتُهُ فِي النَّاسِ، وَتَقَلَّدَهَا بَعْدَهُ الْمُعْتَزِلَةُ، وَلَكِنْ كَانَ الْجَهْمُ أَدْخَلَ فِي التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ يُنْكِرُ الْأَسْمَاءَ حَقِيقَةً، وَهُمْ لَا يُنْكِرُونَ الْأَسْمَاءَ بَلِ الصِّفَاتِ.

---

(١) قصة التضحية هذه ضعيفة.

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي الْجَهْمِيَّةِ : هَلْ هُمْ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَمْ لَا ؟ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ : وَمِمَّنْ قَالَ إِنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ .

وَإِنَّمَا اشْتَهَرَتْ مَقَالَةُ الْجَهْمِيَّةِ مِنْ حِينِ مِحْنَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ ، فَإِنَّهُ مِنْ إِمَارَةِ الْمَأْمُونِ قَوُوا وَكَثُرُوا ، فَإِنَّهُ قَدْ أَقَامَ بِخُرَاسَانَ مُدَّةً وَاجْتَمَعَ بِهِمْ ، ثُمَّ كَتَبَ بِالْمِحْنَةِ مِنْ طَرَسُوسَ سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ وَفِيهَا مَاتَ ، وَرَدُّوا الْإِمَامَ أَحْمَدَ إِلَى الْحَبْسِ بِبَغْدَادَ إِلَى سَنَةِ عِشْرِينَ ، وَفِيهَا كَانَتْ مِحْنَتُهُ مَعَ الْمُعْتَصِمِ وَمُنَاظَرَتُهُ لَهُمْ بِالْكَلَامِ ، فَلَمَّا رَدَّ عَلَيْهِمْ مَا احْتَجُّوا بِهِ عَلَيْهِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّ طَلَبَهُمْ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوَافِقُوهُمْ وَامْتِحَانَهُمْ إِيَّاهُمْ : جَهْلٌ وَظُلْمٌ ، وَأَرَادَ الْمُعْتَصِمُ إِطْلَاقَهُ ، أَشَارَ عَلَيْهِ مَنْ أَشَارَ بِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ ضَرْبُهُ ، لِئَلَّا تَنْكَسِرَ حُرْمَةُ الْخِلَافَةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ! فَلَمَّا ضَرَبُوهُ ، قَامَتِ الشَّنَاعَةُ فِي الْعَامَّةِ ، وَخَالَفُوا ، فَأَطْلَقُوهُ ، وَقِصَّتُهُ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ .

وَمِمَّا انْفَرَدَ بِهِ جَهْمٌ : أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ تَفْنَيَانِ ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ فَقَطْ ، وَالْكُفْرَ هُوَ الْجَهْلُ فَقَطْ ، وَأَنَّهُ لَا فِعْلَ لِأَحَدٍ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّ النَّاسَ إِمَا تُنْسَبُ إِلَيْهِمْ أَفْعَالُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ، كَمَا يُقَالُ : تَحَرَّكَتِ الشَّجَرَةُ ، وَدَارَ الْفَلَكُ ، وَزَالَتِ الشَّمْسُ ! وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

عَجِبْتُ لِشَيْطَانٍ دَعَا النَّاسَ جَهْرَةً ... إِلَى النَّارِ وَاشْتُقَّ اسْمُهُ مِنْ جَهَنَّمِ

وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ رحمه الله ، لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ ؟ فَقَالَ : لَعَنَ اللهُ عَمْرَو بْنَ عُبَيْدٍ ، هُوَ فَتَحَ عَلَى النَّاسِ الْكَلَامَ فِي هَذَا .

وَالْجَبْرِيَّةُ : أَصْلُ قَوْلِهِمْ مِنَ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ بِمَنْزِلَةِ طُولِهِ وَلَوْنِهِ ! وَهُمْ عَكْسُ الْقَدَرِيَّةِ نُفَاةِ الْقَدَرِ ، فَإِنَّ الْقَدَرِيَّةَ : إِنَّمَا نُسِبُوا إِلَى

الْقَدَرِ لِنَفْيِهِمْ إِيَّاهُ ، كَمَا سُمِّيَتِ الْـمُرْجِئَةُ؛ لِنَفْيِهِمُ الْإِرْجَاءَ ، وَأَنَّهُ لَا أَحَدَ مُرْجَأٌ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ تُسَمَّى الْجَبْرِيَّةُ « قَدَرِيَّةً » لِأَنَّهُمْ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ ، وَكَمَا يُسَمَّى الَّذِينَ لَا يَجْزِمُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، بَلْ يَغْلُونَ فِي إِرْجَاءِ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى الْأَنْوَاعِ ، فَلَا يَجْزِمُونَ بِثَوَابِ مَنْ تَابَ ، كَمَا لَا يَجْزِمُونَ بِعُقُوبَةِ مَنْ لَمْ يَتُبْ ، وَكَمَا لَا يُجْزَمُ لِمُعَيَّنٍ . وَكَانَتِ الْـمُرْجِئَةُ الْأُولَى يُرْجِئُونَ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا ، وَلَا يَشْهَدُونَ بِإِيمَانٍ وَلَا كُفْرٍ !! .

وَهَذِهِ الْبِدَعُ الْـمُتَقَابِلَةُ حَدَثَتْ مِنَ الْفِتَنِ الْـمُفَرِّقَةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ ، كَمَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْـمُسَيَّبِ ، قَالَ : وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ الْأُولَى ، يَعْنِي مَقْتَلَ عُثْمَانَ ، فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ أَحَدًا ، ثُمَّ وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ يعني الحرة فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ الْحُدَيْبِيَةِ أَحَدًا ،ثُمَّ وَقَعَتِ الثَّالِثَةُ ، فَلَمْ تَرْتَفِعْ وَلِلنَّاسِ طَبَاخٌ [1]، أَيْ عَقْلٌ وَقُوَّةٌ .

فَالْخَوَارِجُ وَالشِّيعَةُ حَدَثُوا فِي الْفِتْنَةِ الْأُولَى ، وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْـمُرْجِئَةُ فِي الْفِتْنَةِ الثَّانِيَةِ ، وَالْجَهْمِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ بَعْدَ الْفِتْنَةِ الثَّالِثَةِ ، فَصَارَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا يُقَابِلُونَ الْبِدْعَةَ بِالْبِدْعَةِ ، أُولَئِكَ غَلَوْا فِي عَلِيٍّ ، وَأُولَئِكَ كَفَّرُوهُ ! وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي الْوَعِيدِ ، حَتَّى خَلَّدُوا بَعْضَ الْـمُؤْمِنِينَ ، وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي الْوَعْدِ حَتَّى نَفَوْا بَعْضَ الْوَعِيدِ أَعْنِي الْـمُرْجِئَةَ ! وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي التَّنْزِيهِ حَتَّى نَفَوُا الصِّفَاتِ ، وَهَؤُلَاءِ غَلَوْا فِي الْإِثْبَاتِ ، حَتَّى وَقَعُوا فِي التَّشْبِيهِ ! وَصَارُوا يَبْتَدِعُونَ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْـمَسَائِلِ مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ ، وَيُعْرِضُونَ عَنِ الْأَمْرِ الْـمَشْرُوعِ ،

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا عقب (حديث ٤٠٢٤) من طريق الليث عن يحيى بن سعد عن سعيد ابن المسيب .

وقال الحافظ في « الفتح » : لم يقع لي هذا الأثر من طريق الليث وصله أبو نعيم (في المستخرج) من طريق أحمد بن حنبل عن يحيى بن سعيد القطان عن يحيى بن سعيد الأنصاري نحوه .

وَفِيهِمْ مَنِ اسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ : الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالصَّابِئِينَ ، فَإِنَّهُمْ قَرَؤوا كُتُبَهُمْ ، فَصَارَ عِنْدَهُمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ مَا أَدْخَلُوهُ فِي مَسَائِلِهِمْ وَدَلَائِلِهِمْ ، وَغَيَّرُوهُ فِي اللَّفْظِ تَارَةً ، وَفِي الْمَعْنَى أُخْرَى ! فَلَبَّسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَكَتَمُوا حَقًّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ ، فَتَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا وَتَكَلَّمُوا حِينَئِذٍ فِي الْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَالتَّجْسِيمِ ، نَفْيًا وَإِثْبَاتًا .

وَسَبَبُ ضَلَالِ هَذِهِ الْفِرَقِ وَأَمْثَالِهِمْ عُدُولُهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ بِاتِّبَاعِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨]

فَوَحَّدَ لَفْظَ : « صِرَاطِهِ » وَ « سَبِيلِهِ » ، وَجَمَعَ : « السُّبُلَ » الْمُخَالِفَةَ لَهُ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ، وَقَالَ : « **هَذَا سَبِيلُ اللهِ** » ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ ، وَقَالَ : « **هَذِهِ سُبُلٌ ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ** » ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣](١) .

وَمِنْ هَاهُنَا يُعْلَمُ أَنَّ اضْطِرَارَ الْعَبْدِ إِلَى سُؤَالِ هِدَايَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَوْقَ

---

(١) سنده حسن : أخرجه أحمد (المسند ١/ ٤٣٥، ٤٦٥) ، والدرامي (١/ ٦٧) وغيرهم ، وله طريق آخر عند عبد بن حميد (المنتخب بتحقيقي ١١٣٩) ، وانظر ما ذكره الحافظ بن كثير رحمه الله عند تفسير الآية الكريمة (٢/ ١٩٠) .

وقد أشار بعض العلماء إلى أن الصواب فيه الوقف ؛ فالله أعلم .

كُلِّ ضَرُورَةٍ ، وَلِهَذَا شَرَعَ الله تَعَالَى فِي الصَّلَاةِ قِرَاءَةَ أُمِّ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ، إِمَّا فَرْضًا أَوِ إِيجَابًا ، عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ ، لِاحْتِيَاجِ الْعَبْدِ إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ الْقَدْرِ ، الْمُشْتَمِلِ عَلَى أَشْرَفِ الْمَطَالِبِ وَأَجَلِّهَا . فَقَدْ أَمَرَنَا الله تَعَالَى أَنْ نَقُولَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٦، ٧] . وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ** »(١) .

وَثَبَتَ فِي «**الصَّحِيحِ**» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ** » قَالُوا : يَا رَسُولَ الله : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ :« **فَمَنْ ؟!** »(٢) .

قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ : مَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُبَّادِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى ، فَلِهَذَا تَجِدُ أَكْثَرَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ ، مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ من شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ ، حَتَّى إِنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ يَقْرَؤُونَ كُتُبَ شُيُوخِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَيَسْتَحْسِنُونَ طَرِيقَتَهُمْ ، وَكَذَا شُيُوخُ الْمُعْتَزِلَةِ يَمِيلُونَ إِلَى الْيَهُودِ ، وَيُرَجِّحُونَهُمْ عَلَى النَّصَارَى ، وَأَكْثَرُ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ الْعُبَّادِ ، مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَنَحْوِهِمْ فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى ، وَلِهَذَا يَمِيلُونَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ وَالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَشُيُوخُ هَؤُلَاءِ يَذُمُّونَ الْكَلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَشُيُوخُ أُولَئِكَ يَعِيبُونَ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ ، وَيُصَنِّفُونَ فِي ذَمِّ السَّمَاعِ وَالْوَجْدِ وَكَثِيرٍ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا هَؤُلَاءِ .

---

(١) **حسن بمجموع طرقه** :أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨، ٣٧٩) ، والترمذي (٢٩٥٤) ، وغيرهم من حديث عدي بن حاتم ﷺ مرفوعًا ،وله شواهد .

(٢) **صحيح**:أخرجه البخاري (حديث ٣٤٥٦) ، ومسلم (حديث ٢٦٦٩) ، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعًا .

وَلِفِرَقِ الضُّلَّالِ فِي الْوَحْيِ طَرِيقَتَانِ : طَرِيقَةُ التَّبْدِيلِ ، وَطَرِيقَةُ التَّجْهِيلِ ، أَمَّا أَهْلُ التَّبْدِيلِ : فَهُمْ نَوْعَانِ : أَهْلُ الْوَهْمِ وَالتَّخْيِيلِ ، وَأَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ .

فَأَهْلُ الْوَهْمِ وَالتَّخْيِيلِ : هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَخْبَرُوا عَنِ اللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِأُمُورٍ غَيْرِ مُطَابِقَةٍ لِلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ ! لَكِنَّهُمْ خَاطَبُوهُمْ بِمَا يَتَخَيَّلُونَ بِهِ وَيَتَوَهَّمُونَ بِهِ أَنَّ اللهَ شَيْءٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ ، وَأَنَّ الْأَبْدَانَ تُعَادُ ، وَأَنَّ لَهُمْ نَعِيمًا مَحْسُوسًا ، وَعِقَابًا مَحْسُوسًا ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ ، لِأَنَّ مَصْلَحَةَ الْجُمْهُورِ فِي ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا ، فَهُوَ كَذِبٌ لِمَصْلَحَةِ الْجُمْهُورِ !! وَقَدْ وَضَعَ ابْنُ سِينَا وَأَمْثَالُهُ قَانُونَهُمْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ .

وَأَمَّا أَهْلُ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ : فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَقْصِدُوا بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ مَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَإِنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ هُوَ مَا عَلِمْنَاهُ بِعُقُولِنَا ! ثُمَّ يَجْتَهِدُونَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ إِلَى مَا يُوَافِقُ رَأْيَهُمْ بِأَنْوَاعِ التَّأْوِيلَاتِ !! وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَجْزِمُونَ بِالتَّأْوِيلِ ، بَلْ يَقُولُونَ : يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ كَذَا ، وَغَايَةُ مَا مَعَهُمْ إِمْكَانُ احْتِمَالِ اللَّفْظِ .

وَأَمَّا أَهْلُ التَّجْهِيلِ وَالتَّضْلِيلِ : الَّذِينَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ : إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ جَاهِلُونَ ضَالُّونَ ، لَا يَعْرِفُونَ مَا أَرَادَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْآيَاتِ وَأَقْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ ! وَيَقُولُونَ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّصِّ تَأْوِيلٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ، لَا يَعْلَمُهُ جِبْرِيلُ وَلَا مُحَمَّدٌ وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَضْلًا عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ يَقْرَأُ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠] .

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] .

وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعَانِيَ هَذِهِ الْآيَاتِ ! بَلْ مَعْنَاهَا الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا اللهُ

تَعَالَى !! وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ السَّلَفِ !! .

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْـمُرَادَ بِهَا خِلَافُ مَدْلُولِهَا الظَّاهِرِ الْـمَفْهُومِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ ، كَمَا لَا يُعْلَمُ وَقْتُ السَّاعَةِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ تُجْرَى عَلَى ظَاهِرِهَا وَتُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا !! وَمَعَ هَذَا ، فَلَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إِلَّا الله ، فَيَتَنَاقَضُونَ حَيْثُ أَثْبَتُوا لَهَا تَأْوِيلًا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا ، وَقَالُوا مَعَ هَذَا : إِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا !! وَهَؤُلَاءِ مَشْتَرِكُونَ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يُبَيِّنِ الْـمُرَادَ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَجْعَلُونَهَا مُشْكِلَةً أَوْ مُتَشَابِهَةً ، وَلِهَذَا يَجْعَلُ كُلُّ فَرِيقِ الْـمُشْكِلَ مِنْ نُصُوصِهِ غَيْرَ مَا يَجْعَلُهُ الْفَرِيقُ الْآخَرُ مُشْكِلًا .

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَمْ يَعْلَمْ مَعَانِيَهَا أَيْضًا ! وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : عَلِمَهَا وَلَمْ يُبَيِّنْهَا ، بَلْ أَحَالَ فِي بَيَانِهَا عَلَى الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَعَلَى مَنْ يَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ تِلْكَ النُّصُوصِ !! فَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَعلَم أو لم يُعلِّم ، بل نحن عرفنا الحقِّ بعقولنا ، ثم اجتهدنا في حمل كلام الرسول عَلَى مَا يُوَافِقُ عُقُولَنَا ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْعَقْلِيَّاتِ !! وَلَا يَفْهَمُونَ السَّمْعِيَّاتِ !! وَكُلُّ ذَلِكَ ضَلَالٌ وَتَضْلِيلٌ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .

نَسْأَلُ الله السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْوَاهِيَةِ ، الْـمُفْضِيَةِ بِقَائِلِهَا إِلَى الْهَاوِيَةِ .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ
وَسَلَامٌ عَلَى الْـمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ

*****

فهرست

فهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

❊❊❊❊❊